الناشر: مركز العميد الدولي للبحوث و الدراسات / قسم النشر

الاشراف: أ.د. شوقي مصطفى الموسوي

المتابعة و التنفيذ:رضوان عبد الهادي السلامي

الادارة الفنية :حسين فاضل الحلو / ثائر فائق هادي رضا / زين العابدين عادل الوكيل

التصميم:حسين عقيل ابو غريب

عدد النسخ:٢٥٠

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق العراقية ٢١٥٨ لسنة ٢٠١٩م

الرمز البريدي للعتبة العباسية المقدسة:٥٦٠٠١

صندوق البريد (ص.ب) :٢٣٢

Tel: +964 760 235 5555 **Mobile:** +964 7602323337

http: //alameed.alkafeel.net

Email: alameed@alkafeel.net

العتبة العباسية المقدسة. مركز العميد الدولي للبحوث والدراسات ،مؤلف.

وقائع مؤتمر العميد العلمي الثالث. الجزء الأول.-الطبعة الاولى.- كربلاء [العراق] : العتبة العباسية المقدسة، مركز العميد الدولي للبحوث والدراسات، ١٤٤٠ هـ = ٢٠١٩.

٢مجلد ؛ ٢٤ سم

يتضمن إرجاعات ببليوجرافية.

١. محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، نبي الاسلام، 53 قبل الهجرة-١١ هجري--عائلة.٢. اهل بيت الرسول عليهم السلام (شيعة)--تراجم.. أ. العنوان.

LCC : BP76.8 .A8396 2019

مركز الفهرسة ونظم المعلومات التابع لمكتبة ودار مخطوطات العتبة العباسية المقدسة

وقائع مؤتمر

العميد العلمي العالمي الثالث

المنعقد تحت شعار

نلتقي في رحاب العميد لنرتقي

وبعنوان

النبي المختار صلى الله عليه وآله وسلم وآله الأطهار عليهم السلام

منبع العلوم الإنسانية ومدادها

للمدة من ١٧-١٨ أيلول ٢٠١٥م

الجزء الأول

اللجنة العلمية

أ.د. رياض طارق العميدي / العراق/ جامعة بابل

أ.د. حسن عبد الله السماك/ العراق/ جامعة القادسية

أ.د. حميد حمدان التميمي / العراق/ جامعة البصرة

أ.د. خالد محرّم/ لبنان

أ.د. رياض شنته جبر/ العراق/جامعة ذي قار

أ.د. عبد الكريم الأعرجي/ العراق/ جامعة بغداد

أ.د. غسان حميد عبد المجيد / العراق/ وزارة التعليم العالي والبحث العلمي.

أ.د. محمد بن ناصر المحروقي/ سلطنة عُمان.

أ.د. محمد عبد الحسين الخطيب/ العراق/ جامعة كربلاء

أ.د. لؤي أدوارد جورج/ العراق/ جامعة بغداد

أ.د. مشتاق عبّاس معن/ العراق/ جامعة بغداد

أ.م.د أنسية خزعلي/ إيران

أ.م.د حامد العبد الله/ الكويت

أ.م.د ستار الأعرجي/ العراق/ جامعة الكوفة

اللجنة التحضيرية

أ.د. كريم حسين ناصح	رئيسا
أ.د. سرحان جفات سلمان	عضوا
أ.د. عادل نذير بيري	عضوا
أ.د. علي كاظم المصلاوي	عضوا
أ.م.د. علاء جبر الموسوي	عضوا
أ.م.د. شوقي مصطفى الموسوي	عضوا
أ.م.د. احمد صبيح الكعبي	عضوا
أ.م.د. نورس محمد شهيد الدهان	عضوا
أ.م. حيدر غازي الموسوي	عضوا
رضوان عبد الهادي عبد الخضر	مقررا

بسم الله الرحمن الرحيم
يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ
وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ
صدق الله العلي العظيم

المجادلة (١١)

المحتويات

في البدء..... ٧

الكمال المعرفيّ دليل الإمامة المعارف اللّغويّة أنموذجٌ ٩

دور الامام الجواد عليه السلام في بلورة التحولات الفكرية والثقافية في عصره..... ٦١

الأراجيز المنسوبة إلى أبي الفضل العباس عليه السلام في واقعة الطف (قراءة في المضامين الإيمانية والعقائدية)..... ٨٥

التوجيهات النبوية في إثراء العلوم الانسانية ونشرها من خلال الميادين التربوية..... ١١٩

الفكر الجغرافي في كتاب نهج البلاغة..... ١٦٥

الهجرة في مفهوم أمير المؤمنين الامام علي عليه السلام..... ١٧٩

السِّماتُ العمليَّةُ في شخصيَّةِ الرَّسول محمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم ٢٠٧

العلاقة بين الدال والمدلول عند الامام جعفر الصادق عليه السلام ٢٢٩

أَثَرُ المَشْرُوع الفِكْرِيّ عِنْدَ الإمامِ عليّ الهَادِي عليه السلام فِي نَشْرِ العُلُوم الدِّيْنِيَّةِ والأَخْلَاقِيّةِ: قراءةٌ تحليلِيّةٌ)..... ٢٥٣

كلامُ أهلِ البيتِ عليهم السلام شاهدا لغويا وبلاغيا_ معجم الطراز الأول لابن معصوم المدني (١١٢٠هـ) اختيارا..... ٢٨١

تكامل الشخصية النبوية على لسان الإمام علي عليه السلام ٣٠٧

ثنائية الإيجاب والسلب في رؤية أهل البيت للشعر وأصحابه..... ٣٣٣

الفكر الاقتصادي في مدرسة اهل البيت عليهم السلام..... ٣٦١

بسم الله الرحمن الرحيم

في البدء...

الحمد لله الذي بعث محمداً وآل بيته الكرام رحمة للعالمين ،وجعل بهم النجاة من غياهب الجهل وشروره ،ورزقنا الانتماء لهم والولاية ،وصلى الله عليهم جميعًا ورحمة الله وبركاته .... وبعد ..

يقدم مركز العميد الدولي للبحوث والدراسات وقسم النشر فيه مجموعة طيبة من البحوث الاكاديمية استثارها فكر أهل البيت عليهم السلام فراحت أقلام الباحثين بمختلف المجالات الانسانية تستقرأ ذلك الفكر وترصد آثاره العظيمة التي تركها في البشرية جمعاء. منطلقين من مبدأ أنَّ أهل البيت عليهم السلام هم الرحمة الالهية التي بعثها الله تعالى لينقذ البشرية ويهديها سواء السبيل. فكل ما أُثر عنهم وثبتت صحته هو رحمة محضة ،وعلينا ان نفهمها ونعي أبعادها ، وكلما تقدم الزمن كان علينا عرض ما توصلنا له على تلك المقولات العظيمة لنزداد إيمانًا بهم ، ولنزداد معرفة وحكمة ،ولنوقن أشد الايقان انهم عليهم السلام منبع العلوم ومدادها الذي لا ينضب .

وهذه المجموعة من البحوث حفلت بها وقائع مؤتمر العميد العلمي الثالث المعقود تحت عنوان ((النبي المختار(صلى الله عليه وآله وسلم) وآله الأطهار(عليهم السلام) منبع العلوم الانسانية ومدادها))،وقد توزعت اختصاصاتها المعرفية وحمولاتها الثقافية ..اذ كان مجال اللغة وآدابها ميدانًا رحبًا لعرض آثار أهل البيت عليهم السلام في هذه العلوم فضلا عن التاريخ والاجتماع والاقتصاد والعلوم التربوية والنفسية.

ومثلما تنوعت هذه البحوث تنوع انتماء كاتبيها فنجد باحثين من سلطنة عمان وجمهورية مصر العربية ،ومن جمهورية إيران الاسلامية فضلا عن اساتذة الجامعات العراقية العرقية كالبصرة وبابل وكربلاء والكوفة وميسان .

وإذ يهدي قسم النشر في مركز العميد القارئ هذه المجموعة المباركة من البحوث فانَّه موقن وحريص على إفادة المختصين والمثقفين بوجه عام، ويقدم ما من شأنه أنْ يأسس لمفاهيم جديدة تنطلق من أساس متين وهو أهل البيت عليهم السلام بكل ما حفل تراثهم المجيد من عطاء معرفي زاخر أفاد الأُمة بل الانسانية جمعاء ولازال نابضا بالحياة مادامت الحياة نابضة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الكَمَال المعَرِفيّ
دَليل الإمَامة
المعَارِف اللغوّيّة أنموذَجٌ

Epistemic Perfection: Evidence of Imamate Linguistic Knowledge as a Nonpareil

أ د كريم حسين ناصح الخالديّ

رئيس جمعيّة اللّسانيين العراقيين

Prof.Dr. Kareem Hussein Nasah Al-Khalidi

chairman of iraqi linguestics department

ملخص البحث :

يدرس البحث ظاهرة عجيبة في علوم المعصومين هي كمال معارفهم في كل الاختصاصات واوردتُ ادلة على ذلك منها قول عدد من الائمة (سلوني قبل ان تفقدوني) ، ومعرفتهم بطرق السموات والارض، ولا يقول ذلك إلا من عرف كل شيء ، ومنها أنَ الائمة يعلمون ما لا يعرفه الناس كمعرفة لغات البشر كلها ، ومعرفة ما في التوارة والانجيل والزبور ، ومعرفة لغة الطير والبهائم والاشياء التي فيها روح ، ومن ذلك أنَ الائمة كانوا أعلم علماء عصورهم يناظرونهم ويسكتونهم بالأدلة والبراهين وكان الأئمة " صادقون مفهّمون مُحدّثون" ويثير تفكيري كونهم محدَثين اي ان روح القُدُس يحدثهم في القضايا التي يريدون معرفتها وبذلك لا يصعب عليهم جواب أي سؤال ، ودرس البحث قضايا لغوية كان الائمة فيها رواداً كالريادة في النحو والاصوات ومعرفة الائتلاف بين الحروف والالفاظ ومعرفة وصنع الالفاظ في مواضعها واتساعهم في قضايا دلالية كثيرة ، ومعرفة التضاد والاشتقاق والحقيقة والمجاز قبل معرفة اللغويين لهذه الفنون والخصائص اللغوية ، بدليل ورودها عند الامام علي بن أبي طالب عليه السلام فضلا عن ريادتهم في تأسيس علم الكلام وعلم التفسير والتأويل ومعرفتهم البلايا والمنايا والانساب وفصل الخطاب .

Abstract:

The research paper tackles a miraculous phenomenon in the Infallible sciences incarnated in the competence of the sciences in all fields as mentioned in : " Ask me, before lose me" , they have knowledge of the heaven orbits, different languages, and so forth .However, they delve into the non-humanist sciences; chemistry, mathematics, physics, medicine, pharmacy, biology. Perception to the angels and their functions, perception to Allah, His traits and deeds. Consequently, it is inferred that no Imam without such perceptive mentality and knowledge completion; Imam never considers as evidence unless he dominates all the knowledge fields.

المبحث الأول

الكمال المعرفي دليل الإمامة

المطلب الأوّل : مفهوم الإمامة

خلق الله الكائنات لعبادته وشكر آلائه وبناء مجتمع صالح تسوده العدالة الإلهية والمساواة ، والتعاون لعمل البرّ ، وإدارة حياة الناس بالقوانين والشرائع التي يريدها الله تعالى لذا كان أوّل خلقه آدم عليه السلام نبيّاً بعثه لينقل شرائع الله ـ تعالى ـ إلى نسله من البشر، وعلّمه الله المعارف التي تمكّنه من تحقيق ما أراده الله لخلقه ، وكذلك الأنبياء الذين جاؤوا من بعده يتوارثون العلوم والمعارف ويزيدهم الله من علمه ومعارفه ما يقتضيه المجتمع لتلبية الحاجات الجديدة ، والتطوّرات التي تحدث في المجتمع بمرور الزمن وتغيّر الأحوال وكان الأنبياء ـ عليهم السلام ـ يتلقون رسالات ربّهم من طريق الوحي بنزول الملائكة من السماء ، أو الرؤيا، أو غير ذلك لإتمام مستلزمات الرسالة الإلهيّة من غير انقطاع ، وكان كلّ نبيّ يبشّر بالنبي الذي ياتي بعده ليجري التبليغ بانتظام ولا يدّعي النبوّة من ليس بنبيّ ، وكان الله تعالى يُكسب النبي مؤهّلات علميّة ومعرفيّة تميزه من غيره من البشر لتثبيت نبوّته في نفوس المشكّكين والمنكرين،فضلاً عن الكتب السماويّة التي يُنزلها الله ـ تعالى ـ إلى رسله وما يجريه على أيديهم من معجزات يعجز البشرعن الإتيان بمثلها لكونها خارقة لقدرات البشر الجسديّة والعقليّة لإثبات أنّ هذه المعجزات من لدن قدير حكيم ٠ واستمرت هذه الرسالات والنبوّات تترى من أول خلق البشرحتى مبعث نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم الذي بشّر به الله ـ تعالى ـ على لسان النبي عيسى ابن مريم عليه السلام كما حكى لنا القرآن الكريم في قوله تعالى { ومبشّراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد } الصف٦٠ وقد جرى الحكم الإلهي منذ أوّل نبيّ أنْ يكون له وصيّ يخلفه بعد وفاته للاستمرارفي تبليغ رسالة الله في الأرض لذا كان لزاماً في ضوء هذا النظام الألهي أن يكون للنبيّ محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وصيّ كغيره من الأنبياء ، يرثه من بعده ، ويُتمّ رسالته فكانت بيعة الغدير التي أوصى فيها النبيّ ـ محمّد صلّى الله عليه وآله ـ بالولاية لعلي بن أبي طالب يوم خطب بالمسلمين قائلاً اللهم من كنتُ مولاه فهذا عليّ مولاه اللّهم والِ من والاه واخذل من خذله " [1] ولم تأت هذه الولاية اعتباطاًأو مصادفة ؛ بل هيّأ الله للإمام علي عليه السلام من يرعاه برعاية الله وهو النبيّ محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم ويُنشئ الإمام كما أنشأه الله تعالى فأرشده إلى إعداده مذ كان صبيًّا كما صرّح الإمام عليه السلام بذلك في قوله: وضعني في حجرهوأنا وليد ،يضمّني إلى صدره ، ويكنفني في فراشه ، ويُمسّني جسده ، ويُشمّني عَرفه، وكان يمضغ الشيء ثمّ يُلْقمنيه ، وما وجد لي كذبةً في قول ، ولاخطلة في فعل ،ولقد قرَنَ اللهُ به صلّى الله عليه وآله

من لدن أن كان فطيمًا أعظمَ مَلَك من ملائكته ، يسلك به طريق المكارم ، ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره ولقد كنتُ أتبعه اتباع الفصيل أثرَأمّه،يرفع لي في كلّ يوم من أخلاقه علَمًا، ويأمرني بالإقتداء به"[٢]

وقد وردت الولاية بنصّ من القرآن الكريم في قوله تعالى { إنّما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يُقيمون الصلاة ويُؤتون الزكاة وهم راكعون } (المائدة ٥٥) وفي آيات أخرى[٣] ولم يكن التبليغ بالوصيّة رغبة شخصية، أو حاجة آنيّة بل كانت الوصيّة بأمر من الله (يا أيّها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربّك وإنْ لم تفعل فما بلّغتَ رسالته والله يعصمك من الناس إنّ الله لا يهدي القوم الكافرين } (المائدة ٦٧) وحين أوصى النبيﷺ بولاية الإمام علي في يوم الغدير كان قد أتمّ رسالته لذا قال تعالى (اليومَ أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتيورضيتُ لكم الإسلام دينًا } (المائدة ٣).

وقد أدّى الإمام عليّ بن أبي طالب مهمّته التي أوكلها الله ـ تعالى ـ إليه كما شاء الله ، ولكنّ الإمام عليّ بَشَر له عمر محدود ، فهل تبقى الأمة الإسلاميّة من غير إمام وبين الإمام عليّ ابن أبيطالب وقيام الساعة زمن طويل لايمكن معرفته ؟ وهل يترك اللهُ الناسَ بغير إمام يهديهم ، ويُرشدهم ويُبيّن أسرار دينهم ، وينجيهم من الضلال والبدع ؟ لاشكّ في أنّ ذلك خلاف حكمة الله ومشيئته في تنظيم حياة البشر ؛ لذا جاء قول رسول اللهﷺ في حديث الثقلين ـ ليؤكّد أنّ الإمامة لا تنتهي بولاية الإمام علي بن أبي طالب ـعليه السلام بل لابدّ من أن تمتد حتى تقوم الساعة لذا جعل الله تعالى إمامة الناس محصورة في آل بيت محمدٍ ـعليهم السلامالذين قال الله تعالى عنهم { إنّما يريدُ اللهُ ليُذهبَ عنكم الرجسَ أهلَ البيت ويطهّرَكم تطهيرًا }(الأحزاب ٣٣) لذا نصّ النبيﷺ على الأئمة الإثني عشر في أحاديث صريحة وهذا النصّ عليهم وعلى أسمائهم من حكمة الله ومشيئته في ضوء نظرية الحكمالإلهي الذي يفوّضه الله تعالى إلى من يختار ويصطفي من عباده، ولمّا كانت أعمار الأئمة محدودة كذلك ، شاءت الحكمة الإلهيّة أن يكون آخرهم مديد العمر كعمر الخضرأوعمربعض الأنبياء الذين بقوا على قيد الحياة كالنبيّ إلياس لتستمر ولاية الأئمة على الأرض إلى يوم القيامة لذا كان(أصل) الإمامة من أصول مذهب أهل البيت ـعليهم السلامـ وهو أصل مبنيّ على النصّ من رسول اللهﷺ نحو قوله الذي رواه عبد الله بن مسعود حين سأله إعرابي : ياعبد الله هل أخبركم نبيّكمﷺ كم يكون فيكم من خليفة ؟ قال لقد سألتني عن شيءما سألني عنه (أحد) منذ قدمت العراق ، نعم اثنا عشرعدّة نقباء بني إسرائيل،وقال جرير:عن أشعث ، عن ابن مسعود عن النبيﷺ قال : الخلفاء بعدي اثنا عشر كعدّة نقباء بني أسرائيل ".[٤]

وروي عن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ عن أبيه، عن جدّه عن عليّ ـ عليه السلام ـ قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: الأئمة بعدي اثنا عشر أوّلهم علي بن أبي طالب وآخرهم القائم ، هم خلفائي وأوصيائي وأوليائي وحجج اللهعلى أمّتي بعدي المُقرّ بهم مؤمن ، والمنكر لهم كافر ".[٥] وروى الصحابي جابربن عبد الله الأنصاري أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله سمّاهم بأسمائهم".[٦]

ويلخص الإمام الرضا عليه السلام حقيقة الإمامة وضرورة وجودها في ضوء الإرادة الإلهيّة بقوله : إنّ الله عزّ وجل لم يقبضنبيّه صلى الله عليه وآله حتى أكمل له الدين ، وأنزل عليه القرآن فيه تبيان كلّ شيء، بيّنَ فيه الحلال والحرام ، والحدود والأحكام ، وجميع ما يحتاج إليه الناس كَمَلاً، فقال عزّ وجلّ { اليومَ أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام دينا} وأمرُ الإمامة من تمام الدين،ولم يمضِ صلى الله عليه وآله حتى بيّنَ لأمّته معالم دينهم ، وأوضح لهم سبيلهم وتركهم على قصد سبيل الحقّ،وأقام لهم عليًّا ـ عليه السلام ـ عَلَماً وإمامًا، وما ترك لهم شيئًا يحتاج إليه الأمّة إلّا بيّنه ، فمَن زعم أنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ لم يكمل دينه فقد ردّ كتاب الله ومَن ردّ كتاب الله فهو كافر به ".[٧]

ووضّح الإمام الرضا عليه السلام أنّ الإمامة ليست أمرًا دنيويّا ، يتصرّف فيه الناس على هواهم ورغباتهم بل هو أمرٌربّانيّ محتومٌ ، لأنّ الإمامة ليست قيادة أفراد وسياستهم بحسب ما يرتئيه الحاكم أو الخليفة المنصّب من البشربالاختياروالتعيين أو كما يُقال بالشورى لأنّ الإمامة أعظم من ذلك وأجلّ وأخطر ممّا يذهبون إليهوهذا ما أوضحه الإمام الرضا ـ عليه السلام ـ قال : " هل يعرفون قَدْرالإمامة ومحلّها من الأمّة فيجوز فيها اختيارهم ، إنّ الإمامة أجلّ قدْرًا وأعظم شأنًا ، وأعلى مكانًا وأمنع جانبًا ، وأبعد غورًا من أن يبْلغها الناس بعقولهم ، أو ينالوه بآرائهم، أو يقيموا إمامًا باختيارهم ، إنّ الإمامة خصّ الله ـ عزّ وجلّ ـ بها إبراهيم ـ عليه السلام ـ بعد النبوّة ، والخُلّة مرتبة ثالثة ، وفضيلة شرّفهبها ، وأشاد بها ذكره ،فقال : { إنّي جاعلُك للناس إمامًا } (البقرة ١٢٤) فقال الخليل سرورًا بها { ومِن ذرّيتي }(السورة والآية أنفسهما) قال الله تبارك وتعالى { لاينالُ عهدي الظالمين } فأبطلت هذه الآية إمامة كلّ ظالم إلى يوم القيامة ، وصارت في الصفوة ، ثمّ أكرمه الله تعالى بأن جعلها في ذريّته أهلِ الصفوة والطهارة فقال { ووهبنا له إسحاقَ ويعقوبَ نافلةًوكلًّا جعلنا صالحين ،وجعلناهم أئمّةًيهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعلَ الخيرات وإقامَ الصلاة وإيتاءَ الزكاة وكانوا لنا عابدين }(الأنبياء ٧٢ ـ ٧٣).[٨]

ولم تنقطع النبوّة والوصيّة بل امتدت في حقب متعاقبة يتوارثها عبادُ الله الصالحون باصطفاءٍ من الله واختياره في ضوء حكمته الربّانيّة في أن يكون حجّته على الخلق يمتاز بقدرات عقلية وعلميّة وخلقيّة ومعرفيّة لا تتوافر في غيره من معاصريه؛ ليكون بالغ الحجة ٠ وكان ذلك ممّا أودعه الله في نبيّه محمّد وآله المصطفين الأخيار ـ صلّى الله عليهم وسلّم ـ قال الإمام الرضا ـ عليه السلام ـ فلم تزل في ذرّيته يرثها بعضٌ عن بعض ، قرْناً فقرْنًا ، حتى ورّثها الله ـ تعالى ـ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال ـ جلّ وتعالى ـ :{ إنّ أولى الناس بإبراهيم لَلذين اتّبعوه وهذا النبيّ والذين آمنوا والله وليّ المؤمنين } (آل عمران ٦٨)فكانت له خاصّة فقلّدها صلى الله عليه وآله عليّا ـ عليه السلام ـ بأمر الله ـ تعالى ـ على رسم ما فرض الله ، فصار في ذرّيّته الأصفياء الذين آتاهم الله العلمَ والإيمانَ بقوله تعالى { وقال الذين أوتوا العِلْم والإيمانَ لقد لبثتم في كتابِ الله إلى يومِ البعثِ } (الروم ٥٦) فهي في وُلْد عليّ ـ عليه السلام ـ خاصّة إلى يوم القيامة ، إذ لا نبيّ بعد محمد صلى الله عليه وآله فمن أين يختار هؤلاء الجُهّال ".[٩]

فالإمام الرضا ـ عليه السلام ـ وضع الإمامة في إطارها الإلهي باختيار آل بيت محمدٍ الأطهار الذين مازهم الله ـ تعالى ـ بالعلم والإيمان وفوضهم الإمامة إلى يوم القيامة { لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث } ٠ ذلك أنّ الإمامة ليس إدارة أمور الناس بالحكم بالرأي، والهوى،وقوة السلطان،وقهر العباد؛ بل الإمامة نظام ربّانيّ أوجده الله ليسود العدل بين الناس،وتطبّق أحكام القرآن بالفهم الذي ألهمه الله الأئمة ـ عليهم السلام ـ لذا وصف الإمام الرضا ـ عليه السلام ـ هذا النظام بقوله :" إنّ الإمامة هي منزلةُ الأنبياء ، وإرثُ الأوصياء ، إنّ الإمامةَ خلافةُ الله، وخلافةُ الرسول صلى الله عليه وآله ومقام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ وميراث الحسن والحسين عليهما السلام إنّ الإمامة زمام الدين ، ونظام المسلمين ، وصلاح الدنيا وعزّ المؤمنين ، إنّ الإمامة أسّ الإسلام النامي ، وفرعه السامي ،بالإمام تمام الصلاة،والزكاة،و الصيام،والحج،والجهاد،وتوفير الفَيء والصدقات،وإمضاء الحدود والأحكام، ومنع الثغور والأطراف،الإمام يُحلّ حلال الله ، ويحرّمُ حرام الله ، ويقيم حدود الله ، ويذبّعن دين الله ، ويدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، والحجة البالغة ، الإمام كالشمس الطالعة المجلّلة بنورها للعالم وهي في الأفق، بحيث لا تنالها الأيدي والأبصار ".[١٠]

فالإمامة تفويض من الله لتحقيق إرادة الله في تسيير شؤون خلقه بحسب ماشرّع وسنّ من تشريع في كلّ مفاصل الحياة ، ومثل هذا التفويض لا ينهض به بشر مهما أوتي من طاقة ما لم يمكّنه الله بقدرات عقليّة خارقة،ويمدّه بموارد علميّة ومعرفيّة تتجاوز قدرات البشر، لتصل إلى قدرات الأنبياء، وإنْ لم يكن الإمامُ نبيّا ،إذلا نبيّ بعد نبوّة محمد صلى الله عليه وآله ولكن الله ـ تعالى ـ ورّث الأئمة كلّ معارف الأنبياء، والأوصياء؛ لذاوصف الإمام الرضا ـ عليه السلام ـ الإمام بقوله : " الإمام واحدُ دهرِه،لايُدانيه أحدٌ ، ولا يعادلُه عالمٌ، ولا يوجد منه بدلٌ ، ولا

لـه مثلٌ، ولا نظيرٌ، مخصوصٌ بالفضلِ كلّه ،من غير طلبٍ منه لـه ،ولا اكتسابٍ بل اختصاصٌ من المُفضل الوهّاب ٠٠٠ إنّ الأنبياء والأئمة ـ صلوات الله عليهم ـ يُوفّقهم اللهويُؤتيهم من مخزون علمه وحِكَمه ما لايُؤتيه غيرَهمفيكون علمهم فوقَ علمِ أهل الزمان في قوله تعالى {أفَمَن يَهدي إلى الحقّ أحقُّ أنْ يُتّبعَ أمّنْ لا يهديإلا أنْ يُهدى فما لكم كيف تحكمون (يونس ٣٥)". [١١]

وهذه النظريّة الإلهيّة في الحكم قد صاغها الله ـ تعالى ـ لكي يميز الهداة من المدّعين الذين تأسرهم الرغبات والشهوات ومنها شهوة الحكم فيتسلّق عليها من غير تفويض من الله ٠

ولقد حاولت في هذا البحث أن أوضح كمال المعارف التي وهبها الله للإمام الذي يصطفيه من آل بيت محمد بإيضاح خصيصة من خصائص الإمام هي كمال المعرفة ليكون الكمال دليلًا عقليّا من دلائل الإمامة الإلهيّة .

المطلب الآخر : كمال المعرفة عند الأئمة المعصومين :

ليس في مفردات نظرية المعرفة مصطلح (كمال المعرفة) لاستحالة وجوده في حياتنا الإعتيادية إذ لايستطيع أيّ بشر من غيرالأنبياءوالأوصياء والأئمة من آل بيت النبي محمد ـ صلّى الله عليهم وسلّم ـ أن يمتلك ناصية العلم في كل اختصاصاته الإنسانيّة والعلميّة ويلمّ بكل ما يتعلّق بمعارف الأوّلين والآخرين ويعرف ما كان وما يكون،لأنّ قدرة الإنسان المحدودة قد تنحصرفي الإحاطة باختصاص أوعدد من الإختصاصات ويفني عمره في جمع معارف تلك الاختصاصات لكنّه لايعرف كلّ علوم الأوّلين والآخرين .

وقد وجدت في دراستي معارف الأئمة الإثني عشر الأطهار أدلّة كثيرة على كمال معارفهم إذا قيسوا بالبشر الآخرين من حيث تنوّع المعارف وشموليّتها وعمقها وغرابة استقصائها وإمكانيّة الحصول عليها ٠ وينطلق البحث من نصّ للإمام الباقرعليه السلامقاله لهشام بن عبد الملك الذي أراد أن ينتقص منه، وهونصّيثبت الكمال للأئمة المعصومين ـ عليهم السلام بما فيه كمال المعرفة أسوقه لأجعله الأساس في هذا البحث قال الإمام الباقرـعليه السلام:

" إنّا لنحنُ نتَوارثُ الكمالَ "

وثار هشام وهو يتميّز من الغيظ، وأطرق برأسه إلى الأرض ثمّ رفع رأسه ، وراح يقول " ألسنا بنو عبد مناف نسبُنا ونسبُكم واحدٌ " فقال الإمام الباقرـعليه السلام" نحن كذلك ، ولكنّ الله اختصّنا من مكنون سرّه ، وخالص علمه بما لم يخصّ به أحدًا غيرنا " .(١٢)

والكمال الذي قصده الإمام الباقر ـعليه السلام كمال بشريّ مطلق في العلم والفهم والشجاعة وإدارة أمور المسلمين،وتفسيرالقرآن الكريمومعرفة أخبار الأوّلين والآخرين ،ومعرفة العلوم الإنسانية والعلوم الصرفة ٠

وروى محمد بن يحيى ، عن أحمد بن محمّد بن عمر بن عبد العزيز بن محمد بن الفضيل ، عن أبي حمزة قال سمعت أبا جعفر ـعليه السلام يقول : لاوالله لا يكون عالمٌ جاهلًا أبداً، عالمًا بشيء، جاهلًا بشيء ، ثمّ قال : الله أجلّ وأعزّ وأكرم من أن يفرض طاعة عبدٍ يحجبُ عنه علمَ سمائه وأرضه، ثمّ قال لا يَحجُبُ ذلك عنه".(١٣)

وهذا الكمال الذي خصّ الله ـ تعالى ـ أنبياءه وأوصياءه وأولياءه يجعلهم متميّزين من غيرهم لايقاس بهم أحد من غيرهم لأنّهم من الثُلّة التي اصطفاها الله من سائر الناس ؛ لذا قال الإمام الباقرعليه السلامعن الأئمة المعصومين ـ عليهم السلامجابر الأنصاري " يا جابر إنّاأهل بيت لايُقاس بنا أحدٌ ، من قاس بنا أحدًا من البشر فقد كفر " .(١٤)

ويظهر من النصّ جلاء معنى الكمال الذي خصّ الله به أولياءه يتوارثونه الواحد عن الاخرفالكمال وراثة، ولو تأمّل ذوو البصائر بهذه النصوص لأدركوا أنّ علوم المعصومين ومعارفهم لاتقاس بمعارف البشر الآخرين ولاتقاس فضائلهم وقدراتهم العقلية بقدرات البشر الآخرين ؛ بل هم ثُلّة يفوقون البشر الآخرين بكونهم مصطفَين من الله ـ تعالى ـ ومُهيّئين ليكونوا حجج الله على عباده ولا يكون الحجة إلّا كاملًا لاينقصه علم ولا معرفة ولا فكر ، بل زوّده الله بعلم الأولين والآخرين ، وبقدرات عقليّة خارقة لايملكها الناس الآخرون ٠ وما يهمّنا في هذا البحث كمال المعرفة الذي صار تراثًا يتلقّاه الإمام المعصوم عن سابقه .

وثمة أدلّة عقليّة استنبطتُها من استقراء أخبارهم وأقوالهم ، ومن المسلّمات العقليّة التي نبني عليها كمال المعرفة :

الدليل الأوّل : أنّهم متساوون في معارفهم وقدراتهم العقليّة والمعرفيّة واستيعابهم المعارف الإلهيّة مع تفضيل لأوّلهم ،ويؤيد ذلك ما ورد عنهم من أقوال منها قول الإمام الباقر عليه السلام:

"فإنّ رسول الله بابُ الله الذي لا يُؤتى إلّا منه ، وسبيلُه الذي مَن سلكه وصل إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ وكذلك كان أمير المؤمنين عليه السلام من بعده وجرى للأئمة ـ عليهم السلام واحدًا بعدَ واحد، جعلهم الله ـ عزّ وجلّ ـ أركانَ الأرض أنْ تميدَ بأهلها ، وعُمُدَالإسلام ، ورابطةً على سبيل هداه لايهتدي هادٍإلا بهداهم ٠٠٠ يجري لآخرهم من الله مثل الذي جرى لأوّلهم "[١٥] وفي قوله عليه السلام"يجري لآخرهم من الله مثل الذي جرى لأوّلهم " برهان على ما أذهب إليه من تساوويهم في ما يجريه الله عليهم من معارف وعلوم وحِكَم وسداد في الرأي والعمل. وروى الشحّام عن الإمام جعفر الصادق ـعليه السلام: قال : قلتُ لأبي عبد الله ـعليه السلام أيّما أفضل الحسن أم الحسين عليهما السلام فقال ـعليه السلام إنّ فضل أوّلنا يلحق بفضل آخرنا وفضل آخرنا يلحق بفضل أوّلنا فكلٌّ له فضلٌ ، قلت : جعلتُ فداك وسّع عليّ في الجواب فإنّي والله ما سألتك الأمر تادّاً ٠ فقال ـعليه السلام نحن من شجرة طيّبة برانا الله من طينة واحدة ، فضلنا من الله ، وعلمنا من عند الله ، ونحن أمناؤه على خلقه ، والدعاة إلى دينه ، والحجاب فيما بينه وبين خلقه ، أزيدك يازيد ؟ قلت : نعم ، فقال عليه السلام: خَلْقنا واحدٌ ، وعِلْمُنا واحدٌ ، وفَضْلنا واحدٌ ، وكلُّنا واحدٌ عند الله ـ عزّ وجلّ ـ قلتُ فأخبرني بعدّتكم ، فقال اثنا عشر ، هكذاحولَ عرش ربّنافي مبتدأ خَلْقنا ،أوّلُنا محمّدٌ، وأوسطُنا محمدٌ وآخرُنا محمّد " .[١٦] وهذا الحديث دليلٌ آخر على ما أذهب إليه من تساويهم في كمال المعرفة عندهم جميعا ،وأبني على ذلك أنّ ما أذكره عن أيّ منهم من خصيصة ،أو فضيلة ، أو كمال معرفة أوعلم يسري عليهم كلّهم، ويكون المقصودُبالحديث عن الأدلة الأخرى لإثبات الكمال كلَّ إمام من أئمة هذه الشجرة الطيّبة .

وفي ضوء ذلك سيكون ما أقوله عن الإمام علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ يجري على كلّ إمام من الأئمة الاثني عشر ـ عليهم السلام ـ وإن كانت الأفضلية لأمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ لأنّه نفس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما قال تعالى في آية المباهلة {فمَن حاجّكَ فيه مِن بعدِ ما جاءك مِن العِلم فقُلْ تعالوا ندعُ أبناءَنا وأبناءَكم ونساءَنا ونساءَكم وأنفسَنا وأنفسَكم ثمّ نبتهلْ فنجعلْ لعنةَ الله على الكاذبين }(آل عمران :٦١) غير أننا في ضوء حديث الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ آنف الذكر نجري ما نذكره عن علم الإمام علي ـ عليه السلام ـ على الأئمة الآخرين ، ومن ذلك قوله عليه السلام الذي يلخّص فيه كمال معرفته وثقل ما علّمه الله من علوم لايستطيع أن يصدّقه إلّا من امتحن الله قلبه بالإيمان وهي المشكلة التي نواجهها اليوم في الحديث عن الكمال في المعرفة وكيفية حيازة هذا العلم الربانيّ فقد لايستوعبه كثير من الناس .

الدليل الثاني : استعداد أيّ إمام من الأئمة المعصومين للإجابة عن أي سؤال وفي أي اختصاص مهما كانت صعوبته أو غرابته لذا كان أكثرهم يقول (سلوني) أو (اسأل ما شئت)، قال الإمام علي ـ عليه السلام ـ " إنّ أمرنا صعبٌمستصعبٌلا يحمله إلّا عبد مؤمنٌ امتحن الله قلبه للإيمان ، ولا يعي حديثنا إلّا صدورٌ أمينةٌ، وأحلامٌ رزينة.أيّها الناس سَلوني قبل أنْ تفقدوني ، فلأنا بطُرُقالسماء أعلم منّي بطرق الأرض، قبلَ أنْ تشغَر برِجلها فتنةٌ تطأ في خِطامِها ، وتذهبُ بأحلام قومها ".(١٧)

ومن يتأمّل في هذا النصّ يجد أنّه يعبّر عن معنى (كمال المعرفة) لأنّ من يقول (سلوني قبل أن تفقدوني) فلا بدّ أن يتوقّع أسئلة في أي حقل من حقول المعرفة صغيرها وكبيرها ، قريبها اوبعيدها ، صعبها أو يسيرها، ولن يقول ذلك إلّا من اكتملت معارفه في كلّ شؤون الحياة، وعلومها،وفي كلّ فروع المعرفة وأزمانها ، فلايدعُ شيئا إلّا أحاط به، ولا علما إلّا استوعبه ، ولم تقتصرعلوم الإمام ـ عليه السلام ـ على المعارف السائدة من فقه أو حديث، أوتفسير لنقول إنّذلك ممّا كان سائدًا في زمانه ومعروفًا ومتداولًا؛ بل كانت دعوته الناس بكلّ طبقاتهم وبمختلف قدراتهم العقليّة إلى السؤال عن أيّ شيْء يخطر ببال السامع ، وفوق ذلك باح الإمام بسرّ قد لا يعرفه كثيرٌ من السامعين من الأولين والمعاصرين،هو أنّه أعلمُ بطرق السماء منه بطرق الأرض، وهو قول خطير الشأن في زمن لم تكن فيه سفن فضاء ، ولا أقمار صناعية ، بل كان يعيش في زمن لم يكن الناس يعلمون فيه أنّ الأرض كرويّة فكيف بمعرفة طرق السماوات .

ولم يكن هذا القول مقصورًا على الإمام علي ـ عليه السلام ـ بل قاله عدد من الأئمة المعصومين بعده فقد قال الإمام جعفر الصادق ـ عليه السلام ـ " إنّي لأعلم ما في السموات وما في الأرض ،، وأعلم ما في الجنّة ، وأعلم ما في النار ،وأعلم ما كان وما يكون قال ثمّ مكث هنيئة فرأى أنّ ذلك كبُر على من سمعه منه فقال : علمت ذلك من كتاب الله ـ عزّوجلّ ـ إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ يقول فيه تبيان كلّ شيء" (١٨) ،وكان الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ يقول

أيضا: سلوني قبل أن تفقدوني .[١٩]

وكان أكثر الأئمة يقول لمن يناظرهم من أهل الكتاب ،أو أهل الكلام ، أو علماء المذاهب الأخرى عبارة (سل عمّا شئت) .[٢٠]

وكانوا لا يبادرون المناظرين بالسؤال ؛ بل كانوا يدعون المناظر إلى البَدء بالسؤال لأنّهم يعلمون جواب أيّ سؤال مهما كان مصدره ، ولو كانت معارفهم محدودة في علم معيّن ، أوفي عدد من المعارف لبادروا بالسؤال في العلوم التي يتقنونها ، كما يفعل المحاورون الآخرون ، ولكنّهم لكمال معارفهم ينتظرون الأسئلة في أيّ علم ، أو مجال معرفيّ؛ لأنّهم يعرفون جواب كلّ سؤال ؛ولذا كانوا في كلّ مناظرة يُسكتون محاوريهم بالإجابات المُفحمة التي تستدلّ بالقرآن الكريم والحديث النبويّ الشريف .

الدليل الثالث : معرفتهم ما لايعرفه سائر الناس كمعرفتهم بأخبارالأنبياء،والأوصياء، وأسماء حواريهم ، وعلومهم ، والحوادث التي جرت في زمانهم ، ومعرفة الأماكن التي ارتبطت بالأحداث ، ومعرفة الملائكة ،ووظائفهم والأعمال الموكلة بهم فقد ورد على لسان الإمام زين العابدين ـ عليه السلام ـ ذِكْر الملائكة،ووظائفهم،فذكرَمنهم حملةَ العرش، وإسرافيل صاحب الصُور الشاخص ، وميكائيل ذو الجاه والمكان الرفيع عند الله، وجبريل الأمين على وحي الله المطاع في أهل سماوات الله تعالى ، والروح الذي هو على ملائكة الحجب ، والروح الذي هو من أمر الله ، والملائكة الذين هم من دونهم الذين لاتدخلهم سأمة من دُؤوب ، ولا إعياء من لغوب ولا فتور ، والروحانيون من ملائكة الله وأهل الزلفة عنده، وحُمّال الغيب إلى رسله ، والمؤتمنون على وحي الله، وقبائل الملائكة الذين اختصّهم الله ـ تعالى ـ لنفسه ، وخزّان المطر،وزواجر السحاب، والذي بصوت زجرِه يُسمع زجلُ الرعودِ، ومشيّعوالثلج والبَرَد ، والهابطون مع قطر المطر إذا نزل ، والقُوام على خزائن الرياح ، والموكّلون بالجبال فلا تزول ، والذين عرّفهم الله ـ تعالى ـ مثاقيل المياه،وكَتْل ما تحويه لواعج الأمطار وعوالجها ، ورسل الله من الملائكة إلى أهل الأرض،والسَفَرة الكرام البَرَرة ،والحفظة الكرام الكاتبون ، وملَك الموت وأعوانه ، ومُنكر ونَكير ، ورُوْمان فتّان القبور ، والطائفون بالبيت المعمور ، ومالكٌ ، والخزنةُ ، ورضوانُ ، وسدنةُ الجنان ، والزبانيةُ ، وسكّانُ الهواء والأرضوالماء ، ومَن منهم على الخلق [٢١] ،وكثير من المعارف التي سيرد ذكرها في البحث

الدليل الرابع : أنّ معارف كبيرهم كمعارف صغيرهم وهذا ماثبت في الروايات المرويّة عن الإمام محمد الجواد ـ عليه السلام ـ فقد كان عمره لايتجاوز سبعَ سنين عند تولّيه إمامة المسلمين ، وكان في علمه لايختلف عن علم آبائه، وأجداده ؛فقد ناظر أعلم علماء الأمة الإسلاميّة في زمن المأمون والمتوكّل ومنهم يحيى بن أكثم وهو يومئذٍ

قاضي الزمان وقال له (سل إن شئت)فسأله يحيى بن أكثمسؤالًا كان جوابه بتفريع السؤال إلى عشرات الإسئلة التي حيّرت يحيى فسكت ولم يستطع أن يناظر الإمام ﷺ وأسكتهم جميعاً بالحجج والبراهين فقد روي أنّه جيء بأبي جعفر الجواد ﷺ إلى مسجد رسول الله ﷺ بعد استشهاد أبيه ﷺ وهو طفل ، وجاء إلى المنبر ورقى منه درجة ثمّ نطق فقال : " أنا محمد بن علي الرضا ، أنا الجواد ، أنا العالم بأنساب الناس في الأصلاب ، أنا أعلم بسرائركم وظواهركم ، وما أنتم صائرون إليه ، علمٌ مُنحنا به من قبل خَلْق الخَلْق أجمعين ، وبعد فناء السماوات والأرضين ، ولولا تظاهر أهل الباطل ، ودولة أهل الضلال ، ووثوب أهل الشك ، لقلتُ قولًاتعجّب منه الأوّلون والآخرون ، ثمّ وضع يده الشريفة على فيه ،وقال يا محمد اصمت كما صمت آباؤك من قبل "[٢٢]،وفي هذا النصّ الذي ورد على لسان الإمام الجواد ـﷺوهو ابن سبع ما يذهل العقول ويثبت كمال المعرفة عندهم صغيرهم وكبيرهم فهو يعلم بأنساب الناس في الأصلاب ، وهو أمر لايستوعبه من لايؤمن بكمال المعرفة عند المعصومين ، وهو يعلم ما في سرائر المخاطبين وما يدور في عقولهم من غير أن يُعربوا عمّا في نفوسهم ،ويعلم ما سيحدث في السنين التي ستتبع زمنهم الذي قال فيه كلامه ، وهو تنبؤ بما سيحدث لهم من بلايا ومنايا ، ثم يُحدّثناﷺبما نحن بصدد بحثه وهو الكمال في المعرفة بقوله :" علمٌ منحنابه من قبل خلق الخلق أجمعين ، وبعد فناء السماوات والأرضين " وهو تصريح بأزليّة هذا العلم وامتداده من قبل خلق البشر وحتى يوم البعث ، فهل يقاس هذا العلم بعلوم البشر؟ أويُنظر إليه على أنّه علم ربّاني متكامل يتخطّى كنهُه أطر الزمان والمكان والنوع والجنس والكم بل هو كمال في المعرفة لايعرفها البشر غير المعصومين ، لذا خشي على نفسه من التصريح بعلمه الذي لو قاله لتعجّب منهالأوّلون والآخرون ٠ فأيّ علم هذا الذي يتعجّب منه الأولون والآخرون بكلّ علمائهم وفي كلّ اختصاصاتهم غير أن يكون فيه الإمام كامل المعرفة وهو طفل صغير .

وكانﷺيحتج على من ينكر عليه سعة علمه في هذا العمر بالآية الكريمة {يا يحيى خُذِ الكتاب بقوّة وآتيناه الحكم صبيّا} .(مريم: ١٢)

وكان الأئمة المعصومون يظهرون معارفهم في الفقه والتفسير والعلوم الأخرى وكانوا يحكمون بأحكام فيقرّهم آباؤهم فيها كما حدث مع الإمام الحسنﷺأمام والده ـﷺ وما حدث للإمام موسى بن جعفرمع أبي حنيفة النعمان فأقرّه والده وكذلك حدث ذلك للأئمة الآخرين،وكان كلّ منهم غلامًا صغيرالسن،وكان بعضهم يجلس في المسجد يفسّر القرآن الكريم ، ويفتي الناس،وهوغلام فقد روي " أنّ رجلًا دخل مسجد رسول اللهﷺفإذا رجل يحدّث عن رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ وآله قال فسألته عن (الشاهد والمشهود) فقال

نعم الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة، فجزتُه إلى آخر يحدّث عن رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فقال نعم أمّا الشاهد فيوم الجمعة،وأمّا المشهود فيوم النحْر، فجزتُهما إلى غلام كأنّ وجهَه الدينارُوهو يحدّث عن رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فقال نعم أمّا الشاهد فمحمّدٌ ﷺ وأمّا المشهود فيوم القيامة ، أما سمعتَه ـ سبحانه ـ يقول { يا أيّها النبيّ إنّا أرسلناك شاهدًا ومُبشّرًا ونذيرًا } (الأحزاب ٤٥)وقال { ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهودٌ} (هود١٠٣) فسألتُ عن الأوّل فقالوا ابن عبّاس ، وسألت عن الثاني فقالوا ابن عمر، وسألت عن الثالث فقالوا الحسن بن علي ـ عليه السلام ـ وكان قولُ الحسنِ أحسنَ ".[٢٣]

ولاشك في أنّ الطفل الصغير الذي هو بعمر الإمام الجواد ـ عليه السلام ـ أو الغلام كالإمام الحسن ـ عليه السلام ـ لو أخذَ العلمَ كما يأخذه الناس من طريق الحفظ والدراسة لتطلّب ذلك سنوات طويلة ،فكيف بذي سبع سنوات يناظر علماء الأمة، فيُفحمهم بالأدلة والبراهين،ويُسكتهم جميعا .والأئمة في صغر سنّهم كانوا يحاجون العلماء المعروفين في زمانهم على أنّهم من كبار العلماء وأعلمهم ويسكتونهم ويتفوقون عليهم ممّا يدلّ على أنّ الكمال لم يكن حفظًا ولا تعلّمًا بل كان من عند الله ـ تعالى ـ

الدليل الخامس : وقد يتساءل القارئ أنّى لطفل بعمر سبع سنوات أن يسكت علماء عصره وما الطرائق التي يتعلّم بها الإمام المعصوم علومه ؟ وهوسؤال وجيه لمن لايعرف نظرية كمال المعرفة ولتوضيح الجواب أقول :لقد حدّث أكثر من إمام بطرائقتلقّيهم العلم وهي طرائق عجيبة لم يألفها الناس حتى يومنا هذا؛بل هي طرائق خاصة بالأنبياء والرسل والأوصياء والأئمة قد لاتتحمّل إدراكها عقول كثير من الناس من غير المؤمنين بالرسالات والإيحاءات الربّانيّة وممّن لايعرف الله ـ تعالى ـ حقّ معرفته لأنّها طرائق غير مألوفة عند البشرخصّ بها الأنبياء والرسل والأوصياءوأهمّها :

الطريقة الأولى : زقّ العلم زقّا وأوّل من ذكرذلك الإمام علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ وزقّ العلم مصطلح غير متداول في النظريات المعرفيّة سوى نظريّة آل البيت ـ عليهم السلام ، قال الإمام عليه السلام

"يامعشر الناس سَلوني قبلَ أنْ تفْقدوني : وهذا سفط العلم ،هذا لعابُ رسول الله ﷺ هذا ما زقّني رسول الله زقًّا زقًّا ، سَلوني فإنّ عندي علمَ الأولين والآخرين "[٢٤] والزق هنا أن يُطعم الطائر فرخه بوضع منقاره في جوف منقار فرخه ويزقّه الطعام الذي أحضره له ، فكيف يزقّ العلم زقّاً ؟ العلم لايؤخذ في لحظات أو ساعات أو شهور كاملًا في الأحوال الإعتياديّة ولكنّه بحسب القدرة الإلهيّة وفي ضوء نظريّة الكمال المعرفي يستوعبه الإمام ـ عليه السلام ـ من النبيّ محمد ﷺ دفعة واحدة وكما عبّر عنه الإمام يُفتح له ألف باب من العلم كلّ باب يفتح ألف باب من العلم .

وعبّر الإمام علي ﷺ عن طريقة أخذه العلم في موضع آخر بما سمّاه (الإسْرار) في حديث طويل منه قوله ـ ﷺ" إنّ رسول الله ﷺ أسرّ إليّ في مرضه مفتاح ألف باب من العلم يُفتح من كلّ باب ألفُ باب، ولو أنّ الأمّة منذ قُبض رسول الله ﷺ اتّبعوني وأطاعوني لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم "[٢٥] فما هذا المفتاح ؟وما تلك الأبواب من العلم ؟ تلك أسرار ربّانيّة لايعرفها إلّا مَن خصّهم الله بذلك الإسرار .

الطريقة الثانية : أنّ الله يشرح صدرالإمام ، ويجعله يستوعب العلم من غير دراسة ،وبذلك قال الإمام الرضا ﷺ في حديثه عن الإمامة قائلًا: " وإنّ العبد إذا اختاره اللهعزّ وجلّ لأمور عباده شرح صدره لذلك ، وأودع قلبه ينابيع الحكمة،وألهمه العلم إلهامًا،فلم يعيَ بعده بجواب، ولا يُحَيّرفيه عن الصواب،فهو معصوم مؤيّدموفّق مسدّد ،قد أمن من الخطايا والزلل والعثار ، يخصّه اللهبذلك ليكون حجّتَه على عباده ، وشاهده على خلقه، وذلك فضل الله يُؤتيه من يشاءوالله ذو الفضل العظيم ". [٢٦]

وفي هذا النصّ تجتمع طريقتان لإيصال العلم إلى الإمام من الله ـ تعالى ـ هما :

١ـ أنّ الله يشرح صدر الإمام لتلقي العلم ويودع قلبه ينابيع الحكمة .

٢ـ أنّ الله يُلهم الإمامَ العلمَ إلهامًا فلم يعيَ بعده بجواب ، ولا يُحيّر عن الصواب .

الطريقة الثالثة : غرّ العلم غرّاً ، وهو بمعنى الزقّ الذي ورد في الطريقة الأولى قال الخليل بن أحمد الفراهيدي " والطائر يَغُرُّ فرخَه إذا زقّه "[٢٧] ووضّح الجوهري المعنى بقوله " وزقّ الطائرُفرخَه أطعمه بفيه ، وبابُه ردّ ".[٢٨]

وقد ورد مصطلح الغرّعلى لسان الإمام الرضا ـ ﷺفقد "روى المسعوديَّ عن عبد الرحمنابن محمد عن كلثمبن عمران أنّه قال: قلتُ للرضا ﷺأنت تحبّ الصبيان فادعُ الله أن يرزقك ولداً فقال : إنّما أرزقُ ولدًا واحدًا وهو يرثني ، فلمّا ولد أبو جعفر كان طول ليلته يناغيه في مهده ، فلمّا طال ذلك على عدّة ليالٍ قلتُ:جُعلتُ فداك قد ولد للناس أولادٌقبل هذا فكلّ هذا تعوّذه! فقال ويحك ليسهذا عوذة إنّماأغرّه بالعلم غرّا" .[٢٩]

وهذا دليل آخر على أنّ العلمَ يُزقّأو يُغرّ كاملًا للطفل وهو في سن الطفولة .

ومهما يكن مناختلاف هذه الطرائق أواتفاق بعضها مع بعضهاالآخر فإنّ الذي نستخلصه منها أنّ الإمام لايتعلّم المعارف من أساتذة في المساجد أو أماكن التعليم ؛ بل يُهيّئ له الله القدرةَ لتلقّي كاملِ علمِ سابِقه بأنْ يشرح اللهُ صدرَه ليُلهمه علوم الأوّلين والآخرين، وما كان وما يكون من طريق الزقّ أو الغرّ أو

الإلهام أو الإسرار فيستوعب العلوم كافة دفعة واحدة ، أو على وجبات ولايستغرق ذلك وقتاً طويلًا بل يستغرق ساعات أو ليالي لأنّ هذا التلقي يجري على غير عادة الناس ، وبغيروسائل التعليم المعروفة ؛ بل بطريقة الإلهام الإلهيّ ؛ الذي ينشرح له صدره ، وفي معرفة هذه الطرائق التي تخلو منها نظريّات التعلّم البشريّة تأكيد لما قاله الإمام الرضا عليه السلام في نص سابق " فلم يعيَ بعده بجواب ، ولايحيّرفيه عن الصواب" والذي لايعيى بجواب، ولايكون كلامه إلا صواب، قد أحرز مرتبة الكمال في المعرفة بإلهام من الله وهذا خير دليل على إثبات فكرة كمال المعرفة التي لاتعرف أيّ وجه من وجوه الجهل حين يريد الإمام معرفة الشيء حتى ولو كان في ظهر الغيب وقول الإمام هذا مصداق نظرية الكمال المعرفي فكلامه في كلّ موضوع صواب، ولا يعيى بأيّ جواب ومن امتلك هذه المؤهّلات الربّانيّة فهو كامل المعرفة .

وقد سئل الإمام جعفر الصادق -عليه السلام- عن وقت هذا الإلهام وزقّ العلم من الإمام الذي قبله، فقال " في آخر دقيقة تبقى من روحه "[٣٠]، ولا تناقض بين قولنا زقّه العلم منذ الطفولة ، وتلقّيه العلم في آخر لحظة من حياة سابقه لأنّ اللاحق يكون مؤهّلاً بالعلم الربانيّ في زمن سابقه ولكنّه يبقى بدرجات علميّة دون درجات من قبله فلا يرقى إلى مرتبة الإمام حتى آخر لحظة من لحظات سابقه ومصداق هذا الرأي " الإمام واحدُ دهره ، لايدانيه أحدٌ ولا يعادله عالمٌ".

الدليل السادس : أنّ الأئمة المعصومين كانوا أعلم العلماء: وذلك لأنّ علمهم ربّانيّ ، يتلقونه بإرادة الله ومقدرته ، لايحدّه حدّ، ولايحيط به وصف ، ومن يراجع ماكتبه المؤرخون من كلّ المذاهب عن كلّ منهم يجد أنّ الصفة الغالبة على وصفهم بأنّهم علماء، وأنّ كلّا منهم كان أعلم علماء زمانه،وأذكّرمرّة أخرى بقول الإمام الرضا عليه السلام الذي مرّ ذكره : " لا يعادله عالم ، ولا يوجد منه بدل ، ولا له مثل ولا نظير ، مخصوص بالفضل كلّه ، من غير طلب منه له ، ولا اكتساب بل اختصاص من المُفضِل الوهّاب" [٣١]، ويكفيني أن أستدل على أنّ الإمام كان أعلم علماء عصره بما قاله عبد الله بن عباس عن علم الإمام عليّ بن أبي طالب ،قال ابن عبّاس لرجل : أعليّ أعلم عندك أم أنا ؟ فقال : لو كان عليّ أعلم عندي منك لما سألتُك قال فغضب ابن عبّاس حتى اشتدّ غضبه ، ثمّ قال ثكلتك أمّك ، عليّ -عليه السلام- علّمني ، وكان علمه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورسول الله علّمه اللهمن فوق عرشه ، فعلم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من الله، وعلم عليّ -عليه السلام- من النبيّ، وعلمي من علم عليّ عليه السلام وعلم أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم كلّهم في علم عليّ كالقطرة الواحدة في سبعة أبحر ". [٣٢]

ومن الروايات التي تُظهر أعلميّة الأئمة المعصومين وتميّزهم من علماء عصورهم ما قيل عن الإمام الرضا ـ عليه السلام ـ قولهم " حدّثنا الحاكم أبو علي الحسين بن أحمد البيهقي ، قال حدّثنا محمد بن يحيى الصولي ، قال : حدّثنا أبو ذكوان قال : سمعت إبراهيم بن العباس : يقول ما رأيت الرضا عليه السلام يُسأل عن شيء قطّ إلاّ علم ، ولا رأيت أعلم منهما كان في الزمان الأول إلى وقته وعصره ،وكان المأمون يمتحنه بالسؤال عن كلّ شيء فيجيب فيه ، وكان كلامه كلّه وجوابه وتمثّله انتزاعات من القرآن ". (٣٣)

والحديث عن كمال علم الأئمة المعصومين ـ عليهم السلام ـ ينبغي أن تُلحظ جذوره التي تمتد إلى بدء الرسالات الإلهيّة وقد وردت أحاديث كثيرة بوراثتهم علم الأنبياء والأوصياء جميعاً فقد روي أنّ الإمام الباقر ـ عليه السلام ـ قال " قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنّ أوّل وصيّكان على وجه الأرضهبة الله بن آدم ، وما من نبي مضى إلّا وله وصيّ ، وكان جميع الأنبياء مائة ألف نبيّ وعشرين ألف نبيّ ، منهم خمسة أولو العزم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد ـ عليهم السلام ـ وإنّ عليّ بن أبي طالب كان هبة الله لمحمد، وورث علم الأوصياء وعلم من كان قبله ، أما إنّ محمّداًورث علم من كان قبله من الأنبياء والمرسلين ". (٣٤)

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال : " إنّ داود ورث علم الأنبياء ، وإنّ سليمان ورث داود ، وإنّ محمّداً ورث سليمان ،وإنّا ورثنا محمّداً، وإنّ عندنا صحف إبراهيم ، وألواح موسى ، فقال أبو بصير : إنّ هذا لهو العلمُ ،فقال يا أبا محمّد ليس هذا هو العلمَ ، إنّما العلمُ ما يحدث بالليل والنّهار، يوماً بيوم وساعةً بساعة " . (٣٥)

وممّا تقدم يتّضح أنّ علم المعصومين عليهم السلام لايقتصر على علوم زمان معين ولا يُؤخذ من عدد من العلماء؛ بل هو علم متوارث من أنبياء الله جميعاً ، ويمتد إلى معرفة ما يجري في كلّ زمان حتى يوم القيامة ،يوماً بيوم ، وساعةً بعد ساعة، وهو كمال في المعرفة يتجاوز حدود المعرفة ليشمل كلّ علم• وهوعلم يمتد إلى زمن أوّل نبيّ وأوّل وصيّ والسؤال الذي يثيره هذا النصّ هو كيف يعرف الأئمة ما يجري على الناس في الأيام والشهوروالسنين القادمة بعد زمانهم؟والجواب يتّضح في الدليل السابع وهو أهم الأدلة وأكثرها إثارة لجدل المنكرين والمشكّكين ممّن لايعرفون حقيقة المعرفة الربّانيّة .

الدليل السابع :الأئمة محدّثون : المعروف أنّ إحدى وسائل تبليغ الأنبياء هو الوحي، بنزول الملائكة عليهم، وكان نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم يتنزّل عليه الوحي ليبلغه رسالات ربّه سواء بآيات القرآن الكريم ، أو بما يعلمه الله لينطق به { وما ينطق عن الهوى إنْ هو إلا وحي يوحى}(النجم ٣-٤) ولكنّ النبوّة انتهت باستشهاد

النبيّ محمدﷺ ويؤيّد ذلك قوله في حديث المنزلة " أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنه لا نبيّ بعدي "[٣٦] ولاشكّ في ذلك فالنبوّة خُتمت بمحمدﷺ لكن ختام النبوّة لايعني انّ الله يترك عباده وينقطع عنهم بدليل سورةالقدر التي يقول تعالى فيها { تنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كلّ أمر سلام هي حتى مطلع الفجر } (القدر٤-٥) والفعل (تنزّل) أي (تتنزّلُ)يعني الاستمرار في النزول ولو كان لمرة واحدة لقال - تعالى - (نزلت) وكان للأئمة المعصومين أحاديث كثيرة في سورة القدر ودلالاتها على إمامة الأئمة الأطهار أذكر منها قول الإمام الباقرعليه السلام وهو حديث طويل أقتبس منه :

" إنّ رسول اللهﷺ لمّا أسري به لم يهبط حتى أعلمه - الله جلّ ذكرُه - علم ما قد كان وما سيكون ، وكان كثير من علمه ذلك جُمَلاً يأتي تفسيرها في ليلة القدر وكذلك كان عليّ بن أبي طالب -عليه السلام- قد علم جمَل العلم ويأتي تفسيره في ليالي القدر، كما كان مع رسول اللهﷺ ...إنّما يأتي بالأمر من الله - تعالى - في ليالي القدر إلى النبيّ وإلى الأوصياء : افعل كذاوكذا لأمر قد كانوا علموه ... لم يمت نبيّ إلاّ وعلمه في جوف وصيّه وإنّما تنزّل الملائكة والروح في ليلة القدر بالحكم الذي يحكم به بين العباد "[٣٧] ومن هذا النصّ يتضح أن الملائكة كانت تتنزّل على النبيّ محمّدﷺ وعلى الأئمة المعصومين وأوّلهم عليّ بن أبي طالب -عليه السلام- في كلّ عام لتبليغهم بتفصيل ما يعلمون. وبذلك فالأئمّة محدّثون أو كما قال الإمام الرضا عليه السلام

" الأئمة علماء صادقون مُفهّمون محدّثون ".[٣٨]

وليس مرتبة (المحدَّث) من عند الإمام الرضا -عليه السلام- بل ممّا ذكرها اكثر الأئمة وقد استشهد الإمام زين العابدين -عليه السلام- بقوله تعالى { وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيّ ولا (مُحدَّثٍ)}(الحج٥٢) قائلًا " وكان علي بن أبي طالب -عليه السلام- محدّثًا "[٣٩] ويذكر أنّ الآية الواردة في سورة الحج قد خلت من لفظة (محدّث) وهو أمر به حاجة إلى بحث قد نكمله في وقت لاحق ٠ وسأل حُمران بن أعين الإمام الباقرعليه السلام ومَن كان يُحدّثه ؟فقال : يُحدّثه مَلَك ".[٤٠]

وهذا الحديث قد ينكره كثيرون ولكنّهم لايستطيعون تخطّي قول الأئمة المعصومين في المُحدّث الذي هو ليس رسولاً، ولا نبيّاً تحدّثه الملائكة بعد وفاة النبيّ أو الرسول ٠ وفسّر الأئمة المعصومون ذلك بوجود روح القُدُس الذي هو غير جبرائيل وهو الذي يحدّث الأئمة بما يريد الله إبلاغه إلى الأئمة المعصومين ومن ذلك ما رواه المفضّل بن عمرعن الإمام الصادق -عليه السلام- قال سألته عن علم الإمام بما في أقطار الأرض وهو في بيته مرخى عليه ستره ،فقال " يا مفضّل إنّ الله تبارك وتعالى جعل في النبيﷺ خمسة أرواح : روح الحياة ،

فبه دبّ ودرَجَ، وروح القوّة فبه نهض وجاهَدَ ، وروح الشهوة فبه أكلَ وشربَ وأتى النساء من الحلال ، وروح الإيمان فبه آمن وعدَلَ ، وروح القُدُس فبه حمَلَ النبوّة فإذا قُبض النبيّ صلّى الله عليه وآله ـ انتقل روح القدُس فصار إلى الإمام ،وروح القُدُس لا ينام ولا يغفُلُ ولا يلهو ولا يزهو ، والأربعة الأرواح تنام وتغفل وتزهو وتلهو ،وروح القدُس كان يرى به "[41] وقد روى الإمام الجواد عن الإمام الباقر ـ عليه السلام ـ " إنّ ألأوصياء محدّثون يحدّثهم روح القُدُس ولا يرونه ".[42]

وروح القُدُس غير جبرائيل بخلاف ما يعتقده عدد من المفسرين ممّن لايذهبون مذهب أهل البيت فقد أتى رجلٌ أميرَ المؤمنين ـ عليه السلام ـ يسأله عن الروح، أليس هو جبرائيل فقال له أمير المؤمنين :جبرائيل ـ عليه السلام ـ من الملائكة والروح غير جبرائيل ، فكرّرذلك على الرجل فقال له : لقد قلتَ عظيمًا من القول ، ما أحدٌ يزعم أنّ الروح غير جبرائيل،فقال له أميرالمؤمنين ـ عليه السلام ـ، إنّك ضالّ تروي عن أهل الضلال، يقول الله ـ تعالى ـ لنبيّه ـ صلّى الله عليه وآله{أتى أمر الله فلاتستعجلوه سبحانه وتعالى عمّا يشركون ينزّلُ الملائكةَ بالروح }(النحل١ـ٢) والروح غير الملائكة صلوات الله عليهم ".[43]

فهل يعلم الإمام الغيب ؟ لقد أجاب الإمام جعفر الصادق عن هذا السؤال بقوله : " لا، ولكن إذا أراد أن يعلم الشيء أعلمه الله ذلك ".[44]

وثمّة روايات كثيرة تحدّث فيها الأئمة ـ عليهم السلام ـ عن أحداث لم تكن واقعة ثم وقعت بعد زمن كالحدث عن موت أفراد ، والحديث عمّا يدبّر لهم من دسّ السمّ وتنبؤ الإمام علي بن موسى الرضا ـ عليه السلام ـ عن دفنه قرب هارون العباسي في طوس،وتنبئه بقتل المأمون أخاه الأمين ،[45] وتنبؤ الإمام علي الهادي عليه السلام بما سيحدث للمتوكّل الذي آذاه بطلبه أن يسير الإمام ـ عليه السلام ـ في ضمن المواكب في الصيف الحار فقرأ الإمام عليه السلام قوله تعالى {فعقروها فقال تمتّعوا في داركم ثلاثة أيّام ذلك وعدٌ غير مكذوب }(هود ٦٥)فلمّا كانت الليلة الرابعة قُتِل المتوكلُ والفتحُ بن خاقان [46].

وليس هذا بغريب فقد أعطاهم الله ـ تعالى ـ علم ما كان وما يكون وعلم البلايا والمنايا فعن عبد الله بن جُندَب أنّه كتب إليه الرضا عليه السلام: " أمّا بعد فإنّ محمداً كان أمينَ الله في خلقه فلمّا قُبض صلى الله عليه وآله كنّا أهلَالبيت ورثته : فنحنُ أمناء الله في أرضه عندنا علم البلايا والمنايا وأنساب العرب ومولد الإسلام ، وإنّا لنعرف الرجل إذا رأيناه بحقيقة الإيمان،وحقيقة النفاق ".[47]

ومن يستقصِ الأحاديث في مظانّها يجد أخبارًا كثيرة تدلّ دلالة قاطعة على أنّ الأئمة المعصومين

يعرفون المنايا والبلايا وتواريخ حدوثها ويعرفون حقيقة الإيمان أو حقيقة النفاق في قلب الرجل ، ويعرفون كثيراً ممّا سيجري من أمور قبل وقوعها • ويتبادر إلى أذهان المشككين بذلك سؤالهم هل الأئمة المعصومون أنبياء أورسل أو أوصياء ؟ وقد ذكر الأئمة الأطهار ـ عليهم السلام ـ أنّهم ليسوا رسلاً ولا أنبياء ولكنهم ورثوا منهم علم الأولين والآخرين وعلم المنايا والبلايا والأنساب وفصل الخطاب ـ كما أسلفتُ ـ وفضلاً عن ذلك فهم محدّثون يحدّثهم الله متى شاء من طريق روح القدُس وهم لا يرون المحدّث بل يسمعونه • ووصف الإمام موسى بن جعفر ـ عليه السلام ـ كيفية تلقّيهم العلوم فقال : مبلغ علمنا على ثلاثة وجوه : ماضٍ وغابرٍ وحادث ، فأمّا الماضي فمفسَّرٌ ، وأمّا الغابرُ فمزبورٌ ،وأمّا الحادث فقذف في القلوب ، ونقر في الأسماع وهو أفضل علمنا ولانبيّ بعد نبيّنا "[٤٨] وفسّر الإمام الرضا ـ عليه السلام ـ كلام أبيه وكلام جدّه جعفر الصادق عليه السلام في المعنى نفسه قال : أمّا الغابر فما تقدّم من علمنا ، وأمّا المزبور فما يأتينا ، وأمّا النكْت في القلوب فإلهام ، وأمّا النقر في الأسماع فأمرُ المَلَك ".[٤٩]

ووصف الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ علاقته بالمحدِّث فقال :إنّه يسمعُ الصوت ولا يرى الشخص ، فقلت له: جُعلتُ فداك ، كيف يَعلم أنّه كلام المَلَك؟ قال إنّه يُعطَى السكينة والوَقار حتى يَعلم أنّه كلام مَلَك ".[٥٠]

ويبدو لي أنّ ذكر وجوه العلم على نحو ما قال الإمام موسى بن جعفر ـ عليه السلام ـ هو الكمال في معارفهم ؛ لأنّ ذلك يجعل الإمام يعرف كلّ شيء ، يعرف أخبار الماضين من الأنبياء والأوصياء وماحدث لهم وما دار في أيامهم من أحداث ، ويعرف ما يأتي الإئمة ـ عليهم السلام ـ من أحداث ومعارف ، وأمّا ما يُلهمه الله ـ تعالى ـ للأئمة المعصومين فهو مورد معرفيّ لاينقطع يمدّهم بكل شاردة وواردة يُسأل عنها الإمام ، أوما يَطلب الإمام معرفته عن أخبار الغيب ، أو العلم بما سيحدث . ولا أظنّ أنّ أحدًا غير الإمام يعرف من العلوم والمعارف مثل هذه الوجوه الشاملة الجامعة لكلّ المعارف التي لا تكتمل إلا في عقل الإمام وقلبه .

وكان الأئمة يشبهون بذلك مَن سبقهم من المحدّثين الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم وقد أكّد ذلك الإمام محمد الباقر ـ عليه السلام ـ الذي قال إنّ الأئمة يشبهون صاحب موسى ، أو صاحب سليمان ،أوذا القرنين ثم قال عليه السلام أوَ ما بَلَغَكم أنّه قال : وفيكم مثله .[٥١]

ومثله ما روي عنه وعن الإمام جعفر الصادق ـ عليه السلام ـ حين سأل بُريد بن معاوية ما منزلتكم ؟ ومن تشبهون ممّن مض ؟قال :" صاحب موسى ، وذو القرنين كانا عالمين ولم يكونا نبيّين ".[٥٢]

ومّا تقدّم من أدلة وأقوال يتبيّن لنا أمران مهمّان ينبغي الإيمان بهما وإشاعتهما في ميادين المعرفة

الإسلاميّة ، ونشرهما بين المثقفين لبيان الفرق بين الإمام العالم كامل المعرفة ليكون حجة الله في أرضه وبين مدّعي الإمامة ، ومدّعي العلم في جانب من جوانبه أو عدد من جوانبه من دون الكمال في المعرفة وهما :

١ـ كمال معرفة الإمام المعصوم ـ عليه السلام ـ بوراثة علوم الأنبياء والأوصياء منذ آدم حتى محمد ـ عليه وعليهم صلوات الله وسلامه ـ وبما يأتيهم من معارف من الله ـ سبحانه وتعالى ـ من طريق الزقّ ، أو الغرّ ، أو الإسرار أو الإلهام أو النقر في الأسماع ، أو القذف في القلوب وتلك من هبات الله ـ تعالى ـ لهم ومِن فيض نعمه عليهم ، فاكتملت عند كلّ واحد منهم كلّ العلوم والمعارف عن الكون والكائنات وما يكون من أحداث في المستقبل وليس في الأمة من اكتملت عنده تلك المعارف من غير الأنبياء والأوصياء بل صرّح أحد الأئمة بأنّ ما لديهم يفوق ماعند الأنبياء لأنّهم علمواعلم الأنبياء وما سيحدث ولم يعلم الأنبياء مثل ذلك٠ ومهما يكن علمهم قد بلغ مرتبة الكمال فإن هذا الكمال مطلق إذا قيس بعلم البشر ، أما إذا قيس بعلم الله فهو ناقص لأنّ الكمال الإلهيّ لا يدانيه كمال ولا يقاس به علم وهذا ماصرّح به الأئمة أنفسهم فقد قال الإمام الصادق عليه السلام في حجاجه مع زنديق سأله عن جدوى خلق الحيوانات والهوام فذكر له عدداً من علل خلق الله تلك المخلوقات ثم قال " وإعلم أنّا لو وقفنا على كلّ شيء خلقه الله تعالى لمَ خلقَه ؟ ولأيّ شيء أنشأه ؟ لكنّا قد ساويناه في عِلْمه ،وعَلِمْنا كلّ ما يعلم ، واستغنينا عنه، وكنّا وهو في العلم سواء " .[٥٣]

٢ـ دلالة كمال المعرفة على إمامة الإمام المعصوم ذلك أن الإمام حجّةُ الله على أرضه ،ولا يصحّ أن يكون الإمام حجّةً وهو لا يجيب عن أي سؤال مهما كان تخصّص سائله ، فهو يُسأل في قضايا الفقه ، والعقيدة ، والتفسير، والأحاديث النبويّة ، وفي الطب ، والكيمياء، والفيزياء، وما في السموات وما في الأرض ، وأخبار الأولين والآخرين ، وما يجري على الناس من بلايا ومنايا ، وما يتحدث به الإنسان والحيوان ، والطير ، ويُسأل عمّا في التوراة ، والإنجيل ، والزبور،وما نبّأت به تلك الكتب من أخبار الأنبياء الذين يأتون بعدَ مَن أُنزِل عليه الكتاب ، وغيرها من العلوم ، فمن امتلك ناصية تلك المعارف وغيرها فهو إمام باختياررببّانيّ ،على نحو ما أوضحه الإمام الرضا والأئمة المعصومون ـ عليهم السلام ـ ومَن لم يحُز هذه المعارف الربّانيَة فهو ليس بإمام لأنّه لايكون حجّة لله على عباده يحاججهم بمعارفهم يوم القيامة لكونهم دعاة رسالة نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم والهداة من بعده،وهكذا هو الأمر من لدُن أن قُبِض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحتى تقوم الساعة وهذا ما يُفسّر غيبة الإمام الحجّة محمد بن الحسن بن علي المهدي ـ عجّل الله فرجه ـ ليكون حجّة على العباد حتى قيام الساعة .

المبحث الآخر

المعارف اللغويّة والنحويّة عند الأئمة المعصومين عليهم السلام

المطلب الأوّل : المعارف اللّغوية

للّغة في معارف الأئمة الاثني عشر عليهم السلام أهميّة كبيرة لكونها أداة التواصل وتبادل المعرفة بين الناس ،لذا جعل الله ـ تعالى ـ اللغة أداة لإيصال ما يريد إيصاله إلى البشر وهذا ما ذكره الإمام الباقر ـ عليه السلام على لسان أبيه زين العابدين ـ عليه السلام قال : فقال زين العابدين ـ عليه السلام " إنّ القرآن نزل بلغة العرب فهو يخاطب فيه أهل اللّسان بلغتهم)[٥٤]وهذا القول كرّره سيبويه في كتابه قائلا : " فإنّما أجري هذا على كلام العباد وبه أنزل القرآن " .(٥٥)وروى الإمام جعفر الصادق عن أبيه الإمام الباقر ـ عليه السلام أنّه قال لرجل وقد كلّمه بكلام كثير فقال : " أيّها الرجل تحتقر الكلام وتستصغره ، إعلم أنّ الله عزّوجلّ لم يبعث رسله حيث بعثهاومعها ذهب وفضّة ولكن بعثها بالكلام وإنّما عرّف الله ـ جلّ وعزّ ـ نفسه إلى خلقه بالكلام والدلالات عليه والأعلام "٠[٥٦]ويستطيع أيّ باحث أن يستخلص من هذا القول معرفة الإمام الباقر ـ عليه السلام بأهميّة الكلام في نقل المعلومات والأوصاف والحقائق التي عرّف بها الله ـ عزّ وجلّ ـ نفسه إلى عباده بما ذكره من أوصاف وأسماء بألفاظ صارت معانيها معروفة من جذورها اللغويّة ٠ولفظ (الكلام) في قول الإمام الباقر عليه السلام هو اللغة التي حدّها ابن جنّي بقوله " أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم " .[٥٧]ولم يقتصر الإمام ـ عليه السلام على اللغة وحدها، بأنظمتها التعبيريّة المتشابكة ،المتمثّلة بألفاظها وجملها وأساليبها في التعبير عن المعاني بل أشار إلى الدلالات وهي العلامات الدّالة على المعاني وهي ما سمّاه أهل الكلام بـ (الكلام الجليل) وهو ما يعبّر به عن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أمّا ما يعبّر به عن مخلوقات الله من بشر وحيوان ونبات وجبال وبحار وأنهاروغيرها منظم كونيّة أوجدها الله ـ تعالى ـ لإدارة الكون وكلّها دلالات على وجود الله وعظمة خلقه فتسمّى عند أهل الكلام (دقيق الكلام)٠ وفضلًا عن اللغة والدلالات في التعبير عن المعاني فقد ذكر الإمام ـ عليه السلام محمدًا صلى الله عليه وآله والأنبياء الذين سبقوه وأوصياءهم والأئمة الاثني عشر ـ عليهم صلوات الله وسلامه ـ لأنّهم الأعلام الدالّةعلى الله ـ تعالى ـ لما أودعه فيهم من علوم ومعارف ربّانيّة ، وفكر نيّر وكمال في الخلق٠وسمّاهم الإمام ـ عليه السلام ـ (الأعلام)،وهم أهم ما دلّ على وجود الله ـ تعالى ـ وبرهن على ذلك بما أظهره الله على أيديهم من معجزات وأعمال خارقة تثبت أنها حدثت بقدرة عظيم لا نظير له .

ولاشكّ في أنّ الكلام الذي عرّف الله به نفسه يتكوّن من مكوّنات بنيويّة،وأخرى معنويّة، وسمّيت

كذلك حروف البناء وحروف المعاني ٠ وقد أولى الإمام الرضا ـ عليه السلام ـ الحروف اهتماماً في بيانه خلق الله الكائنات قال في جواب عمران الصابي وهو يسأله عن الله ـ عزّ وجلّ ـ هل يُوحّد بحقيقة أم يُوحّد بوصف ؟ :

" واعلم أنّ الإبداع والمشيّة والإرادة معناها واحد ، وأسماؤها ثلاثة ، وكان أوّل إبداعه وإرادته ومشيّته الحروف التي جعلها اصلًا لكلّ شيء ، ودليلًا على كلّ مدرك وفاصلًا لكلّ مشكل.

وتلك الحروف تفريق كلّ شيء من اسم حقّ وباطل، أو فعل، أو مفعول، أو معنى، أو غير معنى ، وعليها اجتمعت الأمور كلّها، ولم يجعل للحروف في إبداعه لها معنى غير أنفسها يتناهى ولا وجود؛ لأنّها مُبدَعة بالإبداع ". (٥٨)

وأوضح الإمام ـ عليه السلام ـ حديثه عن الحروف قائلًا : والحروف هي المفعول بذلك الفعل وهي الحروف التي عليها الكلام، والعبارات كلّها، من الله ـ عزّ وجلّ ـ علّمها خلْقَه ، وهي ثلاثة وثلاثون حرفاً ، فمنها ثمانية وعشرون حرفًا تدلّ على اللّغات العربيّة ، ومن الثمانية والعشرين اثنان وعشرون حرفًا تدلّ على اللغات السريانيّة ، والعبرانيّة ، ومنها خمسة أحرف متحرّفة في سائر اللغات ، من العجم لأقاليم اللغات كلّها ، وهي خمسة أحرف تحرّفت من الثمانية والعشرين الحرف من اللغات فصارت الحروف ثلاثة وثلاثين حرفًا ". (٥٩)

وفي هذا الوصف لعدة الحروف وتقسيماتها رؤية معرفيّة شاملة تؤسّس لدراسات بعضها تناول ما يخصّ حروف اللغة العربيّة ، وبعضها يخصّ لغات شقيقة للّغة العربيّة،وهي التي تسمّى باللغات الجزريّة،أو الساميّة،ومنها اللّغة السريانيّة،واللّغة العبرانيّة،وبعضها يخصّ اللغات الأعجميّة الأخرى ٠ وهذا الوصف شامل أحاط بلغات العالم كلّها وذكر عدد حروفها .

وقد أشار إلى مثل ذلك سيبويه (ت١٨٠هـ) في وصفه حروف اللّغة العربيّة وعدّها تسعة وعشرين حرفًا وذلك بذكر الهمزة والألف وهما عند عدد من الباحثين حرف واحد قال : " فأصل حروف العربيّة تسعة وعشرون حرفًا : الهمزة ، والألف ، والهاء،والعين، والحاء، والغين ، والخاء، والكاف ، والقاف ،والضاد، والجيم ، والشين ، والياء ، واللام ، والراء ، والنون ، والطاء ،والدال ، والتاء ، والصاد ، والزاي ، والسين ، والظاء،والذال ، والثاء ، والفاء ، والباء ، والميم ، والواو "٠ (٦٠) وقد يقول أحدهم إنّ هذه القضيّة معروفة في ذلك الزمن بدليل معرفة الخليل وسيبويه ذلك فأقول إنّ الأئمة الأطهار ـ عليهم السلام ـ لايتعلمون من علوم عصرهم من طريق الدراسة والتعلّم في المساجد أو المدارس بل يتوارثون العلم من آبائهم الذين أخذوا علمهم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن مواردهم العلميّة المدوّنة الموروثة ،وهي موارد فيها علوم الأوّلين والآخرين ، ولاأستبعد

أن تكون معارف عدد من اللغويّين قد أخذوها من سماع الأئمة الأطهار لذا تقترب من آراء الأئمة ـ سلام الله عليهم . ومنها آراؤهم في الحروف .

ومن يتأمّل في كلام الإمام الرضا ـ عليه السلام ـ يجد فيه ما لم يقل به اللّغويون، ويتجلّى ذلك في حديثه عن الحروف الخاصة باللهجات الجزريّة، والحروف الخاصة بلغات الأعاجم ٠ فالحروف الخاصة باللهجات الجزرية اثنان وعشرون، وهي من ضمن الحروف العربيّة ، وهذا ما يؤكّد معرفة الأئمة عليهم السلام بما توصّل إليه الدرس المقارن في الدرس اللسانيّ المعاصر من ارتباط اللهجات الجزرية بأصلها وهو اللّغة العربيّة، وتلك موضوعة ينبغي تأصيلها من تراث الأئمة ـ عليهم السلام لما لهم فيها من ريادة في الكشف عن أصولها .

وكذلك الحال في إشارة الإمام الرضا ـ عليه السلام ـ إلى الحروف الخمسة الخاصة بلغات الأعاجم في الأمصار الأخرى وهي حروف متحرّفة من الحروف الثمانية والعشرين والمراد بالتحرّف التغيير في أصواتها.

نشأة اللّغات :

ذكر علماء اللغة نظريّات كثيرة في نشأة اللّغة فقال بعضهم بأنّها إلهام وتوقيف من الله ـ سبحانه وتعالى ـ مستدلّين بقوله تعالى { وعلّم آدم الأسماء كلّها ثمّ عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إنْ كنتم صادقين،قالوا سبحانك لاعلمَ لنا إلا ما علّمتنا إنّك أنت العليم الحكيم ،قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلمّا أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنّي أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون } (البقرة٣١ـ٣٣) وقال بعضهم بوضع اللغة في ضوء ما سمّوه بالمواضعة بحسب حاجات الناس وتغيّرها وقال بعضهم بنظرية المحاكاة لأصوات الكون كمحاكاة أصوات الطيور والحيوانات وصرير الرياح وخرير المياهوغيرها من النظريات المختلفة في نشأة اللغات .

وقد شرح الإمام الرضا ـعليه السلامـنقلًا عن آبائه أنّ الله قد خلق اللغات قبل خلق البشر، وهو كشف آخر لم يكن معروفًا في الدراسات اللغويّة فلم يعرف البشر ذلك لأنهم فوق قدراتهم المعرفية ولا يقوله إلا ذوو الكمال المعرفي وهذا ما كان مصداقه حديث الإمام الرضا عليه السلام عن الحروف التي هي أدوات التعبير في اللغات قال الإمام الرضاعليه السلام" ثمّ جعل الحروف بعد إحصائها وإحكام عدّتها فعلًا منه كقوله عزّ وجلّ {كن فيكون} (النحل ٤٠) وكُنْ منه صنع ، وما يكون به المصنوع .

فالخلقُ الأوّل من الله ـ عزّ وجلّ ـ : الإبداع ، لاوزن له ولا حركة ولا سمع ولا لون ولا حسّ .

والخلق الثاني : الحروف ، لا وزن لها ولا لون ، وهي مسموعة موصوفة غير منظور إليها .

والخلق الثالث : ما كان من الأنواع كلّها محسوسًا ملموسًا ذا ذوق منظورًا إليه والله ـ تبارك وتعالى ـ سابق للإبداع؛لأنّه ليس قبله ـ عزّ وجلّ ـ شيء ولا كان معه شيء، والابداع سابق للحروف،والحروف لا تدلّ على غير أنفسها " .(٦١)

وهذا الحديث يدلّ دلالة قاطعة على أنّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلق اللغات قبل خلق الأشياء الأخرى ولم يسبق اللغات غير الإبداع الذي هو قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ على إبداع ما لم يكن له نظير سابق له فلا يحتذي في خلقه خلقًا سابقًا ؛ بل يُبدعه إبداعًا ،ويوجده على غير مثال سابق ، ثم تأتي الأصوات ثانيًا، وهي التي تأتلف منها الكلمات، والجمل للتعبير عن المعاني؛ لذا قال الإمام ـعليه السلامعنها بأنّها (موصوفة ومسموعة) وفي ضوء ذلك خلق الله ـ تعالى ـ السمع، والنطق للإنسان.

وقول الإمام ـ عليه السلام ـ لا يثبت أنّ الله هو خالق اللغات فحسب؛ بل يثبت خلقها قبل البشر؛ لذا علّم الله ـ تعالى ـ آدم الأسماء بعد خلقه؛ لأن اللغات كانت مخلوقة قبل خلق آدم ـ عليه السلام ـ الذي كانت اللغات موجودة في حياته لأنّها مخلوقة قبل خلقه. وهذا الكشف المعرفي به حاجة إلى دراسة وتنظير جديد لما انطوى عليه من معارف لا يعلمها إلا من أوتي العلم الربّاني الكامل، وعرف أسرار الخلق قبل خلق الإنسان.

وقد أشار الإمام الرضا ـ عليه السلام ـ إلى قضيّة تبنّاها النحويون في كتبهم وهي أنّ الحروف لا تدل على معنى غير أنفسها إذا ذكرتها فردًا من غير تاليف قال ـ عليه السلام ـ: " وبابه أنّك تذكر الحروف إذا لم تُرد بها غير أنفسها، ذكرتها فردًا فقلتَ ا، ب، ت، ث، ج، ح، خ، حتى تأتي آخرها فلم تجد لها معنى غير أنفسها ".[٦٢]

وقد نسب الجاحظ إلى الإمام الباقر ـ عليه السلام ـ قوله " أوّل من فتق لسانه بالعربيّة المبينة اسماعيل وهو ابن عشر سنة "[٦٣] وهذا الحديث لا ينقض ما ذكره الإمام الرضا عليه السلام عن خلق اللغات؛ بل هو حديث عن العربيّة الشماليّة بدليل قوله المبيّنة أي التي يفهمها الناس في أيام العرب بعد البعثة النبويّة الشريفة وفي ذلك إشارة إلى اللهجات الجزريّة ومنها العبرانيّة والسريانيّة وغيرها التي سبقت اللهجة الشمالية وهذه كلّها لهجات عربية من اللغة الأم التي تحدّث عنها الإمام الرضا عليه السلام

ولم يقف الأئمة المعصومون عند تفرّعات اللغات الأولى بل أشاروا إلى لهجات العربيّة الشماليّة كذلك ومنها لهجة قريش وغيرها من اللهجات.

الاشتقاق في اللّغة :

وهو أخذ ألفاظ من لفظ أي من الجذر أو الأصل، ويبدو أنّ الاشتقاق كان معروفاً عند رسول الله ـ ﷺ فقدروي عنه أنّه قال في ردّه على يهوديّ قال له أوَلستم تقولون إنّ إبراهيم خليلُ الله؟ قال قد قلنا ذلك ، قال فإذا قلتم ذلك فلِمَ منعتمونا من أنْ نقول إنّ عيسى ابن الله؟ فقال رسول الله ﷺ : "إنّهما لن يشتبها؛ لأنّ قولنا إبراهيم خليل الله فإنّما هومشتقّ من الخِلّة والخلّة إنّما معناها الفقروالفاقة، فقد كان خليلًا إلى ربّه فقيرًا،وإليه منقطعاً" .(٦٤)

وعن الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب ـ عليه السلام أنّه سُمّي حسنًا يوم السابع، واشتقّ من اسم الحسن حسينًا .(٦٥)

ويرى الإمام الباقر عليه السلام أنّ لفظة الروح مشتقّة من الريح على الرغم من اختلافهما في الجذرقال في تفسير قوله تعالى{ ونفختُ فيه من روحي }(الحجر ٢٩)" إنّ الروح متحرّك كالريح، إنّما سُمّيروحًا لأنّه اشتقّاسمه من الريحوإنّما أخرجه من لفظة الريح لأنّ الروح متجانس للريح " .(٦٦)

وتحدّث الإمام الصادق عليه السلام عن اشتقاق لفظة (الله) فقال " الله مشتقّ من إِلَهٍ وإِلَهٌ يقتضي مألوهًا"(٦٧) وهذه الإشارات للاشتقاق اللغوي تدلّ على ريادتهم لهذا النوع من المعرفة لكون نطق النبيّ ﷺ بلفظ الاشتقاق ومعرفته مفهومه وكذلك الإئمة الأطهار دليلًا على أنّهم كانوا يعرفون كنه الاشتقاق وتفصيلاته وقد فتحت هذه الإشارات الآفاق لتطوّر الدراسات في الاشتقاق وأقسامه التي تحدّث عنها ابن جنّي وغيره كالاشتقاق الكبير والأكبر والكبّار .(٦٨)

وكذلك ذكر الأئمة الضد والأضداد من غير التوغل في تفصيلات ذلك قال الإمام علي ـ عليه السلام فيما رواه الإمام الصادق ـ عليه السلام عنه في حديثه عن الله ـ تعالى ـ " عُرف أن لا جوهر له وبمضادته بين الأشياء عُرف أن لا ضدّ له ،وبمقارنته بين الأشياء عُرف أن لا قرين له ، ضادّ النور بالظلمة ، واليُبس بالبلل ، والخشِن باللّين ،والصّرْد بال حَرور " .(٦٩)

و قال الإمام الجواد ـ عليه السلام " فربّنا تبارك وتعالى لا شبه له ولا ضدّ ولا ندّ " .(٧٠)

وربط الإمام الجواد ـ عليه السلام بين الضد والنفي ففسّر الضد من العالم بذكر منفيّه فقال ـ عليه السلام " وكذلك قولك عالم إنّما نفيتَ بالكلمة الجهل ، وجعلت الجهل سواه " .(٧١)

وهذه الإشارات تدلّ على معرفة الأئمة المعصومين ـ عليهم السلام ـ بهذه الموضوعات ومصطلحاتها قبل غيرهم،وكانوا روّادًا في معرفتها لا من دراسة أو تعلّم ، ولكن من فيض كمالهم المعرفيّ الذي أسبغه الله ـ تعالى ـ عليهم؛ فألهمهم معرفة هذه الفنون قبل أن يعرفها علماء اللغة، وربّما أخذ علماء اللغة مصطلحاتها من الأئمة المعصومين ذلك أنّ انشغالهم بالقضايا الفقهيّة والعقيديّة وما تتطلّبه إمامة المسلمين من انشغال في تصريف أمور الناس جعلهم لايتوغّلون في التفصيلات والتشعّبات في مثل هذه الموضوعات اللغويّة .

النقد اللغويّ :

تتجلّى العبقريّة العلميّة للإئمة المعصومين النابعة من كمالهم المعرفيّ،في قدرتهم على معرفة أسرار اللغة، ومواطن وضع كلّ حرف في موضعه ، فلم يقتصروا في ذلك على ما قالوه من نصوص بليغة تقترب من مرتبة التفرّد في فصاحتها ، وبلاغتها ، وتقارب أنماط التعبيرفيها،فلا يفوقها في الفصاحة والبلاغة إلّا نصوص القرآن الكريم ، بل تخطّوابهذه القدرات اللغويّة العظيمة إلى الكشف عن سرّ اختيار عدد من الأساليب في القرآن الكريم، وبيان ما يناظرها في الاستعمال العربي في الموروث اللسانيّ والإشارة إلى المجاز والحقيقة في ذلك الاستعمال فقد ورد حديث للإمام عليّبن الحسين ﷺ يذكر فيه حال من مسخهم اللهقردة من بني اسرائيل ويحكي قصتهم فلمّا بلغ آخرهاقال إنّ الله تعالى مسخ أولئك القوم لاصطيادهم السمك ،فكيف ترى عند الله ـ عزّوجلّ ـ يكون حال من قتل أولاد رسول الله ﷺ وهتك حريمه ؟ وقال الباقر ﷺفلمّا حدّث علي بن الحسين بهذا الحديثقال له بعض من في مجلسه: يابن رسول الله كيف يعاقب الله ويوبّخ هؤلاء الأخلاف على قبائل أتاها أسلافهم وهو يقول {ولا تزر وازرة وزر أخرى }؟ فقال زين العابدين ﷺ" إنّ القرآن نزل بلغة العرب؛فهو يخاطب فيه أهل اللسان بلغتهم ، يقول الرجل التميميّ قد أغار قومه على بلدٍ وقتلوا مَن فيه : أغرتم على بلد كذا، وفعلتم كذا ، ويقول العربي : نحن فعلنا ببني فلان ، ونحن سبينا آل فلان ، ونحن خرّبنا بلد كذا ، لا يريد أنّهم باشروا ذلك ، ولكن يريد هؤلاء بالعذل، وأولئك بالافتخار، أنّ قومهم فعلوا كذا ، وقولُ الله عزّو جلّ في هذه الآيات إنّما هو توبيخ لأسلافهم ، وتوبيخ العذل على هؤلاء الموجودين ، لأنّ ذلك هو اللغة التي نزل بها القرآن ، والآن هؤلاء الأخلاف أيضًا راضون بما فعل أسلافهم، مصوبون لهم ؛فجاز أن يقال : أنتم فعلتم أي إذا رضيتم قبيح فعلهم". (٧٢)

وهذا الربط التحليليّ بين أساليب القرآن،ولغة العرب ، تحليل دقيق يدلّ على معرفة الأئمة بكلّ أساليب العرب موازنة بأساليب القرآن الكريم؛لذا كان المعصوم يصوّبُ الأساليب إذا لم ترد على لغة العرب وأساليبها ،وفي كلام الإمام زين العابدين ـ ﷺفتح جديد في التحليل اللغوي وربط أساليب القرآن الكريم بما يناظرها من كلام العرب لم يسبقه إليه لغوي ولا ناقد ، بل هو كشف جديد في التحليل اللغوي أهله له هبة الله للأئمة المعصومين بكمالهم المعرفيّ الذي لم يألفه الناس من حولهم ٠ ومن ذلك ما روي عن الإمام الباقر ﷺأنّ الكميت أنشد بين يديه أبياتًا يقول فيها :

مَنْ لِقلبٍ متيّمٍ مُسْتَهامِ غيرُ ما صَبْوةٍ ولا أحلامِ

فلمّا بلغ إلى قوله :

أخلصَ اللهُ لي هوايَ فما أغـ رقُ نزعًا ولا تطيشُ سهامي

فقال عليه السلام (أغرق نزعًا وما تطيشُ سهامي) فقال يامولاي أنت أشعر منّي في هذا المعنى .[٧٣]

وفي هذا النصّ دليل على القدرة الفائقة للأئمة المعصومين من معرفتهم بمواقع الحروف وهو علم عدّه البلاغيون والنقّاد أعلى مراتب معرفة أسرار اللغة وهو ما صرّح به أبو هلال العسكري ، فقد وجد الإمام الباقر ـ عليه السلام ـ أنّ أداة النفي (ما) أوقع في النفس من (لا) لمجانستها (ما) التي قبلها في قوله (فماأغرق) لذا تأتي (لا) غير منسجمة مع (ما) فيكون التكرار ألزم للتأكيد والتأثير في النفس ٠ والأمثلة على عمق معرفة الأئمة المعصومين ـ عليهم السلام ـ بأسرار اللغة ووضع الحروف في مواضعها كثيرة يضطرّنا الاختصار إلى الاجتزاء بما ذكرته من أمثلة .

المطلب الثاني :المعارف النحويّة والصرفيّة

لا أكشف سرّاً إذا قلت أنّ الإمام علي بن أبي طالب -عليه السلام- أوّل من وضع النحو وأرسى أسسه في ضوء ما ذكرته عن كماله المعرفيّ وكون علمه علمًا ربّانيّاً ورثه عن النبيّ محمّد-صلى الله عليه وآله وسلم- والأنبياء الآخرين -عليهم السلام- وفي ضوء ما أوردته في هذا البحث عن نشأة اللغات التي ثبت أنّها بتوقيف وإلهام ربّانيّ؛ لذا يأتي وضع الإمام علي بن أبي طالب -عليه السلام- أسس النحو العربي نتيجة منطقيّة لهذه المقدّمات ٠ ومع ذلك أسوق عدداً من المقولات للنحويّين الأوائل ترفد هذه النتيجة ببراهين أخَر، فقد أجمعت المصادر التي أرّخت لنشأة النحو العربي أنّ الإمام علي -عليه السلام- دعا أبا الأسود الدؤلي إلى أن ينحو نحو ما وضعه في الصحيفة التي كتبها الإمام -عليه السلام- لأبي الأسود الدؤلي. (٧٤)

قال أبو الطيّب اللّغويّ متحدّثًا عمّا وضعه أبو الأسود الدؤلي بعد ذكر سلسلة من الرواة قال" حدّثنا محمد بن يزيد قال حدّثنا أبو عمر الجرميّ عن الخليل قالوا : وكان أبو الأسود أخذ ذلك عن أمير المؤمنين علي -عليه السلام- لأنّه سمع لحنًا فقال لأبي الأسوداجعل للناس حروفًا وأشار لهإلى الرفع والنصب والجرّ فكان أبو الأسود ضنينًا بما أخذه من ذلك عن أمير المؤمنين-عليه السلام-٠(٧٥) وقال القفطي "قال أبو الأسود الدؤلي - رحمه الله - دخلت على أمير المؤمنين علي -عليه السلام- فرأيته مطرقًا مفكّرًا فقلت فيمَ تفكّر يا أمير المؤمنين ؟ فقال سمعت ببلدكم لحنًافأردت أن أضع كتابًافي أصول العربيّة فقلت له : إنْ فعلتَ أبقيتَ فينا هذه اللغة العربيّة ، ثمّ أتيته بعد أيام فألقى إليّ صحيفة فيها[بسم الله الرحمن الرحيم ، الكلام كلّه اسم،وفعل، وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمّى ،والفعل ما أنبأ عن حركة المسمّى ،والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل ، ثمّ قال تتبّعْه وزدْ فيه ما وقع لك ، واعلم أنّ الأشياء ثلاثة ظاهر ، ومضمر ،وشيء ليس بظاهر ولا مضمر ،وإنّما يتفاضل العلماء في معرفة ما ليس بمضمر لا ظاهر ، فجمعتُ أشياء وعرضتُها عليه فكان من ذلك حروفُ النصب فذكرت منها إنّ ، وليتَ ،ولعلّ ،وكأنّ ، ولم أذكر ، لكنّ ، فقلت لم أحسبها منها، فقال بل هي منها فزدها فيها] " .(٧٦)

وفي هذا الموضوع أكثرمن رواية،ورأي ناقشها المحدثون بتفصيل طويل لاأجد مجالا لذكرتفاصيلها(٧٧)

ولاشكّ في أنّ الذي يعرف أسرار لغته وأسرار اللغات الأخرى في ضوء كماله المعرفيّ لايشقّ عليه وضع أسس نحو هذه اللغة وإيضاح بعض خصائصها كالاشتقاق والتضاد والاشتراك وغير ذلك من علوم العربيّة والإمام عليّ رائدٌ في ذلك لم يسبقه أحد إذ المعروف أنّ العرب لم يعرفوا الدرس النحوي إلّا بعد ما فتح الإمام علي -عليه السلام- أبوابه لأنّه كامل المعرفة وباب مدينة العلم .

ومن ملامح معرفة الأئمّة المعصومين ـ عليهم السلام ـ العميقة بالنحو والصرف ما ورد عنهم في حوارهم مع المعاندين والمنكرين في قضايا (الكلام الجليل) الخاص بالله عزّوجلّ ـ وهي حوارات طويلة ابتدأت في زمن الإمام علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ واستمرت في حياة الأئمة الذين أتيحت لهم فرص الحوار بحريّة كالأمام الباقر والإمام جعفر الصادق والإمام الرضا والإمام الجواد ـ عليهم السلام ـ فكانوا ـ عليهم السلام ـ يفصلون فيها بين الأسماء والصفات كونها ألفاظًا مكوّنة من حروف هجاء ؛ وبين ما تدلّ عليه، وهذا ما أوضحه كثير منهم ، فقد قال الإمام الباقر عليه السلام " إنّ مَن عبدَ الاسم دون المسمّى بالأسماء أشرك ،وكفر، وجحد، ولم يعبدشيئًا؛ بل اعبد الله الواحد الأحد الصمد المسمّى بهذه الأسماء دون الأسماء إنّ الأسماء صفات وصف بها نفسه " .[٧٨]

وأوضح الإمام الصادق عليه السلام ذلك بقوله " من عبدَ الاسمَ دون المعنى فقد كفر، ومن عبدَالاسم والمعنى فقد أشرك ،ومن عبد المعنى بإيقاع الأسماء عليه بصفاته التي وصف بها نفسه فعقد عليه قلبه ونطق به لسانه في سرائره وعلانيته فأولئك أصحاب أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ حقًّا " .[٧٩] وقال الإمام محمد الجواد عليه السلام "والأسماء والصفات مخلوقات ، والمعاني والمعنيّبها هو الله الذي لايليق به الاختلاف ولا الائتلاف ، وإنّما يختلف ويأتلف المتجزّئ فلا يقال : الله مؤتلف ".[٨٠]

وقال الإمام الهادي ـ عليه السلام ـ في نفي وحدانيّة الإنسان " إنّما التشبيه في المعاني، فأمّا الأسماء فهي واحدة ،وهي دالّة على المسمّى ، وذلك أنّ الإنسان وإنْ قيل واحد فإنّه يخبر أنّه جثة واحدة، وليس باثنين، والإنسان نفسه ليس بواحد لأنّ أعضاءه مختلفة وألوانه مختلفة ، ومَن ألوانه مختلفة غير واحد وهو أجزاء مجزّأة ليست بسواء دمه غير لحمه ولحمه غير دمه ، وعصبه غير عروقه ، وشعره غير بشره،وسواده غير بياضه،وكذلك سائرجميع الخلق،فالإنسان واحد في الاسم ولا واحد في المعنى،والله جلّ جلاله هو واحد لا واحد غيره،لااختلاف فيه ولا تفاوت ولا زيادة ولا نقصان،فأمّا الانسان المخلوق المصنوع المؤلّف من أجزاء مختلفة وجواهرشتى غيرأنّه بالاجتماع شيء واحد " .[٨١]

ومن هذه النصّوصوغيرها تتفرّع دراسات نحويّة كثيرة لا مجال للحديث عنها جميعًا لذا أختار منها ثلاثةموضوعات هي:الأسماء،والصفات،والجمل وأشباه الجمل،وقد درست هذه الموضوعات بتفصيل في عدد من كتبي،وسأشير هنا إشارات إلى ورود مايقرب من ذلك في كتب النحو، قال ابن السرّاج في شرح الاسم "الاسم ما دلّ على معنى مفرد وذلك المعنى يكون شخصا وغير شخص" .[٨٢]

وما ذكره ابن السرّاج مستقى من أقوال الأئمة المعصومين في الاسم والمسمى،والمسمّى عنده هو المعنى المفرد

الوارد في حدّه ، ومعلوم أنّ الدالّ (الاسم) غير المدلول وهو المسمّى(المعنى المفرد) وهو ما ذهب إليه الكملةُ في المعرفة﵇.

وقسّم الزمخشري الاسم أقسامًا قال "ومن أصناف الاسم اسم الجنس ، وهو ما علق على شيء وعلى كلّ ما أشبهه، وينقسم إلى اسم عين واسم معنى ، وكلاهما ينقسم إلى اسم غير صفة ، واسم هو صفة ٠ فالاسم غير الصفة نحو رجل وفرسوعلم وجهل ، والصفة نحو راكب وجالس ومفهوم ومضمر". (٨٣) كماأولى النحويون الأسماء والصفات اهتماماً واسعا تحدّثوا فيه عن تعريف الاسم وتنكيره، وإفراده وتثنيته وجمعه، وتأنيثه وتذكيره ، وفاعليته ومفعوليته وإضافته ، وغيرها من الموضوعات التي لاموجب للتفصيل فيها وأكثر هذه المعارف وردت ضمنا في أقوال الأئمة المعصومين ـ﵇وكانوا روّادا في معرفتهم في ضمن منظوماتهم المعرفيّة .

وثمّة قضيّة مهمة استوفاها النحويون شرحاً وتفصيلاً هي الائتلاف التي وردت في كلام الأئمة ﵇ كقول الإمام الرضا﵇في تفريقه بين وحدانية الله ووحدانية الإنسان "فالإنسان واحد في الاسم لاواحد في المعنى،والله جلّ جلاله واحد لاواحد غيره،لااختلاف فيه،ولا تفاوت،ولا زيادة ولا نقصان ، فأمّا الإنسان المخلوق المصنوع المؤلّف من أجزاء مختلفة وجواهر شتى غير أنّه بالاجتماع شيء واحد " .(٨٤) فالألفاظ الواردة في نصّي الإمامين الرضا والجواد ـ﵇ (المؤلّف) و(بالاجتماع) (الاختلاف والائتلاف) و (يأتلف) هي ألفاظ أخذها أهل الكلام فيما بعد من الأئمة المعصومين ولاسيّما الإمام علي ـ﵇ثَمّ أخذها النحويون من أهل الكلام الذين قالوا بحالات الجواهر ومنها (الاجتماع والافتراق) بين الجواهر، فأخذ النحويون فكرة الاجتماع والائتلاف وبنوا عليها مقولاتهم في ائتلاف الألفاظ واجتماعها فيما سُمّي بعد بالجمل ،قال ابن السرّاج في حديثه عن الاسم " الضرب الأول :أن يُبنى عليه اسم مثله ويأتلف باجتماعهما الكلام ويتم ".(٨٥) وقال أيضا " والذي يأتلف منه الكلام الثلاثة الاسم والفعل والحرف ، فالاسم قد يأتلف مع الاسم نحو قولك : الله إلهنا ويأتلف الاسم والفعل نحو قام عمرو" .(٨٦)

ألا ترى إلى أنّ ابن السرّاج جمع الاصطلاح الكلاميّ (الاجتماع) والاصطلاح النحويّ (الائتلاف) الذي يراد به ائتلاف فعل واسم لتأليف جملة فعليّة ، وائتلاف اسم واسم لتأليف جملة اسميّة ، وقد توسّع في هذه المباحث من بعده أبو علي الفارسي الذي ربط بين مصطلحات (الإئتلاف) و(الكلام) و(الجملة) قال : (باب ما إذا ائتلف من هذه الكلم الثلاث كان كلامًا مستقلّافالاسم يأتلف مع الاسم فيكون كلامًا مفيدًا

كقولنا (عمرٌو أخوك) و(بشرٌ صاحبُك) ويأتلف الفعل مع الاسم فيكون كذلك كقولنا (كتبَ عبدُ الله) و(سُرّ بكرٌ) ومن ذلك (زيدٌ في الدار) ويدخل الحرف على كلّ واحدمن الجملتينفيكون كلامًا) .(٨٧)

وسمّى الزمخشري أحد كتبه (المفرد والمؤلّف)٠ولي في ذلك تفصيلات كثيرة .(٨٨)

ولا شكّ في أنّ البحث في المؤتلف من الكلام هو الأساس في البحث النحويّ لأن الجملة هي أصغر وحدة في الكلام يحسن السكوت عليها ، وقد وردت الإشارة الأولى إلى الجملة في صحيفة الإمام علي ـعليه السلامبقوله (الكلام) كلّه اسم وفعل وحرف ، والكلام هو المصطلح الذي ورد في كتاب سيبويه للتعبير عن الجملة، ولم يرد في كتابه مصطلح الجملة، وهذه الإشارات عند المعصومين عليهم السلام سواء في النحو أم في علم الكلام هي التي استقرت في مباحث النحويين وشاعت في كتبهم .

وأرى أنّ ورود هذه المعارف اللغويّة والنحويّة ولاسيما (الكلام) أو الجملة عند الأئمة المعصومين ـعليهم السلامهو فتح آخر فيما قدّموه من بحار علومهم التي هي نافذة مضيئة ترينا مصداق القول بكمال معارفهم ٠

وتُعد الدلالة النحويّة الركن الأهم في الدرس النحويّ؛ لكون النحو يبحث في المعاني وما يدلّ عليها، من ألفاظ، وجمل،وقدعبّرالنحويّون عن المعنى بالفائدة أو المعنى ٠ ومن أوّل الإشارات التي بُني عليها علم الدلالة النحويّة التي وردت في صحيفة الإمام علي ـعليه السلام، في قوله : (الاسم ما أنبأ عن المسمّى ، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرفما أنبأ عن معنى ليس باسم ولافعل)وأنبأ هنا يراد به الدلالة ،وقد كرّر الزجاجيّ المصطلح (أنبأ) في حد الفعل في قوله : (الفعل ما أنبأ عن حركة الفاعلين).(٨٩) واستعمل النحويون فيما بعد لفظ (دلّ) مرادفًا للفظ (أنبأ) كقولهم الفعل ما دلّ على حدث مقترن بزمن ٠

وأقوال الأئمة المعصومين عليهم السلام في النصوص التي أوردتها آنفا تؤكّد أنّ الاسم غير المسمّى وهودليل على معرفتهم أنّ الاسم يدلّ على المسمّى، فالاسم لفظ دالّ ، والمسمّى معنى دلّ عليه الاسم وأرادوا بالاسم اللفظ الألف واللام المضعّفة والهاء (الله) ، في حين أنّ (الله) ـ جلّ وتعالى ـ الذي نعبده غير هذه الحروف بل هو خالق كلّ شيء . وهذا التفريق بين الاسم والمسمّى هو ما دارت عليه فيما بعد بحوث علماء الدلالة ، والأصوليين ، والفلاسفة والنحويين واللّسانيين وغيرهم ٠فكان ما ذهب إليه أهل الكمال المعرفي عليهم السلام كشفًا للدراسات الدلالية فضلًا عن حديثهم في موضوعات دلاليّة أخرى .

ومن الشواهد على معرفتهم بالدلالة النحويّة ما أُثر عن النبيّ محمّدصلى الله عليه وآله وسلمأنّه قال في ردّه على ما قاله

النضر بن الحارث " يا ويل امّه أما علم أنّ (ما) لما لا يعقل ، و(مّن) لمن يعقل ". (٩٠)

ومنها ما أورده الإمام الرضا ـ عليه السلام ـ في حواره مع ابن قرّة النصرانيّ الذي قال عن الله ـ تعالى ـ إنّه مِنَ الله فقال الإمام ما تريد بقولك مِن ؟

و(مِن)على أربعة أوجه لا خامس لها : أتريد بقولك (مِن) كالبعض من الكلّفيكون منبعضًا، أو كالخلّ من الخمر ، فيكون على سبيل الاستحالة ، أو كالولد من الوالد فيكون على سبيل المناكحة ، أو كالصنعة من الصانع ، فيكون على سبيل المخلوق من الخالق أو عندك وجه آخر فتعرّفناه فانقطع . (٩١)

وورد في كلام الأئمة المعصومين عليهم السلام ذكر لصيغ صارت من المصطلحات النحويّة المألوفة في كتب النحويين ومن شواهد ذلك أقتطع من أقوالهم مقاطع أستدلّ بها على ذلك واجتزئ بأقوال الإمام علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ لقدم زمانه على زمن التفكير النحويّ ليكتسب صفة التأسيس ذلك أنّ النحويين وأهل الكلام لم يكونوا في ذلك الوقت قد بدؤوا بعدُ بمرحلة التفكير في النحو ولا في علم الكلام لذا كان الإمام علي بن أبي طالب هو المفكّر الأول في هذا الميدان ، وعنه أخذ الأئمة المعصومون المصطلحات نفسها في حديثهم عن التوحيد وفي ردّ المنكرين وغير الموحدين ولبيان انطباق ما ورد في كلام الإمام علي ـ عليه السلام ـ على المصطلحات النحويّة التي ظهرت بعد أكثر من ستين عاماً أو أكثر بأثر تداول أبنائه المصطلحات نفسها وشيوعها بين المتكلمين، ومن ثَمّ بين النحويين أورد مقاطع من أقواله عليه السلام.

قال عليه السلام في الله ـ تعالى ـ " الذي ليس لصفته حدّ محدود ولا نعت موجود ولا وقت معدود...وكمال الإخلاص لهنفي الصفات عنه لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف وشهادة كلّ موصوف أنّه غير الصفة... ومن أ شار إليه فقد حدّه ، ومن حدّه عدّه ، ومن قال فيمَ؟ فقد ضمّنه، ومن قال علامَ ؟ فقد أخلى عنه، كائن لا عن حدث ...فاعل لا بمعنى الحركات والآلة... أنشأ الخلق إنشاءً ، وابتدأه ابتداءً ". (٩٢)

وقال عليه السلام في خطبة أخرى " لاتناله الأوهام فتقدّره ولا تتوهمه الفطن فتصوّره ولا تدركه الحواسّ فتحسّه ولا تمسّه الأيدي فتمسّه، ولا يتغيّر بحال ، ولا يتبدّل بالأحوال ، ولا تبليه الليالي والأيام ، ولا يغيّره الضياء والظلام ، ولا يوصف بشيء من الأجزاء ، ولا الجوارح والأعضاء ولا بالغيرية والأبعاض ولا يقال له حدّ ولا نهاية، ولا انقطاع ولا غاية ... كذلك يكون بعد فنائها لاوقت ولا مكان ولا حين ولا زمان ". (٩٣)

وقال عليه السلام فيخطبة أخرى رواها الإمام جعفر الصادق ـ عليه السلام " ظاهر لا بتأويل المباشرة ، متجلّ لا

باستهلال رؤية ، ناء لابمسافة قريب لا بمداناة ...فاعل لاباضطرار، مقدّر لا بحركة...سميع لا بآلة ، بصير لا بأداة ، لا تحويه الأماكن ، ولا تضمّنه الأوقات ، ولا تحدّه الصفات " .(٩٤) ومن يتأمّل في هذه النصوص يجد أن الإمام علي بن أبي طالب أوّل من وضع المصطلحات النحوية التي اقتبسها أهلُ الكلام من الأئمة المعصومين من بعده ، ثم انتقلت إلى النحويّين ـ كما ذكرت ـ من غير تغيير في بناها الصرفيّة أوأنّهم أخذوا جذر المصطلح واشتقوا منه المصطلح وما أذكره من المصطلحات نزر يسير فالمصطلحات النحويّة واللغويّة التي وردت في كلام الأئمة المعصومين كثيرة جدّا ينبغي تتبّعها وإحصاؤها في بحث يختص بذلك لنثبت أنّ الأئمة الأطهارقد وضعوا تلك المصطلحات وأخذها منهم العلماء ، فضلًا عن أنّ الأمام علي بن أبي طالب هو المؤسس الأول لهذا العلم فهو واضع الصحيفة التي أعطاها أبا الأسود الدؤلي ، وهو واضع مصطلحات النحو التي لم يسبقه إليها أحد٠ وأهمّ تلك المصطلحات التي وردت في خطب الإمام ـ عليه السلام: الفعل ،والفاعل، والمفعول ،والاسم والمسمّى ، والجوهر،والمعنى ،واللفظ، والصفة أوالنعت والموصوف ، والحال ، والمضاف والمضاف إليه ، والآلة ، والأداة ، والتبعيض، والغاية ، والابتداء ، والإخبار، والإنشاء ، والحدّ ، والزمان، والمكان ، والحواس وأفعالها ، والتقدير ، والحركة ، والسكون ، والحدث(المصدر)والاستحالة (أفعال التحويل) والمؤتلف ، والنفي ، والتأويل ، والتضمين ، والظاهر والمضمر والدلالة على ما يعقل وما لايعقل، والدلالة على الشك واليقين ، والماضي ،والحاضر،والمستقبل،والدائم ودلالات أسماء الاستفهام التي وردت في النصوص وغيرها ممّا لايسعني ذكر مواطن ورودها من نصوص لكثرتها لذا أجتزئ بما ذكرته على سبيل التمثيل .

وأرى أنّ ورود هذه المصطلحات والأفكار المعبّرة عنها وما أبدعه الإمام علي ـ عليه السلام في الفكر النحوي دليل على أنّ معارفه لم تكن معارف مكتسبة من المجتمع الذي عاش فيه ؛ بل هي معارف ربّانيّة علّمها الله سبحانه وتعالى نبيّنا الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بالوحي والإلهام ، وزقّها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وصيّه الإمام علي ـ عليه السلام زقّا كما صرّح هو بذلك في قوله " هذا لعاب رسول الله هذا ما زقّني رسول الله علّمني رسول الله ألف باب من العلم ينفتح لي من كلّ باب ألف باب. (٩٥) .

وفي هذا الكشف عن مكنونات علم لم يكن معروفًا عند العرب دليل على الكمال المعرفي الذي وهبه الله للأئمة المعصومين،فارتادوا الأبواب كلّها ومنها أبواب المعارف اللغويّة والنحويّة التي لم يفكرعربيّ أو مسلم في ريادتها قبل النبيّ والأئمة المعصومين ـ عليهم السلام وبذلك فتحوا لنا مغلقات تلك العلوم .

المطلب الثالث : معرفة اللغات غير العربيّة :

وهذا من الموضوعات المهمّة التي ينبغي أنْ تأخذ حيّزاً من الفكر الإسلاميّ؛ لأنّها قضيّة خارقة للعادة في المعارف البشريّة،لعدم قدرة الإنسان تعلّم لغات غير لغته الأصليّة، من غير أن يسمع هذه اللغات ويخالط المتكلمين بها ، وحفظ ألفاظها، ومعاني تلك الألفاظ، ونُظم ائتلافها، ودلالات جملها ، وأصوات حروفها ، وبناء أبنيتها فلا يتكلّم الإنسان إلّا لغة قومه التي يتعلّمها بالسماع والدِربة على نطق مكوّناتها منذ الطفولة ، أمّا إذا شاء تعلّم لغة أخرى؛ فلابدّ من السفر إلى البلد الذي ينطق أهله بتلك اللّغة،أو يسمع من بعض أهل البلد في غيرموطنها،لكنّ ما جرى للأئمة المعصومين خارق لما هو معروف، فالأئمة الاثناعشر جميعاً يتكلمون بلغات أعجميّة كثيرة؛بل يكلّمون كلّ قوم بلغتهم،مهمااختلفت الأقوام وتعدّدت ، وتلك من الكرامات التي خصّ الله بها أولياءه الذين ورثوا علوم الأولين والآخرين .

ولتسليط الضوء على هذه الظاهرة النادرة في الحياة الاسلاميّة أذكر عدداً من الروايات التي يحجبها كثير من المؤرخين،ووُعّاظ السلاطين؛ لخطورة أثرها على الحكّام المعاصرين للأئمة المعصومين الذين خُصّوا بهذه المعارف المعجزة،ومنها هذه الرواية التي يفسّرفيها الإمام الصادق سرّ معرفة الإئمة المعصومين لغات الأرض ولاسيّما التي نزلت بها كتب الأنبياء ـ عليهم السلام " علي بن إبراهيم، عن أبيه ،عن الحسن بن إبراهيم ، عن يونس ، عن هشام بن الحكم في حديث بُرَيه أنّه لّما جاء معه إلى أبي عبد الله ـ عليه السلام ـ فلقي أبا الحسن موسى بن جعفر ـ عليه السلام ـ فحكى له هشام الحكاية فلما فرغ قال أبو الحسن ـ عليه السلام ـ لبُريه يا بُريه كيف علمك بكتابك؟ قال أنا به عالم ، ثمّ قال : كيف ثقتُك بتأويله ؟ قال ما أوثقني بعلمي فيه ،قال فابتدأ أبو الحسن ـ عليه السلام ـ يقرأ الإنجيل ، فقال بُريه : إيّاك كنت أطلب منذ خمسين سنة أو مثلك، فآمن بريه وحسُن إيمانهوآمنت المرأة التي كانت معه ،فدخل هشام وبريه والمرأة على أبي عبد الله ـ عليه السلام ـ فحكى له هشام الكلام الذي جرى بين أبي الحسن موسى ـ عليه السلام ـ وبين بُريه فقال أبو عبد الله ـ عليه السلام ـ ذريّةً بعضها من بعض والله سميع عليم ، فقال بُريه : أنّى لكم التوراة والإنجيل وكتب الأنبياء ؟ قال هي عندنا وراثة من عندهم نقرؤها كما قرؤوها ، ونقولها كما قالوا ، إنّ الله لايجعل حجّة في أرضه يُسأل عن شيء فيقول لا أدري " .[٩٦] وفي النصّ حقائق تتطلب تأكيدها منها :

١ـ إنّ الإنجيل والتوراة وكتب الأنبياء الأخرى منذ زمن آدم وحتى زمن النبي محمد ﷺ نزلت بلغات مختلفة منها الأكديّة والسريانية والعبرانيّة وغيرها من اللغات الجزريّة ، وقراءة هذه الكتب كما قرؤوها،والقول بها كما قالوها يدلّ على معرفة الأئمة المعصومين ـ عليهم السلام ـ بتلك اللغات وقدرتهم على النطق بها وفهم معانيها

وكأنّهم من الناطقين الأصليين بها.

٢ـ إنّ معرفة اللغات هبة من الله تعالى كما وهبهم العلوم الأخرى يتوارثونها من الأنبياء عليهم السلام إلى آخر الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومنه إلى عليّ بن أبي طالب والأئمة المعصومين من أبنائه ـ عليهم السلام ـ فهي وراثة من عندهم كما قال الإمام الصادق ـ عليه السلام.

٣ـ والقضية الأهم من ذلك أنّ معرفة اللغات دليل على إمامة الأئمة المعصومين فكلّ واحد منهم مؤهّل من الله ـ تعالى ـ أنْ يعرف كلّ شيء عن الأوّلين والآخرين ؛لذا كانت معرفة هذه اللغات جزءًا من مجموع معارفه الربّانيّة التي ينبغي أن يتسلّح بها لأنّ الله لا يجعل حجة في أرضه يُسأل عن شيء فيقول لا أدري كما يحصل لمن نصّبوا أنفسهم خلفاء.

وقد قال الإمام الرضا عليه السلام قولًا نظير قول جدّه ـ عليه السلام ـ قال :يا أبا الصلت أنا حجّة اللهعلى خلقه ، وما كان الله ليتّخذ حجّة على قوم ، وهو لا يعرف لغاتهم .أوَما بلغك قول أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ أوتينا فصل الخطاب ، وهل هو إلّا معرفة اللغات ". (٩٧)

والروايات عن معرفتهم بلغات الكتب السماوية كثيرة منها :

عليّ بن محمد ، ومحمدبن الحسن ،عن سهل بن زياد ، عن بكر بن صالح ،عن محمد بن سنان ، عن مفضّل بن عمر قال أتينا باب أبي عبد الله ـ عليه السلام ـ ونحن نريد الإذن عليه فسمعناه يتكلّم بكلام ليس بالعربية، فتوهّمنا أنّه بالسريانيّة، ثمّ بكى فبكينا لبكائه ، ثمّ خرج إلينا الغلام ؛ فأذن لنا،فدخلنا عليه فقلتُ أصلحك الله أتيناك نريد الأذن عليك؛فسمعناك تتكلّم بكلام ليس بالعربية،فتوهّمنا أنّه بالسريانيّةثمّ بكيتَ فبكينا لبكائك ، قال نعم، ذكرت إلياس النبيّ وكان من عبّاد أنبياءبني إسرائيل، فقلت كما كان يقول في سجوده، ثم اندفع فيه بالسريانيّة، فلا والله ما رأينا قسّاً ،ولا جاثليقاً،أفصح لهجة منه ثمّ فسّره لنا بالعربية ". (٩٨)

ومن الروايات التي تتحدّث عن معرفة الأئمة لغات أخرى غير اللغات التي نزلت بها الكتب السماويّة إلى الأنبياء ما روي عن الإمام الرضا ـ عليه السلام ـ" قال أبو اسماعيل السندي : سمعت بالهند أنّ لله في العرب حجّة فخرجتُ في طلبه فدُللتُ على الرضا ـ عليه السلام ـ فقصدته وأنا لا أحسنُ العربيّة فسلّمت عليه بالسنديّة فردّ عليّ بلغتي ، فجعلتُ أكلّمه بالسنديّة وهو يردّ عليّ بها ، وقلتُ له : إنّي سمعتُ لله حجّة في الأرض فخرجتُ في طلبه فقال ـ عليه السلام ـ أنا هو ، ثمّ قال لي : سلْ عمّا أردته فسألته عن مسائل فأجابني عنها بلغتي ". (٩٩)

وروى ياسر الخادم فقال : كان لأبي الحسن ـ عليه السلام ـ في البيت صقالبة وروم وكان أبو الحسن قريباً منهم فسمعهميتكلّمون بالصقلبيّة ويقولون إنّا كنّا نفصد كلّ سنة في بلادنا ولا نفصدها هنا ، ولمّا كان من الغد بعث إليهم من يفصدهم " .[١٠٠]

وفي رواية أخرى عن دخول جيش بغا الكبير المدينةَ، قال أبو هاشم الجعفري :كنتُ بالمدينة حين مرّ بها بغاأيّام الواثق في طلب الأعراب، قال أبو الحسن (الهادي) ـ عليه السلام ـ أخرجوا بنا ننظر إلى تعبئة هذا التركيّ فخرجنا فوقفنا فمرّت بنا تعبئته، فمرّ بنا تركيّ فكلّمه أبو الحسن ـ عليه السلام ـ بالتركيّة فنزل عن فرسه فقبّل حافر دابّته ، قال أبو هاشم : فحلّفت التركيّ،وقلت له ما قال لك الرجل؟ فقال هذا نبيّ؟ قلت ليس هذا بنبيّ، قال دعاني باسم سُمّيت به في صغري في بلاد الترك ما علمه أحد ".[١٠١]

ومعرفة اللغات تلك دليل على أنّ معارف الأئمة المعصومين معارف ربّانيّة ، لايكتسبونها بالدراسة أو السماع وما ذكره الإمام الصادق وحفيده الإمام الرضا والإمام الهادي عليهم السلام دليل على ما أذهب إليه من أنهم كاملو المعرفة ، لأنّهم ربطوا معرفة تلك اللغات بالإمامة ، لأنّ الإمام حجّة على خلقه ولايكون حجّة حتى تكتمل عنده معارف الأولين والآخرين فلا يُسأل عن شيء إلّاوعنده جواب ، ومعرفة ما ورد في الكتب السماويّة السابقة للقرآن المكتوبة بلغات غير العربيّة يقتضي إلهامهم بلغات الأرض كافة وتلك معجزة تثبت الإمامة بعد أن ختم الله الرسالات برسالة جدّهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

ولم تقتصر معارف الأئمة المعصومين ـ عليهم السلام ـ اللغويّة على معرفة أسرار اللغة العربيّة، واللغات الأخرى ؛ بل كان الأئمة يعرفون لغة الطير والحيوان ومن ذلك ما رواه أبو بصير عن الإمام الرضا عليه السلام قال : قلتُ لأبي الحسن عليه السلام:جُعلتُ فداك بم يُعرف الإمام ؟ فقال : بخصال : أمّا أوّلها فإنّه بشيء قد تقدّم من أبيه، فيه إشارة إليه، لتكون عليهم حُجّة، ويُسأل فيجيب ، وإنْ سُكت عنه ابتدأ ويُخبر بما في غدٍ ، ويُكلّم الناس بكلّ لسان ، ثمّ قال لي يا أبا محمّد أعطيك علامة قبل أن تقوم فلم ألبث أن دخلَ علينا رجلٌمن أهل خراسان فكلّمه الخراسانيّبالعربيّة فأجابه أبو الحسن بالفارسيّة، فقال له الخراسانيّ : والله ـ جُعلتُ فداك ـ ما منعني أنْ أكلّمك بالخراسانيّة غيرُ أنّي ظننتُ أنّك لا تحسنها ، فقال سبحان الله إذا كنتُ لا أحسنُ أجيبك فما فضلي عليك ؟ ثم قال لي : يا أبا محمد إنّ الإمام لا يخفى عليه كلام أحد من الناس ولا طيرٍ ولا بهيمةٍ ولا شيءٍ فيه الروح فمن لم يكن هذه الخصال فيه فليس هو بإمام .[١٠٢] وهذا الحديث يؤكّد حقيقة الكمال المعرفيّ للإمام المعصوم لأنّ معرفته تتجاوز كلّ طاقات البشر مهما بلغت درجات معارفهم ، فلم نسمع عن لغوي ،

ولا فيلسوف ، ولا عالم فقه ، ولا طبيب ، ولاعالم أصوات أنّه يعرف لغة أيّ جنس من البشر ، أو يعرف لغة الطير بأنواعه المختلفة ، أو يعرف لغة البهائم بمختلف أجناسها ، والأعجب من ذلك أنّ الإمام المعصوم يعرف لغات الأشياء الأخرى التي فيها أرواح ، وهي الأشياء المرئيّة بالعين ، والأشياء غير المرئيّة بالعين بل تُرى بالمجاهر ، فهو لا يعرفها ، ويعرف أسرار حياتها فحسب ، بل يعرف ما تعبّربه هذه الأشياء عن حاجاتها فيما بينها ، بينها بالنطق أو الإشارات أو الإيحاءات ٠ وتلك من أعاجيب الكون لأنّ ذلك ممّا يعجز عنه البشر مهما تطوّرت معارفهم وعلومهم في هذا الزمان وفي أيّ زمان ، والإمام ـ عليه السلام ـ هو الذي يعرف ذلك لكمال معارفه لكونها معارف ربّانيّة لا يهبها الله ـ تعالى ـ إلا لمن اختاره ـ سبحانه ـ ليكون إمامًا وحجة على خلقه ٠

المطلب الرابع معرفة العلوم المرتبطة باللغة :

و هي علوم كثيرة منها تفسيرالقرآن الكريم وتأويله ومعرفة علومه ، ومنها الفقه ، ومنها علم الأصول ، ومنها علوم العقيدة ، ومنها علم الكلاموغيرها من العلوم ،فقدكان كلّ إمام من الأئمة المعصومين ـ عليهم السلام ـ مفسّراً للقرآن الكريم عارفاً بمحكمه ومتشابهه ، وناسخه ومنسوخه ، وباطنه وظاهره ، وعارفًا بأسباب نزوله وفي أيّ وقت نزلت السورة أو الآية ، وكانوا يعرفون بيان القرآن وطرائق التعبير عن وجوه بيانه ، وتلك كلّها معارف ترتبط بما ألهمهم الله من أسرار اللغة ، ولقد كان كلّ إمام ينشر التفسير الصحيح ، والفهم الصحيح لنصوص القرآن الكريم في زمانه، لأنّ كلّ واحد منهم كان عِدلاً للقرآن كما قال رسول الله ﷺ " إنّي تارك فيكم الثقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبدا كتاب الله وعترتي".[١٠٣]

ولايعرف أسرار القرآن إلا من أوتي علماً ربّانيّا ، وكمالاً معرفيًّا ، قال الإمام علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ " إنّ علمَ القرآن ليس يعلم ما هو إلّا مَن ذاق طعمه فعُلّم بالعِلم جهلَه وبُصّر به عماه وسُمّع به صمَمَه وأدرك به علم ما فات وحَيِي به بعد إذ مات...فاطلبوا ذلك من عند أهله خاصة فإنّهم خاصّةً نورٌ يُستضاء به، وأئمة يُقتدى بهم،وهم عيشُ العلم،وموت الجهل،هم الذين يُخبركم حكمُهم عن علمهم،وصمتهم عن منطقهم ، وظاهرهم عن باطنهم ،لا يخالفون الدين ، ولا يختلفون فيه، فهو بينهم شاهد صادق ، وصامت ناطق ، فهم من شأنهم شهداء بالحقّ، ومخبر صادق، لايخالفون الحقّ ولايختلفون فيه ،قد خلت لهم من الله السابقة ومضى فيهم من الله حكم صادق ،وفي ذلك ذكرى للذاكرين ، فاعقلوا الحقّ إذا سمعتموه عقل رعاية ولا تعقلوه عقل رواية فإنّ رواة الكتاب كثير ورعاته قليل والله المستعان ".[١٠٤]وهذا هو قول الحق في من يشرح القرآن ويفسّرهويعرف أسراره، وقد خصّ الله الأئمة المعصومين بذلك ومنحهم القدرة على أن يكونوا هم الذين يعقلونه عقلَ رعاية، لا عقل رواية وشتّان بين الأمرين • ومن يتأمّل في كلمات الإمام يعرفْ عظمة قدر الأئمة المعصومين ـ عليهم السلام ـ في معارفهم القرآنيّة ويتجلّى ذلك في قوله ـ عليه السلام ـ " فاطلبوا ذلك من عندأهله خاصة فإنّهم خاصة نورٌ يستضاء به وأئمّة يُقتدى بهم وهم عيش العلم وموت الجهل " ولا يكون الإمام نوراً في الأرض إلا إذا أضاء من حوله بكلّ علم فهم أهل العلم وهم عيش العلم يعيش بعيشهم لذا كتب الله ـ تعالى ـ لآخرهم الحياة حتى تقترب الساعة لكي لا تبقى الأرض خالية من كامل المعرفة .

وأوضح الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ الأثر الكبير للأئمة المعصومين في التفسير والتأويل ، وكونهم المعوّل عليهم في هذين الأمرين والمفروض طاعتهم على المسلمين قال ـ عليه السلام ـ " نحن حزب الله الغالبون،

وعترة رسوله الأقربون ، وأهل بيته الطيّبون الطاهرون ، وأحد الثقلين اللذين خلّفهما رسول الله ﷺ في أمّته، والثاني كتاب الله فيه تفصيل كلّ شيء لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فالمعوّل علينا في تفسيره ولا نتظنّن تأويله بل نتيقّن حقايقه فأطيعونا فإنّ طاعتنا مفروضة إذ كانت بطاعة الله ـ عزّوجلّ ـ وبرسوله مقرونة قال الله تعالى { يا أيّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول } (النساء: ٥٩) .[١٠٥] وكلام الإمام المجتبى ـ عليه السلام ـ يُلخّص نظرية الكمال المعرفيّ لكونهم أحد الثقلين بهم تتحقّق معرفة العلوم التي تبيّن مقاصد الله ـ تعالى ـ فيما أنزله على رسوله الكريم ﷺ لتدبير أمور المسلمين وإقامة العدل بينهم فهم حجج الله ـ تعالى ـ على عباده لذا اقترنت طاعتهم بطاعة الله لأنّهم أولياؤه ، وقد لايلتفت القارئ إلى عظمة قول الإمام المجتبى ـ عليه السلام ـ في أخطر قضيّة واجهتها العقيدة الإسلامية ألا وهي قضية تأويل القرآن لذا خصّ الإمام ـ عليه السلام ـ الأئمة المعصومين بعد الله ـ تعالى ـ ورسوله ﷺ بالتأويل الصحيح الذي لا يخامره الظن بل يتيقنون في حقائقه فقال ـ عليه السلام ـ بوضوح " فالمعوّل علينا في تفسيره ولا نتظنّن تأويله بل نتيقّن حقايقه " ولاشكّ في أنّ يقين الأئمة الأطهار في تبيان حقائق القرآن ينبع من كون معارفهم متكاملة ، وموارد معارفهم ربّانيّة لا تحتمل الخطأ أو السهو أو الاختلاف .

وقال الإمام الباقر ـ عليه السلام ـ إنّ من علم ما أوتينا تفسير القرآن وأحكامه،" .[١٠٦] وقال الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ:" والله إنّي لأعلم كتاب الله من أوّله إلى آخره كأنّه في كفّي فيه خبر السماء وخبر الأرض، وخبر ما كان وخبرما هو كائنقال الله عزّ وجلّ { فيه تبيان كلّ شيء}.[١٠٧] ويؤكد الإمام الباقر ـ عليه السلام ـ في قوله كمال معارفهم لأنّ تفسير القرآن وبيان أحكامه بعض من معارف ربّانيّة أوتوها من الله تعالى و(من) للتبعيض ، فهم أوتوا العلوم كلّها ، وتفسير القرآن وبيان أحكامه بعض تلك العلوم الربّانيّةالمتكاملة، ويقرّب قول الإمام الصادق عليه السلام كلام الباقر بقوله (والله إنّي لأعلم كتاب الله من أوّله إلى آخره كأنّه في كفّي فيه خبر السماء وخبر الأرض وخبرما كان وخبر ما هو كائن "فمن من البشر يجرؤ على القول بمثل هذا القول الثقيل غير من اكتملت معارفه وحباه الله علماً لاحدود له .

وذكر كثير من الأئمة المعصومين أنهم المقصودون بقوله تعالى { فاسألوا أهل الذكرإن كنتم لا تعلمون }لأنّ المقصودين لو كانوا من اليهود والنصارى لأخبروهم بما في كتبهم قال الأمام الباقر ـ عليه السلام ـ: " إذاً يدعونكم إلى دينهم" وأشار إلى صدره نحن أهل الذكر ونحن المسؤولون[١٠٨] والأئمة المعصومون هم الراسخون في العلم في قوله تعالى :{ وما يعلم تأويله إلاّ الله والراسخون في العلم }(آل عمران ٧) قال الإمام الصادق عليه السلام نحن الراسخون في العلمونحن نعلم تأويله.[١٠٩]

ولاشكّ في أنّ تفسيرالقرآن لا يتصدّى له إلّا من حباه الله معرفة أسرار القرآن وأسرار لغته وأسرار تأويله وأسرار بناء نسيجه وعلاقة آياته بعضها ببعض وقد علم الأئمة المعصومون من اللغة ما أشرنا إلى بعض جوانبه،وهو نزر يسير ممّا يعرفونه ،لأنّ استقصاءمعارفهم يتطلّب جهود علماء لسنوات طويلة ولكنّي اجتزأت بقبسات من معارفهم اللغويّة ، كما علموا تفاصيل الأحداث التي أشاروا إليها ، وعلموا ما يُتنبأ به من أحداث لا نعرف مهما أوتينا من معرفة فكّ شفرات أسرارها ، وعلموا الأحكام التي تستنبط من نصوصه وتفريعاتها وتطبيقاتها وأكثر ما كتب في التفاسير التي بين أيدينا ينبغي أن تُعرض على أقوال رسول اللهﷺ والأئمة المعصومين للأخذ بما يوافق أقوالهم وتفسيراتهم لأنّهم جعلهم الله تعالى عِدل القرآن في حديث الثقلين على لسان رسوله ـ صلى الله عليه وآله ـ وفي ذلك نغربل كتب التفسير وننزّهها ممّا دخل فيها من الإسرائيليات وما نشر فيها من تأويلات وعّاظ السلاطين الذين فسّر بعضهم الألفاظ بهواه لإيجاد المسوّغات لتولّي آل أميّة وآل العباس الحكم من غير أن يحوزوا كمال المعرفة .

وكان الأئمة المعصومون ـ عليهم السلام ـ يتحدّثون بدراية ومعرفة فيما سُمّي (علم الكلام) الذي ينسبه الباحثون إلى المعتزلة وهو علم أصّله الإمام علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ في حديثه عن الله ـ سبحانه وتعالى ـ في أكثر خطبه التي تحدث فيها عنه تعالى والفرق بين اسمه ومسمّى الاسم ، وعن أفعاله ومشيئته وإرادته ، وعن صفاته ، وهو ما سُمّي كما قلت(جليل الكلام) وحديثه عن مخلوقاته الدالّة عليه ومكونات هذه المخلوقات وأحوالها وتجزّؤها إلى جواهر وأحوال تلك الجواهر وإئتلافها أو اجتماعها وما يحدث لها من اقتران وافتراق واجتماع وعادة ، وفرّق بين الأسماء والمسمّياتوهو ما سُمّي فيما بعد (دقيق الكلام).

قال عليه السلام عن الله ـ تعالى ـ " قبْلَ كلّ شيء لايُقال شيء قبله ، وبعد كلّ شيء لا يُقال له بعدُ،شاء الأشياء لا بهمّة ،درّاك لا بخديعة في الأشياء كلّها ، غير متمازج بها ، ولا بائنٌ منها ، ظاهر لا بتأويل المباشرة ،متجلٍّ لا باستهلال رؤية ، ناءٍ لابمسافة ، قريب لابمداناة ،لطيفٌ لا بتجسيم ، موجودٌ لا بعدَ عدم ،، فاعلٌ لا باضطرار ، مقدّرٌ لابحركة ، مريدٌ لا بهَمَة ، سميعٌ لابآلةٍ، بصيرٌ لا بأداةٍ ،لاتحويه الأماكن ، ولا تضمنُه الأوقات ، ولا تحدّه الصفات ،ولا تأخذه السِّنات ،سبق الأوقاتِ كونُه ، والعدمَ وجودُه، والابتداءَ أزلُه ،بتشعيره المشاعر عُرف أنْ لا مَشعَرله ، وبتجهيرِه الجواهر عُرِف أنْ لا جوهر له ، وبمضادّته بين الأشياء عُرف أنْ لاضدَّ له ،وبمقارنته بين الأشياء عُرف أنْ لا قرين له ...مؤلّفٌ بين متعادياتها ، ومفرّقٌ بين متدانياتها دالّةًبتفريقها على مُفرّقِها ،وبتأليفها على مؤلّفها ".(١١٠)

وتحدّث أكثر الأئمة في علم الكلام بحسب ما علّمهم الله ـ تعالى ـ وليس بحسب ما تحدّث به أهل الضلال من بعض أهل الكلام ،وحاجج الأئمة المعصومون زعماء اليهود والنصارى والمتكلّمين من غير السائرين على مذهب أهل البيت ـ عليهم السلام ـ وأفحموهم بالأدلة والبراهين وأسكتوهم جميعاً ومن ذلك ما رواه محمد بن سماعة عن أبي عبد الله ـ عليه السلام ـ قال : قال رأس الجالوت لليهود : إنّ المسلمين يزعمون أنّ عليًّا ـ عليه السلام ـ من أجدل الناس وأعلمهم اذهبوا بنا إليه لعلّي أسأله عن مسألة وأخطّئه فيها فأتاه فقال : يا أمير المؤمنين إنّي أريدُ أن أسألك عن مسألة ، قال سلْ عمّا شئت قال يا أمير المؤمنين متى كان ربّنا؟ قال له يا يهوديّ إنّما يُقال متى كان لمن لم يكن ، فكان متى كان ، هو كائن بلا كينونة ، كائن كان بلا كيف يكون ، بلى يا يايهوديثمّ بلى يا يهودي كيف يكون له قبل ؟ ! هو قبل القبل بلا غاية ولا منتهى غايته ولا غاية إليها ، انقطعت الغايات عنده هو غاية كلّ غاية فقال : أشهد أنّ دينك الحقّ وأنّ ما خالفه باطل ".[111] وقد أوجزت القول في هذين الحقلين : التفسير وعلم الكلام لضيق المجال وسأعود إليهما للتفصيل فيهما وفي غيرهما من العلوم المتعلّقة باللغة لإكمال البحث وبيان ريادة الأئمة المعصومين في العلوم المتعلقة بالقرآن الكريم ولغته ، وسعة معارفهم في تلك العلوم وتأسيسهم وجوه البحث فيها لما كانوا يتمتعون به من قدرات عقلية خارقة وما يتزودون به من علوم لاحدود لها يكمل بعضها بعضها الآخرمن طريق الإلهام والنقر في الأسماع وزقّ الآباء الأبناء ، وما كانوا يتفرّدون به من مدد معرفي إلهي يفوق وصف الواصفين لأنّ معارف الله تعالى فوق حدود معارف البشر المحدودة ويخيّل إليّ أنّهم يعرفون ما سيؤول إليه العلم في أيامنا هذه ويتجاوزه إلى ما بعد هذه العصوروهذا واضح من قولهم أنّهم لديهم علم الأولين والآخرين وما سيأتي من علوم وما نعيشه في الوقت الحاضر هو من علوم الآخرين ، لكنهم كانوا يخشون البوح للناس بمكنونات علومهم خشية أمور كثيرة صرّح ببعضها الأئمة المعصومون كالإمام علي عليه السلام وغيره من الأئمة المعصومين ،وكانوا يتمنّون أن يكون لألسن الناس أوكية تضبط أفواههم فلا يبوحون بما يُسرّون به ، وسنفصّل القول في هذا لاحقًا إذا جعل الله في العمر بقية .

هوامش البحث

١. كتاب المراجعات : ٧٣.

٢. شرح نهج البلاغة ١٣/ ٢٢٥.

٣. ينظر في مواردتفسيرها كتاب المراجعات ١٥٥ ـ ١٥٦ .

٤. عيون أخبار الرضا ٥٤٠.

٥. المصدر نفسه٦٢ .

٦. المصدر نفسه ٥١ ـ ٥٢ .

٧. أصول الكافي ١/ ١١٣ .

٨. المصدر نفسه ١/ ١١٣ ـ ١١٤ .

٩. المصدر نفسه ١/ ١١٤ .

١٠. المصدر نفسه ١/ ١١٤ .

١١. المصدر نفسه ١/ ١١٥ .

١٢. دلائل الإمامة ١٠٤ .

١٣. أصول الكافي ١/ ١٥٠ .

١٤. نوادر المعجزات ومناقب الأئمة الهداة ١٢٤ .

١٥. أصول الكافي ١/ ١١٣ .

١٦. المحتضر ٢٧٧ .

١٧. شرح نهج البلاغة ١٣/ ٧٤ .

١٨. أصول الكافي ١/ ١٤٩ .

١٩. سلوني قبل أن تفقدوني لأحد الأئمة .

٢٠. أصول الكافي ١/ ٤٧ ، ٥٣ .

٢١. الصحيفة السجّاديّة ٤١ ـ ٤٤ .

٢٢. مستدرك عوالم العلوم نقلا من أعلام الهداية ١١/ ٣١.

٢٣. الحدائق الناضرة ٣٥٣ .

٢٤. الاحتجاج ١/ ٢٥٩ .

٢٥. المصدر نفسه ١/ ١٥٢ .

٢٦. أصول الكافي ١/ ١١٦ .

٢٧. كتاب العين ٤/ ٣٤٦ .

٢٨. المختار من الصحاح ٢١٧ .

٢٩. إثبات الوصيّة نقلا من أعلام الهداية ١١/ ٣٠ ـ ٣١ .

٣٠. أصول الكافي١/ ١٥٧ .

٣١. المصدر نفسه ١/ ١١٥ .

٣٢. الأمالي / الطوسي / المجلس الأول ٩ .

٣٣. عيون أخبار الرضا ٢/ ١٩٣ .

٣٤. أصول الكافي ١/ ١٢٩ .

٣٥. المصدر نفسه ١/ ١٢٩ .

٣٦. حديث المنزلة .

٣٧. أصول الكافي ١/ ١٤٣ ـ ١٤٤ .

٣٨. المصدر نفسه ١/ ١٥٥ .

٣٩. المصدر نفسه ١/ ١٥٥ .

٤٠. المصدر نفسه ١/ ١٥٥ .

٤١. المصدر نفسه ١/ ١٥٦ .

٤٢. أعلام الهداية ١١/ ٣١ .

٤٣. أصول الكافي ١/ ١٥٧ .

٤٤. المصدر نفسه ١/ ١٤٧ .

٤٥. ينظر أصول الكافي باب نادر عن ذكر الغيب ١/ ١٤٦ـ١٦٠ ٠

٤٦. بحار الأنوار ٥٠ / ١٤٧ ٠

٤٧. أصول الكافي ١/ ١٢٨ ٠

٤٨. المصدر نفسه ١/ ١٥١ ٠

٤٩. المصدر نفسه١/ ١٥١ ٠

٥٠. المصدر نفسه ١/ ١٥٥ ٠

٥١. المصدر نفسه ١٥٤ ٠

٥٢. المصدر نفسه ١٥٤ ٠

٥٣. الاحتجاج ٢/ ٣٦٤ ٠

٥٤. المصدر نفسه ٢/ ٣٢٦ ٠

٥٥. كتاب سيبويه ١/ ٣٣٢ ٠

٥٦. أصول الكافي / كتاب الروضة ٧٤٥ ٠

٥٧. الخصائص ١/ ٣٤ ٠

٥٨. مسند الإمام الرضا (عليه السلام) ٨٨ـ ٩٠ ٠

٥٩. المصدر نفسه ٨٨ـ٩٠

٦٠. كتاب سيبويه٤/ ٤٣١ ٠

٦١. مسند الإمام الرضا٨٨عليه السلام ـ ٩٠

٦٢. المصدر نفسه ٨٨ ـ ٩٠

٦٣. البيان والتبيين ٣/ ٢٩٠ ٠

٦٤. الاحتجاج ١/ ١٨ ٠

٦٥. عيون أخبار الرضا ٢/ ٤٦ ٠

٦٦. الاحتجاج ٢/ ٣٣٨ ٠

٦٧. أصول الكافي ١/ ٥٢ ٠

٦٨. الخصائص الاشتقاق الكبير والكبار

٦٩. أصول الكافي ١/ ٨٠ ٠

٧٠. مستدرك عوالم العلوم ٢٣/ ٣٥٤ـ٣٥٦ ٠

٧١. المصدر نفسه ٢٣/ ٣٥٤ـ٣٥٦ ٠

٧٢. الاحتجاج ٢/ ٣٢٦ ٠

٧٣. مناقب آل طالب ٣/ ٣٣٧ ٠

٧٤. ينظر الشعر والشعراء ٧٢٩، الفاضل للمبرّد ٥ ، طبقات النحويين واللغويين ١٣، ٤٥ ،الفهرست ٤٥ ، البصائر والذخائر ١/ ٨٣ ٠

٧٥. مراتب النحويين ٦ ٠

٧٦. إنباه الرواة عن أنباه النحاة ١/ ٤ ٠

٧٧. ينظر أصالة النحو العربي ٢٧ـ ٣١ ٠

٧٨. أصول الكافي ١/ ٥٣ ٠

٧٩. المصدر نفسه ١/ ٥٢ ٠

٨٠. مستدرك عوالم العلوم ٢٣/ ٣٥٤ـ٣٥٦

٨١. أصول الكافي ١/ ١١٨

٨٢. كتاب الأصول في النحو ١/ ٣٨ ٠

٨٣. المفصل في العربية ١/ ١٤ ٠

٨٤. عيون أخبار الرضا ١١٧ ٠

٨٥. كتاب الأصول في النحو ١/ ٥٥ ٠

٨٦. المصدر نفسه ١/ ٤٣ ٠

٨٧. الإيضاح العضدي ٩ ٠

٨٨. ينظر نظرات في الجملة العربية ١٤ـ ١٩ ٠

٨٩. الجمل ٣٥ ٠

٩٠. مناقب آل طالب ١/ ٨٣ ٠

٩١. المصدر نفسه ١/ ٣٨٠ـ ٣٨١ ٠

٩٢. الاحتجاج١/ ١٩٥ ٠

٩٣. المصدر نفسه ١٩٦ـ ١٩٨ ٠

٩٤. أصول الكافي ١/ ٨٠ ٠

٩٥. الاحتجاج ١/ ٢٥٩ ٠

٩٦. أصول الكافي ١/ ١٣٠ ٠

٩٧. مناقب آل طالب ٤/ ٣٦٢

٩٨. أصول الكافي ١/ ١٣٠ ٠

٩٩. بحار الأنوار ٤٩/ ٥٠ ح ٥١ ٠

١٠٠. مناقب آل طالب ٤/ ٣٦٢ ٠

١٠١. أعلام الهداية ١٢/ ٨٥ ٠

١٠٢. أصول الكافي ١/ ١٦٤ ٠

١٠٣. تخريج الثقلين

١٠٤. أصول الكافي / كتاب الروضة ٨٥٥ ٠

١٠٥. الأمالي / المفيد ٣٤٩ ٠

١٠٦. أصول الكافي ١/ ١٣١ ٠

١٠٧. المصدر نفسه ١/ ١٢١ ٠

١٠٨. المصدر نفسه ١/ ١٢١ ٠

١٠٩. المصدر نفسه ١/ ١٢٢ ٠

١١٠. المصدر نفسه ١/ ٨٠ ٠

١١١. المصدر نفسه ١/ ٥٤ ٠

مصادر البحث ومراجعه

القرآن الكريم .

١ـ الاحتجاج مناظرات وخطب واحتجاجات ومفاخرات الرسول المصطفى وأهل بيته ﷺ :الطبرسيّ، أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب ، (من أعلام القرن السادس) دار المرتضى للطباعة والنشر والتوزيع بيروت / لبنان ط١١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م ٠

٢ـ أصالة النحو العربي : أ ٠د كريم حسين ناصح الخالدي ، دار صفاء للنشر والتوزيع ، عمّان / الأردن ، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م ط١ ٠

٣ـ أصول الكافي ويليه الروضة : الكلينيّ ،أبو جعفر محمد بن يعقوب (ت٣٢٨ هـ)منشورات مؤسّسة الأعلميّ ، بيروت / لبنان ، ط١ ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥ م

٤ـ أعلام الهداية : لجنة التأليف ، مركز الطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام) إيران / قم المقدّسة ،الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ

٥ـ الأمالي / الطوسيّ ،محمد بن الحسن ، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشروالتوزيع ، ١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩ م ط١ ٠

٦ـ الأمالي : المفيد ، محمدبن محمد بن النعمان العكبري البغدادي (ت ٤١٣هـ) تحقيق حسين الأستادولي وعلي أكبر الغفاري ،دار المفيد ،بيروت/ لبنان ط٢ ١٩٩٣ م ٠

٧ـ إنباه الرواة على أنباه النحاة : القفطي ، علي بن الحسين (ت ٦٢٤هـ)تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٦٩هـ ـ ١٩٥٠ م ٠

٨ـ البصائر والذخائر : التوحيدي ،أبو حيّان (ت ٤٠٠هـ) تحقيق أحمد أمين ،وأحمد صقر، لجنة التأليف والنشر ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٣م ٠

٩ـ البيان والتبيين : الجاحظ ،أبو عثمان عمربن بحر (ت٢٥٥هـ)تحقيق عبد السلام محمد هارون / مطبعة المدني ، القاهرة / مصر ،الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م

١٠ـ الجمل : الزجّاجي ، أبو القاسم عبد الرحمن (ت٣٣٧هـ) تحقيق محمد أبي شنب ، مطبعة كلنسيك ١٩٥٧ ٠

١١ـ الحدائق الناضرة : المحقّق البحرانيّ ، تحقيق محمد تقي الإيرواني ، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين قم المشرّفة (د ٠ت)

١٢ـ الخصائص : ابن جنّي ،أبو الفتح عثمان ، (٣٩٢هـ) تحقيق محمد علي النجّار ط٤ ، الهيأة المصرية العامة للكتاب ، دار الشؤون الثقافية العامة ١٩٩٠م مشروع النشر العربي المشترك

١٣ـ شرح نهج البلاغة :ابن أبي الحديد ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، صيدا بيروت / لبنان ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٨م ٠

١٤ـ الشعر والشعراء : ابن قتيبة الدينوري ،(ت ٢٧٦هـ) تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة/ مصر دار المعارف١٩٦٦ ـ١٩٦٧ م

١٥ـ الصحيفة السجّاديّة الكاملة: من أدعية الإمام زين العابدين ـ ﷺتقديم السيد محمد باقر الصدر ، دار التيار الجديد للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت / لبنان ن ط٤ ، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢ م

١٦ـ طبقات النحويين واللغويين : الزبيدي ،أبو بكر محمدبن الحسن (ت ٣٧٩هـ)تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، القاهرة / مصر ١٩٥٤م

١٧ـ عيون أخبار الرضا :الشيخ الصدوق ، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسينبن بابويه القمّيّ(ت٣٨١ هـ)صحّحه وقدّم له وعلّق عليه الشيخ حسين الأعلمي ، منشورات مؤسّسة الأعلميّ للمطبوات ط٢ بيروت / لبنان / ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥ م

١٨ـ كتاب الأصول في النحو : ابن السرّاج ، أبو بكر محمد بن السري ، (ت٣١٦هـ) تحقيق الدكتور عبد الحسين الفتلي ، مطبعة النعمان ، النجف الأشرف / العراق ١٩٧٣

١٩ـ كتاب سيبويه: سيبويه ، أبو بشر عمرو بن عثمان (ت١٨٠هـ)تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي بالقاهرة/ مصر ،١٩٧٧ الطبعة الثانية ٠

٢٠ـ كتاب العين : الخليل بن أحمد الفراهيديّ (ت ١٧٥هـ)تحقيق الدكتور مهدي المخزومي ، والدكتور إبراهيم

السامرّائي ، وزارة الثقافة والإعلام / دار الرشيد / سلسلة المعاجم والفهارس (٤٣) ١٩٨٢م
٢١ـ الفاضل : المبرّد ، محمد بن يزيد (ت٢٨٥هـ)تحقيق عبد العزيز الميمني ، دار الكتب المصريّة ، القاهرة ، مصر ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م ٠
٢٢ـ الفهرست : ابن النديم ، أبو الفرج محمد بن إسحاق (ت٣٨٥هـ)تحقيق رضا تجدد ، طهران ، مطبعة دانشكاه١٩٧١ م
٢٣ـ المحتضر :الحلّي ،الحسن بن سليمان بن محمد، تحقيق علي أشرف ، المكتبة الحيدرية ط١ ١٤٢٤هـ ٠
٢٤ـ المختار من صحاح اللغة : محمد محيي الدين عبد الحميد ، ومحمد عبد اللطيف السبكي ، مطبعة الاستقامة ، ط ٤ القاهرة / مصر ٠
٢٥ـ مراتب النحويين : اللغوي ، أبو الطيّب عبد الواحد بن علي ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، دار نهضة مصر ، القاهرة / مصر ١٩٧٤م ٠
٢٦ـ المراجعات : السيد عبد الحسين شرف الدين ، دار القارئ للطباعة والنشر والتوزيع ، بغداد / العراق ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م الطبعة السادسة ٠
٢٧ـ المفصّل في علم العربيّة : الزمخشري ،أبو القاسم محمود بن عمر (ت ٥٣٨هـ) عني بنشره محمود توفيق ، مطبعة حجازي ، القاهرة / مصر ٠
٢٨ـ نظرات في الجملة العربية : أ٠د كريم حسين ناصح الخالدي ، دار صفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، عمّان / الأردن ،١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥ م
٢٩ـ نوادرالمعجزات ومناقب الأئمة الهداة (عليهم السلام): الطبري،أبو جعفر محمد بن جرير بن رستم (توفي في القرن الرابع الهجري) تحقيق مؤسّسة الإمام المهدي طبع مؤسسة الإمام المهدي ، قم المقدّسة / إيران ١٤١٠هـ

دور الإمام الجواد عليه السلام في بلورة التحولات الفكرية والثقافية في عصره

Imam Al-Jawad Role in Crystalizing
Cultural and Intellectual Transitions
in His Era

أ.د.أصغر منتظر القائم
قسم تاريخ الإسلام/ جامعة أصفهان

الباحثة نجمه كشانى
متخصصة في المذهب الشيعي / جامعة اصفهان

Prof. Dr. Asghar Muntadhir Al-Qaam
Department of Islamic History, University of Isfahan

Najama Kashani
Specialized in Shiite Denominations , Isfahan University

ملخّص البحث:

عاصر الامام محمد الجواد عليه السلام المأمون والمعتصم. وبسبب رغبة المأمون الشخصية بالعلوم المختلفة، واستحداث بيت الحكمة اتسعت المناظرات العلمية والفكرية من جهة، وشهد هذا العصر ظهور العديد من الفرق والمذاهب وانتشارها مثل: المعتزلة والزندقة والغلاة و أصحاب الحديث، ومن جانب آخر ظهرت مذاهب فقهية جديدة عند اهل السنة كالمذهب الشافعي والمذهب الحنبلي.

وفي خضم ظهور هذه الاوضاع الفكرية المتباينة وتطورها وانتشارها ينبثق فكر الامام الجواد عليه السلام وتبدو استراتيجيته الثقافية واضحةً جلية في مواجهة هذه التيارات الفكرية المتضاربة ولتأخذ أفكاره النيرة مكانتها المتميزة واهميتها البارزة في هذه المرحلة الحساسة. وقد حاولنا في هذه الورقة البحثية دراسة التحولات الفكرية والثقافية في عصر الامام الجواد عليه السلام وتبيين استراتيجيته القيادية في ادارة الوضع الفكري والثقافي للأمة.

يهدف هذا البحث عبر المنهج الوصفي التحليلي وبالرجوع الى أمهات المصادر الأصيلة الى اثبات فرضية كون التحولات الفكرية والثقافية فى العالم الاسلامي ترتبط ارتباطا وثيقاً بالتاريخ الفكري والثقافي في عصر الامام الجواد عليه السلام وقد لعب هذا الامام دورا بارزا فى تشكيل الكثير من تلك المؤثرات الفكرية والثقافية في المجتمع الاسلامي.

الكلمات الدالّة: الامام الجواد عليه السلام، التيارات الفكرية، الشيعة، أصحاب الحديث.

Abstract:

Two Abbasid Caliphates come as contemporary with Imam Mohammed Al-Jawad (PBUH); Al-Mamoon and Al-Mu\atasim .As Al-Mamoon desires various kinds of sciences and the foundation of "the Hoiuise of Sapience give rise to the intectual and scientific debates on the one hand , the expansion of denominations and cliques ;Al;-Mu`atazala,Al-Zandaqa,Al-Ghula,Ashab Al-Hadeeth and new denimonations in the Shunite ;Al-Shafa`ai and Al-Hanbali.

In the welter of these different intellectual waves the Imam Mindset surges into being as serene and transparent to confront such waves; whose strategic ideas take niche in the community in such crucial moments .The study endeavours to tackle the cultural and intellectual transitions and his strategic leadership in managing these transitions.

For analytic and descriptive procedures the paper aims to prove that the cultural and intellectual transitions in the Islamic world pertain to the Imam Al-Jawad as regards his so great a role he runs.

Keywords: Imam Al-Jawad(PBUH), intelectual waves, Shiite, Ashab Al-Hadeeth

المقدمة

يُطلَقُ لفظُ التحوّلِ على كلِّ تغيير يَحدُث في المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي تُؤدّي ــ في أكثر الأحايين ــ إلى تغيير جَذري في الاتجاهِ التاريخي. ونلاحظُ في كل تحوّلٍ عنصرين مهمّينِ مُتَناسقين هما: الاستمرار والتغيير على مدى الزمن. فالنظرة إلى كيفية تغيير المجتمعات في حدود جغرافية خاصة وفي آفاق سياسية واجتماعية وثقافية واقتصادية مصحوبةً بمعرفةِ الظُّروف و اصحاب القرارات السياسية المؤثرة تُساعدنا في معرفة التاريخ الثقافي والفكري لعصر ما. ولا يخفى على أصحاب العلم أنّ الثقافة تشمل المؤلفات الدينية والقيم الاجتماعية والعقائد والقوانين والسنن والعلوم والصناعات وغيرها. أما لغة التواصل الاجتماعي فهي بوصفها آليّةَ نقلِ المظاهر الثقافية من جَيلٍ إلى جيلٍ ـ (بروس كوئن، ١٣٨٦ش، ص ٥٦).

مِن أهمِّ العُلوم التي تتناولُ الثقافة بوصفها ظاهرة علمية بحثية هو علم الإدارة الثقافية الذي يدرس الثقافة في حقول متعدّدة ومجالات مختلفة. فالإدارة الثقافية هي عمليّةُ الإدارة أو الممارسة العقلانية الواعية، بالاستفادة الصحيحة من المعرفة الثقافية في سبيل توجيه المنظومات الثقافية وتطوير البَرامِجِ للوصول إلى الأهداف والإستراتجيات المنشودة في النظام الثقافي.

لقد كان عصر الإمام الجواد عليه السلام استمراراً لعصر الإمام الرضا عليه السلام من جهة ومشهداً لتغييرات في حقول السياسة والاجتماع والثقافة من جهة أخرى، إذ نرى الفِرَق والنِّحَل الفكرية والمذهبية أخذت تَنبتُ وتنمو على المسرح الفكري الممهَّد آنذاك. ونظراً لهذه التغييرات الخطيرة شرع الإمام الجواد عليه السلام في ايجاد السبل الكفيلة في تفعيل دور الشيعة في التحولات الفكرية عبر برامج وخطط وهو ما يسمى بالهندسة الثقافية، حيث نرى أنّ استراتجياته عليه السلام في الإدارة الثقافية خلّفت تاثيراً لافتاً للنظر في المجتمع الإسلامي وحالت دون انضمام الشيعة إلى تلك التيارات الفكرية المزيّفة المنحرفة. يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على التغييرات الفكرية والثقافية المستمرة الملحوظة في عصر الإمام الجواد عليه السلام باعتماد المنهج الوصفي التحليليّ ـ معتمدةً على المصادر الأصيلة وصولاً إلى تحديد دور الإمام الجواد عليه السلام الريّادي في إدارة التحولات الثقافية في المجتمع الإسلاميّ.

عصر إمامة الإمام الجواد عليه السلام

وُلِـد الإمـامُ الجـواد عليه السلام في العـاشر مـن شـهر رجـب وقيـل في التاسـع عـشر مـن رمضـان سـنة ١٩٥ للهجـرة. كانـت أمـه عليها السلام سـبيكة مـن أهـل نوبـة إحـدى مناطـق أفريقيـا ونسـبت عشـيرتها إلـى أم المؤمنـين ماريـة (ابـن شهرآشـوب,ج٤,ص٣٧٩، المجلسـى,١٤٠٣,ج٥٠,ص٢)، وسـمّاها الإمـام الرضـا عليه السلام خيـزران (الشـيخ المفيـد,ج٢,ص٢٦٤- طبرسـى,١٣٩٠ق, ص٣٤٥). كان مـن ألقـاب الإمـام عـليّ بـن محمـد عليه السلام الزكـيّ والتقـيّ والمتـوكل والجـواد (عطـاردى، ١٤١٠، ص١٢). فضـلا عـن نصـوص رويـت عـن رسـول الله صلى الله عليه وآله وعـن الأئمـة عليهم السلام في إمامـة الجـواد عليه السلام، صرّح الإمـام الثامـن عليه السلام بإمامـة الجـواد عليه السلام في المناسـبات المختلفـة وعرّفـه عليه السلام كخليفـة لـه عـلى الشـيعة، منهـا مـا قالـه صفـوان بـن يحيـى مـن أصحـاب الإمـام الرضـا عليه السلام: سـألته عليه السلام جعلنـا الله فـداك ، ونعـوذ بـالله إن حـدث حـدث فمـن يكـون بعـدك ؟ قـال عليه السلام: (ابنـي هـذا) ، وأومـأ إلى ولـده الإمـام الجـواد (عليه السلام) ، فقلنـا لـه : وهـو في هـذا السـنّ ؟! قـال عليه السلام: (نعـم إنّ الله تبـارك وتعـالى احتـجّ بعيسـى وهـو ابـن سـنتين). (الشـيخ المفيـد, بـى تـا,ج٢,ص٢٦٦). والذيـن رووا هـذا النـص الصريـح عـن الإمـام الرضـا عليه السلام في إمامـة ابنـه الإمـام الجواد عليه السلام كثيـرون (الشـيخ المفيـد,ج ٢,ص٢٦٤-طبرسـى, ١٣٩٠ق,ص٣٤٥). لقـد أُحبطـت مؤامـرات الأعـداء ضـدّ الإمـام الرضـا عليه السلام بـولادة الإمـام الجـواد عليه السلام لاسـيما التـي قادهـا الواقفيـة الذيـن احتجـوا عـلى الإمـام قائلـين: كيـف أنـت إمـام ولم يكـن لـك ولـد؟ لذلـك عـبّر الإمـام الرضـا عليه السلام عـن الإمـام الجـواد بالمولـود الكثـير البركـة للشـيعة (الشـيخ المفيد,بـى تـا,ج٢,ص٢٦٨).

الظروف السياسية في عصر الإمام الجواد عليه السلام

كان المأمـون يهتـمُّ بالمناقشـات العلميـة بـين الفـرق والنحـل والأديـان وقادتِهـا في عـصر إمامـة الإمـام الجـواد عليه السلام الـذي كان ناهـز السـابعة عـشرة مـن عمـره الشريـف. فقـد أسّـس المأمـون دار الحكمـة في بغـداد سـنة ٢١٥ للهجـرة ومـال إلـى المعتزلـة وأيّـد نظريتهـم في خلـق القـرآن، ولكـنّ محدثـي بغـداد وخاصـة أحمـد بـن حنبـل وأصحابـه خالفـوا هـذه النظريـة بشـدة وعدوهـا بدعـة. دعـت المأمـونَ ميزتُـه الاسـتبدادية إلـى أن يأمـر بجلـدِ أحمـد بـن حنبـل وحبسـه (المسـعودى، ج٤، ص٥٢). وعندمـا تـوّفي المأمـون سـنة ٢١٨ للهجـرة خلّفـه أخـوه المعتصـم (ابـن خيـاط,١٤١٤ق,ص٣٩١). امتـاز عـصر المعتصـم بسـيطرة الـترك عـلى الحكومـة ونقـل عاصمـة الخلافـة إلـى سـامراء بعـد بنائهـا سـنة ٢٢٠ للهجـرة (اليعقوبـى ,١٣٧٩ق ,ج٢,ص٤٧٣) أضـف إلى ذلـك أنـه في ذلـك الـردح مـن الزمـن أخـذ نجـم المعتزلـة ومنهجهـم الكلامـي يسـطع إذ سـيطر هـذا الفكـر واسـتولى عـلى الأصعـدة الثقافيـة والفكريـة في بغـداد وسـائر المـدن في العـالم الإسـلامي.

جابه الإمام محمد بن علي عليه السلام في بداية إمامته مشاكل جعلت قبول إمامته صعباً غامضا. كانت طفولة الإمام الجواد عليه السلام ذريعة يتذرع بها المعارضون في الحرب العقائدية على مبادئ العقيدة الشيعية ويهجمون على مبدأ الإمامة الشيعية، ولكن الإمام الجواد عليه السلام أحبط مؤامراتهم بأجوبته المستدلة المحكمة (الكلينى,١٣٧٢,ج٣,ص٤٥٦). توقفت فئة من الشيعة على إمامة موسى بن جعفر عليه السلام ولُقِّبوا بالواقفية (النوبختى,١٣٥٣,ص١٨٠)، ومالت فئة شيعية أخرى إلى أخ الإمام الرضا عليه السلام عبد الله بن موسى، ولكنهم تركوه لمّا وجدوه عاجزا عن الإجابة على مسائلهم، في حين اعتقدت فئة ثالثة بإمامة أحمد بن موسى.

من المسائل المهمة في حياة الإمام الجواد عليه السلام، زواجه عليه السلام بأم الفضل بنت المأمون وهو أمرٌ ناقشه العلماء باستفاضة . عندما ذهب المأمون من خراسان إلى بغداد بعد استشهاد الإمام الرضا عليه السلام اتخذ الشيعة الإمامَ الجواد عليه السلام إماماً لهم، لذلك شعر المأمون بالخطر؛ لأنه كان في المدينة المنورة ندّا ملحاً باعتباره وارثاً لإمامة أهل البيت عليهم السلام (عطاردى،١٤١٠ ق، ص١٢٨ و ١٣٢). من جهة أخرى اتُّهم المأمون بقتل الإمام الرضا عليه السلام فكان عليه أن يتعامل مع الإمام الجواد عليه السلام تعاملا يبرئه من هذا الاتهام ، لذلك كتب رسالة للامام عليه السلام خاطبه فيها بكل إجلال وتكريم ودعاه فيها للقدوم إلى بغداد لكي يكون تحت الرقابة الأمنية ويتابع علاقات الشيعة به عن كثب . وتأكيداً لدرء التهمة عن نفسه في اشتراكه بقتل الإمام الرضا عليه السلام بالغ في إكرام الامام الجواد عليه السلام و زوّجه ابنته. لكن الشيخ المفيد عدّ زواج الإمام الجواد عليه السلام بأمّ الفضل دليلاً على مودة المأمون له واعتقاداً منه بفضائله)الشيخ المفيد,ج٢,ص٢٧٠). في حين اعتقد كثير من المورخين أنّ هذا الزواج كان مؤامرة قام بها المأمون للوصول إلى أهدافه، خلافاً للفئة الأولى الذين عدّوا مودة المأمون للإمام الجواد عليه السلام هي التي دعته إلى تزويجه بابنته أمّ الفضل. ونظرا لما عرف به المأمون في التاريخ وما تدل عليه ميزاته الشخصية، يمكن أن نتصور أنّ لتصرفه هذا أغراضاً أخرى؛ من أهمها: التظاهر بالمودة لآل رسول الله صلى الله عليه وآله، والحيلولة دون خروج العلويين عليه وثورتهم ضده، وربما لرغبة المأمون في أن يؤنس الإمام الجواد عليه السلام بالحياة البلاطية ومن ثم ولادة طفل من نسل رسول الله صلى الله عليه وآله لآل المأمون (پژوهشگاه حوزه ودانشگاه،١٣٩٠, ص ١٢٥)، وكذلك لمراقبة الإمام الجواد عليه السلام، وسدّ الطريق أمام أيّ خطر يأتي منه، وتحديد علاقاته مع أصحابه وسائر المسلمين، والحيلولة دون انتشار صيته العلميّ ومنزلته الدينية (منتظر القائم,١٣٩١,ص٢٣٩). ومهما يكن من أمر فإنّ من المسلم به أن جهود المأمون باءت بالفشل ورجع الإمام الجواد عليه السلام إلى المدينة بعد مدة من التزويج وتمكّن الشيعة من زيارته بعيدا عن عيون المأمون عليه السلام. عندما استعد المأمون لمحاربة الروم، استأذن منه الإمام الجواد عليه السلام لحج بيت الله الحرام فرجع إلى الحجاز لكيلا تكتسب الخلافة العباسية من هذا الزواج شرعية لها. سكن الإمام عليه السلام المدينة المنورة حتى خلافة المعتصم

واشتغل بحياته العائلية والزراعة ومراعاة شؤون الشيعة وتوجيههم وارشادهم. عندما تولّى المعتصم الخلافة شعر بالقلق من جانبه، فأمر والي المدينة أن يرسل الإمام وزوجته أمّ الفضل إلى بغداد. عند قدوم الإمام الجواد ﷺ بغداد سنة ٢٢٠ للهجرة (نوبختی,١٣٥٣ ,ص١٣٣)، قام المعتصم بإثارة الشكوك ضده والشهادة زوراً عليه ﷺ. وقد دعا المعتصم كالمأمون كبار الفرق المختلفة إلى مناظرة الإمام الجواد ﷺ ومجادلته، على أمل أن يزلّ الإمام في تلك المناظرات زلّةً! فيحط من مقامه الشريف ومنزلته السامية. ولكنّ مقامه العلمي العظيم زاد منزلته وثقته عند الآخرين. ولم يستطع المعتصم أن يخدش شخصيته العظيمة، لذلك قرر أن يقتله (مستوفی,١٣٦٢,ص٢٠٥-٢٠٦). فأمر أمّ الفضل أن تسمّ الإمام الجواد ﷺ وتقتله (المسعودی,ج٤,ص٥٢). بعد استشهاده ﷺ في ٢٩ لذي الحجة سنة ٢٢٠ للهجرة. استودع التراب جثمانه الطاهر في غربيّ بغداد بمقبرة قريش خلف قبر جده موسى بن جعفر ﷺ (الشيخ المفيد,ج٢,ص٢٨٤).

التيارات الفكرية في عصر الإمام الجواد ﷺ

تيار المحدّثين:

كان أصحاب الحديث يتمسّكون بظاهر الأحاديث وكان الحجاز مركزهم. يرجع تاريخ نشأة هذه الفئة إلى زمن معاوية إذ دعا فئةً من الرواة والقصاص إلى الشام تثبيتاً لدوافعه واستراتيجيته وتعزيزاً لأركان دولته. وقد شكّل هذا الفريق من الرواة مؤسسةً إعلامية لبني أمية، يديرون سياساتهم الفكرية ويُبلّغون لهم ويختلقون لهم الفضائل. اتّسع هذا التيار في جعل الحديث وتحريفه أكثر فأكثر، بحيث تكوَّنَت المسيرة الفكرية للمجتمع الإسلامي على أساس هذه الأحاديث الموضوعة. سمَّى متابعو هذا التيار أنفسهم عثمانيين، ثم أهل السنة (جعفريان، ١٣٧٨، ص ٤١٢). كان هؤلاء يجسّمون الله؛ لذلك سمّوا بالمجسِّمين. وقد طلب الإمام الجواد ﷺ من الشيعة أن لا يصلّوا خلف من يجسّم الله تعالى ولا يؤتونهم الزكاة (الشيخ الصدوق، ١٣٩٨ق، ص ١٠١). إنّ عدم تساهل المحدثين من جهة وعقلانية المعتزلة وحماية بني العباس الواسعة لهم من جهة أخرى، أتاح المجال لنشوب النزاع والخلاف والشجار الشديد بين هذين الفريقين ومن ثم أصبحت بغداد مركزا للخلافات والمناقشات الفكرية والتكفير والتفسيق.

وفي بداية القرن الثالث للهجرة اندمج المحدّثون في تيّار أحمد بن حنبل الفقهيّ والحديثيّ. ولد أبو عبدالله أحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ) مُؤسس المدرسة الرابعة لأهل السنّة والجماعة في بغداد وتوفّي في المدينة نفسها. عندما اتَّجهَ المأمون إلى المعتزلة وآمن بنظريتهم في خلق القرآن، عارض محدّثو بغداد وخاصة أحمد بن حنبل هذه النظرية وعدها بدعة. فاشتدّ العباسيون عليه وضربوه بالسياط وحبسوه (المسعودی، ج٤، ص

٥٢). أدّى هذا الأمر إلى حدوث التمرّد والاضطرابات في بغداد بحيث سمّى الحنابلة تلك الأيام بعصر المحنة. تمتّع أحمد بن حنبل بحظوة لافتة للانتباه عند المحدّثين بسبب صموده في عصر المحنة، وبعد تولّي المتوكل الخلافة وعلى الرغم من عدم تمكّنه في شؤون الخلافة، إلا أنّ اقبال العامة على آراء احمد بن حنبل (حسين صابرى، ١٣٩٣، ص ٢١٢). كان ابن حنبل فقيها كثير السفر، سافر إلى الشام والحجاز واليمن والكوفة والبصرة طلباً للعلم والحديث، فجمع أحاديث كثيرة ألّفها في مجموعة سُمِّيت بمُسند أحمد بن حنبل. تكوّن هذا المسند من ستّةِ أقسام واحتوى على أربعين ألف حديث. اجتنب أحمدُ بن حنبل الالتزام بالرأي واستدلّ بكتاب الله والحديث فحسب. وبالغ في الاستناد إلى الحديث بحيث عدّه كبار علماء الإسلام كمحمد بن جرير الطبري وابن النديم من أئمة الحديث، لا من المجتهدين. كان في البداية تلميذا للشافعي ثمّ أعرض عن مذهبه وأنشأ مذهبا مستقلا بناه على خمسة أصول: نص كتاب الله والسنة والفتاوى الصحيحة لرسول الله صلى الله عليه وآله وقول بعض من الصحابة إذا وافق الكتاب والسنة وكل الأحاديث المرسلة والضعيفة. كان مذهبه أقل شيوعا بالنسبة إلى نظرائه الآخرين (النوبختى، ١٣٥٣، ص ١٣٤)، ولكنّ أتباعه ومريديه في بغداد أثاروا كثيراً من الضجيج وأتاحوا المجال لظهور التيار التكفيري في العالم الإسلام مثل الخوارج تماماً.

الواقفيّة

نَبَذَت فئةٌ قليلة من الشيعة إمامة عليّ بن موسى الرضا عليه السلام؛ ووقَفَت عندَ الإمام الكاظم عليه السلام بعد استشهاده لحُبّهم الدنيا ودافعهم الماليّ وقراءتهم الخاطئة للروايات واختلاقهم إيّاها وفكرهم المنحرف وعدم تواصُلِهم المباشر مع الإمام واجتنابهم الشيعة (النوبختى، ١٣٥٣، ص ١٨٠). أنكرت هذه الفئة إمامة عليّ بن موسى الرضا عليه السلام وادّعت أنّ موسى بن جعفر هو المهديّ وقالوا: "إنّه لم يمت، بل غاب فسيقوم". منهم من قال: "مع أنّ موسى بن جعفر عليه السلام مات، ولكنه سيرجع مرة أخرى ويقوم ويملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت ظلما وجورا" (النوبختى، ١٣٥٣، ص ١٨٠). عندما سئل الإمام الجواد عليه السلام عن إقامة الصلاة خلف إمام الواقفية، نهى شيعته عنها (جعفريان، ١٣٨٧، ص ٤٩٠) قال الإمام الجواد عليه السلام عن الواقفية: إنّ الزيديّة اعتبروا الواقفية من الناصبية – الذين يُبدون عداوة وحقدا للإمام عليّ عليه السلام– وهم من مصاديق الآية الشريفة: "وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة" (الغاشية: ٨٨/ ٣) (عطاردى، ١٤١٠ق، ص ١٥٠). كان أكثر الناصبية آنذاك يتواجدون فى دمشق (بلعمي، ١٣٧٣، ج ٣، ص ٨٧).

الزيدية

ذهب الزيدية إلى إمامة زيد بن عليّ بن الحسين بعد ثورته. وأهم عقائدهم هي: ١- يستحق الإمامة من أولاد الإمام عليّ من سلالة الإمام الحسن ﷺ والإمام الحسين ﷺ شريطة قيامهم، ٢- ليس هناك نصّ على إمامة عليّ ﷺ فالإمامة بالوصف، آثر الزيدية إمامة المفضول على الفاضل، ٣- كان الإمام عليّ ﷺ أفضل من أبي بكر وعمر، ولكن الإمام من أطاعه الناس، ٤- لا ينبغي أن يسبّ أبوبكر وعمر، لكنّهم نقضوا عثمان وطلحة والزبير، ٥- يستحق الإمامة من يدعو إلى الخروج وتصحُّ البيعة له، ٦- يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالسيف (اشعرى، ١٣٧١، ص ١٤٥). كان عصر الإمام الجواد ﷺ متزامنا مع خروج إدريس الثاني في أفريقية (١٨٨-٢١٣)؛ حاصر مدينتي النفيس والإغمات سنة ١٩٧ وطوّع البرابرة الخارجية من قبائل نقذة في المغرب الأوسط سنة ١٩٩، ودخل تلمسان وبقى فيها ثلاث سنوات وحارب فيها الخوارج الصُّفرية عدَّة مرّات (پژوهشگاه حوزه و دانشگاه، ١٣٩٠، ص ١٥٩). وبايعَ أربعون ألف رجل محمدَ بن القاسم بن عليّ الزيديّ رئيس الفرقة الجارودية في مرو والذي اعتقد متابعوه أنّ رسول الله ﷺ عيّن عليّ بن أبي طالب ﷺ للإمامة بالوصف لا بالاسم (الشهرستانى، ١٣٣٥، ص ١١٨). ثم ذهب إلى طالقان وخرج فيها سنة ٢١٩هـ وانضمّ إليه كثير من ساكني ولاية خراسان واجتمعوا حوله، ولكن خروجه كان عديم التنظيم ولم يعتبر خطرا حاسما على خلافة المعتصم. ألقى القبض عليه عبد الله بن طاهر أمير خراسان وساقه إلى سامراء وحبس هناك، ولكنه فرّ بمساعدة مريديه. اختفى في واسط فترة ومات فيها (أبوالفرج الأصفهاني، ص ٤٦٩). عدّ الزيدية متابعي الأئمة ﷺ روافض واتّهموا الأئمة ﷺ بالتعاون والتسالم مع الخلفاء. بلغت النزاعات بين الإمامية والزيدية غايتها في القرن الثالث، خاصّة في عصر الإمام الجواد ﷺ؛ بحيث احتسب الإمام الجواد ﷺ في روايةٍ، الزيديةَ مصداقاً للآية الشريفة "وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة" وكالناصبية (عطاردي، ١٤١٠ق، ص ١٥٠).

تيّار الغلاة

يُعَدُّ الغلاة من أخطر الفرق فكرا وأكثرهم انحرافا في الشيعة وكان لهم دور بارز في التشهير بالشيعة وتشويه صورتهم. لذا كرههم الأئمة ﷺ وسخطوا عليهم إذ كان خطرهم على الشيعة كثيرا جدا؛ لأنّهم وضعوا روايات باسم الأئمة ﷺ وبذلك أضلّوا كثيرا من الشيعة الذين يتّبعون الأئمة. قال الإمام الجواد ﷺ عن أبي الخطاب أحد زعماء الغلاة: لعن الله أبا الخطاب وأصحابه ومن يتوقّفُ عن لعنه أو يرتاب في لعنه)الكشي ,١٤٠٩,ج٢,ص ٨١١-المجلسى,١٤٠٣, ج٢٥,ص٣١٩-بحرانى اصفهانى,ج٢٣,

ص ٥٨٩-عطاردى,١٤١٠,ص١٤٤). ثم قال الإمام عليه السلام: إنّ أبا الغمر وجعفر بن واقد وهاشم ابن أبي هاشم هم الذين جعلونا آخذي أموال الناس وغاصبيها وأفضى بهم الأمر إلى أن يدعوا الناس إلى ما يدعو إليه أبو الخطاب لعنه الله وأصحابه والذين صدّقوا أقوالهم (عطاردى، ١٣٨٨، ص ٢٩٨). إلى أن قال في رواية لإسحاق الأنباريّ: يجب أن يقتل اثنان من الغلاة أبو السمهريّ وابن أبي الزرقاء (صفرى فروشانى,١٣٧٨,ص١٢٦) اللذان يعدّان أنفسهما من مبلغي الأئمة؛ لأنهما أثارا الفتنة فيما بين الناس وأرادا قتل الإمام ومحبيه. وكان إسحاق بصدد تنفيذ أمر الإمام ولكنهما كانا يبتعدان عنه دائما (عطاردى,١٤١٠, ص١٤٤-كشى ,١٤٠٩,ج٢,ص٨١١. امتزج الغلاة والواقفية بعضهم ببعض في عصر الإمام الرضا عليه السلام وأثاروا مشاكل كثيرة للشيعة والأئمة عليهم السلام. وقد واجههم الإمام الجواد عليه السلام من خلال الإجابة على شبهاتهم وإفشاء حقيقتهم ولعنهم و منع التعامل اجتماعياً مع الواقفية من جهة، وكذلك بيان فضائل الأئمة عليهم السلام من جهة ثانية.

الفقه الشافعيّ

الإمام الشافعي (١٥٠-٢٠٤هـ) اسمه محمد بن ادريس الشافعي فقيه عربيّ قرشيّ، ولد في غزة وتوفي في مصر. حضر في درس مالك بن أنس وتلقّى الفقه من محمد الشيبانيّ تلميذ ابي حنيفة في العراق وسافر إلى اليمن ومصر. كان مذهبه الفقهي بين مدرسة الرأي ومدرسة الحديث وأدمج بعضهما في بعض؛ لذلك تعدّ مدرسته مدرسة بين المالكية والحنفية. اعترف الشافعي بالمبادئ الأربعة: الكتاب والسنة والإجماع والقياس، واشتهر كتابه باسم رسالة الإمام الشافعي وهو أول كتاب ألف في أصول الفقه. يقترب الفقه الشيعي في العبادات من المذهب الشافعي كثيرا. كان الشافعي يفضل الإمام علي عليه السلام على أئمة مذاهب اهل السنة والجماعة ويحبّه حُبّاً جمّاً (النوبختى، ١٣٥٣، ص ١٣٣). قام أنصاره ومريدوه بعد وفاته بتبليغ مذهبه في مكة والمدن الأخرى.

الإسماعيلية

ادّعى جماعة من الشيعة بعد استشهاد الإمام الصادق عليه السلام أن إسماعيل بن جعفر لم يمت ولن يموت وأنه هو المهديّ القائم بعد أبيه. سمّي هؤلاء الإسماعلية الصميمة. واعتقد آخرون من الشيعة أن حفيد الإمام جعفر الصادق عليه السلام محمد بن إسماعيل إمامٌ بعده. لُقّب متّبعو هذه العقيدة بالمباركية نسبةً إلى اسم زعيمهم مبارك عبد إسماعيل. كان أئمة الإسماعلية مستورين طوال قرن وخمسين سنة بعد وفاة إسماعيل ولم

يعرف من أنشطة دعاتهم وتعاليمهم إلا قليل. خرج عبد الله بن محمد الملقب بأحمد الوفي بعد وفاة أبيه من عسكر المكرم متخفِّياً وذهب إلى الديلم وتزوج هناك بامرأة من العلويين وولد له ابن سمي أحمد ولقب بمحمد التقيّ. جاء عبد الله من الديلم إلى قرب حلب وأقام هناك ثم توجه نحو حمص واستخلف ابنه أحمد بن عبد الله لدى أتباعه، ثم ذهب إلى مدينة المصياف في سورية وتوفي هناك، دفنوا جثمانه في قمة جبل سمّي بالمشهد فيما بعد (٢١٢هـ)، تولى ابنه أحمد بن عبد الله الإمامة بعد وفاته، وتوفي سنة ٢٢٩ في القسطنطنية (النوبختي، ١٣٥٣، ص ٢٣٦-٢٣٧). امتدت دعوة الإسماعلية جغرافيا وأصبح لها أنصار وأتباع.

الزندقة

ترجم عبد الله بن المقفع كتبا من المانوية إلى العربية وازداد الزنادقة بسبب تسرب وتسلل تلك الآراء المادية والمنحرفة وانتشار معتقداتهم بين الناس. فأمر المهدي العباسي أن تؤلف كتب في الردّ على الملحدين ومنكري الدين واهتمّ بمكافحة الزنادقة (المسعودي، بى تا، ج٤، ص٣١٥). تمرد الخرميون في جرجان سنة ١٦٢ هـ وكذلك سنة ١٨١هـ (الطبري، ١٤٠٩ق، ج٦، ص٣٧٣و٤٧١). وتمردوا في آذربايجان وأصفهان والري وهمذان والديلم واعترفوا في آذربايجان بزعامة جاويدان بن شهرك. أحيا هذا الاخير مذهب الخرميين وصار بابك زعيمهم بعد وفاته. لم يتمكن بابك من أن يوحِّد بين أنحاء آذربيجان، ولكن دعوته لقت رواجاً كبيرا في مناطق الجبال وهمذان وأصفهان وماسبذان ومهرجان وانتشرت دعوته هذه في طبرستان وجرجان وأرمنستان وخراسان والمدن الأعجمية الأخرى. أصبح بابك يشكل خطراً كبيرا إثر فتوحاته المتوالية وكان المأمون يرسل قوات نظامية كثيرة لمحاربته، ولكنهم كانوا يهزمون دائما، إلى أن هلك المأمون سنة ٢١٨هـ. أرسل المعتصم أكبر القادة النظاميين أفشين حيدر بن كاووس الذى كان أمير منطقة الجبال لمحاربة بابك سنة ٢٢٠هـ وتمكن من إلحاق الهزيمة به وأتى ببابك وأخيه عبد الله إلى سامراء وقتله وصلب جسده في سامراء (محمد سهيل طقوش، ١٣٨٠، ص١٣٦و١٤٦).

المعتزلة

تعود بدايات ظهور المعتزلة إلى قصة متواترة عن الحسن البصري الذي قال عند إجابته تلميذه واصل بن العطاء عن مكانة مقترف الكبيرة: إنّ مكانة مثله تقع في المنزلة بين المنزلتين. ومن ثمّ اعتزل واصل عن أستاذه وقال الحسن عنه: إنّه اعتزل عنا. قَبِلَ أكثر المعتزلة آراء واصل وعدّوه المؤسس الحقيقي

لمذهب المعتزلة (عبد القاهر البغدادي، ١٣٥٨، ص٧٣). أجمع المعتزلة على خمسة مبادئ باعتبارها مبادئهم الاعتقادية وهي كما يلي: ١- التوحيد؛ يعنى أنّ الله واحد لا شريك له سميع بصير، ٢- العدل يعنى العادل؛ أصرّ المعتزلة على اختيار وتكليف الإنسان، ومن هذا المنطلق اعتبروا مصير الإنسان النهائي يقع على عاتقه، ٣- الوعد والوعيد؛ يعني أن الله يعطي المحسنين جزاء حسنا ويعاقب المسيئين بجهنمّ، ٤- المنزلة بين المنزلتين، يعني أنّ مقترف الكبيرة فاسق وله مكانة بين الكفر والإيمان (حسيني علوي، د.ت، ص٣٢)، ٥- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمعنى استكراه المنكر في القلب والدعوة إلى المعروف والنهي عن المنكر باللسان. ظهرت مدرسة الاعتزال في البصرة ونمت، ولكن بشر بن المعتمر (م٢١٠هـ) الذي كان من خرّيجي مدرسة البصرة سافر إلى بغداد في أواخر القرن الثاني للهجرة وأنشأ مدرسة بغداد واهتمّ بترويج مبادئ المعتزلة (رضا برنجكار، ١٣٩١، ص١١٢). ظهرت فرقة المعتزلة الكلامية في ساحة بغداد الثقافية بعد تولي العباسيين الخلافة وبلغت ذروتها في أوائل القرن الثالث للهجرة. وبذلك أصبح المعتزلة أحد التيارات الفكرية والكلامية المؤثرة في عصر الإمام الجواد عليه السلام. فانبرى الإمام الجواد لمكافحة هذا التيار الكلامي بشكل خاص بحيث يمكن أن تدرس مناظرات الإمام الجواد عليه السلام مع يحيى بن أكثم الذي عُدَّ من أكبر الفقهاء في ذلك العصر، وكانت الغلبة فيها جميعاً للإمام الجواد عليه السلام دون منازع.

الخوارج

انقسم الخوارج الى عشرين فريقاً ويقسّم كل فريق إلى فئات، وكانت عقيدتهم المشتركة أنهم كفّروا الإمام عليّ عليه السلام وعثمان وأصحاب الجمل والحكمين ومن رضي بالتحكيم بين الإمام عليه السلام ومعاوية ومن صوّب حكم الحكمين أو حكم واحدٍ منهما، وأنّهم أوجبوا القيام ضد الحاكم الجائر (عبد القاهر البغداديّ، ١٣٥٨، ص٤١). كانت تحكم في عصر الإمام الجواد عليه السلام حكومتان من الخوارج وهما: بني المدرار في سجلماسة، وكان مذهبهم الصفرية وهم يعتبرون المذنبين مشركين ولا يُجوزون قتل الأطفال والنساء ومخالفيهم (عبد القاهر البغداديّ، ١٣٥٨، ص٥٣). ظهرت حكومة بني المدرار في عهد المنصور العباسي سنة ١٤٠هـ وحكموا أكثر من ١٤٠ سنة فكانوا من أبرز حكومات الخوارج المستقلة. أما الحكومة الثانية فهي إباضية المذهب وكانوا على إمامة عبد الله بن إباض، وقالوا إنّ كفار أمة الإسلام -أي مخالفيهم- بريئون من الشرك والإيمان وهم ليسوا بمؤمنين ولا مشركين، لكنهم كافرون وشهادتهم جائزة ولم يجوّزوا إراقة دمائهم سرّاً بل علناً، وأجازوا الزواج بهم والتوريث منهم (عبد القاهر البغداديّ، ١٣٥٨، ص ٦٣). أنشأت هذه الفرقة حكومة في المغرب الأوسط وكان منشئها عبد الرحمان بن رستم وكان مركزها تاهرت. كان هؤلاء أشد الخوارج تزمّتا

وحكموا أكثر من ١٣٠ سنة (محمد سهيل طقوش، ١٣٨٠، ص ٦٥-٦٦). كذلك خرجوا في سيستان بزعامة حمزة آذرک في عهد الإمام الجواد ﷺ حيث أمضى طلحة بن طاهر عهد إمارته غالبا في محاربة الخوارج وكان موته متزامناً مع موت حمزة، ولكن عهد الخوارج لم ينته إلا بظهور العيارين والصفارين الذي أدى إلى زوالهم التدريجي (مفتخري-زماني، ١٣٨١، ص١٥٤-١٦٧). وهاجر الأباضية بإمامة جلندي بن مسعود إلى عمان وأنشؤوا هناك حكومةً لهم سنة ١٧٧هـ استمرت مائة عام حتى عهد المعتضد الذي تمّت فيه إزاحة الحكومة الإباضية (رضا برنجكار، ١٣٩١، ص٣١).

إستراتيجية الإمام الجواد ﷺ في إدارة أزمات الأمة الفكرية

إنّ إدارة الأزمات الثقافية والفكرية الإستراتيجية تعني تنظيم الفعّاليات ومراقبة الأمور وتوجيه الأنشطة الثقافية في إطار الأهداف والأغراض المنشودة والمرجوّة. بما أنّه لأول مرة في تاريخ أئمة الشيعة يتولى الإمامة إمام في مرحلة الطفولة، لذلك كان من الطبيعيّ أن تثير مثل هذه القضية ردود فعل دفعت الإمام الجواد ﷺ إلى أن يركّز أنشطته -انطلاقاً من نظرته العميقة للظروف السياسية والفكرية- بالمرتبة الأولى على تنمية الوعي الثقافي الديني بتأكيد القرآن والعترة، وعلى ترسيخ القيم العقائدية عند الشيعة وأصحابه، وعلى إصلاح نمط سلوكهم الدينيّ؛ وبذلك كان قد ركّز أنشطته على هذه المحاور:

تبيين شأن القيادة الدينية وتأكيد إمامته الإلهية: إنّ إحدى الإستراتجيات المهمة في الإصلاح الثقافيّ والفكري للمجتمع تقوم على تعيين القيادة الفكرية والثقافية العريقة للمجتمع الإسلاميّ. من القضايا المتعلقة بالإمامة في المجتمع آنذاک أن الإمامة كانت قبل بلوغ الرشد أي في مرحلة الطفولة؛ وكان الإمام الجواد ﷺ أول مصداق لهذه القضية العقائدية والتي أدّت إلى ظهور نوع من القلق عند أتباع الأئمة. ومن الشيعة من اتجهوا إلى المدينة بحثاً عن الحقيقة ولكي تطمئنّ قلوبهم؛ فأيقنوا هناك بإمامة الإمام الجواد ﷺ عبر طرح الأسئلة المتعددة على الامام الجواد ﷺ وتلقيهم الاجابات الدقيقة (اشتهاردى، ١٣٨٠، ص٧٧٤). وقد كان الإمام الجواد ﷺ يفصح للناس عامة ولمعارضيه خاصة عن إمامته الحقّة للأمة باعتباره حجة الله في الأرض عند تعامله معهم، ويعرّف نفسه بأنه خزانة العلم والحكمة الإلهية ووصيّ الأنبياء الإلهيين ووارث عباد الله الكرام (عطاردي، ١٤١٠ق، ص١٢٨).

تحدّي شرعية الخلافة ومصداقيتها: رغم أنّ الإمام الجواد ﷺ ذهب إلى بغداد بعد استشهاد أبيه الكريم بدعوة المأمون القسرية وسكن عند مقر الخلافة، إلا انه ﷺ لم يأب أن يبدي الحقائق ويشير إلى إمامته الحقة ويُظهر علمه الإلهي الذي يختصّ بالقادة الإلهيين ويُبدي فضائله ويتّخذ موقفاً سلبيّا من نظام الخلافة

المغتصبة وقد أعرب مراراً لأتباعه وأصحابه عن عدم رضاه عن الحضور في البلاط الحاكم. وكانت أداة إعلان سياسته ضدّ نظام الظلم تتمثل في أقواله الحكيمة تارةً وفي سلوكه القيم تارة أخرى، ويتجلى موقفه في تبيين الفقه الإسلاميّ الصحيح والخالص وتمييزه من الفقه الملوّث بآراء الدخلاء عليه في أثناء مناظراته المعروفة مع يحيى بن أكثم.

توسيع علوم أهل البيت عليهم السلام: من أجل أن يحظى المجتمع الاسلامي بعلمه الرباني ومعارفه بعد استشهاد أبيه الكريم، صعد المنبر في مسجد النبيّ صلى الله عليه وآله قائلا: إنّي محمد بن عليّ الرضا الجواد، إنّي عالم بأنساب الناس في أصلاب آبائهم، إني عالم بأموركم سرّا وعلانية، عاجلا وآجلا، علما أعطانا الله قبل خلق مخلوقاته مستمتعين به بعد فناء السماوات والأرضين. ولولا تعاضد وتعاون الباطل وحكومة المضلين وفتنة الشكاكين لنطقت نطقا يدهش الأوّلين والآخرين فيتعجبون، وقال: يا محمد! اسكتْ! كما سكت آباؤك من قبل (المجلسي، ١٤٠٤، ج٥٠، ص٩).

زعامة الشيعة: أوجد الإمام الجواد عليه السلام وأصحابه ورواته حركة ثقافية وعلمية واسعة ومؤثرة في عالم الإسلام. وكان بوصفه زعيما فكريّا للمسلمين والشيعة يقوم بإزالة شبهات الشيعة والمسلمين عبر المناظرات وبيان التراث الحديثيّ الخالص. تكاد مجموعة الروايات التى رويت عنه في مسنده تبلغ ٢٥٠ رواية، وتقسّم هذه الروايات إلى عدّة أقسام تشمل أصول الدين (التوحيد والنبوة والإمامة) وفروعه، وأحكاما وروايات في الطهارة والصلاة والزكاة والحجّ والجهاد والنكاح والطلاق والقضاء والشهادة والنذر والديات والوصية والإرث والمسائل الأخلاقية وفي مجال تفسير القرآن والدعاء والمناجاة والزيارات؛ بما فيها زيارة رسول الله صلى الله عليه وآله والإمام الحسين والإمام الرضا عليهما السلام والمؤمنين. وقد حاول الإمام الجواد عليه السلام جاهداً في تعزيز عرى التآلف والوحدة بين زعامات الشيعة الذين كانوا متفرقين في الأقطار الإسلامية سواء عندما كان عند المأمون في بغداد بالإجبار أم بعد رجوعه إلى المدينة. وكان يجيب على مسائل الشيعة عبر وكلائه كعليّ بن مهزيار وخيران الخادم وإبراهيم بن محمد الهمذاني وأحمد بن محمد بن عيسى وصالح بن محمد سهل. ومن أجل نشر ثقافة التشيع الأصيلة عيّن الإمام الجواد عليه السلام ولاة ووكلاء وأرسلهم إلى أنحاء الدولة العباسية المترامية الأطراف بحيث كان له وكلاء مؤهلون في مناطق عديدة كالأهواز وهمذان والري وسيستان وبغداد و واسط والبصرة وكذلك في المناطق الشيعية كالكوفة وقم. وكان الإمام الجواد عليه السلام يتواصل مع الشيعة تواصلاً مستمراً مرشداً ومقوِّماً وقائداً.

مكافحة التيارات المنحرفة: كانت المعارضة الفكرية تقوم على مر العصور بدس السموم وتحوك المؤامرات بهدف تفريق الأمة وتشتيت شَملِ الشيعة وتفكيك عرى وحدتِهم. وكان الإمام الجواد عليه السلام يقف في مواجهة

الفرق المنحرفة عن سبيل الإمامة في عصره ويهدى ويرشد الشيعة في اتخاذ الموقف المناسب ضدّهم. من أبرز هذه الفرق هي: المحدثون والواقفية والزيدية والغلاة. قال الإمام الجواد في المحدثين: لا يجوز لكم أن تصلّوا خلف من يجسّم الله وتؤتوا إليه الزكاة (الشيخ الصدوق، ١٣٨٩ق، ص١٠١). وكذلک في رواية عدّ الإمام الجواد ﷺ الواقفية والزيدية من مصاديق الآية "وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة" وجعلهم في صفّ الناصبية (عطاردي، ١٤١٠ق، ص١٥٠). قال الإمام الجواد ﷺ في الغلاة عن أبي الخطاب: لعن الله أبا الخطاب وأصحابه ومن صدّ عن لعنه أو شكّ في لعنه (الكشی,١٤٠٩ق,ج٢,ص٨١١-المجلسی,١٤٠٣ق, ج٢٥, ص٣١٩-بحرانی اصفهانی د.ت, ج٢٣, ص٥٨٩-عطاردی ,١٤١٠ق,ص١٤٤). إلى أن قال الإمام الجواد ﷺ لإسحاق الأنباري في رواية: يجب أن يقتل اثنان من الغلاة هما أبو السمهري وابن أبي الزرقاء اللذان يعتبران أنفسهما مبلغّي الأئمة (عطاردی ,١٤١٠,ص١٤٤-كشی ,١٤٠٩,ج٢,ص٨١١).

المناظرات العلمية والعقائدية: دُفع الإمام الجواد ﷺ إلى المناظرة العلمية من جهتين: ١- من جهة الشيعة أنفسهم الذين يريدون أن يتعرفوا علم الإمام الإلهيّ نظرا لصغر سنه عند تولّيه الإمامة. ولذلک كان من الطبيعي أن تنعقد مجالس متعددة لهذا السبب. ٢- من جهة معارضي الإمامة، لاسيما المأمون والمعتصم فبما أنّ الشيعة يدّعون وينسبون لأئمتهم العلم الإلهي، لذلك سعى الخلفاء لاقامة مجالس المناظرة هذه ليجعلوهم يلتقون بولاة الثقافة ومنظِّري الفكر في الخلافة العباسية، على أمل أن يعجزوا عن الإجابة عن مسألة أو مسائل ومن ثم يعرض الشيعة عن اتّباعهم. وقد كان لرغبة المأمون في إقامة المناظرات تأثيرها؛ لأنّه اشتهر بمحبة العلم (ابن النديم).

٢- ذكر فيالكتبوالمصادرالتاريخية،وخاصةفيمسندالإماماالجواد ﷺ ثمانيروايا تعنالمناظراتوالمحاجّاتالتياستفادفيهاالإمام منعدةطرقفيالإجابةعليالمسائل وهي كمايأتي:

الاستناد إلى الآيات القرآنية.

الاستناد إلى الأحاديث النبوية.

الإجابة بالبراهين العقلية وتأكيد إمامته وأنّه أعلم الناس أجمعين.

استنباط أسئلة مختلفة من السؤال الأصلي.

أهم القضايا التي عرضت في هذه المناظرات هي: الأوامر والنواهي الدينية والأحكام الفقهية، والمواضيع الكلامية كالإمامة وأسماء الله وصفاته وفضائل الخلفاء. كانت هذه المناظرات يعقدها الشيعة أو وعاظ السلاطين التابعون للبلاط العباسيّ.

من أهمّ هذه المناظرات مناظرة كانت بين الإمام الجواد ﷺ وبين يحيى بن أكثم، إذ طلب المأمون من يحيى

أن يسأل الإمام عدة أسئلة صعبة معقدة فسأل يحيى بن أكثم: ما هو تكليف المحرم الذي قتل نَعَما؟ فسأله الإمام عند إجابته: هل قتله في الحرم أو خارجه؟ هل كان جاهلا بالحكم أو عالما؟ هل قتلا عمدا أو خطأ؟ هل كان بالغا أو غير بالغ؟ قتله عند ذهابه إلى مكة أو عند عودته منها؟ كان الصيد من الطيور أو غيرها؟ كان الصيد صغيرا أو كبيرا؟ مازال المحرم مصرّا على فعله أو ندم عليه؟ قتل الصيد في الليل أو في النهار؟ كان المحرم معتمرا أو في الحج؟ وبذلك هزم الإمام عليه السلام يحيى بن أكثم (الحرانى,١٣٧٣,ص٤٧٣-٤٧٧- الشيخ المفيد,ج٢,ص٢٦٩-٢٧٣). ومن ذلك أيضاً مناظرته الأخرى مع يحيى بن أكثم في فضائل الخلفاء والتي ردّ الإمام فيها الأحاديث الموضوعة والمنتحلة في فضائل الخلفاء. وله مناظرة مهمة أخرى مع ابن أبي داوود في عهد المعتصم والتي كانت في قطع يد السارق، وقد قال الإمام: المساجد لله ولا يقطع ما لله (العلامة الطباطبايّ، ١٣٧٤، ج٥، ص٥٤٩). وفي نهاية الأمر أدّت هذه المناظرات إلى استشهاد الإمام الجواد عليه السلام.

جدول بعدد المناظرات وتحليل محتواها

السائل	سؤال السائل	جواب الإمام	جهة المناظرة العامة	الملاحظات
يحيى بن أكثم	حكم قتل النَعَمِ عند الإحرام	له وجوه مختلفة فأجاب الإمام بعرض أسئلة كثيرة تختلف إجاباتها بعضها عن بعض	الأحكام	حيّر الإمام الجميع بعرض أسئلة كثيرة
يحيى بن أكثم	تعريف وتعيين إمام العصر	أنا الإمام	الإمامة	تبيّنت فضائل الإمام
المعتصم	قطع يد السارق	يجب أن تقطع الأصابع من موضع اتصالها بالكف؛ ويجب حفظ الكفّ	الأحكام	استند فيها الإمام إلى الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة
يحيى بن أكثم	حكم زواج رجل بامرأة زنا بها	أن يتركها تستبرئ من نطفته ومن نطفة الآخرين	أحكام الزواج	

رجل من علماء الشيعة	حكم رجل قال لزوجته: طلّقتک عدد نجوم السماء	قال الله تعالى:"الطلاق مرتان فإمساک بمعروف أو تسريح بإحسان"	أحكام الطلاق	استند الإمام إلى آيات القرآن وبيّن أنه أعلم من كل أحد
رجل من علماء الشيعة	حكم الوطء بالحيوان	يُعزّر مقترفه ويوُسم الحيوان ويخرج من مكانه لكى لاتبقى وسمة عار على صاحبه	أحكام الوطء	إنّ الإمام أعلم من كل أحد
رجل	أسماء الله وصفاته في القرآن	إنّ الاسماءوالصفات مخلوقات الله والمراد بها الله تعالى	التوحيد	كان الإمام يجيب بالحجة العقلية
يحيى بن أكثم	رواية رضا أبى بكر عن الله	قال النبيّ ﷺ: "لا تعملوا بأيّ رواية تعارض كتاب الله وسنتي" وجاء في القرآن: "ولقد خلقنا الإنسان وتعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد"	علم الحديث و إثبات أن الرواية موضوعة	استند الإمام إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية
يحيى بن أكثم	رواية تشبيه أبي بكر وعمر بجبرئيل و ميكائيل	هذا مستحيل؛ لأنهما كانا مشركين طوال سنين .	إثبات أن الرواية موضوعة	الاستناد إلى الآيات والروايات
يحيى بن أكثم	رواية أنّ ابابكر و عمر سيدا شيوخ أهل الجنة.	هذا ليس بصحيح ورجال الجنة شباب	إثبات أن الرواية موضوعة	الاستناد إلى الحديث النبويّ

يحيى بن أكثم	رواية أنّ عمر بن الخطاب سراج أهل الجنة	هذا مستحيل؛ لأنّ الجنّة منوّرة بأنوار الملائكة والمقرّبين ومحمد صلى الله عليه وآله والأنبياء	إثبات أن الرواية موضوعة	الاستناد إلى الروايات
يحيى بن أكثم	رواية أنّ عمر كان يتكلم بالوقار والمحبة والهدوء وكان له لسان ليّن	قال عمر على المنبر: لي شيطان يتابعني دائما وإذا انحرفت عن الطريق هداني	إثبات أن الرواية موضوعة	
يحيى بن أكثم	رواية بعثة عمر للنبوة	أخذ الله من الأنبياء ميثاقهم وكيف الآن ينقضه وكيف يبعث للنبوة من كان مشركا.	إثبات أن الرواية موضوعة	استند الإمام إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية
يحيى بن أكثم	رواية الوحي إلى عمر	هذا مستحيل؛ أن النبي لم يشكّ ولم يرتب، بل كان متيقناً من نبوته	إثبات أن الرواية موضوعة	استند الإمام إلى الآيات القرآنية
يحيى بن أكثم	رواية نجاة عمر من العذاب	هذا مستحيل	إثبات أن الرواية موضوعة	استند الإمام إلى الآيات القرآنية

ترسيخ عقائد الشيعة وتنشئة التلاميذ: نظرا للحظر القاسر والرقابة الشديدة المانعة لتعامل الشيعة المباشر مع الإمام الجواد عليه السلام، قام الإمام بتربية التلاميذ والطلاب الذين يقومون بالنيابة عن الإمام في حلّ مشاكل الناس والإجابة على أسئلتهم. وقد ذُكرت أسماء ١٦ صحابياً من أصحابه و١٢٥ راويا من رواته عليه السلام في المصادر (عطاردى،١٤١٠ ق،ص ١٣٥ و ٢٥٠)؛ ذكر الشيخ الطوسي ١١٦ رجلا منهم و٣٧ رجلا منهم إيرانيون (الشيخ الطوسي،١٣٨١ق،ص٣٩٧)، وأعرفهم وأشهرهم هم: أحمد بن محمد البزنطي الذي كان من أهل الإجماع واعترف الجميع بثقته ووثاقته، وزكريا بن آدم القميّ الذي دعا له الإمام الجواد عليه السلام والذي عَدَّه من صِنفِ أصحابه الأوفياء العارفي الحق والجميل، وعليّ بن مهزيار الأهوازي الذي كان من وكلائه الخاصين والذي دعا له الإمام و ذكره بوصفه شخصية فذّة عديمة النظير ورُوي عنه قريب من ٣٥ كتابا

في الفقه والتفسير والعقائد (النجاشي، ١٤١٣ق، ص٢٥٣)، ويعقوب بن إسحاق السكّيت الذي ذكر له ٣٢ كتابا وقَتَلَه المتوكِّلُ (النجاشي،١٤١٣ ق،ص٤٤٩)، وعبد الله بن عبد الله الحسني الذي كان من كبار المحدثين والفقهاء وله منزلة رفيعة عند الأئمة والشيعة وقد تشرّف بزيارةِ ثلاثة من الأئمة هم الإمام الرضا والإمام الجواد والإمام الهادي (عليهم السلام). وتوفّي في عهد الإمام الهادي ﷺ في مدينة الريّ. روى عبد العظيم الحسنيّ عن الإمام الجواد ﷺ روايات كثيرة ممّا يدل على أنه ما زال متّصلا به ﷺ. ومن الملاحظ أن روايات عبد العظيم الحسني جاءت في مختلف المواضيع كالإمامة والتفسير والأدعية والأحكام (عطاردي،١٤١٠ ،ص٢٩٨-٢٩٩).

إنّ هذا العدد الكبير من الروايات والمصادر المكتوبة والموروثة التي نقلها أصحاب الإمام الجواد ﷺ تدل بما لايقبل الشك انّه ﷺ كان له الدور الريادي والمصيريّ الجليّ في إدارة دفّة المسيرة الثقافية والعلمية للمجتمع الإسلاميّ.

النتيجة

تمّت في عصر الإمام الجواد عليه السلام تحولات سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية واسعة في المجتمع الإسلاميّ. من أهمّ هذه التحوّلات استمرار حركة التيّارات الفكريّة التي ظَهَرت في العصر الرضوي مثل الغلاة والمعتزلة والخوارج والواقفية والزيدية وظهور بعض تيّارات جديدة كالمحدثين الحنبليين.

مع أنَّ الإمام الجواد كان محاصراً وخاضعاً لرقابة القوَّة الحاكمة ويُعاني من الظُّلم العَبّاسي شأنه في ذلك شأن آبائه الكرام ، إلا أنّه كوَّنَ تياراً ثقافيا وفكريا إلهيا مُلهَماً من خلال إستراتجياته في إدارة الجانب الثقافي والفكري؛ بما في ذلك: بيان وتبيين منزلةِ القرآن والعِترة الطاهرة بشكل كامل ودقيق، وانه ترك للأمة حشداً من الروايات المختلفة في ترسيخ وتكريس بناء قيم الشيعة الفكريّة، مناظراته مع المعارضين وأشهر منظِّري الجانب الفكري في الخلافة العباسية بمن فيهم يحيى بن أكثم. لم يترك الإمام تيّارَه الثقافي والعلمي يتطوَّرَ عَشوائياً بل كان يُراعي أساسيّات إدارة الفكر الثقافي بتربيته تلامذةَ وأصحابا اشتدَّ بهم عودُ هذا التيّارِ في أقصى نقاط العالم الإسلامي. هناك ١٦ صحابيا و١٢١ راوياً للامام الجواد عليه السلام ذُكروا في المصادر كان بعضهم من أشهر مؤلفي التراث الفقهي والتفسيري والحديثي للأئمة عليهم السلام.

اصطفى الإمامُ وكلاء كانوا حلقة اتصالٍ وترابطٍ بينه وبين شيعته والذين كانوا يعتنون بشؤون الناس ومشاكلهم ويجيبون على مسائلِهم الشرعية وشُبُهاتهم العقائدية وفّروا ظروف استمرار حياة الشيعة وبقائها ثقافةً وفكراً وهذا كان بسبب القيود المفروضة التي حالت دون الاتصال المباشر بين الإمام والشيعة.

بناء على ما ذكر آنفاً لا نجانب الحقّ إذا قلنا إن للإمام الجواد دوراً أساسياً في تطوّر الفكر الشيعي وتحريره من قيود الفرق الانحرافية وشِباك المعتقدات الضالة التي انتشرت في الأقطار الإسلامية بمختلف العناوين والتسميات.

المصادروالمراجع:

١-ابن شهرآشوب، مناقب آل أبي طالب، بيروت: دار الأضواء، ١٤٠٥ق
٢-إشتهاردي، محمد مهدي، سيره چهارده معصوم، تهران: نشر مطهّر، ١٣٨٠ش
٣-أشعري قمي سعدبن عبدالله، المقالات والفرق، تصحيح محمد جواد مشكور، ترجمه يوسف فضايی، تهران: انتشارات عطايی,١٣٧١
٤-ابن طاوس علی بن موسی,مهج الدعوات,ترجمه طبسی,مصحح محمد سادات حياتشاهی ,تهران,رايحه,١٣٨٩
٥- اصفهانی ابوالفرج،مقاتل الطالبيّن، تحقيق احمد صقر، بيروت، منشورات الاعلمی للمطبوعات،١٤٠٨ق.
٦-بحراني إصفهاني عبدالله بن نورالله، عوالم العلوم و المعارف و الأحوال من الآيات و الأخبار و الاقوال ,محقق و مصحح محمد باقر موحد ابطحی اصفهانی,قم ,ناشر موسسه الامام المهدی,بی تا
٧-بلعمی,تاريخنامه طبری,تحقيق محمد روشن,تهران,البرز,١٣٧٣
٨-برنجكار رضا,آشنايی با فرق و مذاهب اسلامی,قم ,ناشر كتاب طه ,١٣٩١
٩-پژوهشگاه حوزه ودانشگاه,تاريخ تشيع ,قم,انتشارات مركزمديريت حوزه های علميه خواهران,١٣٩٠
١٠-حسينی العلوی ابوالمعالی محمد, بيان الاديان درشرح اديان ومذاهب جاهلی واسلامی,تصحيح عباس اقبال,انتشارات ابن سينا,بی تا
١١-الحرانی حسين بن شعبه,تحف العقول عن آلرسول,مترجم ومصحح آيت الله كمره ای,علی اكبرغفاری,انتشارات كتابچی,١٣٧٣
١٢-جعفريان رسول,حيات فكری وسياسی امامان شيعه,قم,انتشارات انصاريان ,١٣٨٧
١٣-خليفه بن خياط,تاريخ,تحقيق سهيل زكار,بيروت,دارلفكر,١٤١٤ق
١٤-شهرستانی محمد بن عبدالكريم,ملل و النحل,ترجمه افضل الدين صدر تركه اصفهانی,تابان ,١٣٣٥
١٥-الشيخ الصدوق,التوحيد,قم ,موسسه النشر الاسلامی,١٣٩٨ق
١٦-الشيخ المفيد,ارشاد,ترجمه سيدهاشم رسولی محلاتی,تهران,ناشرالاسلاميه,بی تا
١٧-صابری حسين,تاريخ فرق اسلامی,تهران,انتشارات سمت,١٣٩٣
١٨-صفری فروشانی نعمت الله,غاليان كاوشی در جريان ها وبرايند ها تاپايان سده سوم مشهد,نشرآستان قدس رضوی ١٣٧٨
١٩-الطبرسی امين الاسلام ,اعلام الوری باعلام الهدی,تهران,ناشراسلاميه,١٣٩٠ق
٢٠-الطبری محمدبن جرير,تاريخ,بيروت,موسسه الاعلمی للمطبوعات,١٤٠٩ق
٢١-طقوش محمدسهيل,دولت عباسيان,مترجم حجت الله جودكی,قم,انتشارت پژوهشكده حوزه

ودانشگاه,۱۳۸۰ ش.
۲۲- الطوسی محمد بن حسن،اختیار معرفه الرجال(الرجال کشّی)تحقیق محمد تقی فاضل المیبدی و السید ابوالفضل الموسویان،تهران،موسسه الطباعه و النشر لوزاره الثقافه و الارشاد الاسلامی، ۱۳۸۲ش.
۲۳-عبدالقاهر بغدادی ابومنصور,الفرق بین الفرق درتاریخ مذاهب اسلامی,به اهتمام دکترمحمد جواد مشکور, انتشارات اشراقی,۱۳۵۸
۲٤-عطاردی الشیخ عزیز الله,مسندالامام الجوادعلیه السلام,قم,ناشرالموتمرالعالمی للامام الرضاعلیه السلام,۱٤۱۰ق
۲۵-عطاردی عزیز الله,نهمین کوکب آسمان ولایت,مترجم سیدابوالفضائل مجتهدی,تهران, انتشارات عطارد,۱۳۸۸
۲٦-علامه طباطبایی-سید محمد باقر موسوی همدانی ,ترجمه تفسیرالمیزان,قم,دفترانتشارات اسلامی,۱۳۷٤
۲۷-الکشی محمدبن عمر,رجال (اختیارمعرفه الرجال)محقق ومصحح محمدبن الحسن طوسی -حسن مصطفوی,مشهد, موسسه نشردانشگاه مشهد,۱٤۰۹ق
۲۸-کوئن بروس،مبانی جامعه شناسی، ترجمه غلامعباس توسلی و رضافاضل،تهران، انتشارات سمت، ۱۳۸٦ش.
۲۹-الکلینی رازی ابی جعفرمحمدبن یعقوب,اصول کافی,ترجمه وشرح محمد باقرکمره ای,تهران,اسوه,۱۳۷۲
۲۸-المجلسی محمد باقربن محمد تقی ,بحارالانوار,بیروت,ناشرداراحیاءالتراث العربی, ۱٤۰۳ق
۳۰-مستوفی حمدالله,تاریخ گزیده ,تهران,امیرکبیر,۱۳٦۲
۳۱-المسعودی علی بن حسین ,مروج الذهب,تحقیق محمدمحی الدین عبد الحمید,بیروت, دارالمعرفه,بی تا
۳۲-مفتخری حسین-حسین زمانی, تاریخ ایران ازورودمسلمانان تا پایان طاهریان,تهران,انتشارات سمت,۱۳۸۱
۳۳-منتظرالقائم اصغر,تاریخ امامت,قم ,ناشر دفتر نشر معارف,۱۳۹۱
۳۵- النجاشی ابوالعباس احمد بن علی،رجال،قم، النشر الاسلامی،۱٤۱۳ ق.
۳۵-النوبختی ,فرق الشیعه,مترجم دکتر محمد جواد مشکور ,انتشارات بنیاد فرهنگ ایران ,۱۳۵۳ ش.
۳٦-الیعقوبی ابن واضح,تاریخ,بیروت,دار صادروداربیروت,۱۳۷۹ق

الأراجيزُ المنسوبةُ إلى أبي الفضلِ العباسِ عليه السلام
في واقعةِ الطفِ
قراءةٌ في المضامينِ الإيمانيةِ والعقائديةِ

Tales pertinent to Abu alfadhal Al-`Abbas
in Al-Taff Battlke
A Readingin the Faith and Doctrinal Content

أ.د.عادل نذير بيري

جامعة كربلاء/ كلية التربية للعلوم الانسانية/ قسم اللغة العربية

Prof. Dr. Aadil N. Beiri
Department of Arabic
College of Education for Human Sceinces
Karbala University

الباحثة وفاء مسعود عزيز فاضل

(ماجستير لغة عربية / كلية التربية للعلوم الانسانية/ جامعة كربلاء)

Wafa M. A. Fadhil
Arabic language/ Master College of Education for Human
Sceinces / Karbala University

ملخص البحث :

هذا البحث كان في مجمله طرحًا وتتبعًا لأراجيز تميَّزت من غيرها من جهاتٍ متعدِّدة ، منها : قائلها ، والظرف الذي قيلت فيه ، ومحتواها ، فهي لم تكن بمثابة أراجيز حربية يتغنى بها الرَّاجز لشدِّ العزيمة وتحشيد القوَّة وشحذ الهمم ؛ وإنَّما كانت رسالة صريحة ومعبِّرة عن قضية مصيرية تتعلَّق بالأمة الإسلامية ويتحدَّد معها مصيرها .

والقائل ليس شخصيَّة عادية وإنَّما هو شخصيَّة نهلت علمها وأخلاقها من بيت النبوَّة والعترة الطاهرة ؛ ولذا جاءت بمضامين إيمانية وعقائدية تعبِّر عن مدى الصلابة في الإيمان والثبات والرجاحة والنفاذ في البصيرة، وقد قيلت هذه النصوص في واقعة الطف التي مثَّلت أعظم واقعة صدَّعت قلوب المؤمنين ونزفت من أجلها عيونهم دمًا لا دمعًا .

Abstract:
The research paper traces the tales as they are important for their originator and the circumstances under which they are uttered ; they surpass the acts of morale whetting ; they are mere expressive and candid messages highly related to the Islamic nation in determining its future.
The speaker is not anyone، a man who imbues his knowledge from the abode of prophecy and the chaste posterity ، such tales purport faith and doctrine content manifesting the faith solidity ، confirmation، elegancy and profound insight.

المقدِّمة

الحمدُ لله ربِّ العالمين وصلِّ اللهمَّ على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبِهِ الغرِّ الميامين وسلَّم تسليما ...

أمَّا بعد فإنَّ الموضوع الذي استقرَّ البحث عليه هو ((الأراجيز المنسوبة إلى أبي الفضل العباس (عليه السلام) في واقعة الطف .. قراءة في المضامين الإيمانية والعقائدية))، وهويقتضي إضاءتين :

إحداهما : معنى الأراجيز منطلقًا من مفردها (إرجوزة) التي تأتي في اللغة من مشتقات (رَجَزَ) ؛ ولهذه اللفظة معانٍ أفردت لها المعاجم (مادة) مستقلة وجاءت في القرآن الكريم بمعنى معيَّن ، والرجز : مصطلح عروضي وشعري أُطلِقَ على الوزن الشعري الذي يتشكَّل صدره من ثلاث تفعيلات (مستفعلن مستفعلن مستفعلن) ومثله العجز ، فهو ست تفعيلات . وهو من الأوزان السهلة وأقربها إلى اللغة النثرية ، لذلك نجد العرب يعمدون إليه في كثيرٍ من مناسباتهم ، وأكثر ما يكون ذلك في المنازعات والمنازلات والحروب فهو لا يحتاج إلى إعمالِ فكرٍ وعناء للضبط العروضي المطلوب ، ولذلك قيل على وزنه الكثير حتى أنَّهُ مُيِّز عن الشعر ، فالمادة الشعرية قديمًا تصنَّف أحيانًا إلى شعر و(رجز) أي أنَّهُ لون قائم بذاته ، وقد روي عن النبي أنَّه ارتجز مرة قائلًا :

أنـــا النـبيُّ لا كـــذب أنا ابنُ عبد المطلب

الإضاءة الثانية : معنى القراءة في ضوء المضامين الإيمانية والعقائدية ؛ فإنَّ ما روي عن أبي الفضل العباس (عليه السلام) من أراجيز لا ينطلق من فراغ ؛ فالعباس ابن العترة الطاهرة تخرَّج في مدرسة الوحي والتزم عقيدة السادة من أهله فيقينًا أنَّ ما جرى على لسانه كان بإيحاء من ثقافة قرآنية إيمانية عقائدية ، لذلك فالبحث يتلمس الوعي الإيماني العقائدي في أراجيز أبي الفضل العباس (عليه السلام) وذلك بلحاظ ما روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، إذ يقول : ((إنَّ ولدي العباس زُقَّ العلم زقًّا)) ويقول الإمام الصادق (عليه السلام) : ((كان عمُّنا العباس نافذ البصيرة صلب الإيمان)) لذلك فالبحث في مهمته الأساسية يسعى إلى استنطاق ما روي عن أبي الفضل العباس (عليه السلام) في واقعة الطف استنطاقًا إيمانيًا وعقائديًا ، إذ رأى أنَّ العباس قد زُقَّ العلمَ زقًّا لأنَّهُ نافذ البصيرة صلب الإيمان .

أذكر أنَّنا قد أحصينا في إحدى روايات الواقعة (٤٥ أرجوزة) كان أبو الفضل العباس (عليه السلام) فيها أكثر المرتجزين ، فقد نسبت لهُ خمس أراجيز ، فهو الرَّاجز الأوَّل في الواقعة وصادف أنَّ المدوَّنة المعجمية أثبتت أنَّ الرَّاجز هو الساقي ، فلاحظ هذا التوافق اللطيف بين إحدى وظائف أبي الفضل العباس يوم الطف وإحدى معاني الرَّاجز في اللغة .

يبقى لنا التنويه بأنَّ الأراجيز المختارة قد اعتمدنا في إسنادها على ما جاء في مقتل أبي مخنَف مع تغييرٍ قليلٍ في بعضها لأنَّ الشائع يبيِّن وجود خطأ طباعي بسيط ، ولكنَّه لا يؤثِّر كثيرًا في المعنى العام .

وأخيرًا نقول إنَّ الإقبال على هذا البحث كان نابعًا من إيمانٍ بالشرف الذي سنحظى به عند أبي الفضل ، فكان ما كُتب بتسديدٍ منه ولا فضل لنا في شيء فنسأل الله القبول راجين شفاعة إمامنا باب الحوائج أبي الفضل العباس عليه منا السلام . وآخرُ دعوانا أن الحمدُ لله ربِّ العالمين وصلَّى الله على محمدٍ وآله الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين إلى يومِ الدِّين وسلَّم تسليمًا كثيرًا ...

التمهيد

أولًا : الرَّجز (المفهوم والنشأة) :

١ – الرَّجَز لغةً :

" مصدر رَجَز يَرْجُز ؛ قال ابن سيده : والرَّجَزُ شِعرٌ ابتداء أجزائه سببان ثمَّ وَتدٌ ، وهو وزنٌ يسهل في السَّمْع ويقع في النَّفْس ، ولذلك جاز أن يقع فيه المَشطور وهو الذي ذهب شَطْره ، والمَنْهوك وهو الذي قد ذهب منه أربعة أجزائه وبقي جزآن ... والرَّجز : بحرٌ من بحور الشعر معروف ونوعٌ من أنواعه يكون كلُّ مِصْراع منهُ مفردًا ، وتسمَّى قصائده أراجيز ، واحدتها أُرْجُوزَةٌ ، وهي كهيئة السَّجع إلَّا أنَّهُ في وزن الشعر ، ويسمَّى قائله راجزًا كما يسمَّى قائل بحور الشعر شاعرًا ... إنَّما سمَّاه راجزًا لأنَّ الرَّجز أخف على لسان المنشد ، واللسان به أسرعُ من القصيد ... قال أبو إسحق : ومعنى الرِّجز في القرآن هو العذاب المقلقل لشدَّته ، وله قلقلةٌ شديدةٌ متتابعة "[١] .

٢ – الرَّجز اصطلاحًا :

" الرَّجز هو أكثر البحور تقلُّبًا وتعرُّضًا لإصابته بالزحافات والعلل والشطر والنهك والجزء فلا يبقى على حالٍ واحدة "[٢] ، وقد سمِّي بهذه التسمية لاضطرابه كاضطراب قوائم الناقة عند القيام كما ذهب الخليل حين سئل عن علل تسمية البحور بعد عمله لكتاب العروض [٣] .

وبحر الرَّجز من البحور الأحادية التفعيلة ، ووحدته التي يتألف منها هي (مُسْتَفْعِلُنْ) ، وهي عبارة عن سببين خفيفين بعدهما وتد مجموع ، وهي مكوَّنة من أربعة مقاطع صوتية ، والزحاف الذي يدخل هذا البحر هو الخبن : وهو حذف الثاني الساكن ، والطي : وهو حذف الرابع الساكن ، والخبل : وهو اجتماع الخبن والطي معًا ، وممَّا يُلاحظ أنَّ التفعيلة مع أي صورة من هذه الصور تبقى محافظة على كونها أربعة مقاطع صوتية ، ولهذا البحر خمس صور ، صورتان منها في حال التمام ، والصور الباقية في حالة النقصان [٤] .

٣– الرَّجَز في العصر الجاهلي والإسلامي :

الرجز كما يذكر الدكتور إبراهيم أنيس " فن مستقل من فنون القول ، وهو القالب الذي آثره القدماء للآداب الشعبية . فالناس في لهوهم وعبثهم ، في أسواقهم وبيعهم وشرائهم ، في بعض أغانيهم وغزلهم ، في دعابتهم وفكاهتهم ، في القصص والحكايات ، في كل ما يعرض لهم من شؤون في حياتهم العادية التي تخلو من مواقف الجد والجلال ، كانوا يعمدون إلى الرَّجز فيروِّحون به عن أنفسهم ويعبِّرونَ به عمَّا يمكن أن يجيش في صدورهم من معانٍ هي ملك لهم جميعًا ، وأخيلة وصور في متناولهم جميعًا العامَّة منهم والخاصَّة "[٥] .

فقد كانت الأراجيز في العصر الجاهلي تمثِّل الآداب الشعبية المحلية أبدع تمثيل ، وتصور حياة القبيلة وأصحاب اللهجة الواحدة خير تصوير فلمَّا جاء عهد التدوين في العصور الإسلامية كانت أراجيز الجاهلية قد اندثرت بموت أصحابها ، وما بقي منها في اذهان الناس أيام الإسلام كان القلَّة النادرة التي تحرَّج الرواة من روايتها ، بل لم يروها أهلًا للرواية ، ولم يعنوا بتسجيلها مكتفين بتلك الآداب السامية الراقية التي قيلت باللغة النموذجية الأدبية [٦] .

وقد كان للرجز في العصر الإسلامي دور كبير في ظروف القتال في التحميس ورفع روح المقاتلين ، ما لم يتسنَّ للشعر ، فضلًا على ذلك فقد كان حاجة ملحّة لأنَّ ظروف القتال وقسوة الحياة تحت ظلال السيوف لم تكُن لتُعينهم على التنفُّس الغنائي الهادئ والتعبير الوجداني المنساب ، في قصائد متأنيَّة مديدة النَّفَس ، ولم يكُن هناك حرج من أن يشيد الشاعر بذاته ، ويعبِّر عن فرديته داخل إطار الجماعة الإسلامية تعبيرًا حرًّا ، دون التجاء إلى المقدِّمات التي لابُدَّ أن تشغله في مثل هذه الظروف المضطربة السريعة الأحداث عن التعبير المباشر [٧] .

وهذا النوع من الرَّجز يقع ضمن مجموعة أخرى من الأغراض التي مثَّلت الرَّجز في صدر الإسلام ؛ وهناك من حصر مجموع هذه الأغراض في عشرِ نقاط هي [٨] :

أوَّلًا : الدعاء والابتهال إلى الله تعالى .
ثانيًا : الرَّجز الحربي .
ثالثًا : الفخر .
رابعًا : المدح .
خامسًا : الرَّجز السياسي .
سادسًا : الوصف .
سابعًا : الهجاء .
ثامنًا : الحكمة .
تاسعًا : الشكوى .
عاشرًا : الحث على الجهاد .

ولكنَّنا نتفق مع من يرى أنَّ ما ينظم بهذا البحر (الأرجوزة) هو على الأغلب في الشعر الحماسي الارتجالي الذي كان يُنظم عادةً وسط المعارك في المبارزات [٩] ، ولا عجب فالأسباب التي ذكرناها تفرض ذلك ، ونضيف أنَّ الرجز ما هو إلَّا بحر يُلجأ إليه لضيق المقام كما ذُكِر أو للحالة التي يعيشها المقاتل في ساحات الحروب أو قد يكون للاستئناس فكل غرض يخدم حالة خاصَّة للراجز ، فإذا أراد استعماله لغرض الدعاء فإنَّما يكون للاستئناس به مع المحبوب وهو الخالق (جلَّ وعلا) ، وإذا أراد الحماسة والارتجال فإنَّما يكون ذلك لكونه يخدم هكذا مقام ويؤثِّر معه ، وهكذا مع البقيَّة أي يكون الرَّجز مع كل غرض ذا صبغة خاصَّة تتضمَّن ما قيل عنه في اللغة ، إذ يتجاذبه معنيان أحدهما إرهاب الطرف المقابل ، والآخر هو الاستئناس بقوله تبعًا للمقام .

وزعم الخليل أنَّ الرَّجز ليس بشعرٍ وإنَّما هو أنصاف أبيات وأثلاث ، ودليله في ذلك ما روي عن النبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) في قوله :

ستُبدي لك الأيَّامُ ما كنْتَ جاهلًا
ويأتيك بالأخبار من لم تُزوِّد بالأخبار

قال الخليل : لو كان نصف البيت شعرًا ما جرى على لسان النبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) :

ستُبدي لك الأيَّامُ ما كنْتَ جاهلًا

وجاء بالنصف الثاني على غير تأليف الشعر ، لأنَّ نصف البيت لا يقال له شِعْر ، ولا بيت ، ولو جاز أن يقال لنصف البيت شعر لقيل لجزء منه شِعْر ، وقد جرى على لسانه (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) :

أنا النبي لا كَـــذِبْ أنا ابنُ عَبْدِ المُطَّلب

قال الخليل : فلو كان شعرًا لم يجرِ على لسان النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد قال الله تعالى فيه : ﴿وَمَاعَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَوَمَايَنبَغِي لَهُ﴾[يس : ٦٩] ، أي وما يتسهَّل له ، ولكنَّ الأزهري يرد على الخليل بأنَّ معنى (وما ينبغي له) ، أي لم نعلِّمه الشعر فيقوله ويتدرَّب فيه حتى يُنشئ منه كتبًا ، وليس في إنشاده البيت والبيتين لغيره ما يبطل هذا لأنَّ المعنى فيه إنَّا لم نجعله شاعرًا [١٠] .

ويذكر مؤرِّخو الأدب في مواضع كثيرة أنَّ الكلام قد يجيء على وزن الرَّجز دون عمدٍ أو قصد ، بل يكون وزنه عفوًا وبمحض المصادفة ، وأنَّ مثال ذلك النوع قد جرى على لسان النبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) في يوم حُنين في البيت السابق الذكر ، وما قاله حين أصيبت إصبعه في أثناء المعركة ، قال :

هل أنتِ إلَّا إصبعٌ دَمِيتِ وفي سبيـــل الله ما لَقِيـــتِ [١١]

ولكن من نافلة القول إنَّ الخلاف حول ماهيَّة ما قاله النبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) يقتضي البحث في قضيتين الأولى : هل الرَّجز من الشعر أو من غيره ، والقضية الأخرى إذا كان شعرًا فكيف ننسبه إلى النبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) وهو منزَّه عن قول الشعر ؟ وعليه نسلِّم بالرأي القائل إنَّ قول البيت والبيتين لا يُعتد به ليكونَ صاحبه شاعرًا لأنَّ " الشاعر من يُكثر النظم ، ويُجيد في أغراضه ، ويتَّخذ من الشعر حرفة يعيشُ عليها ، فيمدح هذا ، ويهجو ذلك ، تبعًا لما يحصل عليه من جوائز الممدوحين "[١٢] ، وتأكيد ذلك ما جاء في سياق تفسير قوله تعالى : (وما ينبغي له) فإنَّما جاءت لرفع درجته وتنزيهه عمَّا يتعاوره العارف بصناعة الشعر فيقع في معرض تزيين المعاني بالتخيلات الشعرية الكاذبة التي كلَّما أمعن فيها كان الكلام أوقع في النَّفس ، وتنظيم الكلام بأوزان موسيقية ليكون أوقع في السَّمع وإن كان صاحب التفسير ينفي أن يكون النبي قد قال الشعر لأنَّ في ذلك تنزيهاً للقرآن عن أن يكون شعرًا وتتمَّة الآية تؤكِّد ذلك ، وهو قوله تعالى:

﴿وَمَاعَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَايَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾[يس : ٦٩][١٣] .

والقضيَّة خلافية والحديث فيها طويل ولكن ما أردنا قوله إنَّ الرَّجز في العصر الإسلامي قد انتحى طريقًا جديدًا وأنَّ النبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) قد ارتجز به سواء أكان قاصدًا له أم لم يكن قاصدا ، ولا غرو في ذلك لأنَّ هذا كان دأب البيت المحمدي من بعده فإذا كان النبي منزَّهًا عن قول الشعر بصريح القرآن وهذا كان موضوعًا خلافيًا فإنَّ أهل البيت (عليهم السلام) قد ارتجزوا الأراجيز في ساحات الحرب لما في ذلك من أهداف سامية ترفعت عن الأهداف التي حملتها الجاهلية ، من ذلك قول الإمام علي (عليه السلام) في إحدى المعارك ، وهو من الرَّجز الحربي الذي يفخر فيه بنفسه [١٤] ، قال :

" أنا الذي سمَّتنِي أمي حَيــدَرَهْ رئبــالُ آجــام كريهُ المَنْظـرَهْ

عَبْلُ الذِّراعينِ شديدُ القَسْوَرَهْ أكيلهم بالصَّاعِ كيــلَ السَّنْدَرَهْ "[١٥]

وكي لا يطول بنا المقام ستتضح هذه الأهداف أكثر مع أراجيز أبي الفضل العباس(عليه السلام) في أثناء البحث .

ثانيًا : حياة العباس (عليه السلام) :

الإمام العباس (عليه السلام) شخصية عظيمة وُلدت ولن يلدها التاريخ بعد ، فهذا الشخص الذي جُمعت فيه جميع الصفات الحميدة قد مثَّل الإخلاص لدينه ولأهل بيت محمد (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) عندما قدَّم نفسه من أجل الدِّين والحسين (عليه السلام) وإن كان الحسين هو الدِّين ، فالكلام على هذا الرَّجل لا تلمُّه صفحات أو سطور معدودة [١٦] .

ولكن نذكر أهم ما يحيط بهذا الاسم في سطور ، فهو العباس بن علي بن أبي طالب ، وأمُّه فاطمة بنت حزام بن خالد الكلابية الملقَّبة بـ(أم البنين) (عليها السلام) ، ولد في الرابع من شعبان سنة ٢٦هـ ، عمره ٣٤ سنة ، عاش مع أبيه ١٤ سنة ، ومع أخيه الإمام الحسن (عليه السلام) ٢٤ سنة ، ومع أخيه الإمام الحسين (عليه السلام) تمام عمره ، إخوته لأبيه وأمِّه ثلاثة وهم : عبد الله ، وجعفر ، وعثمان ، أولاده خمسة وهم : الفضل ، وعبيد الله ، والحسن ، والقاسم ، وبنت ، والمشهور أنَّ له زوجة واحدة اسمها لبابة بنت عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ، كنيته : أبو الفضل وأبو قربة ، وقيل : أبو القاسم ، ألقابه : قمر بني هاشم ، وباب الحوائج ، والشهيد ، وقطيع الكفين وغيرها [١٧] ، وهناك من أحصى له عشرين لقبًا ؛ منها ما هو مشهور ومتعارف عليه ومنها ما هو أقل شهرة بين الموالين ، فالمشهورة من مثل ، قمر بني هاشم ، وباب الحوائج ، وقطيع الكفين ، وحامل اللواء ، وغيرها ، أمَّا غير المشهور فنحو المضبضب ، والمستعجل ، والطيَّار وغيرها [١٨] ومنهم من أحصى له أربعة وثلاثين لقبًا [١٩] .

أمَّا إيمانه وعقيدته التي سنحاول أن نتلمَّسها في أراجيزه فإنَّها غير خافية ، قال الإمام الصادق (عليه السلام) : ((كان عمُّنا العباس بن علي نافذ البصيرة صلب الإيمان)) ، فإنَّ الإيمان العميق والرؤية الواضحة والعقيدة الصلبة هي الرَّكيزة الثابتة في حياة أبي الفضل (عليه السلام) ، ولذا تضطرب الدُّنيا من حوله ، وتهتز الأرض تحت قدميه فلا يضطرب هو ولا يهتز لأنَّه مستند إلى هذه الرَّكيزة الغالية ، وهذا الرُّكن الشديد الذي يأوي إليه الإنسان المؤمن ساعة العسرة والشدَّة بل هو ملاذ الإنسان المؤمن في كلِّ وقت ، فيجد في نفسه حلاوة الإيمان ويحسُّ في أعماقه بنور الطمأنينة يتدفَّق في داخله ويجري في أوصاله [٢٠] .

وقد استمدَّ ذلك الإيمان وتلك العقيدة من الجامعة التي درس فيها ، فقد درس في أرقى الجامعات ؛ وأي جامعة أفضل من جامعة يرأسها الإمام علي (عليه السلام) ، ويدرِّس فيها الأمامان الحسن والحسين (عليهما السلام) سيدا شباب أهل الجنة ، والإمام زين العابدين (عليه السلام) أيضًا ، وهكذا يكون قد تتلمذ على يد أربعة من الأئمة المعصومين ، ودرس فيها مختلف العلوم والمعارف [٢١] .

ولعلَّ البحث سيكون كفيلًا بالوقوف على هذه الشخصية العظيمة حين نقرأ الكلمات الأخيرة التي تركها

لنا أبو الفضل العباس (عليه السلام) قبل أن يفارق الحياة في يومه الأخير ليسطِّر لنا أروع لوحة للإيمان واليقين والعقيدة الحقَّة ، إذ لم يكن ذلك الإنسان الاعتيادي في بيت أمير المؤمنين (عليه السلام) ؛ وإنَّما كان قصة بدأت مع زواجه بأمِّ البنين (عليها السلام) وهي باقية على مرِّ العصور .

مدخل :

ذكرنا في التمهيد معنى الأراجيز وتحدَّثنا عن نشأتها في العصر الجاهلي والإسلامي ، ووقفنا على شيءٍ من حياة أبي الفضل (عليه السلام) ، وقبل الوقوف على تلك الأراجيز لابُدَّ أن نشير إلى أنَّ هناك أهدافاً أراد أبو الفضل الوصول إليها في تلك المقولات وهي تختلف عن الكلام العادي ، بل تختلف من قائلٍ لآخر ، فهناك فرق بين ما يقوله الإمام وما يقوله غيره ، فما هي إلَّا انعكاسات لشخصية المرء ، بل أكثر من ذلك كانت تحتوي على رسالة أراد إيصالها إلى أعداء المروءة وإلى البشرية جمعاء ، وكانت واقعة الطف ، وسنحاول أن نقرأ تلك الأراجيز من حيث الوجوه المتعدِّدة التي يمكن تلمُّسها في الكلمة وفي الجملة وفي الزمن وعلاقة كل ذلك بالحال التي قيلت فيها وتبعًا لأهمية كل جزء منها .

علمًا أنَّ عدد تلك الأراجيز قد اختلف بين مقتلٍ وآخر وبين ناقلٍ لها وآخر تبعًا لتعدُّد الروايات ، ولكنَّنا اعتمدنا على ما جاء في مقتل أبي مخنَف في نقلها مع تغيير في بعضها كما نوَّهنا .

الأرجوزة الأولى (أرجوزة الثبات)

أقاتـلُ القـومَ بقلبٍ مهتـدِ أذبُّ عن سبـطِ النبيِّ أحمـدِ
أضربكم بالصَّـارم المهنَّـدِ حتى تحيدوا عن قتالِ سيِّدي
إنِّي أنا العبـاسُ ذو التودُّدِ نجلُ عليٍّ المرتضى المؤيَّـدِ

عنوان الأرجوزة (الثبات) ليس من وضع المؤرِّخين وليس من وضع الرَّاجز بل نحن من أطلق عليها هذا الاسم بعد استقرائنا لمضامين الأرجوزة ؛ إذ وجدنا أنَّ الرَّاجز – وهو العباس بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) – يشير إلى هداية قلبه وثباته على الذود عن أخيه الإمام الحسين (عليه السلام) وعدم التخلِّي عنه وإنْ كلَّفه ذلك الأمر التضحية بنفسه ، على أنَّ هذا الدفاع والاستبسال ليس بدافع العاطفة الأخويَّة بل هو دفاع عن الدِّين وسنأتي إلى بيان ذلك في حديثنا عن الأرجوزة .

لقد ارتجز العباس (عليه السلام) هذه الأبيات بعد أن اشتدَّ العطش بالإمام الحسين (عليه السلام) وأصحابه ، ومن ثمَّ طلب الحسين (عليه السلام) من أخيه العباس (عليه السلام) أن يمضي مع جمعٍ من الرِّجال إلى نهر الفرات ليأتوا بشربةٍ من الماء إلى معسكر الحسين (عليه السلام) لأنَّ العطش قد بلغ بهم حدًّا وأصاب القوم ظمأ شديد ، وعند وصول القوم إلى الفرات منعهم أصحاب ابن زياد من بلوغ مرادهم ، فحمل أصحاب الحسين (عليه السلام) على المانعين حملة رجلٍ واحد وقاتلوهم قتالًا شديدًا ، ولم يكن العباس (عليه السلام) بعيدًا عن هذه المنازلة ، إذ صال صولةً على الأعداء قتل فيها رجالًا منهم وهو يتلو هذه الأبيات المشار إليها.

والمتأمِّل المتفحِّص في الأرجوزة يجد أنَّ البيتين الأولين منها بمعزلٍ عن البيت الثالث (مع إبهام القائل أي دون معرفة القائل للأرجوزة) يلاحظ حماسةً منقطعة النظير لجنديٍ مقاتلٍ ثائرٍ في معسكر الإمام الحسين (عليه السلام) . وهذا الجندي لم يخرج إلى المعركة مكرهًا بل خرج من طوع نفسه مؤمنًا بالقضية التي خرج من أجلها ومن أجلِ هدفٍ أسمى هو الدفاع عن بيضة الدين والانتصار لعقيدةٍ راسخة (أي أنَّ الهدف عقدي) لأنَّ حامل راية الدِّين في تلك اللحظات وفي ساحة المعركة هو : الحسين بن علي بن أبي طالب وهو المشار إليه في الأرجوزة بـــ(سبط النبي أحمد) وهو قائد طرف في المعركة ، وهذا الطرف أقل عددًا وعدَّةً ، والرَّاجز يقف في الطرف الأقل تجهيزًا ، وأمامه في الطرف الآخر جيش جرَّار مجهَّز بصنوف الأسلحة والخيول ولكنَّهم مع هذا العدد والعدَّة لا يملكون عقيدة ولا يملكون إيمانًا ولم يخرجوا إلى أرض المعركة لأجلِ هدفٍ ديني أو عقديّ ، وبالحسابات العسكرية لابدَّ أن ينكسر الجيش الأقل عدَّة وعددًا ويتفوَّق الجيش الأكثر عدَّة وعددًا ، ووفق نظريات علم النفس فإنَّ المقاتل الذي يقاتل في الطرف الأول (أي الأقل عدَّةً وعددًا) يصاب بالإحباط وانكسار العزيمة والهمَّة لهول ما يشاهده في الطرف الآخر (الأقوى) .

ولكنَّ النص يريك مقاتلًا صلبًا ثابت الشكيمة لا يهتز قلبه ولا يضطرب ، يملأ الإيمان جوارحه ، عاقد العزيمة على مقارعة الأعداء والدفاع عن دينه وعن حامل لواء الدين ، كاشفًا عن طاعةٍ لسيِّده (الحسين) ، وكلمة (سيِّدي) تدلُّ على طبيعة الولاية ونوعيتها– في عقائد الشيعة الإماميّة – فالأمر الولائي فوق نسبة القرابة بالدم أو أي نسبة كانت ، والانصياع لأمر الولاية فوق كلِّ شيء ، لانَّ الإمام الحسين (عليه السلام) إمامٌ واجب الطاعة ولا طاعة لمخلوقٍ سواه ، ويمكن أن تحمل هذه اللفظة (سيِّدي) مدلولًا آخر وهو مدلول آمر الجيش وسيِّده ، فالمتحدث جندي مقاتل يدافع عن سيِّده (قائد الجيش) ولكن يبقى الرأي الأوَّل هو الرَّاجح ؛ لأنَّ الرأي الثاني قد يكونُ مقبولًا إنْ كان الطرف الأوَّل – أي معسكر جيش الإمام الحسين – خارج هذه المعادلة وخارج هذه المعركة ، أي لو توافر طرف آخر غير هذا الطرف فالأمر يكون مقبولًا ولكن بما أنَّ الإمام الحسين بن علي كان قائدًا عسكريًا وسياسيًا ودينيًا فمدلول كلمة (سيِّدي) جامع لكلِّ هذه الصفات . وحينما نصل إلى البيت الثالث تتجلَّى شخصية المتحدِّث ويكشف الرَّاجز عن شخصه معرِّفًا بنفسه وبنسبه إنَّهُ : العباس بن علي بن أبي طالب أي أنَّ الرَّابط بينه وبين قائد الجيش رابط أخوَّة .ولكنَّه لم يقدِّم هذا الرَّابط على رابط الدِّين كي لا تكون المسألة عاطفية محضة بل أرادها أن تكون عقديَّة دينية خالصة ، وإنَّ فعله هذا في تقديم التضحية والشجاعة هو لأجل الدِّين لا لغرض تجيش به عاطفته ، ولعلَّ تساؤلًا يُلقي بظلاله هنا عن السبب الذي دفع الرَّاجز إلى أن يُعرِّف بنفسه ؟ نقول : إنَّ هذه السِّمة (أي سمة التعريف بالرَّاجز) كانت شائعة ومعروفة عند العرب لسببين اثنين : الأوَّل التعريف بالشخصية القائلة ، والسبب الثاني هو محاولة زرع

الرُّعب والخوف في قلوب الطرف الآخر من المعركة ، والعباس بن علي لم يكتفِ بالإفصاح عن اسمه كما هو معتاد في الحروب وفي رجز الحروب فحسب بل أفصح عن نسبه فهو العباس بن علي المرتضى ، فهو أراد من هذا التعريف أن يضيفَ عنصرًا آخر ، لا بل قد يكون العنصر المهم في زرع الرُّعب والخوف في أوصال مقاتلي العدو ، فالمقابل يعلم كل العلم مَن هو علي بن أبي طالب ، هو : أسد الله الغالب وهو : فارس المشارق والمغارب ، وهو حيدرة وهو حامل ذي الفقار ... وسوح الوغى شاهد على فعاله وصنيعه ومَن يشابه أباهُ فما ظلم .

وقد يقول قائل حول هذه المسألة : هل يجوز للإنسان أن يفتخر بفعال أبيه وصفاته متجاوزًا الحديث عن صفاته الشخصية وأفعاله ؟ نقول : إنَّ هذه الصفة كانت مستحسنة عند العرب ولكنَّها مذمومة في الفكر الإسلامي الحقيقي امتثالًا لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[الحجرات : ١٣] ، وقد استفاد الإمام علي (عليه السلام) من النصوص القرآنية ومن الأحاديث النبوية التي تنهى عن الافتخار بأفعال الآباء وبأعمالهم فنراه يقول :

" كن ابن من شئت واكتسب أدبًا يُغنيك محمودُهُ عن النَّسبِ
فليس يُغني الحسيبَ نِسْبَتُهُ بلا لسانٍ لَهُ ولا أدبِ
إنَّ الفتى من يقولُ : ها أنا ذاليس الفتى من يقول كان أبي "[٢٢]

فالإمام علي (عليه السلام) يطلب من المرء أن تسبقه فعاله هو لا فعال آبائه وأن تدلَّ على شخصه أعماله لا أن ينسب نفسه إلى مآثر الآباء والأجداد . وما رأينا في الأرجوزة من تقديم العباس نفسه بأنَّه ابن علي المرتضى لم يكن مخالفًا لوصية والده بل هو سير على نهج أهل البيت (عليهم السلام) في الفخر بالانتساب إلى هذه الشجرة المباركة (الدَّوحة المحمديَّة) ، فهم يرَونَ أنَّ الفخرَ بأنسابهم الشريفة أمرٌ ممدوح وواجب شرعي ؛ لأنَّ خصالهم الحميدة ومآثرهم ومناقبهم توجب على كلِّ واحدٍ منهم التعريف بنفسه وبنسبه الشريف ، فالتعريف بهم يحمل دلالتين : الدلالة الأولى هي التشرُّف بهذا النسب العريق ، أمَّا الدلالة الثانية فإنَّ فيها ردًّا على المنكرين وما حادثة الوليد بن عبد الملك مع الإمام زين العابدين علي بن الحسين (عليه السلام) المشهورة في موسم الحج إلَّا خير دليل على أنَّ النسب الشريف كان خير هوية وبطاقة تعريف أشار إليها الشاعر الفرزدق في القصيدة المعروفة والمشهورة بين الناس .

ونعود الآن إلى النص للوقوف عند بعض القضايا التي لها مساس بالجانب اللغوي فإذا ما وقفنا عند البيت الأول وجدنا أنَّه قد بدأ بالفعل (أقاتل) وهو مع فاعله الضمير المستتر يكون كما هو معلوم جملة فعلية ، وكذا قوله في الشطر الثاني من البيت نفسه (أذبُّ) ، إذ كوَّن مع فاعله المستتر جملة فعلية أخرى ،

ولا يخفى لدى الدَّارسين أنَّ الجملة الفعلية تمتلك دلالة الحدوث والاستمرار والتجدُّد ، والمعنى الذي أفادته كلتا الجملتين أنَّ مقاتلة الأعداء والدفاع عن سبط النبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) حاصل ومستمر في كلِّ وقتٍ وحين ، فالقائل ذو عزيمة متجدِّدة في مواجهة الأعداء ، بمعنى أنَّ العباس (عليه السلام) لو نال الشهادة وقُتِل في أرض المعركة وقدِّر أن يحييه الله مرَّةً أخرى لاختار القتال والشهادة وهكذا هو حاله إلى ما شاء الله لأنَّ فعله المستمر والمتجدِّد ناجمٌ عن امتلاكه قلبًا مهتديًا وهذه الدلالة يمكن تلمُّسها من مجيء مفردة (مهتدٍ) اسمية وليست فعلية دلالة على الثبات والدوام فهو صاحب القلب المهتدي الذي لا يختار إلَّا فعل الهداية والدفاع عن الدِّين وحامل لواء الدِّين وبلا شك أنَّ الحسين (عليه السلام) هو من أفعال الهداية ، ولعلَّ ما رُوي عن رسول الله (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) في فضل الشهادة في سبيل الله يؤكِّد هذا المعنى ، إذ قال رسول الله : " ما من نفسٍ تموت ، لها عند الله خيرٌ يسرُّها أنَّها ترجع إلى الدُّنيا ، ولا أنَّ لها الدُّنيا وما فيها ، إلَّا الشهيد ، فإنَّهُ يتمنَّى أن يرجع ، فيُقتَل في الدُّنيا لما يرى من فضل الشهادة "[٢٣] .

وقال : " ما من أحدٍ يدخلُ الجنةَ يُحِبُّ أن يرجعَ إلى الدُّنيا وأنَّ له ما على الأرض من شيء غير الشهيد فإنَّهُ يتمنَّى أن يرجعَ فيُقتَل عشرَ مرَّاتٍ لما يرى من الكرامة "[٢٤] .

ويدرك المتأمِّل لكلام العباس هذا المعنى في ضوء استعماله للجملة الفعلية (أقاتل –أذبُّ) ودوام الثبات على النهج نفسه كما أشار البحث آنفًا .

وفي قول العباس (بقلبٍ مهتدٍ) يكشف لنا مساحة الاطمئنان التي يتمتع بها أبو الفضل العباس في مواجهة الأعداء وفي مواجهة مصيره المعلوم أمام الكم الهائل من الأعداء ، ثمَّ إنَّ اقتران الهداية بالقلب أي أنَّها ممزوجة بلبِّه وبضميره ولا سيَّما أنَّ قلب المرء هو موضع نظر الباري (سبحانه وتعالى) بلحاظ قول النبي (صلَّى الله عليه وآلِهِ وسلَّم) : " إنَّ اللهَ لا ينظرُ إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم "[٢٥].

والعباس يكشف في هذا الموطن عن نوعية ذلك القلب الذي يتقدَّم به صوب المعركة ، وقد جاء بحرف الباء مقدَّمًا على كلمة (قلب) قائلًا : (بقلبٍ) . وبعلمنا أنَّ الباء هنا تفيد الاستعانة والإلصاق ؛ فالسياق في هذا المقام أدَّى بالباء أن تكون واسطة وأداة لهذا القتال . وقد يخطر ببال المرء أنَّ العباس عندما ارتجز وقال : (أقاتل ...) سيكون ملاقيًا أعداءَهُ بأدوات الحرب المعروفة مثل : السيف ، القوس ، الرُّمح .. لكنَّهُ يُفاجئ السامع بمقاتلة أعدائه بأداةٍ هي أقوى وأرسخ في الثبوت داخل ساحة المعركة ألا وهي القلب المطمئن المليء بالإيمان ، وقد يهرب المقاتل من سوح الوغى إذا كانت أداته السيف لكثرة الأعداء واصطفافهم حوله ؛ لكنَّه يثبت فيها إذا كانت أداته القلب الثابت المطمئن العارف بحقيقة الأمور وما تؤول إليه ، هذا من جانب ، ويدلُّ هذا المعنى على أنَّ قتال القوم بهذه القلوب التي ملؤها الإيمان والتقوى فيه من الدلالات ما يجعل

الأعداء خارج معادلة هذا الثبات لأنَّهم لا يمتلكون قلوبا مطمئنة مهتدية كهذه فثبات الأعداء كان طلبًا لمكاسب دنيوية زائلة بزوالهم لا أفئدة ثابتة باقية وإن فنوا ، هذا من جانب ومن جانب آخر فانظر إلى هذه المعادلة لتجد البون الشاسع بين الثبات الأخروي والثبات الدنيوي وأيُّهما أدوم ؟

وقد ناسب اختيار لفظة (القوم) في البيت الأول بدلالتها اللغوية دلالتها السياقية ، فالقوم في اللغة " الجماعة من الناس تجمعهم جامعة يقومون لها "[٢٦] . فهؤلاء قد اجتمعوا من أجل قتال الحسين بن علي فناسب مقام العباس المقام والحال التي عليها القوم ، وحتى يؤكِّد بطلان هذا الاجتماع وكي يدفع توهُّم السامع أنَّ اجتماع هؤلاء على حق ، احترس لدفع هذا التوهُّم بأنَّ قتالهم ممَّا يجوز ولائق بحالهم فهو نابع من هداية وبصيرة وثبات .

فضلًا على كل ما تقدَّم نجده (عليه السلام) قد استعمل ضمير الفصل (أنا) في البيت الثالث إشعارًا بتفرُّدِهِ بالشجاعة التي كان يحملها وهي معلومة معروفة لدى خصمه .

ومن البديهي في خِضَمِّ هذا التعبير المفعم بالحماسة والهمَّة ونكران الذات أن يتنوَّع الخطاب في هذه الأرجوزة ، ففي البيت الأوَّل نراه يحثُّ نفسه على الجهاد ، أمَّا البيت الثاني فتتلمَّس فيه مسحة عقائدية بدليل استخدام لفظة (سيدي) التي تشير إلى الإمامة قبال الأخوَّة ، أمَّا البيت الثالث فقد تجلَّت فيه مظاهر الشجاعة بتعريف الرَّاجز عن نفسه وأنَّهُ ابنُ ذلك البطل الشجاع علي بن أبي طالب (عليه السلام) .

وبقي شيء .. هو أنَّ الأرجوزة نسبت الإمام الحسين إلى النبي محمّد (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) ونسبت العباس إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وفي اعتقاد الباحثَين أنَّ المقام لم يكن مقام حرب وحسب وإنَّما كان المقام مقام حجاج مع الآخر فهو (عليه السلام) يعرض عليهم خيارين :

الأوَّل : كأنَّنا به يقول : أيُّها القوم إن كان لديكم شيء من الإسلام فأنتم تقاتلون اليوم ابن من حمل إليكم الإسلام رسالة سماوية لا يسألكم إزاءها (إلَّا المودة في القربى) .

الثاني : كأنَّنا به يقول : أيُّها القوم إنْ كانت العداوة والبغضاء قد أعمت بصيرتكم وبصائركم ولا بُدَّ من القتال فأنا ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وهو من هو في الشجاعة والإقدام ولا يختلف على ذلك آباؤكم من قبل .

فهو هنا يرغِّبُ من يرعوي من الآخرين ويرهِّب من يأبى منهم .

الأرجوزة الثانية (أرجوزة المشرعة)

لا أرهبُ المـــــوتَ إذا المـــــوتُ رَقـــا حتى أُوارى ميِّتًـــــا عند اللـــقـــــا

نفسي لنفسِ الطاهر الطهر وِقا إنِّي صبـــــورٌ شاكـــــــرٌ للملتـــقى

بل أضربُ الهـــــــامَ وأفري المِفرَقـــــا إنِّي أنـــا العباسُ صعبٌ باللقـــــــا

هـذه الأرجـوزة تشـابه إلى حـدٍّ مـا الأرجـوزة الأولى مـن حيـث إبهـام القائـل في البيتـين الأولـين كـما مـرَّ بنـا في الأرجـوزة الأولى ومـا زالـت صـورة ذاك المقاتـل الصنديـد الـذي تحـدَّث عـن نفسـه في الأرجـوزة الأولى بتلـك العزيمـة والإصرار والتحـدي للأعـداء وعـدم الخـوف والرَّهبـة مـن المـوت ، ومـا زال المقاتـلُ متمسـكًا بالدفـاع عـن سـيِّده ومـولاه حامـل لـواء الدِّيـن مقدِّمًـا نفسـه فـداءً لسـيِّده . ويعـود إلينـا في البيـت الثالـث ليكشـف اللثـام عـن شـخصيته كـما فعـل في الأرجـوزة الأولى ولكنَّـهُ هنـا كان أكثـر حزمًـا وشـدَّة في التقديـم فهـو يقـدِّم نفسـه قائـلًا :

إنِّي أنا العباس صعبٌ باللُّقا

محـذِّرًا أعـداءَهُ مـن بأسـه وبطشـه وقوَّتـه فإيَّاكـم أن تسـتهينوا بمبارزكـم وهـذا الأسـلوب كـما ذكرنـا فيـه مـن الترهيـب وزرع الخـوف والرعـب في قلـوب الأعـداء مـا يجعلهـم يحسـبون ألـف حسـاب للمقابـل .

والنـص الـذي بـين يَدينـا يبتـدِئ بالنفـي المسـتخدم فيـه حـرف النفـي (لا) والنفـي هنـا دال عـلى الرفـض القاطـع الممتـد الصـوت بالألـف ، وعـدم الاستسـلام بدافـع الخـوف والفـزع مـن المـوت في حـال تصاعـد وتـيرة المعركـة فالنفـي بـــ(لا) أطـول مـن النفـي بـــ(لـن) لأنَّ الأولى – عـلى بعـض الآراء – تنفـي المسـتقبل البعيـد المتطـاول ، جـاء في البرهـان أنَّ بعضهـم ذهـب إلى أنَّ النفـي بـــ(لا) أطـول مـن النفـي بـــ(لـن) لأنَّ آخرهـا ألـف وهـو حرفٌ يطـولُ فيـه النَّفـس فناسـب طـولُ المُـدَّة بخـلاف (لـن) . ولذلـك قـال تعـالى : ﴿لَـنـتَرَانِي﴾[الأعـراف : ١٤٣] وهـو مخصـوص بـدار الدُّنيـا ، وقـال : ﴿لاَّتُدْرِكُـهُ الأَبْصَـارُ﴾[الأنعـام : ١٠٣] وهـو مسـتغرق لجميـع أزمنـة الدُّنيـا والآخـرة ، وبـما أنَّ الألفـاظ تشـاكل المعـاني لذلـك اختصَّـت (لا) بزيـادة المُـدَّة [٢٧] .

فبدايـة هـذه الأرجـوزة بهـذا الحـرف دلالـة عـلى أنَّ العبـاس (عليه السلام) يريـد أن لا يفـزع ولا يخـاف مـن المـوت حتـى لـو دنـا المـوت منـهُ – عـلى سـبيل التبعيـد الممتـد بزمانـه ولكنَّـه قيَّـده بـــ(حتّـى) التـي تـدلُّ عـلى نهايـة الغايـة – وليـس ثمَّـة تناقـض بـين اجتـماع (لا) النافيـة و(حتـى) التـي تـدلُّ عـلى نهايـة الغايـة فالنـص واضـح في قصديـة التفـاني لأجـل العقيـدة ، فالشـطر الثـاني يكمِّـل معنـى الشـطر الأول فـالأول دفـع فيـه الخـوف والفـزع مـن المـوت بامتـداد الزمـن واسـتمراريته . والثـاني هـو اللقـاء الحتمـي والمصـير الـذي لابُـدَّ منـه وهـو الاستشـهاد في سـبيل ديـن الله ، فالنـص يبـدأ تصاعديًـا بدلالـة الألـف في (لا) إلى أن يصـل إلى الألـف في (رقـا) وهـو نهايـة الصعـود إذا علمنـا أنَّ (رقـا) معناهـا معجميًـا : الصعـود [٢٨] ، فالخطـاب تصاعـدي إلى أن يبـدأ بالأفـول والسـتر (وهـو دلالـة أوارى [٢٩]

) والموت وذلك بدلالة (حتى) للوصول إلى الغاية المنشودة . تكررت عند العباس (عليه السلام) كلمة (اللقا) باللفظ نفسه في البيت الأول والبيت الثالث في نهاية العجز ، أمَّا في نهاية البيت الثاني فإنَّنا نجده قد ذكر معنى (اللقا) ولكن بصيغة أخرى هي (الملتقى) ولعلَّ هذا الأمر يدلِّل على أنَّ ساعة اللقاء قد حانت والمواجهة التي كان ينتظرها العباس قد دنت ، فاللقاء مع الأعداء متحقّق لا محالة ولكنَّ أطواره تختلف ، فاللقاء الأوَّل توطين النَّفس على الشهادة ، والملتقى الثاني هو الثبات عليه لدلالة الاسمية ، والعباس مع ذلك لا يُستهان بلقائهِ ، وقد شهدت ساحة الطف بذلك فلم يصل إلينا أنَّ واحدًا من الأعداء قد واجه العباس أو بارزه ، فالصعوبة تكمن بلقاء العباس .

ولابُدَّ من التوقف عند نقطة مهمة في النص بل هي البؤرة أو الرَّكيزة الأساسية والمحورية داخل النص وتتمثل بمفردة (النفس) التي تشير إلى تلك النفس الأمَّارة التي غالبًا ما تسيطر على المرء وتسيّره ، تجد تلك النفس الأمَّارة صارت لشدَّة إيمان العباس (عليه السلام) مؤتَمِرة منصاعة لنداء الإيمان والثبات لتكون وقاية دون النَّفس الطاهرة المطهَّرة للإمام الحسين (عليه السلام) والأمر الذي على هذا النحو يستوجب الصبر فأعلن العباس عن صبره وثباته ليوكِّد ما ابتدأ به الأرجوزة ، إذ يقول : (لا أرهب الموت) فيصبر عليه حتى يوارى شهيدًا دون دينه وإمام زمانه على أنَّ (لا) التي في مطلع الأرجوزة والتي تحدَّثنا عنها سلفًا لم تكن نافية للرهبة عن الحسين وحسب وإنَّما قد تكون فيها إشارة سيميائية لشعار الثورة الحسينية في وجه طغيان يزيد وفساده .

ولعلَّ البحث يجد في وصف نفس الحسين بأنَّها (الطاهر الطهر) أي النَّفس المولودة من أبوين شريفين ، فالطاهر : هو النقي الثوب أو الذيل أو العرض برئ من العيوب ، نزيه ، شريف [٣٠] ، والطُّهر : خلاف الحيض [٣١] ، ولعلَّها كناية عن طهارة أمُّ الحسين فهي البتول التي لا ترى ما ترى النساء وهذا مصداق من مصاديق قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[الأحزاب : ٣٣] .

والبيت الثاني يريك اقتران صفة الشكر بالصبر فالعباس يعلنها بأنَّه : (صبورٌ شاكرٌ) واجتماع الصبر مع الشكر قد ورد في أربعة [٣٢] مواضع من القرآن الكريم وكأنَّ العباس (عليه السلام) قد سار على نهج القرآن في الجمع بين هاتين المفردتين ، لأنَّهُ وجد أنَّ الصبر هو حبس النَّفس عن أغراضها الفاسدة وعن الأهواء المعميَّة ، ولمَّا كانت مخالفة الهوى أشد ما يكون على النفس وأشق دلَّ كلامه بلفظ (صبور) على صيغة المبالغة واقتران الشكر بها . فإن لم يكن في طبعه الصبر ولا الشكر لا يقدر على ذلك وإنَّ مَن ليس في طبعه الصبر فاته الشكر [٣٣] .

وفي علَّة تقديم الصَّبر على الشكر لما تحمله دلالة الصبر من كونها مفتاحًا للفرج المقتضي للشكر . والصبر والشكر من جوامع الإيمان ، فالصبر نصف الإيمان ، والشكر نصفه الآخر [٣٤] .

بقي أن نقول شيئًا : إنَّ السامع قد يتوقع أنَّ العباس (عليه السلام) في حديثه الوارد في البيتين الأوّلين أنَّهُ إنسان

مستسلم قد وضع سيفه في غمده فهو لا يرهب الموت وهو عند اللقاء سيكون مستسلمًا للمنيَّة وستجده صبورًا شاكرًا عند الملتقى ، لكنَّ واقع الحال يشير إلى عكس ذلك ، واستعماله لحرف الإضراب (بل) في البيت الثالث دليل على ما قدَّمنا ؛ فالحرف (بل) يفيد الإضراب الانتقالي وليس الإضراب الإبطالي [٣٥] ، فهو لا يريد إبطال ما تقدَّم من عدم الرَّهبة وكونه واقيًا للحسين وغير ذلك ، بل نراهُ انتقل من غرضٍ إلى آخر ، فقد أثبت المعنى الأوَّل ثمَّ أراد أن يثبت المعنى الثاني وهو ضرب الرؤوس بسيفه الصارم المهنَّد وهذا الضرب ليس أي ضرب بل هو ضربٌ عنيف ، إذ يفتّت الرأس من فعل شدَّة الضربة وكيف لا تكون له هذه الضربة وهو العباس بن علي ؟!

الأرجوزة الثالثة (أرجوزة القربة)

يا نفسُ من بعد الحسين هوني فبعده لا كنتِ أو تكوني
هذا الحسينُ شاربُ المنونِ وتشربين باردَ المعينِ
هيهات ما هذي فعالُ ديني ولا فعالُ صادق اليقين

نحاول أوَّلًا استجلاء النص كاملًا ومن ثمَّ سبر أغواره والوقوف عند جزئياته . فالنص في عمومه ما يزال يجعلنا في دائرة خطاب النَّفس غير أنَّ النفس المخاطَبة في هذه الأرجوزة تختلف عن سابقاتها المؤتمرة بأمر العقيدة ، على أنَّ النَّفس هنا هي نفسٌ لا وجود لها إلَّا بوجود نفس مولاها ، أي أنَّ العباس (عليه السلام) – كما يتصور هو – يمرُّ بمرحلة الفناء في شخص الإمام الحسين (عليه السلام) فبعد الحسين لم تكن نفس العباس في تقدير المتكلم تساوي الوجود الماضي أو الوجود الحاضر والمستقبل وهو ما عبَّر عنه بقوله : (لا كنتِ أو تكوني) أي أنَّ نفسه الشريفة ذابت في نفسِ أخيه الحسين لا تشعر بإطفاء الظمأ ولا ترتوي وإن طالت الماء ، إذ إنَّ الأمر لديها سيَّان سواءٌ أشرب العباس الماء أم لم يشرب ؟ لأنَّ الشعور بالماء والارتواء به لا يتحقَّق إلَّا بوصوله – أوَّلًا – إلى أصل تلك النَّفس الفانية في نفسِ مولاها .

ثمَّ إنَّ العباس (عليه السلام) لا يتأتّى له شرب الماء وهو على تلك الحالة من اليقين والتصديق والنصيحة فليس شرب الماء في هذه اللحظة من فعل الدِّين ولا يُقدِم عليه شخص مثل العباس كان قد بلغ مرحلة (صادق اليقين) .

ويبدو أنَّ الدِّين عند العباس (عليه السلام) كان في كفَّة وشرب الماء في كفَّة ثانية ، ولا شكَّ في أنَّ كفة الدِّين عند (صادق اليقين) ترجَّح على كفة الماء ، وليس بينه وبين رجحان كفة الدِّين سوى الاستشهاد بين يدَي مولاه أبي عبد الله الحسين ، فكان الإيمان هو الأرجح وكان الثبات هو الأصلح ، وسوف يخلد هذا الثبات وهذا

التفاني ما كتب الله للماء أن يخلد سرًّا للحياة ومنطلقًا لكلِّ شيء حي . ولا أيسرَ من الشهادة على (نجل عليٍّ المرتضى المؤيَّد) .

العجيب أنَّ الماء هو سرُّ الحياة والخلود بلحاظ قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[الأنبياء : ٣٠] ، لكن من أسرار خلود العباس (عليه السلام) ما تمثَّل بالامتناع عن الماء طالما لم يصل إلى مستحقِّه الأول في تلك اللحظة وهو الإمام الحسين (عليه السلام) .

كانت هذه نظرة عامة فاحصة لمجمل النص ، على أنَّ هذه النظرة قاصرة لا تعطي للنص حقَّه ولا توفيه غايته ولكن حاولنا أن نختصر – قدر المستطاع – بعيدًا عن الإسهاب ومحاولين الوقوف عند المعالم الرئيسة التي أراد النص إبرازها وسندلف الآن إلى المحاور أو المعالم الجزئية داخل النص محلِّلين إيّاه – قدر فهمنا القاصر – فننطلق من الخطاب وهو العنصر الأساسي والركيزة التي انطلق منها الرَّاجز ؛ إذ وجدنا المخاطِب يوجِّه خطابًا إلى نفسه مظهرًا النَّفس في النص مُخفِيًا نفس الحسين ولكنَّه في الوقتِ نفسه يُظهِر اسم الحسين صريحًا ، ولعلَّ ذلك يعود إلى أنَّ المخاطب قد احتاج إلى تعليل وقوفه أمام الماء واغترافه غرفة وتمكِّنه منه وعدم شربه له ، وهذا التعليل قد قُدِّم إلى نفسه لأنَّهُ أحسَّ أنَّ نفسه قد سألته : يا عباس هذا بارد المعين فَلِمَ لم تشرب ؟! ألم تكن تبحث عن شربة ماء تروي بها ظمأك حتى وإن كان الماء خاليًا من البرودة ؟! ها قد وجدت الماء وهو بارد معين فلِمَ تخلّيت عنه ؟! هذا حوار بين العباس ونفسه يتراءَى لنا من استقراء النص لنجد أنَّ العباس يجيب النفس المتسائلة قائلًا – في داخله – أنتِ يا نفسُ لا قيمة لك أمام نفس الحسين العطشى فما فائدة أن تمتلئي بالماء والحسين يقتله العطش؟ فاصبري وتحمَّلي فما وجودك من دون الحسين يساوي شيئًا . ويبدو أنَّ التصريح باسم (الحسين) يؤكّد القيمة العليا التي اختزنها العباس لمولاه داخل نفسه من جهة ، ولما لهذا الاسم من وقعٍ رادعٍ لنفسه التي تحدّثه بشرب الماء من جهة أخرى .

والعباس في حديثه مع نفسه الطاهرة يرينا بأنَّها نفسٌ في وجودها لا وجود ، فالعيش الحقيقي مع الحسين ، والخلود الحقيقي لهذه النفس مع الحسين وكأنَّه قد اختطَّ قاعدة وشعارًا وضعه إزاء نفسه قائلًا : ((يا أيتها النفس : لو دنوتِ نحو الماءِ طرفةَ عينٍ لم يكن لوجودك وجود ولم يكن لذكراك خلود)) .

والعباس (عليه السلام) بهذا النظم الرائع سجَّل لنفسه طول الذكرى وامتدادها عبر السنين وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ويشهد على ذلك الآن كينونته المقدَّسة المتمثلة في سويداء قلب كل محب ووقوف الشاخص الذي ضمَّ في جنباته هذه النَّفس الصابرة العارفة أمام شاخصٍ احتوى نفس مولاه صدقًا وعرفانًا .

والنصُّ يطالعنا بأسلوب النداء وهو أسلوب طلبي يدلُّ على طلب حقيقي بالإقبال على التفاني لأجلِ نفسٍ هي مقدَّمة في أصلِ وجودها على نفس العباس (عليه السلام) ولكنَّهُ الآن يطلب منها أن تتقدَّم على نفس

مولاها لا بالرُّتبة لكن بالإيثار والتضحية ، ومعلوم أنَّ (يا) النداء عند النحويين تكون إمَّا لنداء البعيد أو لنداء القريب أو لنداء المتوسط بحسب السياق ورتبة المنادى وقد جاءت في هذا النص لنداء القريب كون المخاطب هنا هو نفس المخاطِب وهي بلا شك قريبة منزلةً ورتبةً .

وهذا القرب والتلازم بين العباس ونفسه لم يكن حائلًا بين العباس والحسين ؛ فهما وإن كانا بعيدين جسديًا إلَّا أنَّ العباس كان يستشعر القرب التلاصقي إلى حدِّ الذوبان والانصهار بينه وبين أخيه ، وهذا القرب أكثر ملازمة له من نفسه القريبة ، والعباس باستعماله اسم الإشارة (هذا) أراد التدليل على هذا القرب وكأنَّ الحسين حاضرٌ أمامه ينظر إليه .

وننتقل إلى قوله (شارب المنونِ) وهنا تساؤلٌ يلقي بظلاله في هذا الموضع : هل الموتُ ممَّا يُشرب ؟! يقينًا أنَّ الموتَ لا يُشرب ولكنَّ الرَّاجز استخدمه مجازًا كي يُراعي كلمة (تشربين) الواردة في الشطر الثاني وهنا لابُدَّ أن نلاحظ أنَّ الشطر الأول قد تضمَّن مجيء كلمة (شارب) وهو اسم فاعل وقد كوَّن مع فاعله المستتر والمضاف إليه (المنون) جملة اسميَّة ، ومعلوم أنَّ الجملة الاسميَّة تدلُّ على الثبوت والاستقرار أي أنَّ الدلالة التي يمكن أن يخرج إليها المعنى من هذا التركيب هي ثبات العباس على طلب الموت وعدم الهرب منه مهما حصل ولن ينثني ذلك الإصرار وتلك العزيمة في أيِّ ظرفٍ كان ، أمَّا مجيء الشطر الثاني متضمِّنًا الفعل (تشربين) مكوِّنًا مع ما بعده جملة فعلية – ومعلوم أنَّ الجملة الفعلية تدلُّ على الحدوث والتجدُّد والاستمرار – فيدلُّ على أنَّ عملية شرب الماء ليست عملية مستقرة ثابتة بل هي عملية تحدث وتتغير حسب الظروف ، فليس المتحدِّث موطِّنًا نفسه على شرب الماء إن كان قبالة هذا الأمر ما يجعل هذا الشرب منغَّصًا وليس لشربه قيمة تُذكر . فالرَّاجز أيقن أنَّ الحسين واقعٌ فيه الموت لا محالة أو أنَّه قد وجد الحسين يتجرَّع الموت بموتِ كلِّ واحدٍ من صحبه وأهل بيته ، ومن هنا جاء توبيخ العباس لنفسه بقوله : (وتشربين باردَ المعين) ، وقد أظهر لنا الأسلوب الخطابي للعباس ومجريات الأحداث أنَّ العباس لا يريد عتاب النفس بل توبيخها ، ويمكن الاستدلال على ما ذهبنا إليه من ملاحظة النغم الذي يُقرأ به الشطر الثاني بمستوى صوتي منخفض ، فإذا ما أردنا أن ندرك حقيقة المعنى الذي خرج إليه قوله مخبرًا : (وتشربين باردَ المعين) يكون التقسيم بالنسبة للنغم على ثلاثة مستويات :

النغمة المستوية .

النغمة الصاعدة .

النغمة الهابطة أو المنخفضة .

لدلَّ المعنى على أنَّ النغمة الأولى هي خبر ابتدائي وكأنَّنا نجهل الحكم ، فأراد العباس أن يبيِّن لنا كلامه

مع نفسه وهذا بطبيعة الحال ليس مرادًا من النص فالمقام يأبى حمل الكلام على ذلك . أمَّا في حال النغم الصاعد فيكون الكلام خبرًا لكنَّه خرج إلى التعجُّب ، فهو يتعجَّب من نفسه التي تريد شرب الماء قبالة شرب الحسين للمنون وهذا بعيد أيضًا ؛ لأنَّ العباس (عليه السلام) هو الحاكم على نفسه ، فهي لا تخرج عن طوع أمره ؛ لأنَّهُ ثابت الجأش .

بقي أن نقول : إنَّهُ أراد أن يوبِّخها باستعمال النغم الهابط لئلَّا تحدِّثه بشرب الماء وهذا أنسب للمقام وللسياق . ولو عمل البحث مقارنةً بين العباس (عليه السلام) وامتناعه عن شرب الماء لأجل الحسين ، وبين أولئك الذين كانوا في ركب الملك طالوت وكما يحدِّثنا القرآن عن ذلك بقوله : ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[البقرة : ٢٤٩] لوجدنا أنَّ العباس قد ارتقى بإيثاره نفس الحسين على نفسه وعدم شربه للماء بعد أن غرفَ غرفةً بيده على أولئك الذين اغترفوا غرفةً وشربوا ؛ وقد مدح القرآن الذي شرب الماء بقدرٍ وبحسب تعاليم ملكهم بإعطائهم صفة الإيمان بقوله : (فلمَّا جاوزه هو والّذين آمنوا معه)على أنَّنا نعرف أنَّ العباس لو شرب الماء لم يكُنْ آثمًا كأولئك الذين كانوا مع طالوت ومنهم من شرب الماء بنَهَم ، والعباس لم يوجَّه إليه أمر بعدم شرب الماء سواءً أكان شربه للماء بنهمٍ أم بقدر ، ومع هذا كلِّه منع نفسه من شرب الماء فوصل بذلك المنع لدرجاتٍ تفوق درجات أولئك الذين وصفهم الله في الآية السابقة ، ولعلَّنا نستطيع أن ندرج العباس في مصاف أولئك الَّذين آثروا على أنفسهم مع حاجتهم للطعام وهم : علي وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) ، قال تعالى : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[الحشر : ٩] فالعباس خامسهم في الإيثار مع حاجته الماسَّة للماء مع اختلاف التقديم فعليٌّ وآله قدَّموا الطعام أمَّا العباس فقد قدَّم أمرًا معنويًا فارتقى إلى درجة (يؤثرون) الخاصة بأركان أهل بيت النبوَّة وهم فاطمة وبنوها وبعلها .

ثمَّة ملحظ مهم في هذه الأرجوزة يتمثَّل في أنَّ الرَّاجز كان خطابُه داخليًا ونعني به أنَّه لم يخاطب مَن معه للاستنهاض أو يخاطب مخالفيه للترهيب كما هو الحال في الأراجيز السابقة أو اللاحقة لهذه الأرجوزة ، أو كما هو معروف عن الأرجوزة الحربية عند العرب ، ولعلَّ ذلك يعود إلى اشتداد الاعتراك داخل نفسه فهي نفسٌ بشرية وكذلك اشتداد الاعتراك الحاصل على أرض المعركة ، وهذا أدَّى بالعباس أن يتوقف وقفةَ متأمِّل يستنهض بهذه الوقفة ما يحصل من هواجس قد تثنيه عن عزمه وتحطُّ من عزيمته ، فبعد أن وبَّخ أو خاطب نفسه في الشطر الثاني من البيت الثاني أراد أن يدفع باسم الفعل الماضي (هيهات) هذه الأوهام التي قد تحوم

حول النفس بالثبات الحاصل مسبقًا ، وقد دلَّ على ذلك كلمة (هيهات) سابقة الذكر الدافعة لكلٍّ وهمٍ واختلاطٍ قد يحصل لهذه النفس ، فالعباس دينه يقين وصادق ، واليقين هو الثبات ولكن أيُّ ثبات ؟ إنَّهُ ذلك الثبات الصادق الذي يختلف عن الثبات المزيَّف الذي تقلَّده أعداؤه من بني أميَّة .

الأرجوزة الرابعة (أرجوزة اليمين)

والله إن قطعتـــمُ يميني إنِّي أحامي أبدًا عن ديني
وعن إمامٍ صادقِ اليقين سبطِ النَّبيِّ الطَّاهرِ الأمينِ
نبيٌّ صدقٍ جاءَنا بالدِّينِ مُصَدِّقًا بالــواحدِ الأميـنِ

لعلَّه يمكن بسهولة أن نلاحظ في هذه الأرجوزة نبرة شديدة تدلُّ على انفعال واضح تجاه عدَّة أمور منها استنكار الفعل الذي صدر من العدو وهو قطع يد الإمام (عليه السلام) فجاءت النبرة أو اللحن أشد ممَّا جاء في سابقه ، وهذا لا يعني أنَّ ألم الإمام لقطع يده قد حمله على ذلك وإنَّما يريد القول : ((إنَّكم إن ظننتم بقطعكم يدي أنَّني قد أنثني أو يضعف عزمي فبعدًا لهكذا ظن لأنَّ ذلك قد أثار في نفسي إصرارًا أشد على الموقف الذي أنا عليه تجاه إمامي)) ، والدليل على ذلك أنَّهم حين قطعوا يد الإمام اليمنى حمل على القوم مرتجزًا بهذا القول وحمل السيف بشماله وقتل منهم مائة وثمانين فارسًا [٣٦] .

ويبدو واضحًا أيضًا الجانب العقدي في كلام الإمام العباس (عليه السلام) وهو يرقى صعودًا بيقينه ومحاماته فيبدأ بقوله : (أحامي أبدًا عن ديني) فبدأ بالدِّين ليذكِّر العدو بأنَّ القضيَّة عقائدية إيمانية ، وأنَّ هذا الدفاع مستمر في حياته وفي استشهاده ، فكما نعلم أنَّ الشهيد حيٌّ يرزق ، والتمسُّك بهم لخدمة الدِّين مستمر وبهم تشملنا الرَّحمة اليوم ، ولعلَّه أراد أيضًا أن يُبلِغ العدو أنَّ استشهاده سيخلِّد الدِّين فالقضية من البداية قد حُسمَت ويعلم الإمام الحسين (عليه السلام) بأنَّهم مقتولون لا محالة ولكن خرج لطلب الإصلاح في أمَّة جدِّه ويعلم أنَّه لن يقوَّم الدِّين إلَّا بإعطاء هذه النفوس الزكيَّة ، وكما يعبَّر عنه بأنَّهُ (انتصارُ الدَّمِ على السَّيف) ، ثمَّ ينتقل الإمام العباس (عليه السلام) للحديث عمَّن يمثِّل ذلك الدِّين وهو الإمام الحسين (عليه السلام) قائلًا : (وعن إمامٍ صادقِ اليقينِ) وهذه المقولة تذكِّرنا بالأرجوزة الثالثة التي كان يحدِّث فيها نفسه معبِّرًا عن شربه الماء (ولا فعال صادق اليقين) وكأنَّما صدق اليقين هي صفة مختصَّة بآل البيت وهي المعيار لجميع أعمالهم ولذا عدَّ شربه للماء بأنَّه ليس من فعال من كان صادق اليقين ، بعدها انتقل إلى التذكير بأنَّ هذا الإمام لم يمثِّل خطًّا منفصلًا عن الدِّين كما تزعمون وإنَّما هو خط النبي محمد (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) المتَّصف بـــ(الطَّاهر الأمين) ،

وهنا تبرز مقابلة رائعة بين لفظة (الطاهر) التي نعت بها النبي ، وكان قد نعت بها الإمام الحسين من قبل في قوله :

نفسي لنفس الطَّاهر الطهرِ وِقا

فقد أعطاهما صفةً واحدة قاصدًا بذلك أنَّ الإمام ليس ببعيد عن النبي ولذا تمثَّل صفاته ، فقد قال النبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) : " حسينٌ منِّي وأنا من حسين أحبَّ اللهُ من أحبَّ حسينا "[٣٧] ، وإذا كان قد أعطى صفة الإمام الحسين للنبي فقد أعطى بالمقابل صفة النبي للإمام الحسين حين قال (صادق اليقين) فكما نعلم أنَّ النبي معروفٌ في قومه وأمَّته بـــ(الصادق الأمين) ومصداق ذلك تكرار اللفظة مرَّتين في الأرجوزة نفسها في قوله (نبيٌّ صدقٍ) و(مصدِّقًا) وسيأتي بعض التفصيل في ذلك .

ثمَّ يكمل للقوم الرَّابط بين النبي والدِّين وفي ذلك نتلمَّس نكهة المحاججة مع العدو في قضية الدِّين وما تكرارها إلَّا لإلقاء الحجَّة عليهم وكأنَّما يقول لهم : ((إنَّكم حتَّى النبي لا تؤمنون به ولو كنتم آمنتم به لحفظتم حرمة أهلِ بيته)) وقد تكرَّر هذا المعنى لديه في الأرجوزة الأولى ، ولو لم يكُن له فضل إلَّا أنَّهُ جاءنا بالدِّين لكفى لأنَّ فيه هداية البشرية وتخليصهم من الضلال وهو قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾[التوبة : ٣٣] ، وبعد ذلك نصل القمَّة في اليقين الحق الذي سار عليه الإمام العباس (عليه السلام) وهو يعرج في كلماته ، فهذا النبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) قد صدَّق بالرَّب الذي تدَّعونَ عبادته بعد أن كان أسلافكم يعبدون الأوثان ولكن يصح في هذا الموقف قوله تعالى : ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[الملك : ٤] ، وقوله (مصدِّقًا) وإن كان ينطوي على الصفة التي لازمت هذه الثُّلَّة الطَّاهرة أي الصِّدق ولكنَّه هنا التصديق الذي أراد أن يثبت به نبوَّة النبي وتصديقه بالله الواحد الأمين ، والدليل أنَّ لفظة (مصدِّقًا) قد جاءت في القرآن مختصَّةً بالأنبياء في غيرِ موضعٍ منهُ[٣٨] .

وفي ضوء المعاني السابقة نلحظ أنَّ الإمام قد ابتدأَ النَّص بالقسم ، والغرض منه عادةً توكيد الكلام وتقويته [٣٩] ، وفي هذا دلالة واضحة على اللَّحن الشديد الذي لازم النَّص ؛ فغالبًا ما يُعمد إلى أساليب التقوية حين يكون الموقف متطلِّبًا ذلك وكان أسلوب القسم أوَّلها قاصدًا توكيد المعنى ثمَّ لجأ بعدها إلى أسلوب الشرط مستعملًا فيه (إنْ الشرطية) وهي تُستعمل في حالتين الأولى المحتملة الحصول المشكوك فيها ، والثانية تكون في مقام القطع بحصول الشيء ، والإمام (عليه السلام) قد استعملها في مقام القطع بالأمر لأنَّهم قطعوا يمينه ، ولأنَّه أبدًا محامٍ عن دينه ولكن كان يقصد أمرًا معيِّنًا باختياره لها في هذا الموضع وفي هذا المقام قال العلوي (ت ٧٤٥هـــ) في طرازه : " إنْ الشرطية لا تقع إلَّا في المواضع المشكوك فيها ... فإن استُعملت في مقام القطع ، فإمَّا

أن يكون على جهة التَّجاهل وأنت قاطعٌ بذلك الأمر ، ولكنَّك تُري أنَّك جاهلٌ به ، وإمَّا على أنَّ المخاطب ليس قاطعًا بالأمر ، وإن كنتَ قاطعًا به ... وإمَّا لتنزيل المخاطب منزلة الجاهل ، لعدم جريه على مُوجب العِلم "[٤٠] ، وبلحاظ قول العلوي يظهر أنَّ المراد من قول الإمام أنَّ الشرط أفاد قطع الإمام بالأمر مع أنَّ المخاطَب غير قاطع به لأنَّهم يعتقدون بقطع يد الإمام أنَّ عزيمته ستضعف وأنَّ حركته ستُشل ولكنَّه أظهر خلاف ذلك مبيِّنًا أنَّ القضية عقدية بحتة ، فهو يدافع عن الدِّين والإمام سبط النبي المختار فقاتل بشماله وهو يرتجز بالأبيات التي نحنُ بصددها .

وإنَّما لجأ الإمام إلى هذه المؤكِّدات لكي يدفع ظن التوهُّم من المخاطب بتحقيق النَّصر أو ثني المقابل عن طريقه ، ولذا عمد إلى (إنِّي) مؤكِّدًا ، ثمَّ (أبدًا) وهي تأبيد غير منقطع لمدَّة معيَّنة أي قد يكون المعنى أنَّ هذه الحماية لا تنتهي إلى آخر لحظة من حياة الإمام العباس (عليه السلام) كما قدَّمنا ، أو أن يكون المعنى استنكار الفعل الذي يقوم به الآخر فأراد الإمام بذلك القول أنَّ الإيمان بهذه القضية يجب أن يكون عند كل غيور لأنَّه لنصرة الدِّين ، وهذا الاحتمال هو المرجَّح فهو يعود ليُبدي نفسه بأنَّهُ ذلك الجندي الغيور على قضيته المتعلّقة بدينه ، فهو استنفار عام استجاب له الإمام وكان في مقدِّمة جيش الجهاد لأنَّه يعرف معنى الدفاع عن إمام زمانه الحسين (عليه السلام) وهنا يرفع قضيَّة الأخوَّة جانبًا ، وهو سبط النبي الذي أرسله الله بالدِّين إلى أمَّة المسلمين .

الأرجوزة الخامسة (أرجوزة اليسار)

يا نفسُ لا تخشـــي من الكفَّارِ وأبشـــري برحمةِ الجبَّـــارِ
مع النبيِّ سيِّـدِ الأبـــرارِ مع جملة الساداتِ والأطهـارِ
قد قطعـــوا ببغيـهم يســاري فأصْلـهم يا ربِّ حـرَّ النَّـــارِ

في هذا الخطاب الأخير سنجدُ أسلوبا خطابيًا لا نقولُ مغايرًا عمَّا سبق وإنَّما نقول إنَّه يمثِّل آخر نص ارتجز به العبَّاس (عليه السلام) بعد أن قُطعت يساره وأخذ السيف بفيه وحمل على القوم ويداه تنضحان دمًا فقاتلهم قتالًا شديدًا حتى ضُرِبَ بالعمود وفُلِقَت هامته الشريفة وخرَّ صريعًا إلى الأرض وهو ينادي (يا أبا عبد الله عليك منِّي السلام)[٤١] ؛ وإنَّما ننقل ذلك لنبيِّن للقارئ الحال التي قيلت فيها الأرجوزة ولماذا احتوت على معان في بعضها جديدة وإن كانت الألفاظ هي هي .

إذ تظهر جليَّة النغمة الحزينة التي يتكلَّم بها الإمام العباس (عليه السلام) وهذا الحزن مشابه لما جاء في نص القربة ، فقد كرَّر فيه لفظة (يا نفسُ) مؤلِّبًا هذه النَّفس في أعظم الجهاد فهناك ارتباط بين حديثه هنا

وحديثه هناك وهو الجهاد ، إذ بلغ في هذين النصين قمَّته ، وكما يقال (الجودُ بالنَّفسِ أقصى غاية الجودِ) ، لأنَّ العطش قد بلغ ما بلغ من الأمام العباس (عليه السلام) ولكنَّهُ يأبى شرب الماء والحسين عطشان ويرى أنَّ ذلك ليس من فعال من كان يعرف الدِّين ولا فعال صادق اليقين وقد قدَّمنا لهذه المعاني في موضعها ، وهنا أيضًا بلغت النَّفس مبلغها وهي تجود بنفسها ووصلت إلى مرحلة الوداع والوعيد للكفار والبشارة للنَّفس بالرَّحمة والقرب من خير البريَّة والدعاء على الكافرين بنارِ جهنَّم ، وفي كلِّ بيت هناك معنى بل معان ، فضلًا عمَّا تحتويه الأرجوزة في عمومها.

النَّص في عمومه كان يحمل سيماء التوديع لأنَّهُ يحدِّث نفسه بحديثٍ أخير ويبشِّر إلى آخره ، ثمَّ إنَّهُ حين يقولُ لنفسه آمرًا (لا تخشي من الكفَّارِ) فهل فعلًا نفس الإمام نجل علي (عليه السلام) تخشى من الكفَّار أ أنَّ هناك أمرًا آخر أرادَ إيصاله ؟ جواب ذلك أنَّه أراد أمرًا معاكسًا لظن المخاطب لأنَّ النَّص لم يكن يحدِّث به نفسه فحسب وإنَّما كان العدو يسمع القول فلا يعقل أن يدعو عليهم بالنار في قلبه ، ولذا فهو يبيِّن شجاعته إلى النَّفَس الأخير ويستنكر فعلهم كما حدَّثهم حين قطعوا يمينه بأنَّهُ لن ينثني ، وكذلك الآن إذا كانوا قد ظنُّوا بقطعهم يساره قد يرجع عن عزمه فبُعدًا لهم لأنَّهُ لا يخشاهم وأنَّهم لم يفقدوه توازنه ولا إصراره على قتالهم وهذا ما أثبته وهو يحمل السيف في فيه ويقاتل ، وحين ينعتهم بالكفَّار فإنَّ في ذلك قمَّة الاستنكار فالكافر هو الذي لا يؤمن بالله الواحد القهّار ويكفر بجميع المعتقدات التي يأمره الله بها .

وفي قبالة ذلك يبشِّر نفسه بالرَّحمة لأنَّها ما أخفاه الله لعباده ، واستعمل هذه اللفظة ليقارن بين ما يصدر من الكفار وما ينتظره عند الله من رحمة وكيف أنَّه سينال السعادة التي يتخيَّل العدو أنَّه قد سلبها منهُ فهل هي الحياة الدُّنيوية في نظرهم ؟ كلَّا فقد حاز أو سيحوز على رحمة الجبَّار بالحياة الأبدية ، لأنَّهُ يعلم بما يحمله من إيمان بصدق الله بما وعده للمؤمنين والكفَّار أيضًا يعلمون ، لأنَّ القرآن بين أيديهم ولا يفقهون منهُ شيئًا ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللهِ ۗ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ۞ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ۞ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۗ إِنَّ اللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[التوبة : ٢٠ – ٢٢] ، وهو بنعته لهم بالكفَّار سيكون مصيرهم الخسارة الدُّنيوية والأُخروية ، ومنهُ قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾[آل عمران : ٥٦] .

وفي البيت الثاني يبيِّن تلك الرَّحمة وهذا يذكِّرنا بالأرجوزة السابقة حين حلَّل معنى الدِّين وبمَ يتمثَّل؟ وهنا يبيِّن كيف تكون الرَّحمة ومن تشمل ، فحين اختار الرَّحمة فلأنَّها تنال من هم أعظم درجة فيقول للكفَّار ((إن كنتم تقتلوني ظنًّا منكم أنِّي من الكفَّار فأنتم الكفَّار وأنا سأكون في رحمة الله)) ويعود إلى اليقين

والإيمان الذي يحتِّم كونَهُ مقاتلًا في ركب من سينال بفضل الدفاع عنهم تلك الرَّحمة وسيكون معهم في الآخرة أيضًا في ظلِّها ، ويكرِّر لهم أنَّه سيكون (مع النبِّي سيِّد الأبرار) وفي هذا القول معنيان الأوَّل أنَّه قدَّم النبي ولأوَّلِ مرَّة لأنَّها الحجَّة الأخيرة التي سيُلقيها عليهم وكيف أنَّهُ لم يكتفِ بالدفاع عن سبط النبي وإنَّما عن النبي نفسه ، وها هو ذا سيكون مع النبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) مجازاةً على ذلك الموقف لأنَّهُ على حق ولأنَّ النبي لا يمكن أن يتجرأ أحد على القول بعدم نبوَّته وإن كان هذا ظاهرًا فلن يكون قلبًا ، والمعنى الآخر الذي قد يستبطنه القول هو ما احتوته لفظة (سيِّد الأبرار) فمعناه أنَّهُ سيِّد الأبرار لا الكفَّار أمثالكم أو أنَّهُ أراد بهم أهل البيت (عليهم السلام) لأنَّ هذا وصفهم وكذا جاء وصفهم بالسادات والأطهار ، فقد جاء في زيارة أمير المؤمنين (عليه السلام) : " السلام عليك يا والد الأئمة البرَرة السادات ... ووالد الأئمة الأطهار "[٤٢] ، وفي ذلك كما أسلفنا تبيان أكثر للقضية المصيرية التي تقتضي الدفاع عن بيضة الإسلام التي أساسها النبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) ثمَّ من أوصى بهم خيرًا وهم آل بيت النبوَّة ، ثمَّ فيه تواضع واضح حين يعزل الإمام نفسه عن سمة القرابة ويتحدَّث باسم الدِّين مبشِّرًا نفسه بالرحمة التي اتسعت لتشمله مع النبي سيِّد السادات الأبرار الأطهار الَّذينَ يقاتل في ركبهم .

أمَّا البيت الأخير ففيه لوعة وحزن الإمام لا على اليد المقطوعة وإنَّما على علَّة قطعها ، إذ قُطعت بغيرِ حقٍّ وإنصاف ، ولذا وصفهم بالبغي ، والبغي الاستطالة على الناس ؛ وقال الأزهري : معناه الكِبَر ، والبغي : الظُّلم والفساد ، وقيل في معنى قوله تعالى : ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَعَادٍ﴾[النحل : ١١٥] ، أي غيرَ باغٍ على الإمام وغيرَ متعدٍّ على أمَّته . ومعنى البغي : قصد الفساد ، والفئة الباغية : هي الظالمة الخارجة عن طاعة الإمام العادل[٤٣] ، وهذا كلُّه يدلِّل على المدى الذي وصلت إليه هذه الفئة الباغية ليصفهم الإمام بهذا الوصف ، وهو في هذا كلِّه لا يدافع ويتحسَّر لما لحق به بل لما سيقع على إمامه من بعده من هذه الأمة التي بغت ، ولعلَّه استعمل هنا تعبيرًا مجازيًا عن القطع فلا يريد التعبير عن القطع الحقيقي وإنَّما أراد أن يوصلَ إلينا فكرة هي أنَّهم قد قطعوا يساره ببغيهم لا بسيفهم أي بمعنى الأذى الذي لحقه من شدَّة الألم كان وقعه في قلبه لا في يده ، ثمَّ ينهي حديثه بالدعاء عليهم وقد يُقال إنَّ الدعاء على العدو ليس من شيم العباس (عليه السلام) ولكن هذا الدعاء متعلِّق بلفظة (البغي) واعتمادًا على ما تحمله هذه اللفظة من معنى فإنَّهم يستحقون الدعاء عليهم لأنَّ الله توعَّد الظالم والمفسد بالعاقبة السيئة بقوله تعالى : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾[النمل : ١٤] ، وقوله تعالى : ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا﴾[النساء : ٣٠] .

والنصُّ يطالعنا أيضًا بأسلوب النداء وهو أسلوب طلبي يدلُّ على طلب حقيقي كما قدَّمنا ، وهذا الطلب يتلوه أسلوب طلبي آخر وهو النَّهي الذي خرج للتوبيخ ، فها هو يوبِّخ نفسه وينهاها أن تخشى الكفَّار كما

طالعنا مسبقًا بقوله (وتشربين باردَ المعين) فهو لم يشرب الماء ولن يشربه . وهنا أيضًا لم يخش الكفَّار ولن يخشاه لأنَّ إيمانه أوثق من أن يتزعزع بأشد المحاولات التي يعمد إليها القوم ، وفي البيت نفسه يلقانا أسلوب طلبي ثالث هو فعل الأمر الذي خرج للتشويق ، أي لتشويق النَّفس فيه يوجِّه الكلام إلى نفسه ، فالإمام يبشِّر نفسه بالرحمة الإلهية ، فضلًا على أنَّ الباء في (برحمة) جاءت للإلصاق بتلك الرَّحمة التي هي قريبة منه بعيدة عن الكفَّار ، وقد تحمل فيها معنى أقرب هو أنَّه سيقترب من تلك الرَّحمة باستشهاده من أجل العقيدة فالبشارة لطالما رآها المعصومون قريب الموت ونحنُ نعلم أنَّ الإمام العباس (عليه السلام) معصوم بالعصمة الصغرى وإن كانت الباء ملازمة لفعل البشارة دائمًا ، وحتى استعماله (مع) التي تأتي في أحدِ معانيها في موضع الاجتماع [٤٤] ، فهو إنَّما متيقن من اجتماعه مع النبي وآله الذين هم أهله لكنَّ التواضع الذي يحمله الإمام يجعله يأبى عن جعل نفسه في مصافِّهم وهذا يعطي إجلالًا أكبر لهذه الشخصية العظيمة .

ولمَّا كانت قد " تفيد مع الماضي أحد ثلاثة معان : التوقُّع ، والتقريب ، والتحقيق "[٤٥] فإنَّها هنا تخرج عن معنى التوقُّع والتقريب وتشتمل على معنى التحقيق ، فالإمام يوكِّد أنَّهم قطعوا يساره وهذا القطع نتيجة بغيهم ، وينهي الإمام كلامه بالشطر الأخير الذي يبدأه بالفاء ، والفاء " لها ثلاثة مواضع : العطف ، والجواب ، والزيادة "[٤٦] ، فالمرجَّح أن تكون الفاء في قول الإمام جوابية لأنَّها تحمل شروط ذلك ، فالجوابية معناها الرَّبط ، وتلازمهاالسببية ، وقال بعضهم : الترتيب أيضًا ، وتكون جوابًا لأمرين : أحدهما الشرط بـــ(إنْ) وأخواتها ، والثاني ما فيه معنى الشرط نحو (أمَّا) [٤٧] ، وبالاعتماد على المعنى المراد من النص تكون الفاء واقعة في جواب شرط مقدَّر بـــ(إنْ) ، والتقدير (إنْ قطعوا ببغيهم يساري فاصلهم يا ربِّ حرَّ النَّارِ) لأنَّ قطعهم يده الشريفة قد أوجب الدعاء عليهم بدخولهم النَّار ، وهي تربط الجملتين وتحمل معنى السببية ، وقد تحمل معنى الترتيب أيضًا .

أمَّا ما يختص بالفعل فيتمثَّل بقضيتين الأولى مجيؤه بأسلوب طلبي هو فعل الأمر الذي خرج للدعاء ، والقضيَّة الثانية هي تقديم الفعل على النداء ، وذلك لغرض الاهتمام بالفعل وتأكيد المعنى فأراد الإمام أن يقدِّم الدعاء عليهم ، وما مجيء النداء هنا إلَّا اعتراض جاء لقيمة معنوية ، ونرى فيه جانبًا تأدُّبيًا من الإمام ، إذ لمَّا جاء الفعل بصيغة الأمر أراد أن يأتي بالنداء الذي ينادي به الله ربَّه كي يُظهِر التذلُّل في الدعاء على الرغم من الأذى الذي لحق به منهم ، فقد ذهب أحدهم إلى القول : " لقد كثُر نداء الخلق لله بصفة الربوبية ، وغلب غلبة واضحة في آي القرآن الكريم حتى يلاحظ التلازم بين الدعاء ونداء الرَّب ، بل ربَّما كان النداء نفسه (يا ربِّ) دعاءً وتضرُّعًا وخضوعًا وتذلُّلًا بين يدي الله . وهذا النوع من النداء حقَّهُ أن يُستعمَل فيه أداة النداء (يا) التي ينادى بها البعيد وذلك أنَّ المنادَى هنا عالٍ على خلقه بائنٌ منهم "[٤٨] .

خاتمة البحث

بعد هذا السير في هدى الطف مع الأبيات الملكوتية لهذه الشخصية العظيمة وهي شخصية أبي الفضل العباس (عليه السلام) تحصَّلت لدينا مجموعة من النتائج التي سنعرضها في النقاط الآتية :

- لم تكُن أراجيز الإمام عبارة عن أراجيز حربية كبقيَّة الأراجيز الحربية وحسب وإنَّما كانت تحملُ رسالةً واضحة للناس عمومًا وعلى مرِّ العصور والعدو على وجه الخصوص .

- عرَّفت هذه الأراجيز بالقضية التي خرج الإمام الحسين (عليه السلام) مدافعًا عنها ؛ فقد أثبتت أنَّ الدفاع في ركب الإمام عن الدِّين وعن إمام الزمان بل عن النبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) بنفسه لأنَّ النبي قد أوصى بآلِ بيته خيرًا ، وإنَّ القضية تخرج عن العرق والقرابة .

- أظهرت تلك النصوص لأبي الفضل مجموعةً من الصفات نادرة الوجود والنظير ؛ منها : الشجاعة ، والوفاء ، والصبر ، واليقين الصادق ، والإيمان الرَّاسخ ، والعقيدة الثابتة ، والتفاني ، والإيثار ... إلخ .

- ارتبطت كلُّ أرجوزةٍ بقضية خاصَّة وحملت رسالة تختلف في جزئياتها عن الأخرى ؛ فهناك محور يتمركز حوله الهدف والمعنى تنطلق منه الأهداف والمعاني الأخرى .

- كشفت تلك النصوص عن الإيمان الراسخ الذي تحلَّى به أبو الفضل (عليه السلام) ، والعقيدة الثابتة أيضًا ، وهذا ينمُّ عن مستوى الدِّراية الذي يتمتع به ، والمستوى الخُلُقي الذي يحمله ، وكلُّ ذلك استقاه من البيت العلوي الذي عاش فيه .

- كانت هناك تنقُّلات واضحة في النبرة الخطابية لكلِّ أرجوزة ، وهذا يخضع للمقام الذي قيلت فيه ، فكانت تلك التنقُّلات على الشكل الآتي :

أرجوزة الثبات : كانت تحمل معنى الشجاعة ومحاولة الردع للعدو والذب عن الدِّين والفخر بنفسه وبأبيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) .

أرجوزة المشرعة : كانت تحمل معنى القوَّة والعزيمة والفداء والصبر والشكر والتخويف للعدو والفخر بنفسه أيضًا .

أرجوزة القربة : لا أغالي أو أبالغ إذا قلت إنَّ هذه الأرجوزة مثَّلت أعلى قمم الإيثار والوفاء والتذلُّل والإيمان وصدق اليقين .

أرجوزة اليمين : عبَّرت هذه الأرجوزة عن التفاني في الدِّين إلى أبعد الحدود وبأعز ما يمكن أن يقدَّم لنصرة الدِّين والإمام الصادق اليقين والنبي الطاهر الأمين .

أرجوزة اليسار : عبَّرت هذه الأرجوزة عن قمَّة الصمود وعن تمنية الإمام نفسه بالشهادة والاجتماع مع خير الورى محمدٍ وآله ، وكشف فيها عن الفئة الباغية داعيًا عليهم بأشدِّ العذاب .

الهوامش

١- لسان العرب ٥ / ٣٥٠ – ٣٥٢،مادة (رجز) .
٢- بحور الشعر العربي (عروض الخليل) : ١٢٠ .
٣- ينظر : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ١ / ١٣٦،وبحور الشعر العربي (عروض الخليل ٩ : ١٢٠ .
٤- ينظر : البناء العروضي للقصيدة العربية : ٥٩ – ٦٧ .
٥- موسيقى الشعر : ١٢٦ – ١٢٧ .
٦- ينظر : موسيقى الشعر : ١٢٧ – ١٢٨ .
٧- ينظر : شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام : ٢٣٨ – ٢٣٩ .
٨- ينظر : الرَّجز في عصر صدر الإسلام (موضوعاته،وخصائصه الفنية) : ١٠ – ١٦ .
٩- ينظر : فن التقطيع الشعري والقافية : ١٢٣ .
١٠- ينظر : لسان العرب ٥ / ٣٥٠،مادة (رجز) .
١١- ينظر : موسيقى الشعر : ١٢٥ .
١٢- الرَّجز في عصر صدر الإسلام : ٧ .
١٣- ينظر : الميزان في تفسير القرآن ١٧ / ١٠٨ – ١٠٩ .
١٤- الرَّجز في عصر صدر الإسلام : ١١ .
١٥- وقعة صفِّين : ٣٩٠ – ٣٩١ .
١٦- ينظر : قصص العباس : ٥ .
١٧- ينظر : دروس أبي الفضل العباس (عليه السلام) في مكارم الأخلاق : ٧ .
١٨- ينظر : قصص العباس (عليه السلام) : ٨١ – ١٠١ .
١٩- ينظر : الخصائص العباسية : ٩١ – ٣١٥ .
٢٠- ينظر : العباس بن علي (عليه السلام) بطل الحق والحرية : ١٥ .
٢١- ينظر : المصدر نفسه : ١٠ – ١١ .
٢٢- ديوان الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) : ٢٨ .
٢٣- صحيح مسلم،كتاب الإمارة،باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى ١٣ / ٢٤ .
٢٤- المصدر نفسه ١٣ / ٢٤ .
٢٥- صحيح مسلم،كتاب البِّر والصلة والآداب،باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ١٦ / ١٢١ .
٢٦- المعجم الوسيط : ٧٦٨ .
٢٧- ينظر : البرهان في علوم القرآن ٢ / ٤٢٠ – ٤٢١ .
٢٨- ينظر : لسان العرب،مادة (رقا) ١٤ / ٣٣١ – ٣٣٢ .
٢٩- ينظر : المصدر نفسه،مادة (وري) ١٥ / ٣٨٩ .
٣٠- ينظر : المعجم الوسيط : ٥٦٨ .
٣١- ينظر : مجمع البحرين،الطريحي ٣ / ٦٦ .
٣٢- سورة إبراهيم / الآية ٥ .
سورة لقمان / الآية ٣١ .
سورة سبأ / الآية ١٩ .
سورة الشورى / الآية ٣٣ .

٣٣- ينظر : نظم الدُّرر في تناسب الآيات والسور ١٥ / ٤٨٩ .
٣٤- ينظر : تفسير أبي السُّعود ٥ / ٦٩ .
٣٥- ينظر : معاني النحو ٣ / ٢٢٣ .
٣٦- ينظر : مقتل الحسين (عليه السلام) ومصرع أهل بيته وأصحابه في كربلاء،لأبي مخنَف : ٩١ – ٩٢.
٣٧- بحار الأنوار ٤٣ / ٢٦١ .
٣٨- من ذلك ما جاء في : (آل عمران : ٣٩،٣،المائدة : ٤٦،الصف : ٦) .
٣٩- ينظر : الكتاب ٣ / ١٠٤،وشرح المفصَّل ٩ / ٩٠،ومعاني النحو ٤ / ١٣٥ .
٤٠- الطراز المتضمِّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ٣ / ٢٩٨ – ٢٩٩ .
٤١- ينظر : مقتل الحسين،أبو مخنَف : ٩٢ – ٩٣ .
٤٢- مفاتيح الجنان : ٤٣٥ – ٤٣٦ .
٤٣- ينظر : لسان العرب،مادة (بغا) ١٤ / ٧٨ .
٤٤- ينظر : مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ٤ / ٢٤٣ .
٤٥- الجنى الداني في حروف المعاني : ٢٥٩ .
٤٦- ينظر : معاني الحروف،الرمَّاني : ٤٣ .
٤٧- ينظر : الجنى الدَّاني : ٦٦ .
٤٨- مجازات النِّداء في الخطاب القرآني : ٢٠٥ .

المصادر والمراجع

١- بحار الأنوار ، العلم العلَّامة الحجَّة فخر الأمة المولى الشيخ محمد باقر المجلسي (قدَّس الله سرَّه) ، مؤسسة الوفاء ، بيروت – لبنان ، (د. ت.) .
٢- بحور الشعر العربي (عروض الخليل) ، الدكتور غازي يموت ، دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان ، ط ٢ ، ١٩٩٢م .
٣- البرهان في علوم القرآن ، أبو عبد الله بدر الدِّين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت ٧٩٤هـ) ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه ، ط ١ ، ١٣٧٦هـ = ١٩٥٧م .
٤- البناء العروضي للقصيدة العربية ، الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف ، دار الشروق ، القاهرة ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م .
٥- تفسير أبي السُّعود أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، لقاضي القضاة أبي السُّعود بن محمد العمادي الحنفي (ت ٩٨٢هـ) ، تحقيق : عبد القادر أحمد عطا ، مكتبة الرِّياض الحديثة ، الرياض ، مطبعة السعادة ، (د. ت.) .
٦- الجنى الدَّاني في حروف المعاني ، الحسن بن قاسم المرادي ، تحقيق : الدكتور فخر الدِّين قباوة ، والأستاذ محمد نديم فاضل ، دار الكتب العلمية ، بيروت –لبنان ، ط ١ ، ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م .
٧- الخصائص العباسية ، الحاج محمد إبراهيم الكلباسي النجفي ، انتشارات المكتبة الحيدرية ، مطبعة أمير ، قم ، ط ١ ، ١٤٢٠هـ .
٨- دروس أبي الفضل العباس (عليه السلام) في مكارم الأخلاق ، ميثم هادي القريشي ، قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة العباسية المقدسة / شعبة الإعلام ، كربلاء المقدسة ، دار الضياء ، النجف الأشرف ، ط ١ ، ١٤٣٣هـ = ٢٠١٢م .
٩- ديوان الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ، اعتنى به : عبد الرحمن المصطاوي ، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ، ط ٣ ، ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م .
١٠- شرح المفصَّل ، الشيخ موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش النحوي (ت ٦٤٣هـ) ، مكتبة المتنبي ، القاهرة ، (د. ت.) .
١١- شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام ، النعمان عبد المتعال القاضي ، (د. ت.) .
١٢- الطراز المتضمِّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، السيِّد الإمام إمام الأئمة الكرام أمير المؤمنين يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني (٧٤٥هـ) ، مطبعة المقتطف ، مصر ، ١٣٣٢هـ = ١٩١٤م .
١٣- العباس بن علي (عليه السلام) بطل الحق والحرية ، عبد الحميد المهاجر ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت – لبنان ، ط ١ ، ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م .
١٤- العُمْدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزْدي (ت ٤٥٦هـ) ، حقَّقه وفصَّله وعلَّق حواشيه : محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة ، بيروت – لبنان ، ط ٥ ، ١٤٠١هـ = ١٩٨١م .
١٥- فن التقطيع الشعري والقافية ، الدكتور صفاء خلوصي ، منشورات مكتبة المثنى ببغداد ، ط ٥ ، ١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م .
١٦- قصص العباس ، الشيخ ماجد ناصر الزبيدي ، مكتبة آداب شرقية ، النجف – العراق ، منشورات الفجر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ، ط ١ ، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م .
١٧- كتاب سيبويه ، لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت ١٠٨هـ) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الشركة الدولية للطباعة ، ط ٥ ، ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م .
١٨- كتاب معاني الحروف ، أبو الحسن علي بن عيسى الرُّماني النحوي (ت ٣٨٤هـ) ، حقَّقه ، وخرَّج شواهده ، وعلَّق عليه ، وقدَّم له ، وترجم للرمَّاني ، وأرَّخ لعصره : الدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي ، دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة ، جدَّة – المملكة العربية السعودية ، ط ٢ ، ١٤٠١هـ = ١٩٨١م .
١٩- لسان العرب ، أبو الفضل جَمال الدين محمَّد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري (ت٧١١هـ) ، دار صادر ، بيروت ، (د. ت.) .

٢٠- مجمع البحرين ، الشيخ فخر الدِّين الطريحي (ت ١٠٨٧هـ) ، تحقيق : السيِّد أحمد الحسيني ، أعاد بناءه على الحرف الأوَّل من الكلمة وما بعد على طريقة المعاجم العصرية : محمود عادل ، مكتب نشر الثقافة الإسلامية ، ط ٢ ، ١٤٠٨هـ .
٢١- معاني النحو ، الدكتور فاضل صالح السامرائي ، شركة العاتك للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٣م .
٢٢- المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية (الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث) ، شعبان عبد العاطي عطية ، أحمد حامد حسين ، جمال مراد حلمي ، مكتبة الشروق الدولية ، عبد العزيز النجّار ، جمهورية مصر العربية ، ط ٤ ، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م .
٢٣- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، لابن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ) ، تحقيق وشرح : الدكتور عبد اللطيف محمد الخطيب ، التراث العربي ، الكويت ، ط ١ ، ١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م .
٢٤- مفاتيح الجنان ، للفقيه المحدِّث الشيخ عباس القمِّي ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع ، بغداد ، ط ١ ، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م .
٢٥- مقتل الحسين (عليه السلام) ومصرع أهل بيته وأصحابه في كربلاء ، المشتهر بـ(مقتل أبي مخنَف) ، مكتبة الألفين ، الكويت ، ط ٢ ، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٧م .
٢٦- موسيقى الشعر ، الدكتور إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، مطبعة لجنة البيان العربي ، ط ٢ ، ١٩٥٢م .
٢٧- الميزان في تفسير القرآن ، للعلَّامة السيد محمد حسين الطباطبائي ، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت – لبنان ، ط ١ ، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م .
٢٨- نظم الدُّرر في تفسير الآيات والسور ، للشيخ العلَّامة برهان الدِّين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي ، (ت ٨٨٥هـ - ١٤٨٠م) ، بإشراف : السيِّد شرف الدِّين أحمد ، صحَّحه وعلَّق عليه محمد عمران الأعظمي الأنصاري العمري ، قراءة : السيِّد القاضي محمد عطاء الله النقشبندي القادري ، دائرة المعارف العثمانية ، دار المعارف الإسلامي ، القاهرة ، ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م .
٢٩- وقعة صفِّين ، لنصرِ بن مزاحم المنقري (ت ٢١٢هـ) ، تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م .
٣٠البحوث :
٣١- الرَّجز في عصر صدر الإسلام (موضوعاته ، وخصائصه الفنية) ، الدكتور عبود جودي الحليّ ، والدكتور محمد عبد الحسين الخطيب ، كلية التربية ، جامعة كربلاء .
٣٢- مجازات النداء وحقيقته وأغراضها في الخطاب القرآني ، الدكتور ظافر بن غرمان العمري ، مجلة معهد الأمام الشاطبي للدراسات القرآنية ، العدد السادس ، ١٤٢٩هـ .

التوجيهات النبوية
في إثراء العلوم الإنسانية
ونشرها من خلال الميادين التربوية

Prophetic Instructions in Solidifying the
Humanist Sciences and promulgating them
via Educational Fields

أ. د. خالد محمد محرّم

رئيس مركز السراج للبحوث والدراسات الإسلامية

والمدير الإداري في قناة الثبات الفضائية / لبنان

Prof . Dr. Khalid Muharram
Chair Man of Al-Saraj Centre for Research and Islamic
Studies , Lebanon

ملخص البحث:

لقد كان لرسول الله ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ مدرسة ربانية فذة في بناء الحياة وفي استثمار ما يمكن ان يستثمر في النهوض بالانسان نحو التكامل والرقي والاقتراب من الحالة المثلى التي أريد له أن يكون قريبا منها ، وكانت جهود الرسول ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ في التربية تنصرف الى ميادين التربية الروحية والعقلية والخلقية والجسمية والاجتماعية ، والبيئية، وغير ذلك من مرتكزات بناء الشخصية الاسلامية على اسس ربانية مكينة ، وهي أسس نهض بتتميمها آل البيت ـ عليهم السلام ـ وهم عترته ورعاة علمه كما نهض بها صلحاء الأمة لإكمال هذا المشروع الإلهي العظيم في بناء الشخصية الاسلامية المتكاملة.

Abstract:

The messenger of Allah incarnates a formidable divine school in erecting life and investing whatsoever could be invested to augment man into competence and sublimity and take advance to the state of perfection that one wants to have. The efforts of the messenger in education ramify into fields educational fields educational, spiritual, mental, ethical, physical, social ,environmental and so forth to erect the Islamic personality due to immune divine bases Ahlalbayt takes the initiative in completing at the hand of the posterity as a science shepherd and the pious recommend such a great divine feat in establishing the perfect Islamic personality.

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه المنتجبين، وبعد..

فإن أزمة التربية الإسلامية الصحيحة التي نعيشها تعد في مجتمعنا اليوم من أهمّ الأزمات التي تواجهنا، إذ انفصلت التربية عن الواقع، فأصبحت تهددنا بمستقبل مظلم. وهذا التدهور يعود إلى بُعد المسلمين عن تطبيق أحكام الدين الإسلامي الحنيف. والمجتمع العربي والإسلامي وقع في أسر الغزو الثقافي والفكري والتربوي الغربي، استمال بنظمه، ومناهجه، وقيمه، وتصوّره للإنسان وحياته، وعلومه وآدابه، استمال كثيراً من أبناء جيلنا وقدّم لهم تربية غريبة عن الإسلام وأسسه... من هنا تبرز مشكلة هذا البحث، لذلك كان لا بد من الحث على إعادة قراءة العلوم الإنسانية على وفق منابعها الأصيلة.

وفي الوقت الحاضر نحن بأمسّ الحاجة إلى نظام تربوي إسلامي يتناسب مع مجتمعنا وواقعنا ومثلنا العليا وعقيدتنا... فالعلوم الإنسانية تقدّم النموذج الكامل لرعاية المسلم (ذكراً وأنثى) وبيان حقوقه، وتربيته جسمياً وعقلياً وسلوكياً واجتماعياً ونفسياً، ليسهم في إقامة مجتمع فاضل إذا أحسن توجيهه.

أما التربية الحالية فقلّما تراعي ذلك، ولا سيّما الشؤون النفسية والروحية والخلقية والعقلية. لذلك، لا بدّ من غرس أسس العلوم الإنسانية ونشرها وترسيخها في نفس الفرد من طريق التوجيهات النبوية وتوجيهات أهل البيت عليهم السلام التي تشكل بمضمونها معيناً رائعاً لإنضاج العلوم الإنسانية ونمائها وتفرعها.

فكانت أهمية البحث في دراسة وجوه الرعاية التي يحيط الإسلام بها الفرد، من أجل الإفادة منها،وتوظيفها في العملية التربوية بهدف تكوين الشخصية الإسلامية التي تجمع بين الفضائل العقلية والخلقية، وبين التقدّم والرّقي من خلال أسس تربوية فعّالة وعلوم إنسانية أصيلة تدفعها لمواكبة المتغيرات.

وتبرز أهميته أيضاً ببيانه مفهوم التربية في اللغة،والاصطلاح المعاصر،والقرآن الكريم،والهدي النبوي.

ثم بيان الميادين التربوية لإثراء العلوم الإنسانية ونشرها وهي :

الميدان الأول: التربية الرّوحية: وذلك ببيان الحاجة إلى الإيمان والعقيدة، وبيان أهداف التربية الرّوحية وسموّها وصيانتها للقيم والعلوم الإنسانية.

الميدان الثاني: التربية العقلية: ببيان العوامل المؤثرة في النّمو العقلي، وأهميّة العلم ونشره والاستزادة منه، وبيان أهداف التربية العقلية.

الميدان الثالث: التربية الخلقية: وذلك ببيان مفهومها وأهميتها وأهدافها.

الميدان الرابع: التربية الجسمية: وذلك بعرض خصائص النمو الجسمي، وبيان أهداف التربية الجسمية، والاهتمام بالصحة، والاعتدال في الطعام والشراب، والتزام التربية البدنية ومعرفة فوائدها، وأهمية النظافة، للوقاية من المرض...

الميدان الخامس: التربية الاجتماعية: من طريق بيان العوامل المؤثرة فيها، وبيان أهمية العلاقة الأسرية والاجتماعية وأهدافها.

الميدان السادس: التربية البيئية: وذلك ببيان مفهومها وأهميتها وأهدافها.

أما الهدف فهو بناء الشخصية الإسلامية في عالم المعرفة وفق ثوابت العلوم الإنسانية، وصياغتها في إطار الإسلام لتحيا الأمة الإسلامية من جديد، متميزة بشخصيتها، وتتحرر من ذل التبعية الفكرية التي وصلت إليها. ويتحقق للمسلم الواعي المثقف المعاصر الامتلاء النفسي إعجاباً وفخراً بدينه الحق، لكماله وشموله كل ما يحتاج إليه.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "يا أيّها الناس إنّي قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلّوا: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي"[1].ووصف أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام أهل البيت قائلاً: "هم عيش العلم وموت الجهل؛ يخبركم حلمهم عن علمهم، وظاهرهم عن باطنهم، وصمتهم عن حكم منطقهم؛ لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه، وهم دعائم الإسلام وولائج الاعتصام، بهم عاد الحقّ إلىٰ نصابه... عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية لا عقل سماعٍ ورواية"[2].

وفي الختام أرجو أن أكون قد أسهمت، بجديّة صادقة ونيّة مخلصة، في تنبيه الأذهان في عصرنا المادي للعودة إلى العلوم الإنسانية الأصيلة... فإن أصبت فمن الله التوفيق، وإن أخطأت فمن سوء فهمي وتقديري، والحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على سيدنا محمّد وعلى آله وأصحابه.

الفصل الأول :مفهوم التربية في اللغة والاصطلاح والقرآن والهدي النبوي

أولاً: مفهوم التربية في اللغة والاصطلاح:

١- التربية في اللغة:

تُعَرّف هذه الكلمة لغوياً بأنها مصدر الفعل ربّى، يربّي.

فيقال: ربّى الولد، أي أنشأه، وربا الشيء يربو إذا زاد.

وجاء في المعجم الوسيط من معاني (رَبَّ) ما يأتي: "(رَبَّ) الولد – ربّاً: وليه وتعهده بما يغذّيه وينمّيه ويؤدبه. فهو: رابّ، والولدُ: مَربُوبٌ ورَبِيبٌ"[٣].

ويقول ابن منظور[٤] في لسان العرب: ربّى الولد يعني: "أحسن القيام عليه"[٥].

ويفهم من هذا أن التربية تعني لغوياً: "الرعاية والزيادة والإصلاح والنشأة والنماء والكمال"[٦]...

فهي عملية متكاملة تشمل جميع جوانب شخصية المتربّي، روحياً وعقلياً وجسدياً... ليستطيع التكيّف مع البيئة التي يعيش فيها[٧].

ومجمل تربية الولد: حسن القيام عليه، وتعهده ما يلزمه.

٢- التربية في الاصطلاح المعاصر:

للتربية معانٍ عدة، يمكن اختصارها بما يأتي:

أ- التربية: "هي تنمية الوظائف الجسمية والعقلية والخُلُقية، كي تبلغ كمالها من طريق التدريب والتثقيف"[٨].

ب- التربية: تعمل على بناء شخصية قوية للإنسان "الذي شحذت مواهبه، وامتلأت جعبته بأسلحة الكفاح في الحياة الاجتماعية، وتهيأ للتقدم المطرد والرقي المستمر، والتقدم هو سنّة الوجود ودليل الحياة الصحيحة، وكمال الشخصية في العلم والعمل، والفكر والإرادة، والسلوك"[٩].

ج- التربية: "هي عملية تكوين للإنسان، يسعى إليه المربي بإثارة القدرات الكامنة لدى الطفل، ثم توجيهها توجيهاً سليماً، وذلك باستخدام أفضل أساليب التربية والتعليم التي توصّل إليها المربّون"[١٠].

د- التربية: هي "عملية تشكيل وإعداد أفراد إنسانيين في مجتمع معيّن، في زمان ومكان معيّنين، حتى يستطيعوا أن يكتسبوا المهارات والقيم والاتجاهات وأنماط السلوك المختلفة، التي تيسّر لهم عملية التعامل مع البيئة الاجتماعية التي ينشأون أفراداً فيها، ومع البيئة المادية أيضاً"[١١].

هـ- التربية: هي "العملية التي يعدّ فيها الوليد الناشئ ليصبح عضواً متكيّفاً في المجتمع الذي ولد فيه،

ويعيش في كنفه"[١٢]. فيكون عضواً فاعلاً ناجحاً.

و- التربية: هي توجيه للحياة، وتشكيل لها، وتكييف للمحيط، وإعداد المرء للعيش والتمدن، ونقل المعارف والمهارات، وتكييف الدوافع الداخلية للظروف الخارجية، وتنمية كلّ ما في المجتمع والحياة، وتمحيص التراث، واكتشاف المواهب والنمو، والمواطنية الصالحة، والتكييف لما يُعلن عن الله[١٣]. فالتربية هي الانسجام التام مع الحياة والبيئة والمجتمع.

وقد توصلت مما سبق إلى أن كل التّعريفات تتفق على ما يأتي: التربية هي تكوين شخصية الإنسان السويّ والإيجابيّ، وتنمية جوانبها الرّوحية والعقليّة والجسميّة من طريق التدريب والتثقيف، وإحكام بنائها إلى حدّ الكمال البشريّ في العلم والعمل، والفكر والإرادة، والسلوك.. مما ييسّر لها حسن التعامل مع الآخرين في المجتمع الذي تعيش فيه.

والمربِّي الحق على الإطلاق هو الله الخالق جلَّ وعلا، فهو "الذي خلق الكائنات جميعها، وجعل بعضها ينمو ويتعلم بالحصول على الغذاء والتمرين المناسبين، وهو الذي منح الإنسان العقل، وجعله قابلاً للتعليم والتدريب والتوجيه، وعمل المربّي تابع لخلق الله وإيجاده، ونابع من شرع الله وكتابه"[١٤]، وإذا كانت التربية وفق المنهج الذي وضعه الله تعالى - وهو العالم بما يناسب عباده ومصالحهم - كانت مواتية، وآتت ثمارها على أحسن وجه.

لذلك، لا بدّ من إلقاء الضوء على مفهوم التربية في الإسلام.

ثانياً: مفهوم التربية في الإسلام:

التربية في الإسلام هي محاولة جادة لتنشئة الإنسان الكامل،ليدرك مسؤولياته الفردية وعلاقاته الاجتماعيّة وسائر مهمّاته،مستندة في مفاهيمها ومبادئها وقيمها إلى القرآن الكريم والسنّة المطهرة. وهي ضرورة حتمية لتحقيق أهداف الإسلام في كل مجالات الحياة. وأهم مصادر التربية الإسلامية: القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فكيف جاءت معاني التربية فيهما؟؟

١ – التربية في القرآن الكريم:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[١٥].

إنّ كل من يقرأ القرآن الكريم بالتدبر والفهم لمعانيه، يراه كتاب عقيدة وتشريع، وكتاب تربية وتوجيه، ودعوة من الله سبحانه وتعالى للإنسان لدراسة الكون والحياة، دراسة متأنية هادئة، ليعرف ويتعلم، ويفهم ويتدبر ومن ثم يتَّجِهَ الاتجاه الصحيح في تطبيق ما جاء فيه.

إن في القرآن الكريم، منهجاً متكاملاً في التربية، وهو منهج الدّقة والشمول، بحيث لا يترك جزئية من جزئيات الإنسان دون أن يلقي عليها الضوء. وهو منهج يختلف اختلافاً جوهرياً عن كل المناهج البشرية، وهنا يكمن السبب في نجاح المنهج الإسلامي في التربية، فهو يهتم بجميع استعدادات الفرد الجسميّة والنفسيّة والعقليّة والخلقيّة، حتى يصل به إلى الكمال شيئاً فشيئاً، وهذا ما بيّنه البيضاوي[١٦]رحمه الله عند تفسيره لفاتحة الكتاب: "الربّ في الأصل مصدر بمعنى التربية، وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً، ثم وصف به[١٧] للمبالغة"[١٨].

فتربية الإنسان على هذا الأصل، هي العمل على إيصاله إلى كماله شيئاً فشيئاً. وكلمة البيضاوي "شيئاً فشيئاً" إشارة لطيفة إلى الأسلوب التربوي الذي يتناسب وطبيعة الإنسان،وتدرجه في هذه الحياة.

ويقول القرطبي رحمه الله في تفسير قوله تعالى:﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١٩]: "... والربّ: المصلح والمدبر والجابر والقائم. قال الهروي وغيره: يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه: قد رَبَّه يَرُبّه فهو ربٌّ له واربٌّ، ومنه سمى الربانيون لقيامهم بالكتب.. ويقال على التكثير: ربّاه وربّبه وربَّته، حكاه النحاس. وفي الصحاح: وربّ فلان ولده يَرُبُّه ربًّا، وربَّبَه وتَرَبَّبَه بمعنىً، أي رباه. والمربون: المربَّى. ... واختلف في اشتقاقه، فقيل: إنه مشتق من التربية، فالله سبحانه وتعالى مدبر لخلقه ومربيهم، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّتِى فِى حُجُورِكُم ﴾[٢٠] فسمى بنت الزوجة ربيبة لتربية الزوج لها"[٢١].

فمنهج القرآن الكريم يختلف اختلافاً جوهرياً عن كل المناهج البشرية، لذلك تجد فيه "أساليب تربوية تتفق

مع أرقى ما توصل إليه الفكر التربوي قديماً وحديثاً، فأسلوب التربية بالعمل، وأسلوب التكرار، وأسلوب التأثير في النفس وإثارة العواطف، وأسلوب استعمال المنطق والمحاكمة العقليّة، وأسلوب الاستجواب، وأسلوب القصة، وأسلوب البيان الساحر، وأسلوب الوعظ، وأسلوب القدوة الحسنة، وأسلوب التواصي والنصح المتبادل، وأسلوب الترغيب والترهيب وقبول التوبة والغفران"[٢٢]، والغاية من هذه الأساليب القرآنية التربوية، نيل الإنسان السعادة في الدنيا والآخرة..

فالقرآن الكريم وضع منهاجاً كاملاً للحياة، بأهدافها ونُظُمها، "ونجد فيه مبادئ تربوية تشكل أمشاجاً لفلسفة تربوية متكاملة، وهي مما يفيد في تشكيل النظرة التربوية المعاصرة الملائمة للمجتمعات العربية والإسلامية"[٢٣].

وأخبر الله سبحانه وتعالى أن القرآن الكريم كلّه بيان وهدى وموعظة بقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[٢٤]. فالإنسان ما عاش بحاجة إلى من يذكّره ويعظه.

ويظهر القرآن الكريم الأمثلة التربوية الرائعة، ومنها ما يقرره سبحانه وتعالى من وجوب أداء الأمانات إلى أهلها ووجوب العدل في الحكم بين الناس بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾[٢٥].

وعندما يأمر الله سبحانه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، يجعلها تربية وعظة لمن يتذكر من الناس، فيقول عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[٢٦].

هذا هو كتاب الله سبحانه وتعالى الذي بدأ نزوله بآيات تربوية "فيها إشارة إلى أهم أهدافه، تربية الإنسان بأسلوب حضاري فكري من طريق الاطلاع والقراءة والتعلم والملاحظة العلمية لخلق الإنسان منذ كان علقة في رحم أمه"[٢٧]. هذه بعض معاني التربية في القرآن الكريم التي ترقى بالمسلم في معارج الفضيلة ومكارم الأخلاق، وتبتعد به عن مواطن الفواحش والرذيلة.. وكفى بالقرآن الكريم أن تعاليمه عامة وهدايته شاملة. ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، فصلاح الأول كان باتباع القرآن تلاوة وعملاً وتطبيقاً، وآخرها لن يصلح إلا بالعودة إلى القرآن الكريم فهماً وحفظاً وتلاوة وتفسيراً وتخشعاً وعملاً وسلوكاً وأحكاماً.. وليس القرآن وحده يهذب الأخلاق ويصفي النفوس، ويتعود الإنسان المسلم من خلاله مكارم الأخلاق وأصول التربية الإسلامية، بل هناك أيضاً السنّة النبويّة الشريفة التي تحوي صوراً تربوية رائعة.

٢- التربية في السنّة النبويّة الشريفة:

السنّة النبويّة هي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن العظيم، وقد اتفقت على ذلك مختلف المذاهب والفرق الإسلامية، ولما كان القرآن الكريم يعالج أمور الحياة وقضايا الإنسان بمجمل التشريع، جاءت السنّة النبويّة الشريفة مفسرة ومبيِّنة لهذا الإجمال الذي أنزله الله إلينا كما قال سبحانه: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾[٢٨].

وقال الله عزّ وجلّ: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾[٢٩].

ومن يدرس شخصية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يجده مربياً عظيماً يخاطب الناس ويأمرهم على قدر عقولهم ويراعي حاجاتهم،كما يراعي مواهبهم واستعداداتهم وطبائعهم، ويراعي في المرأة أنوثتها، وفي الرجل رجولته، وفي الكهل كهولته، وفي الطفل طفولته، ويلتمس دوافعهم الغريزية... من أجل هذا كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قدوة للمسلمين وأسوة حسنة، قال الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[٣٠].

ومن تربية النبي صلى الله عليه وآله وسلم الفائقة، تحمّله أذى الآخرين، فقد شُجّ وجهه في غزوة أحد وكُسرت رباعيته وقُتل عمّه حمزة وَمُثِّلَ به، وكان أشدَّ منه ما حصل بالطائف عندما عرض الإسلام على أهلها، فردُّوه وآذَوه، ومع ذلك كله عفا عمن أساء إليه منهم، وصبر على أذاهم، "عن عائشة أنها قالت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: هل أتى عليك يوم أشدَّ من يوم أحد؟ قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك مَلَك الجبال، لتأمره بما شئت فيهم، فناداني مَلَك الجبال، فسلم علي، ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أُطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئاً"[٣١]، و"الأخشبان: جبلا مكة وهما: أبو قبيس والأحمر، وجبلا منى"[٣٢]. ومن عظيم خُلُقه صلى الله عليه وآله وسلم أن مدحه المولى سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[٣٣].

فإذا كان رفقه صلى الله عليه وآله وسلم بمن طردوه وآذوه هكذا... فكيف يكون بأهل الإسلام؟.. إنه

يرفق بهم وييسر عليهم ويعلمهم ما يصلح حالهم ويصبر عليهم ويرحمهم ويبيّن لهم أحكام الدين بالحكمة واللين، والأمثلة في هذا المجال كثيرة، منها:

ما حصل مع الأعرابي الذي بال في المسجد، فقام الصحابة للومه وتعنيفه، ولكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تدارك الموقف وأمرهم بتركه وصب الماء، وذكرهم أن يتعاملوا بالتيسير لا بالتشديد، فقال لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "دَعُوهُ وهَرِيقُوا على بولِه سَجْلاً من مَاء أو ذَنُوباً من مَاء، فإنما بُعثتم مُيسِّرِين ولم تُبعثُوا مُعسِّرِين"(٣٤).

وكان عليه الصلاة والسلام يُعَلِّمُ الخير وقول الخير، وما يقوله المسلم بعد انصرافه من الصلاة اعترافاً بفضل الله وإقراراً بالعبودية له، ومنعاً من فضول الكلام والغيبة والنميمة وأكل لحوم الآخرين والقيل والقال... وكان عليه الصلاة والسلام يُعَلّمُ الصحابة كيفية التعوّذ من فتن الدنيا، كي لا يقعوا بها، "عن سعد بن أبي وقاص قال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعلمنا هؤلاء الكلمات، كما تُعَلَّمُ الكتابة: اللهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن نردّ إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر"(٣٥).

وبناء على ما سبق، فالتربية الإسلامية هي المحاولة الجادة لتنشئة الإنسان الكامل، ليدرك مسؤولياته الفرديّة وعلاقاته الاجتماعيّة وسائر مهمّاته، مستندة في مفاهيمها ومبادئها وقِيَمِها إلى القرآن الكريم والسنّة المطهرة. وهي ضرورة حتمية لتحقيق الإسلام كما أراده الله أن يتحقق، حيث تعمل على فكر الإنسان وتنظيم سلوكه وعواطفه على أساس الدين الإسلامي بقصد تحقيق أهداف الإسلام في حياة الفرد والجماعة، أي في كل مجالات الحياة... ولكن ما الميادين التربوية التي تساعد في بناء هذه الشخصية؟ هذا ما سأذكره في الفصل الثاني.

الفصل الثاني : الميادين التربوية لإثراء العلوم الإنسانية ونشرها

مقدمة :

إن العلوم الإنسانية اهتمت بالإنسان بوصفه كياناً متكاملاً،بحسب حاجاته،ومراحل نموه واستعداداته وقدراته،منذ طفولته إلى رشده وحتى خاتمة حياته. فالإنسان في طفولته مثلاً "تغلبه حاجات الجسد،بينما تقلّ مطالب العقل.. فهو يسعد إذا كان في حاضره ما يسعده،ويبكي إذا كان في حاضره ما يؤلمه،وليس له فيما قبل الحاضر أو بعده تفكير"[٣٦]. "فيرتكز إدراك الطفل – إلى حدّ كبير – في حاضره الراهن"[٣٧] فقط، لأنه لا يفهم ولا يعقل إلاّ الأمر المحسوس أمامه.

والإنسان الناضج في الإسلام "مخلوق مسؤول أمام الله،بحكم الاستخلاف الذي كرّمه به ربه يوم خلقه واستخلفه. وهو قادر على القيام بمهام هذا الاستخلاف،بحكم ما منح من عقل"[٣٨]، وروح ليُحَاسَب بعد ذاك على حُسن اختياره وإساءته. والعلوم الإنسانية تساعد الفرد على أن ينمو وفق قدراته واستعداداته وظروف الحياة في مجتمعه. وتهدف إلى تنمية القوى والطاقات لدى الإنسان،قوى الجسد والعقل والروح[٣٩]، وذلك حتى يصبح عضواً مؤثراً في المجتمع،وقد امتلأت جعبته بأسلحة الكفاح في الحياة الاجتماعية،على أساس المعرفة الصحيحة.

"فكل ما يساعد على صقل الفرد،وإخراجه بالشكل الذي ينتهي إليه جزء من التربية"[٤٠]، وعندها يصبح "الشخص المتزن،الذي يزن الأمور بميزان العقل[٤١] ولا يندفع وراء شهواته"[٤٢]، فطبيعة "العقل الإنساني يميل إلى التنظيم"[٤٣] في كل ما يتعلّمه ويتعرّفه. ولكل إنسان أهداف ومبادئ تساعده على توجيه حياته وتكييف سلوكه "ولكي يعتبر الإنسان نفسه فرداً في صورة مرضية ينبغي أن يكون له في الحياة أسلوبه الخاص الذي يميّزه من غيره،والذي يتمثل في مجموعة من المثل والقيم التي يتخذها لنفسه أو يسير على منهاجها طوعاً"[٤٤]. فإذا انعدمت هذه المبادئ والمثل،تفقد الحياة الشخصية دوافعها ومعانيها،وتصبح غير منتجة[٤٥].

أما القيم فهي تمسّ العلاقات الإنسانية بصورها كافة،و"ذلك لأنها ضرورة اجتماعية،ولأنها معايير وأهداف لا بدّ أن نجدها في كل مجتمع منظم سواء أكان متأخراً أم متقدماً،فهي تتغلغل في الأفراد في شكل اتجاهات ودوافع وتطلعات،وتظهر في السلوك الظاهري الشعوري واللاشعوري،وفي المواقف التي تتطلب ارتباط هؤلاء الأفراد،وتعبر القيم عن نفسها في قوانين"[٤٦]، وهي لا يمكن أن تُفرَض على الفرد، بل تُكْتَسَبُ من البيئة والمحيط والمجتمع الذي يعيش فيه.

والقيمة "عملية تقويم يقوم بها الإنسان وتنتهي هذه العملية بإصدار حكم على شيء أو موضوع ما أو موقف ما"[٤٧]، أو هي عبارة عن "تنظيمات لأحكام عقلية انفعالية مصممة نحو الأشخاص والأشياء والمعاني وأوجه النشاط"[٤٨]، وهي "تُعرَفُ دائماً بحسب الرغبة"[٤٩]. إذ تعبر "القيم عن أشياء مرغوب فيها"[٥٠]، والأفراد والمجتمعات بها حاجة إلى نظام معين من القيم يعيشون به،لأن الإنسان بحاجة للشعور بالطمأنينة والسلام التي تبعثها فيه المبادئ والقيم.

ولكل نوع من القيم دور في حياة الإنسان والمجتمع "فالقيم الدينية طاقات للعمل الجماعي،والقيم الاجتماعية من تقاليد وأعراف تنسق بين أعمال أفراد المجتمع،وتضبطها وتوحد بينها وتؤلف من ذلك وحدة اجتماعية،والقيم الأخلاقية كالعدالة والمساواة والتعاون"[٥١]، لها دورها في تماسك المجتمع وسعادته وبعده عن الفوضى والشقاء والأنانية والظلم،وإذا فقدت الأشياء قيمتها بالنسبة لفرد ما،فقدت الحياة معناها وأصبح يعيش مع الأحياء وهو أقرب في الواقع إلى الأموات.

والجدير ذكره أن القيم التي تسود العالم الآن هي في الغالب قيم ماديّة،فلقد شُغِلَ بأمور الطعام والشراب والملبس والجنس وأغفل القيم الروحية والاجتماعية.. مما انعكس في صورة قلق نفسي وضياع وأمراض،لا يمكن التخلص منها إلاّ بإعادة التوازن والتكامل بين شتّى أنواع القيم المادية،والاجتماعية،والأخلاقية،والروحية.. الخ. ولا يمكن أن نغفل جانباً من جوانبها أو ننمي جانباً ونترك آخر.. وكل ذلك يمكن تحقيقه من طريق ميادين تربوية عدّة لإثراء العلوم الإنسانية ونشرها،من أهمّها:

الميدان الأول: التربية الروحية (العقائدية):

إن الحالة القلقة التي تعيشها الإنسانية اليوم ناتجة عن فقدان الوحدة والاتزان في حياة الإنسان،فقد نشاهد أناساً يتجاهلون الحياة الروحية، وسرعان ما يتسرّب إلى نفوسهم اليأس والملل. وترتبط الروح بالهدف الديني للإنسان،الذي يُعد "مصدر كل معنى للحياة،ووراء اعتقاد الفرد تكمن القيم التي يدافع عنها عن عاطفة،والأهداف التي يكافح بإخلاص لتحقيقها"[٥٢]. فالدين نزعة فطرية لدى الإنسان،وقد جبله الله تعالى على التدين،فهو في حاجة ماسّة إلى من يهديه سواء السبيل باتباع دين التوحيد الحق،وهو الدين الإسلامي الحنيف. وحاجة البشرية إلى الدين والإيمان والعقيدة حاجة طبيعية لا يمكنها أن تستغني عنها مطلقاً،مهما بلغت من النهضة الفكرية والتقدم العلمي والتطور التكنولوجي،ذلك لأن كل ما يصنعه الإنسان غير كامل وغير ثابت،وهو خاضع للتغيير والتبدل المستمر،ولا غنى للإنسان عن إشباع حاجته إلى الإيمان بالكامل المطلق القادر المالك لكل شيء،وهو الله عزّ وجلّ.

١- الحاجة إلى الإيمان والعقيدة:

لا يستطيع الإنسان أن يعيش من دون عقيدة يؤمن بها.. والتربية الروحية (أي العقائدية)،تعلّم الإنسان أن الإيمان بالله تعالى هو الذي يحرره من رِبْقة العبودية للمادة أو مطالب الذات الإنسانية الجسدية أو العقلية،وهذا الإيمان هو "الأساس،لأنه تربية صحيحة"[٥٣]. فمن دون عقيدة يفقد الإنسان راحته النفسية والعقلية،ويصبح وجوده من دون معنى،وحياته بلا غاية. والعقيدة هي "ما عقد عليه القلب والضمير،وما دان به الإنسان واعتقده،والجمع: عقائد.. وعقيدة الإنسان: مذهبه باختصار،أي هي ما يؤمن به،ويراه عن اقتناع قلبي أكيد،وعلى أساس هذا الذي يؤمن به ويراه، يذهب في حياته،أي يسير ويسلك"[٥٤]. فنزعة التدين نزعة فطرية في الإنسان، قال الله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٥٥].

والإيمان له آثار إيجابية في جميع مقوّمات النفس والحياة، ومنها: الصحة النفسية والعقلية والخلقية، ومن أقوال أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام في هذا الصدد :

"من عرف الله سبحانه لم يشقَ أبداً.

التوحيد حياة النفس.

الإيمان أمان.

من عدم الفهم عن الله سبحانه لم ينتفع بموعظة واعظٍ.

بالإيمان يستدلّ على الصالحات"[٥٦].

والإنسان فيه "حاسة روحية،تتلمس آفاق النور دائماً"[٥٧]، حيث "يولد الإنسان وبه إيمان فطري بوجود قوة خفية تسيطر عليه وعلى الحياة حوله،قوة يفزع إليها عند الحاجة،ويطمئن بوجودها في حياته"[٥٨]، "وهذا الإيمان قد يبقى بمنأى عن كل ارتياب،وكأنما هو يستمد قوته من مصدر علوي،هيهات أن تزعزعه الشكوك"[٥٩]. ويتوجه إليه بعبادته وخضوعه وتقربه،فيمنحه الخير،ويُعينه في الشدائد والمحن،ويحفظه من الشرّ ويلجأ إليه وقت الضيق والكروب...

وهذا ما أدركه الغزالي[٦٠] رحمه الله،واعتبره ميزة شرف وفضيلة للإنسان حيث قال: "فشرف الإنسان وفضيلته التي فاق بها جملة من أصناف الخلق باستعداده لمعرفة الله سبحانه،التي هي في الدنيا جماله،وكماله،وفخره،وفي الآخرة عدّته وذخره"[٦١].

والتربية الروحية تعمل على "تثبيت العقيدة الدينية،وتربية الضمير،وتنمية الوازع الديني،وممارسة النشاط الروحي،والتهذيب الخلقي،وممارسة فعلية لشعائر الدين،والفضائل وممارستها،والبعد عن التعصب والجمود والاتكالية والتزمت،والتكامل بين الإيمان والعمل الصالح والإخلاص وأداء الواجب والإنتاج المثمر وإنكار الذات"(٦٢).

٢- مفهوم التربية الروحية:

التربية الروحية تؤثر في شخصية الفرد تأثيراً كبيراً،فتجعله ميالاً إلى الخير،متحلياً بالصفات الحميدة،ملتزماً الخلق الكريم،محباً للتعاون.. مستعيناً بالله عزّ وجلّ الذي يؤمن به،ويثق في عونه وهدايته وتوفيقه. من هنا يتجلى أثر مفهوم التربية الروحية بأنه "ترسيخ القوى الروحية لدى الناشئين،وغرس الإيمان في نفوسهم إشباعاً لنزعتهم الفطرية للتدين،وتهذيب غرائزهم والسمو بنزعاتهم،وتوجيه سلوكهم على أساس القيم الروحية والمبادئ والمثل الأخلاقية،التي تستمد من الإيمان الصحيح بالله عزّ وجلّ،وملائكته،وكتبه،ورسله ،واليوم الآخر،والقدر خيره وشره"(٦٣).

عندها تصفو أرواحهم،وتستنير عقولهم،وتستقيم أخلاقهم.. لأنهم يشعرون بأن الله معهم في كل وقت.. فهو يراهم،فيخافونه ويرجونه،ويتوكلون عليه ويحسنون الظنّ به...

وبناء عليه يمكن استنتاج ما يأتي:

أ- إن التربية الروحية تعمل على تنمية الشخصية الإنسانية تنمية شاملة.

ب- وهي مصدر الإيمان بالله وتوحيده.

ج- إنها تؤمّن للنفس سكينتها وطمأنينتها.

د- وتزكي الأخلاق،وتحلّيها بالفضائل والقيم والمثل العليا.

هـ- وتمنع الجوارح من الوقوع في المعاصي والفواحش. قال رجل للإمام الصادق عليه السلام: أوصني، فقال له: "لا يراك الله حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك"(٦٤).

و- وتحسن العلاقة الاجتماعية مع الآخرين،وتنشر المحبة والتعاون..

وبذلك تكون التربية الروحية حقاً عماد التنشئة المتكاملة،ومن دونها لا يستقيم بناء الشخصية الإنسانية التي تصبح معرّضة في كل وقت للخلل والاضطراب نتيجة لأبسط الهزّات وأهون الأزمات.

٣- أهمية التربية الروحية:

تتجلى هذه الأهمية بأمرين: الأول: ترسيخ دعائمها في النفوس. والثاني: بيان آثارها الإيجابية.

الأمر الأول: ترسيخ دعائم التربية الروحية في النفوس: ويتم ذلك بوسائل عدة،منها:

أ- غرس الفضائل والمبادئ والقيم والأخلاق منذ الصغر،وإبراز آثارها الإيجابية في حياة الفرد والجماعة.

ب- إظهار مساوئ الرذائل وسفاسف الأخلاق،والحث على تجنبها لآثارها السلبية السيئة على الفرد والمجتمع.

ج- التدريب على العبادات[٦٥]، فمن شَبَّ على شيء شاب عليه.

د- حسن اختيار الأصدقاء.

هـ- المعاملة باللين والرفق،واتباع أسلوب التيسير،والبعد عن أسلوب التعسير.

و- بيان عظيم قدرة الله تعالى،وبيان نعمه وفضله...

ز- تفسير معاني الإسلام،ليبني إيمانه عن يقين قاطع وعقيدة راسخة.

ح- تدبر فطرة الإنسان على أسس الخير والإحساس بالمسؤولية ويجب أن ينميها في حياته ويلتزم بها في سلوكه وتصرفاته.

الأمر الثاني: بيان الآثار الايجابية للتربية الروحية: وهي بالغة الأهمية في تكوين الشخصية السوية المتزنة المتكاملة[٦٦]، فمن أهمها:

أ- غرس معاني الإخلاص لله تعالى في نفس المؤمن،وذلك بأن تكون نواياه وأقواله وأعماله خالصة لله تعالى[٦٧].

ب- ترسيخ ثقة المؤمن في الله تعالى،بحسن توكله واعتماده عليه،وتفويض أمره إليه،والاستعانة به،واللجوء إليه،وحسن الظن به.. مع الأخذ بالأسباب لمواجهة مختلف الأمور.

ج- التزام المؤمن أوامر الله ونواهيه،ومراعاة حدوده.. وجعل ذلك منهجاً يستقيم عليه طوال حياته.

د- التقيد بالكتاب والسنّة في السرّ والعلن،وفي النية والعمل،وفي الغاية والوسيلة،وفي الدّين والدنيا[٦٨].

هـ- الحماية من الوقوع في المعاصي وذلك بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.

وبقدر ما يلتزم المسلم بهذه الأمور،بقدر ما تكون حياته مؤسسة على النقاء والعفاف،ومبنيّة على الرّشد والاستقامة،محصّنة ضدّ التفكك والانحراف ومحميّة من الفساد والضّياع والضّلالة.

٤ – أهداف التربية الروحية:

إن الجانب الروحي للإنسان له قيمته في حياة الإنسان وفي سلوكه، ولقد حرص الإسلام على نقاء هذا الجانب وعلى طهارته بحيث يسمو بالإنسان فوق رغائب المادة وأغلالها. والقيم التي تستمد التربية الروحية أهدافها منها تتعلق بالله تعالى – المثل الأعلى – وأولها: قيم الإيمان: "قال رجل: يا رسول الله،أي الذنب أكبر عند الله؟ قال: أن تدعو لله نداً وهو خلقك"[٦٩].

وثانيها: قيم الإحسان: وهي تبدو جلياً في السمو الروحي وإرهاف الحسّ وتهذيب الشعور،عندما يتنبه المسلم على مراقبة الله تعالى له،فيلزم نفسه بمراقبة أعماله وأقواله لأنه على يقين من أن الله تعالى مطّلع عليها،عالم بأسرارها قائم عليها وعلى كل نفس،يحصي لها أعمالها. وبذلك تصبح نفس المسلم مستغرقة بملاحظة جلال الله وعظمته،شاعرةً بالطمأنينة في ذكره،مرتاحةً في طاعته،راغبةً في جواره،مقبلةً عليه،معرضةً عما سواه.

وثالثها: قيم الخلود والثواب: على ما قدم الإنسان الصالح من عمل متوجهاً به إلى إرضاء الله وحده. قال الله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (٧٠).

قال أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: "اجعل همك لمعادك تصلح. ومن اكثر من ذكر الآخرة قلّت معصيته"(٧١).

ورابعها: قيم ممارسة شعائر الدين: بأداء الفرائض. قال الله تعالى: ﴿ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾(٧٢).

من هذه القيم وغيرها،يمكن أن تُشتق أهداف "تربية الروح وصقل النفس وتهذيب الشعور وإرهاف الحس وكلها أهداف تسعى التربية لبلوغها وتعمل على توفير الوسائل الكفيلة بتحقيقها"(٧٣).

وهذه التربية الروحية تعمل على:

أ – السمو الروحي للإنسان:

إن الإيمان بالله سبحانه وتعالى فيه "تسام وحرية وطمأنينة نفسية،وفي العزوف عن الإيمان عبودية لمعبود محدود وفوضى عقائدية"(٧٤). وفي الإيمان بالله تعالى وذاته وصفاته وصلته بخلقه تربية روحية للإنسان على الصفات الحميدة التي يتصف بها سبحانه وتعالى،وللإنسان المؤمن نصيب منها كي يستمد مقومات سلوكه الفاضل،والبعد عن ارتكاب المعاصي والدنايا.

والتربية الروحية توضح للإنسان كيفية ممارسة الشعائر الدينية ممارسة فعلية،ومن طريقها يتغلب على التعلق بالشهوات والملذات والتمركز حول الذات،"ويتحول الاهتمام من الذات سعياً وراء الذات الأخرى موضع التقدير"(٧٥).

وهكذا يكون السمو "فالنفس المؤمنة تُميت الهوى وتجعله تابعاً لإرادتها فتقضي على الرذيلة"(٧٦). وعندما تشعر بعظمة الله تعالى لا يمكن لها أن تتكبر أو تغتر أو تحسد الآخرين أو تحقد عليهم. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرّه"(٧٧).

وتستهدف التربية الروحية بالسمو الروحي "أن يكون الفرد المسلم أنموذجاً للدين الذي يدين به ويدعو إليه،ونمطاً حياً متحركاً للفكر الإسلامي الذي يملأ قلبه وعقله ويصدقه سلوكه في الحياة مع نفسه أو مع الآخرين"(٧٨). قال الإمام علي عليه السلام: "عليك بالإحسان فإنه أفضل زراعة وأربح بضاعة"(٧٩).

ب – صيانة القيم الإنسانية:

القيم بأنواعها إنسانية،وهي لا تخضع للقياس المادي،والتربية الروحية تؤكد دوماً على أن الإسلام "لا يفصل بين الواقع والمثال بل يمزجهما مزجاً محكماً"[٨٠]، ليبرز الترابط بين القيم الإنسانية وبين التوجه بكل عمل لله تعالى،عندها يظهر دور التربية الروحية في صيانة القيم التي توجه حياة الإنسان إلى الأفضل دائماً،"وتعمل القيم بوعي أو بدون وعي كجزء من المؤثرات التربوية والاجتماعية في سلوك الإنسان والقرارات التي يتخذها والمنجزات التي ينجزها"[٨١].

فالإنسان "يولد وهو مهيأ لطريق الخير إذ إنه مزوّد بالعقل والقلب وأدوات المعرفة التي يستطيع باستخدامها الاستخدام السليم،دون ميل إلى هوى أو شهوة،أن يصل إلى الحقيقة"[٨٢]. فيعلم معنى الحياة وقيمتها ومعنى الكون ومكانته فيه،ويعلم "أن السعادة في الدارين عن طريق التعقل والتدبر والتفكير السليم"[٨٣]. وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يستخدم عقله من أجل الوصول إلى حقائق الإيمان بالله،فكان "يرتاد غار حراء فيقضي فيه وقتاً منعزلاً عن العالم منصرفاً إلى التأمل الروحي"[٨٤].

أما النشاط الروحي،من العبادات والشعائر الدينية،فيمثل الترجمة الواقعية لسلامة العقيدة والإيمان الذي يتكون من جانبي القول والعمل معاً،"فالصلاة – وهي عماد الدين – نوع من التربية البدنية والروحية معاً،والزكاة هي تطهير النفس والمال،وحج بيت الله الحرام تعويد على السفر والرحلة وتربية على تحمل المشاق ورياضة الجسم،وفي الصوم صبر وزكاة للنفس وكف الجوارح عن الأذى وتدريب على تقبل المكاره والمتاعب"[٨٥]. وما كانت العبادات لحاجة الله إليها،ولا لمجرد التقرب إلى الله سبحانه وتعالى حتى يكون ذلك التقرّب ولو بظاهر من القول غرضاً مقصوداً "إنما كانت العبادات لتربية الضمير الديني اللوام"[٨٦].

وبناء عليه،يمكن اختصار أهداف التربية الروحية فيما يأتي:

أ- غرس العقيدة السليمة في نفس المسلم.

ب- توجيه المسلم إلى الإخلاص لله تعالى في أقواله وأفعاله وأعماله ونيّاته.

ج- تنبيه المسلم على مراقبة الله تعالى له،فيراعيه في كل حركاته وسكناته،محسناً في كل شيء يقوم به لا يبتغي إلا مرضاة الله تعالى.

د- تنمية حب المؤمن لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والاقتداء به،واتباع هديه.

هـ- ترابط العلوم الدنيوية بالعلوم الدينية،وكل يكمل الآخر.

و- إكساب المسلم الفضائل والقيم الأخلاقية،والعواطف الإنسانية السّامية.

ز- الابتعاد عن الوقوع في المعاصي والفواحش،والانصياع لمطالب الغرائز والأهواء.

وبذلك يتضح أن التربية الروحية،المبنيّة على الإيمان الكامل،واليقين الصادق،والإخلاص التام لله تعالى،إنما هي حصن للفرد والجماعة من أذى المنكرات والفواحش،ومضار المعاصي والموبقات،وهي مصدر سعادتهما وفلاحهما في الدنيا والآخرة.

وهكذا تقدم التربية الروحية ما يسهم في بناء الشخصية المسلمة،التي أرادها الله للإنسان يوم استخلفه في الأرض،وهي ليست الجانب الوحيد في التربية الإسلامية،بل تتعاون مع الجوانب الأخرى وتتكامل مع التربية العقلية،والتربية الخلقية،والتربية الجسمية،والتربية الاجتماعية...

الميدان الثاني: التربية العقلية:

تهتم التربية العقلية بتربية العقل ونموه من خلال التغيرات التي تطرأ على تصور الإنسان وإدراكه وفهمه.. لذلك لا بدّ من بيان مفهومها،وأهميتها،وأهدافها.

١- مفهوم التربية العقلية:

للعقل أهمية كبرى في حياة الإنسان من حيث إنه "قوة مدركة في الإنسان خلقها الله فيه،ليكون مسؤولاً عن أعماله"[٨٧]. وقد جاء من معاني العقل: هو "العلم بصفات الأشياء،من حسنها وقبحها،وكمالها ونقصانها،أو العلم بخير الخيرين،وشرّ الشرّين،أو مطلق الأمور"[٨٨].

وهو "من أجلِّ نِعَم الله على الإنسان،وأنفع القوى الفطرية التي أودعها الله فيه"[٨٩]، ومن ثم فهو طريق الإنسان إلى الله. والعاقل هو الجامع لأمره ورأيه...

وبعد تعرف الله،وحقيقة النفس،جاء تعرف الكون الذي خلقه الله من أجل الإنسان وسخره له ليؤدي حق الخلافة في الأرض. إذاً التربية العقلية في منهج الإسلام تهتم بتزويد العقل "بالمعلومات والمعارف التي تساعد على تكوين الإنسان المسلم العابد الصالح،عنايتها بتربية الجسد وتربية الروح بهدف إيجاد الشخصية المسلمة المتكاملة،التي تسهم في بناء المجتمع المسلم"[٩٠].

٢- أهمية التربية العقلية:

تتجلى هذه الأهمية ببيان الأساليب التي تحقق التربية العقلية،وهي:

أ- طلب العلم ونشره:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[٩١]. وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "من يرد الله به خيراً يفقهه". "وإنما العلم بالتعلم"[٩٢]. فالعلم جماع الخير وعنوان توفيق الله تعالى ورضاه. وقال عليه الصلاة والسلام: "من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة،وإن الملائكة لتضع أجنحتها

لطالب العلم رضى بما صنع.." (٩٣).

والعلم الإسلامي "غذاء العقل،وهو ليس علم الدين وحده،وإنما علم الدين والدنيا على السواء... وهو واسطة لمعرفة الخالق،كما أنه واسطة لمعرفة الأشياء والقوى الطبيعية واستخدامها في مصلحة الإنسان"(٩٤). ويستمد العلم الإسلامي أصوله من ذات الله وصفاته،فهو "العلم بحقيقة الوجود،وبحقيقة الإنسان"(٩٥). والعلم والحكمة في الإسلام لا يقصد بهما "علم الدين وحده،رغم شرفه ووجوبه على كل مسلم ومسلمة،وإنما هو يتعداه إلى علم الدنيا أيضاً،لأن المسلم بهذا العلم يستطيع أن يقوم برسالته التحضيرية"(٩٦). "فالعلم هو وحده القادر على تحقيق إنسانية الإنسان،ورفعه إلى الدرجة التي يكون بها مستحقاً ذلك التكريم الذي كرّمه به ربّه حين استخلفه"(٩٧).

ب – التفكير:

إن التفكير من أهم الخصائص التي تميز بها الإنسان من سائر الكائنات،وهو "العملية التي ينظم بها العقل خبراته بطريقة جديدة لحل مشكلة معينة،أو هو إدراك علاقة جديدة بين موضوعين أو بين عدة موضوعات بغض النظر عن نوع هذه العلاقة"(٩٨). والواقع "أن التفكير اصطلاح عام يشمل كل أنواع النشاط الرمزي"(٩٩). ومقدرة الإنسان على التفكير "أمر هام في الميدان التربوي،فهي تميز الإنسان بصفة عامة عن الحيوان.. وتساعده على أن يعرف ما يفعله والوقت الذي يفعله فيه"(١٠٠). ويمكن تناول التفكير على أساس كيفية تربية العقل في صورتين: التفكير التأملي والتفكير العلمي.

ج- القراءة ودورها في تربية العقل:

إن الأساس الإسلامي للتربية العقلية هو القراءة، القراءة لكل ما في الكون من خلق الخالق،والقراءة لكل ما سبق من أنماط الحياة في المجتمع الإنساني،القراءة التي تكسب عقل الإنسان فهماً وإدراكاً واعياً لما يدور في الحياة،فالقراءة هي غذاء العقل مثلما "كان الطعام والشراب هما غذاء الجسد،ومثلما كان الإحساس بالقرب من الله وسلوك السبل إليه هما غذاء الروح"(١٠١).

ولا بد لثبات العلم من التطبيق العملي، فالعالم إذا لم يعمل بعلمه لا ينتفع الناس بقوله ورأيه. قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: "إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلّت موعظته عن القلوب كما يزلّ المطر عن الصفا"(١٠٢).

٣- أهداف التربية العقلية:

ترمي التربية العقلية إلى تحقيق جملة من الأهداف البناءة،أهمها:

أ- تزويد المسلم بالمعلومات والمعارف التي تساعده على تكوين شخصيته السوية المتزنة المتكاملة.

ب- إتقان القراءة والكتابة،والإلمام بالعلوم واللغات.

ج- الاستزادة من العلم والمعرفة،مما يساعد على النمو العقلي والنضج الفكري وتكامل الإدراك والفهم.

د- الكشف عن الاستعدادات والقدرات العقلية،وشحذها وتهذيبها وصقلها وتنميتها،حتى تبلغ النضج والاكتمال والجودة... مما يفيد الفرد والأسرة والمجتمع.

هـ- الاستفادة من الخبرات والتجارب.. من أجل المشاركة الإيجابية في بناء الحياة الصالحة.

و- عدم التقليد الأعمى،وعدم اتباع العادات الدخيلة،والتقاليد البالية.

ز- تنمية حب الاستطلاع وتحري الحقائق لمتابعة كل جديد،ومواكبة التقدم والتطور.

ح- اتباع أسلوب التفكير العلمي،لحفظ التراث الحضاري ونقله من جيل إلى جيل.

الميدان الثالث: التربية الخلقية:

إن التربية الإسلامية تفسر الحياة تفسيراً واقعياً،توسع من ميدان الإنسان،لتحقق أهدافه ومصالحه وغاياته في الدنيا والآخرة. لذلك،تعهدت الإنسان بتربية أخلاقية خاصة ترتكز على العقيدة الإسلامية،وتنطلق منها،إذ إن "العقيدة بلا أخلاق ساحل لبحر لا ماء فيه،فلا هو بحر ينفع،ولا هو برّ يعمر ويزرع"[١٠٣]. وقال النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم: "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق"[١٠٤].

ويقول الإمام علي عليه السلام: "حسن الأخلاق برهان كرم الأعراق"[١٠٥]. فحسن الأخلاق كاشف عن حسن العروق والأصول.

ولكن ما مفهوم التربية الخلقية؟

١- مفهوم التربية الخلقية:

يتميز الإنسان من سائر الحيوان بالميل الفطري إلى الأخلاق،وبالتزامه الذاتيّ بقواعد وقيم ومعايير أخلاقية ومبادئ معينة يراعيها في شتى المواقف والاتجاهات... وتحتل التربية الخلقية المرتبة الثانية بعد الإيمان بالله تعالى،بل هي أهم ثمرات الإيمان الصحيح،إذ لا يتمّ إيمان المسلم ولا يكتمل إسلامه إلاّ إذا صلحت أخلاقه،وسمت وزكت وترفع بها عن الدنايا والرذائل والمعاصي والنقائص.

٢- أهمية التربية الخلقية:

تظهر هذه الأهميّة بأمرين: الأول: الخصائص التي تميزها. والثاني: الطرق الإيجابية التي تتبعها.

الأمر الأول: الخصائص التي تميزها: من أهمها: الشمول، والتوازن، والواقعية، والعملية.

الأمر الثاني: الطرق الإيجابية التي تتبعها: من أهمها: القدوة الحسنة، والموعظة بالحكمة، وضرب الأمثال،

والترغيب والترهيب.

٣- أهداف التربية الخلقية:

من أهمها ما يأتي:

١- تحقيق الهدف الأخلاقي: ويدخل في نطاقه "كل سلوك إرادي صادر من إنسان راشد"[١٠٦]. ولذا فهدفها هو تنمية السلوك الأخلاقي،على أساس شموله لما ينظم علاقة الفرد بنفسه أو بالناس،أفراداً أو جماعات،أو بالكون،أو بالخالق،وتهدف من ذلك إلى سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة.

٢- إصلاح ما بين الفرد وربّه عزّ وجلّ،وذلك بإصلاح سريرته وعلانيته وبناء استقامته الخلقية على مراقبته الدائمة لله تعالى وكأنه يراه،وإحساسه بحضوره الدائم معه،وإخلاص الطاعة والعبادة له.

٣- تحقيق التقوى، لأنها أساس الأخلاق الإسلامية.

٤- ترقية السلوك الإنساني وترشيده،وجعله مجسماً للقيم والمبادئ والمثل الدينية والخلقية العليا،دائراً في فلكها حافظاً لها.

٥- تكوين الرقيب الأخلاقي الذاتي النابع من ضمير الفرد،والموجه لسلوكه والضابط لتصرفاته،والمحاسب له على أخطائه وذنوبه ومعاصيه.

٦- تقوية إرادة المسلم،وإحساسه بمسؤوليته الذاتيّة في تهذيب غرائزه ودوافعه.. وإشباعها بالطريق السويّ المشروع.

٧- تعويد المسلم على المعاملة الحسنة،وغرس الأخلاق والآداب الفاضلة وترسيخها في نفسه.

٨- تنمية الشعور بالمسؤولية تجاه الجماعة،وصون عقيدتها ونظامها الأخلاقي وكيانها الاجتماعي من مختلف عوامل التفكك والانحلال.

٩- تكوين الجماعة الفاضلة التي تأمر بالمعروف،وتتناهى عن المنكر،وتتعاطف وتتراحم وكأنها جسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد،وكأنها بنيان مرصوص يشدّ بعضه بعضاً.

فالتربية الخلقية تهدف إلى تربية الإنسان المسلم باعتباره حضارياً،وحضارته أخلاقية بالدرجة الأولى،وبفضل أخلاقيتها،استمرت ودامت،وآثرت وتأثرت.

الميدان الرابع: التربية الجسمية:

مفهوم التربية الجسمية:

لا تستقلّ التربية الجسمية عن الجوانب الروحية والعقلية والوجدانية،وإنما هي ترتبط بها ارتباطاً وثيقاً،فالجسم "مجرّد جانب من جوانب الذات الإنسانية،والتربية تهتم بالجسد على هذا الاعتبار،وليس على أساس الثنائية،وإنما من قبيل الواقعية"(١٠٧).

ومعنى هذا أن الذات الإنسانية أعمّ وأشمل من الجسد ومن "النفس ومن العقل ومن الروح،حين تذكر كل منها على حدة"(١٠٨).

وتأتي أهمية الجسم،من أنه يكتسب فاعليته ودوره باتصاله وتلاحمه مع أجزاء الشخصية الإنسانية الأخرى،وذلك أن الجسم أداة للقيام بجميع التكاليف الشرعية،فالصلاة بأركانها وسننها لا يمكن أن تؤدى منفصلة عن الجسم حتى في حالات العجز القصوى فإنها تؤدى بواسطته على النحو الذي يستطيعه الفرد،وكذلك الصيام والحج وسائر أنواع العبادات المفروضة والنافلة...

٢- أهمية التربية الجسمية:

وتتجلى هذه الأهمية فيما يأتي:

أ- الاهتمام بالنّمو الجسمي:

إن جسم الإنسان من المقومات الأساسية في تكوين شخصيته،لذا كان النمو الذي يطرأ على الجسم من الأهمية بمكان،وهذا النمو ليس مهماً في ذاته بقدر ما هو مهم من حيث تأثيره غير المباشر على شخصية الإنسان وقدراته وسلوكه. ويقصد بالنمو الجسمي،التغيرات في الأبعاد الخارجية للإنسان كالطول والعرض والوزن والاستدارات وغيرها.. والنّمو نظام متكامل من كل الجوانب فهو "مجموعة من التغيرات المتتابعة التي تسير حسب نظام متكامل والتي تظهر في كل من الجانب التكويني والجانب الوظيفي للكائن الحي"(١٠٩).

وقد قسمت المرحلة النمائية إلى داخلية - التي لا تخضع للملاحظة البصرية - وخارجية - التي تخضع للملاحظة البصرية -. وتتمثل أهم المظاهر الداخلية للنّمو في: نمو المعدة، ونمو القلب، ونمو الغدد الجنسي ة،والنخامية،والصماء،والدرقية...

أما أهم المظاهر الخارجية للنّمو فتتمثل في: نمو الجسم، نمو العضل.

ويتأثر نمو الجسم بنوع الغذاء الذي يتناوله وكميته،لذلك لا بدّ من الاهتمام بالتغذية.

ب- الاهتمام بالتغذية:

الغذاء ضروري لحياة الإنسان فهو يؤثر تأثيراً مباشراً على صحته وقدرته على العمل والحركة،فبالغذاء يستطيع أن يستمر في حياته،وإذا لم يتناول طعاماً فإنه يموت. وهو العامل الأساس لتزويده بالطاقة اللازمة لأنواع النشاطات التي يمارسها،كما ويعطيه مناعة طبيعية ضد الأمراض المختلفة التي قد يتعرض لها في رحلته مع الحياة،وتتم هذه المناعة بواسطة العمل المميز للفيتامينات. "وقد حدّد علماء الطب والتغذية الشروط الواجب توافرها في الغذاء الكامل فيما يأتي:

أ- أن يكون محتوياً على جميع المركبات الغذائية الأساسية وهي المركبات النشوية والبروتينية والدهنية والمعدنية.

ب- أن يحتوي على جميع الفيتامينات اللازمة لنمو الجسم والواقية له.

ج- ينبغي أن يكون مقداره مناسباً لعمر الإنسان والعمل الذي يؤديه.

د- أن يكون نظيفاً غير ملوث بجراثيم الأرض.

وقسمت الأغذية إلى خمس مجموعات:

أ- الأغذية الكربوهيدراتية المولدة للطاقة والنشاط والحرارة والقدرة على الحركة،وهي: الخبز والأرز والمعكرونة والحلوى والعسل.

ب- الأغذية البروتينية التي تقوم بعبء تكوين الخلايا والبناء والنمو. وتشمل: اللحوم ولحوم الدواجن والأسماك والبسلة الخضراء والفاصوليا الجافة والفول والعدس.

ج- الخضروات التي تؤكل مطبوخة،وهي مصدر للمركبات المعدنية والفيتامينات والألياف.

د- الخضروات والفواكه الطازجة،وهي أحسن مصادر للفيتامينات والأملاح المعدنية.

هـ- المنتجات الحيوانية من بيض ولبن وحليب وما يصنع منه كالجبن واللبن الزبادي وهي مصادر جيدة للمركبات البروتينية والأملاح المعدنية"[١١٠].

ويتضافر العقل مع الجسم في التحكم بكمية الطعام والشراب بناء على الضوابط التي يربّى عليها الإنسان والتي حددها الإسلام.

ج- الاهتمام بالنظافة وبيان أنواعها:

لقد عني الإسلام بالطهارة والنظافة عناية بالغة،وحثّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم على النظافة والطهارة،وأوصى بعض أصحابه رضوان الله عليهم وهم قادمون من سفر بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: "إنكم قادمون على إخوانكم،فأصلحوا رحالكم وأصلحوا لباسكم حتى تكونوا في الناس كأنكم شامة،فإن

الله عزَّ وجلَّ لا يحب الفحش ولا التفحش"[١١١]. ففي الطهارة محافظة على الجسد حتى يكون قوياً قادراً على أداء العبادات أولاً وعلى العمل ثانياً.

"والطهارة لها أربع مراتب:

المرتبة الأولى: تطهير الظاهر عن الأحداث وعن الأخباث والفضلات.

المرتبة الثانية: تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام.

المرتبة الثالثة: تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة.

المرتبة الرابعة: تطهير السرّ عما سوى الله تعالى،وهي طهارة الأنبياء والصديقين"[١١٢].

إذاً،نظافة السرائر،وتتمثل في تطهير القلب والصدر من الأخلاق المذمومة مثل: الكذب والرياء والنفاق والشك والظن والحقد وغيرها.. ونظافة الظاهر،وتتمثل بما شرعه الإسلام ودعا إليه من: نظافة الجسم والثوب...

فالنظافة الظاهرة والباطنة تسعى إلى أن يكون ظاهر المؤمن كباطنه نظيفاً،وأن يبقى المسلم صحيحاً قوياً بعيداً عن الأمراض.

د- الاهتمام بالصحة والوقاية من المرض:

لا شكّ أن التعاليم الإسلامية قائمة على أساس حفظ الجسد ونموه وسلامته. والصحة "قيمة من القِيَم الإنسانية الأساسية،والعمل على ترقية الصحة الطيبة التزام من الالتزامات الخلقية الأساسية"[١١٣]. وسبب تحريم كثير من الأمور هو ضررها على الجسد،من هنا تبرز أهمية الصحة في حياة الفرد والمجتمع،"فالأمة القوية وحدها هي التي تستطيع أن تخلف حضارة راقية وتحافظ عليها،كما أن الفرد القوي وحده هو الذي يستطيع أن يحقق إمكانياته إلى أقصى مداها"[١١٤].

فالصحة نعمة عظمى وجب على الإنسان أن يحافظ عليها،فهي هبة من الله تعالى،ومستقبل كل واحد منّا يتوقف على الاحتفاظ بعقل سليم في جسم سليم. "بيد أن الصحة ليست مجرد خلو من الأمراض،ولكنها فوق ذلك عافية في البدن،ورجاحة في العقل،وانسجام مع الناس،وإيمان بالله،ومتعة ظاهرة بالحياة"[١١٥]. فالصحيح يعيش بهناءة وسعادة مرتاح البال،يقدم على أعماله بهمة ونشاط،ويؤديها بإتقان تام. وصحة الجسد تتطلب صحة النفس،وصحة العقل.

وللإسلام قواعد وتعاليم تضمن للناس صلاح أجسامهم ووقايتها من الأمراض. وتدعو إلى الاهتمام بالصحة وتجنب الإصابة بالأمراض المعدية والوراثية. وللطب الوقائي أهمية كبرى في منع انتشار الأمراض من المرضى

إلى المعافين. ومن الوقاية التي عيّنها الإسلام ما يسمّى اليوم بالحجر الصحيّ. عن أسامة بن زيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها"[١١٦]. وقد جاءت أحاديث كثيرة،تنهى عن اختلاط المرضى بالأصحاء،وعدم تنقّل المرضى من أماكنهم إلى أماكن أخرى. "عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه كان في وفد ثقيف رجل مجذوم[١١٧]، فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "أنا قد بايعناك فارجع"[١١٨]. وللتربية دورها في تعليم الإنسان "أين يكمن الخطر ويوجد ميكروب المرض"[١١٩]. وكيف يحافظ ويقي نفسه من الإصابة بهذه الميكروبات والجراثيم؟!

إن "أكثر الأمراض التي يعاني منها الإنسان من صنع يديه،ومن آثار سلوكه في البيئة التي يعيش فيها،ومن نتائج معاملاته مع نفسه،ومع الناس،ومع الحياة،ومعظم هذه الأمراض قابل للتوقي.."[١٢٠]، لو عرف كل فرد منا التزاماته الصحية،وعمل بالهدي النبوي في الوقاية وتربية الأجسام والحفاظ على صحة الأبدان. والإسلام وجّهنا إلى الأخذ بعلاجين:

الأول: وهو العلاج النفسي والروحي للمرض بالصبر والتوكل: إن الأوهام النفسية وما يدور داخل الإنسان قد تؤدي إلى المرض أو مضاعفته أو ازدياده.. فإذا مرض أحدنا وجب علينا الصبر،واعتباره قضاء الله تعالى،ويؤجر عليه،قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "ما ينزل البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه من خطيئة"[١٢١].

والمؤمن الصحيح الإيمان لا يفقد صبره عند الضراء،قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير،وليس ذاك لأحد إلاّ المؤمن إن أصابته سرّاء شكر،فكان خيراً له،وإن أصابته ضرّاء صبر،فكان خيراً له"[١٢٢].

والثاني: التداوي لمعالجة المرض: إن الدواء والعلاج من وسائل تربية الجسد،فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم أمر بالتداوي في أكثر من حديث لينشأ المسلم بجسد قوي وبدن سليم،له كل خصائص الحيوية والصحة والنشاط. عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إن الله أنزل الداء والدواء،وجعل لكل داء دواء،فتداووا ولا تداووا بحرام"[١٢٣]. وهكذا،فتربية الجسد تبنى من طريق الرعاية الصحية على أسس النظافة والوقاية من المرض والتداوي والعلاج،حتى يستطيع الإنسان من طريق جسمه أن يتقبل التربية التي ينمو بها عقله ويتكامل بها كيانه الإنساني.

٣- أهداف التربية الجسمية:

إنّ التربية الجسمية "تهدف إلى تمكين التكوين العضوي في الإنسان من القيام بوظيفته"[١٢٤]، على أكمل وجه..

بالإضافة إلى الأهداف الآتية:

أ- تنمية الوعي الغذائي الصحي السليم، الذي يساعد على حسن النمو، ويحفظ له صحته.

ب- تنظيم تناوله طعامه وشرابه،وعدم خضوعه لشهوة الطعام والشراب.

ج- الحث على الاهتمام بأساليب النظافة الذاتية، وجعلها عادات تمارس في حياة الفرد اليومية، منذ يقظته إلى منامه، وتشمل جميع خصوصياته من نظافة بدنه وسائر أطرافه، إلى نظافة شرابه وغذائه وثيابه ومسكنه والمحيط الذي يعيش فيه، ولا يخفى أن النظافة الذاتية من أهم وسائل الوقاية من الأمراض.

د- التوجيه إلى الاهتمام بأساليب الوقاية الصحية، وتنمية الوعي المستمر بها، والالتزام بقواعدها.. لما لها من أثر في صحة الأفراد من جهة، وفي نهضة المجتمع وتطوره وسلامته من جهة أخرى.

الميدان الخامس: التربية الاجتماعية:

لكل مجتمع إنساني صفات خاصة به،والمجتمع الإسلامي متفرد بصفات تحددها الأطر الإسلامية،ووسيلته في الإعداد هي التربية. ولا تستطيع التربية "أن تقوم بوظيفتها دون هذا التفاعل بين الذات الإنسانية والظروف الاجتماعية"[١٢٥]. كما يقال إن التربية "نظام اجتماعي،ينبع من فلسفة كل أمة،وهو الذي يطبق هذه الفلسفة أو يبرزها إلى الوجود"[١٢٦].

ومعرفة النفس وتقييمها ينشأ ذاتياً من داخلها، ولها مناشئ اخرى، وهي فكرة المجتمع عنها أو تقييم المجتمع لها، وتنشأ أيضاً من موازنة الإنسان نفسه بغيره من أفراد المجتمع سواء أكانوا صالحين أم طالحين. وبالتقييم الاجتماعي يتعرف الإنسان نواحي القوة والضعف في نفسه وسلوكه، وعلى إمكانات خافية أو غير معلومة، وعلىٰ الأغراض والدوافع التي تقوم وراء سلوكه.

قال أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: "المرآة التي ينظر الإنسان فيها إلى أخلاقه هي الناس؛ لأنّه يرى محاسنه من أوليائه منهم، ومساويه من أعدائه فيهم"[١٢٧].

فما مفهوم التربية الاجتماعية؟

١- مفهوم التربية الاجتماعية:

تكتسب التربية الصفة الاجتماعية من حيث إنها "لا يمكن أن تتم في فراغ،ولا يمكن أن تعيش بمعزل عن مشكلات واحتياجات وتطلعات الأفراد والمجتمعات،وأنها قوة اجتماعية هائلة قادرة دائماً على إحداث

تغيرات بعيدة المدى في البناء الحضاري للمجتمع،هذا فضلاً عن كونها قوة اقتصادية كبرى باعتبارها استثماراً لأعلى ما لدى الأمم من موارد،ألا وهي ثروتها البشرية"[١٢٨].

وتعنى التربية "بتعليم أفراد المجتمع من الجيل الجديد،كيف يسلكون في المواقف الاجتماعية المختلفة على أساس ما يتوقعه منهم المجتمع الذي ينشؤون فيه،ومعنى هذا أن التربية تعنى بالسلوك الإنساني وتنميته وتطويره وتغييره"[١٢٩]. وذلك من خلال العلوم الإنسانية.

٢- أهمية التربية الاجتماعية:

وتظهر هذه الأهمية من أمرين: الأول: دور التربية الأسرية في تكوين الفرد.. وتعليمه الآداب الاجتماعية في علاقاته مع الآخرين. والثاني: دور التربية الاجتماعية خارج البيت،وتحقيقها التوازن بين الفرد والمجتمع.

الأمر الأول: التربية الأسرية والعلاقات الاجتماعية:

إن الأسرة لها الأثر الكبير في تكوين الفرد فهي: "المدرسة الأولى لتشكيل وتوجيه سلوك الفرد وعاداته وطبائعه،فيترعرع الطفل مقلداً أبويه في عاداتهم وسلوكهم"[١٣٠]. والأسرة المسلمة هي "الضرورة الحياتية للجنس البشري،إذا أريد له أن يستمر على نحو متحضر،يرتقي بالإنسان"[١٣١]، والآباء مسؤولون عن تهيئة البيئة التي تسمح للطفل بتنمية مهاراته أحسن تربية،فالتعلم الأول الذي يحدث في الأسرة "تبقى نتائجه مع الإنسان طيلة حياته"[١٣٢].

ولأهمية الأسرة في البناء التربوي أبدى أهل البيت عليهم السلام أهمية خاصة بها، وكانت إرشاداتهم تؤكد اختيار شريك الحياة الصالح والمتدين ليقوم بالتعاون مع شريكه في إعداد الأطفال إعداداً ينسجم مع المنهج السلوكي في الإسلام، وحثّ أهل البيت الوالدين على القيام بمسؤوليتهما في التربية وخصوصاً الوالد حيث تقع عليه كامل المسؤولية.

قال الامام زين العابدين عليه السلام: "وأما حق ولدك فتعلم أنه منك ومضاف إليك في عاجل الدنيا بخيره وشره، وأنك مسؤول عما وليته من حسن الأدب والدلالة على ربه والمعونة له على طاعته فيك وفي نفسه، فمثاب على ذلك ومعاقب، فاعمل في أمره عمل المتزين بحسن أثره عليه في عاجل الدنيا، المعذر الى ربه فيما بينك وبينه بحسن القيام عليه والأخذ له منه"[١٣٣]. ويبدأ دور الأم في تربية الطفل داخل الأسرة "حين تغذي ولدها بالحليب،وتغذيه أيضاً بالعواطف وبالعلاقات الاجتماعية ثم بالمعاني والألفاظ والأفعال،أي أنها تغذيه بالمحتوى الثقافي للمحيط العائلي،الذي يولد فيه الطفل"[١٣٤].

ويلعب أفراد الأسرة دوراً مهماً في التنشئة الاجتماعية،و"ذلك لأنهم يؤلفون مع الأم الميدان الاجتماعي الأول

الـذي يحتويه،والـذي يكـوّن أسـاس خبراتـه الاجتماعيـة وتجاربـه وطـرق سـلوكه"[١٣٥].

والبيـت المسـلم "يغـرس في نفـوس أفـراده منـذ طفولتهـم الباكـرة الإيـمان الصحيـح والسـلوك الإسـلامي الرشـيد،ويربيهم عـلى حـب الفضائـل وبغـض الرذائل،ويرشـدهم إلى الخير،ويباعـد بينهـم وبـين الشر،وهـو الـذي يمدهـم بالقيـم الاجتماعيـة التـي يحترمونها،ويعملـون عـلى هداهـا"[١٣٦].

ومـن أجـل توطيـد المـودة والمحبـة الـلازم توفرهـا بـين أعضـاء المجتمـع الإسـلامي،تبرز التربيـة الأسريـة لِتُعلّـم المسـلم التعـاون مـع الجماعـة في سـبيل الخـير العـام. قـال الله تعـالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ ﴾[١٣٧]. وتقديـم العمـل الصالـح والتناصـح في هـذا السـبيل. قـال الله تعـالى: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴾[١٣٨]. ونـشر العلـم الـذي يسـهم إسـهاماً إيجابيـاً في بنـاء المجتمـع وتطويـره. قـال الله تعالى: ﴿ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ ﴾[١٣٩].

ومـن ذلـك الأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكر،والإنفـاق في سـبيل الله،واسـتثمار الأمـوال،والاعتـدال في الإنفـاق وغـير ذلـك مـن الجوانـب الأخلاقيـة.

الأمر الثاني: التربية الاجتماعية خارج البيت:

إن للتربيـة الاجتماعيـة خـارج البيـت نظامـاً يراعـي الطبيعـة الإنسـانية والتـي تتضمـن تربيـة الإنسـان تربيـة اجتماعيـة بتحقيـق ذاتـه،لا أن تـذاب شـخصيته في كيـان المجتمـع.

فالديـن المعاملـة.. "وأقـل مـن القليـل مـن يـدرك أن الديـن المعاملـة،وأن النبـي صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم وجميـع الرسـل مـن قبلـه بُعِثـوا بمـكارم الأخلاق،وجعلـوا حسـن المعاملـة واحـترام الآخرين،والإحسـان إلى الجميـع أسـلوب حياتهم،وأسـاس دعوتهـم وقـوام صلتهـم بالنـاس"(١٤٠). عـن أنـس رضي الله عنـه قـال: قـال رسـول الله صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم: "انـصر أخـاك ظالمـاً أو مظلومـاً. قالـوا: يـا رسـول الله، هـذا ننـصره مظلومـاً. فكيـف ننـصره ظالمـاً؟ قـال: تأخـذ فـوق يديـه"[١٤١].

إن تحقيـق التـوازن بـين الفـرد والمجتمـع يُظهر الكفـاءات في جميـع النواحي بحيث تـدل على مواضع الصـواب والخطأ حسـبما يتطلبـه كل زمـن وكل بيئـة وكل حالة،وقيـام الآبـاء والأمهـات بواجباتهـم نحـو التربيـة الاجتماعية،يكفـل إقامـة مجتمـع إنسـاني هـادئ تسـمو فيـه العلاقـات وتبـدو فيـه الشـخصية متزنـة تتفاعـل مـع غيرهـا بمـودة ومحبـة.

"إن مـكان الأب عـلى رأس الأسرة وقيامـه بـدور القيـادة الحقيقيـة والتوجيـه لـكل أفرادهـا إنـما هـو مسـؤولية خطـيرة في اسـتقرار الأسرة،وقيامهـا كخليـة سـليمة في بنـاء المجتمـع المسـلم.. فـالأب هـو الـذي يضـع أسرتـه في المجتمـع ويحـدد موقـف أفرادهـا ودورهـم في البنـاء الاجتماعي،ويظـل دور الأب في المنهـج الإسـلامي سـلياً لا تهـزه التيارات

الفاسدة،لأنه قائم على قيم ثابتة ومعايير سلوكية محددة،يؤصلها الإسلام بمنهجه التربوي حتى لا يفقد دوره في الضبط الاجتماعي وتوجيه الفكر والسلوك. إن رسالة الأم التربوية لا تقل أهمية عن رسالة الأب فعلى الأم أن توالي نصائحها لأبنائها في جميع مراحل نموهم،وأن تستمر في إرشادهم وتعويدهم على خصال الخير لتقدم للمجتمع أعضاء صالحين قادرين على تولي مسؤوليتهم في المجتمع "[١٤٢]. فالتعاون في الحياة الاجتماعية يحقق معنى هذه الحياة،من حيث إنها حياة "يشترك فيها الأفراد،فالفرد يتعاون مع غيره فيوجهه،كما يحصل منه على توجيه،فكل منا يوجه غيره ويستفيد من توجيه غيره له"[١٤٣]. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "كلكم راع وكلكم مسؤول"[١٤٤].

٣- أهداف التربية الاجتماعية:

إن التربية الاجتماعية في الإسلام تعتمد على قاعدة أساسية هي توحيد الله والعمل الصالح. والعلاقات الاجتماعية تنبني على أساس المودة والرحمة والتآلف والعطاء والتضحية.. الخ،وذلك لإيجاد التوازن "بين الفرد والمجتمع،حيث يقوم بينهما تكامل،يوجب على كل منهما تبعات،ويرتب لكل منهما حقوقاً"[١٤٥].

من هنا تتجلى أهداف التربية الاجتماعية،ومنها:

١- تمكين الفرد من استكمال نموه ونضجه الاجتماعي على النحو السليم،والذي يكفل التوازن والاعتدال بين جميع جوانب شخصيته الإنسانية.

٢- تعميق شعور الفرد بالانتماء الاجتماعي،مع بيان الحقوق والواجبات.

٣- تجرّده من الأنانية وحبّ الذات وتدفعه إلى محبة الآخرين محبة صادقة كحبه لنفسه.

٤- تكوين الفرد عضواً صالحاً في الجماعة،يعمل لخيرها،ويصون دينها ونظامها الأخلاقي وتراثها الاجتماعي. ويتعامل مع الآخرين بالعطف والرقة واللين واللباقة والإحسان.

٥- بناء العلاقات الاجتماعية السليمة بين الأفراد على أساس قوي من الالتزام الذاتي النابع من نفوسهم،والمستمد من القيم الروحية،والفضائل الأخلاقية،والعلوم الإنسانية.

٦- تنمية الإحساس بروح المسؤولية في تصرفاته وأعماله وواجبه تجاه مجتمعه.

إذاً للتربية الإسلامية "مسؤولية فردية جماعية اجتماعية،شأنها في ذلك شأن ألوان النشاط الأخرى في الإسلام حيث الكل فيها مسؤول عن الكل"[١٤٦]. فتجعلهم أسرة واحدة يظلها الوئام والمودة والأمن،وترفرف عليها السعادة والطمأنينة والهناء.

الميدان السادس: التربية البيئية:

١- مفهوم التربية البيئية:

جاء في مفهوم التربية البيئية أنها "عملية إعداد للإنسان للتفاعل الناجح مع بيئته الطبيعية بما تشمله من موارد مختلفة"(١٤٧). أو هي عملية "تكوين المهارات والاتجاهات والقيم اللازمة لفهم وتقدير العلاقات المعقدة التي تربط الإنسان وحضارته بمحيطه الحيوي وتوضيح حتمية المحافظة على مصادر البيئة،وضرورة حسن استغلالها لصالح الإنسان،وحفاظاً على حياته الكريمة،ورفع مستوى معيشته"(١٤٨). ويعدها بعضهم: "إحدى وسائل وطرق تحقيق أهداف حماية البيئة. وهي التربية التي تتناول علاقة الإنسان بالطبيعة والأشياء الأخرى من نتاجه وصنع يديه،وتشتمل على كيفية وأهمية إصدار الأحكام القيمية والقدرة على التفكير الواضح إزاء المشاكل المعقدة عن البيئة"(١٤٩).

ويرى آخرون: "أنها عملية تهدف إلى تنمية وعي المواطنين بالبيئة ومشكلاتها،وتزويدهم بالمعرفة والمهارات والاتجاهات،وتحمل المسؤولية الفردية والجماعية تجاه حل المشكلات المعاصرة والعمل على منع ظهور مشكلات بيئية جديدة"(١٥٠).

إذاً هي عملية إعداد للإنسان للتفاعل الناجح مع بيئته الطبيعية بما تشمله من موارد مختلفة،تتطلب العمل على تنمية جوانب معينة من شخصيته،لفهم العلاقات المتبادلة بين الإنسان وبين المحيط الذي يعيش فيه. وتتطلب "تنمية المهارات التي تمكن الإنسان من المساهمة في حل كل ما تتعرض له بيئته من مشكلات وما قد يتهددها من أخطار،والمساهمة في تطوير ظروف هذه البيئة. وتستلزم التربية البيئية كذلك تكوين الاتجاهات والقيم التي تحكم سلوك الإنسان إزاء بيئته وإثارة ميوله واهتماماته نحو هذه البيئة وإكسابه أوجه التقدير لأهمية العمل على صيانتها والمحافظة عليها"(١٥١).

أما التربية البيئية من المنظور الإسلامي فهي تدعو "إلى المحافظة على البيئة وحسن التعامل معها"(١٥٢). وهي "مجموع العمليات والأنشطة التي تؤدي إلى تنمية الهداية والإدراك للمعايير الإسلامية الحاكمة لعلاقة الإنسان بالبيئة الكلية ومكوناتها،وما يتضمنه ذلك من التوعية بالمسؤوليات والأدوار،وتنمية الاتجاهات والسلوكيات الفردية والجماعية بصدد البيئة ومشكلاتها،في إطار معايير التوحيد والاستخلاف"(١٥٣). ذلك لأنّ الإسلام كرّم الإنسان على كافّة المكوّنات البيئية الطبيعية وسخّرها لمنفعته،واستخلافه فيها.

٢- أهمية التربية البيئية:

يعد الإنسان الكائن الفعّال الذي تؤثّر أنشطته تأثيراً كبيراً في بيئته سلباً أو إيجاباً(١٥٤)، مما يُبيّن أهمية إعداده وتربيته بيئياً. "ثم إن القوانين البيئية(١٥٥) التي تحكم العلاقات بين مكونات

البيئة لا تقبل التغيير،بينما يقبله السلوك الإنساني لأنه يتشكل بالتعلم والتربية"[١٥٦]، فيكتسب المعارف والمهارات والقيم والعلوم الإنسانية التي تساعده على التعامل بشكل صحيح مع موارد البيئة.

فهو يتوجه إليها لتأمين حاجاته المختلفة. فمن البيئة الطبيعية يسعى للحصول على حاجاته الأساسية في الغذاء والكساء والمأوى... ومن البيئة الاجتماعية يسعى للحصول على حاجاته في الأمن والانتماء والحب والاحترام... ومن البيئة الدينية يسعى للحصول على إجابات أسئلته المتعلقة بالنشأة والحياة والمصير... ومن البيئة الثقافية يسعى لتحقيق حاجاته في الإنجاز والإبداع المؤدية إلى تحقيق الذات...[١٥٧]. من هنا تتجلى أهمية التربية البيئية.

٣- أهداف التربية البيئية:

إن الإنسان والبيئة هما طرفا محور أساسي في عملية التربية البيئية،ومن ثم فإن ما يجري من تفاعل بينهما،كلما كان سوياً،كلما أدى إلى استثمار أفضل لها[١٥٨]... ويمكن عندها تحقيق الأهداف المرجوة من التربية البيئية،وهي:

أ- المعرفة: تعنى "مساعدة الفئات الاجتماعية والأفراد على اكتساب خبرات متنوعة تتصل بالبيئة ومشكلاتها وتحقق لهم فهماً أساسياً لها"[١٥٩]. ثم بيان "التغيرات التي أحدثها الإنسان في الأنظمة البيئية،وتوضيح ما هو ضار ونافع منها للبشرية"[١٦٠].

ب- الوعي: ويقصد به "مساعدة الفئات الاجتماعية والأفراد على اكتساب وعي بالبيئة ومشكلاتها ذات الصلة،وإيجاد حساسية خاصة نحوها"[١٦١]. ثم التوعية اللازمة كي يدرك الإنسان أنه جزء لا ينفصم من نظام يتألف من: الإنسان وثقافته،وبيئته الطبيعية الحيوية.. وأنه يستطيع أن يغيّر العلاقات التي تربط بين أجزاء هذا النظام.

ج- المهارات: أي "مساعدة الأفراد والجماعات على اكتساب المهارات[١٦٢] اللازمة لحل المشكلات البيئية،وتطوير ظروف البيئة على نحو أفضل"[١٦٣].

د- الاتجاهات والقيم: من اجل الاهتمام بالبيئة والمشاركة الايجابية لحمايتها وتحسينها.. والمحافظة على مواردها: كالحفاظ على مصادر البيئة،والحفاظ على نظافة البيت والشارع والمسجد.. ولا بدّ من أن يستشعرها الفرد من نفسه حتى يتحمل تبعاتها كلما تطلب منه الأمر ذلك.

هـ- المشاركة: النشطة والفعالة على مختلف المستويات في العمل على حلّ المشكلات البيئية الملحّة.. والمحافظة على المصادر الطبيعية. "وضرورة التعاون المستمر بين الإنسان ومحيطه،وانعكاس ذلك مباشرة وغير مباشرة،على صعيد الفرد أو على صعيد المجتمع"[١٦٤].

و- الالتزام: بالنهي الوارد عن التعبد لعناصر البيئة،أو تغيير طبيعتها،أو الإسراف والتبذير والتعطيل والهدر لمواردها.

كل ذلك،كفيل بالقضاء على كثير من المشكلات البيئية،والعيش في بيئة سليمة إلى حدٍ ما.

الخـــاتـــمـــة

فيما يخص مفهوم التربية يمكن استخلاص الآتي:

١- التربيـة هـي تكويـن شـخصية الإنسـان السـويّ والإيجـابيّ، وتنميـة جوانبهـا الرّوحيـة والعقليّـة والجسـميّة مـن طريـق التدريـب والتثقيـف، وإحـكام بنائهـا إلى حـدّ الكـمال البـشريّ في العلـم والعمـل، والفكـر والإرادة، والسـلوك... ممـا ييـسّر لهـا حسـن التعامـل مـع الآخريـن في المجتمـع الـذي يعيـش فيـه.

٢- التربيـة الإسـلامية هـي المحاولـة الجـادة لتنشـئة الإنسـان الكامـل، ليـدرك مسـؤولياته الفرديّـة وعلاقاتـه الاجتماعيّـة وسـائر مهمّاتـه، مسـتندة في مفاهيمهـا ومبادئهـا وقِيَمِهـا إلى القـرآن الكريـم والسـنّة المطهـرة.

وهـي ضرورة حتميـة لتحقيـق الإسـلام كـما أراده الله أن يتحقـق، حيـث تعمـل عـلى فكـر الإنسـان وتنظيـم سـلوكه وعواطفـه عـلى أسـاس الديـن الإسـلامي بقصـد تحقيـق أهـداف الإسـلام في حيـاة الفـرد والجماعـة، أي في كل مجـالات الحيـاة..

أمـا مـا يخـص الميادين التربويـة في إثـراء العلوم الإنسـانية فقـد أظهرت اهتمامها بالإنسـان مـن كل النواحي،بحسـب حاجاتـه،ومراحل نمـوه واسـتعداداته وقدراته،منـذ طفولتـه إلى رشـده وحتـى خاتـمة حياتـه.. وعلى ضـوء ذلك، يـمكن اسـتخلاص الآتي:

١- أظهرت التربية الروحية ما يأتي:

أ- قيمـة الجانـب الروحـي للإنسـان في حياتـه وفي سـلوكه،فيحرص عـلى نقائـه وطهارتـه، بحيـث يسـمو بـه فـوق رغائـب المـادة وأَغلالِهـا.

ب- أهميـة اسـتغراق نفـس المسـلم بملاحظـة جـلال الله وعظمته،فيشـعر بالطمأنينـة في ذكره،ويرتـاح في طاعته،ويرغـب في جواره،ويُقبـل عليه،ويُعـرض عـما سـواه.

ج- ضرورة التـزام الفـرد المسـلم بالديـن الـذي يديـن بـه ويدعـو إليه،فيكـون نمطـاً حيـاً متحركاً للفكـر الإسـلامي الـذي يمـلأ قلبـه وعقلـه ويصدّقـه سـلوكه في الحيـاة مـع نفسـه أو مـع الآخريـن.

د- صيانـة القيـم التـي توجـه حيـاة الإنسـان إلى الأفضـل دائماً،وتكويـن الرغبـة في الاعتقـاد وتثبيـت العقيدة،وبيـان التكامـل بـين الإيـمان والعمـل الصالح،والإخـلاص وأداء الواجـب والانتـاج المثمـر وإنـكار الـذات.. وذلـك عـن طريـق إثـارة حساسـية القلـب برقابـة الله الدائمـة عليـه.

هـ- تنمية حب المؤمن لرسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم والاقـتداء به،واتباع سـنته المطهرة.

٢- وأظهرت التربية العقلية ما يأتي:

أ- أهميـة العقـل في حيـاة الإنسـان، إذ هـو مـن أجـلِّ نِعَـم الله عليـه، وأنفـع القـوى الفطريـة التـي أودعهـا فيه،ليكـون

مسؤولاً عن أعماله.

ب- ضرورة تزويد المسلم بالمعلومات والمعارف التي تساعد على إيجاد شخصيته السوية المتزنة المتكاملة وتكوينها.

ج- الكشف عن الاستعدادات والقدرات العقلية،وشحذها وتهذيبها وصقلها وتنميتها،حتى تبلغ النضج والاكتمال والجودة.. مما يفيد الفرد والأسرة والمجتمع.

د- المساعدة على اتباع أسلوب التفكير العلمي،لحفظ التراث الحضاري ونقله من جيل إلى جيل.

هـ- تنمية حب الاستطلاع وتحري الحقائق لمتابعة كل جديد،ومواكبة التقدم والتطور.

٣- وأظهرت التربية الخلقية ما يأتي:

أ- أهمية تنمية السلوك الأخلاقي،على أساس شموله لما ينظم علاقة الفرد بنفسه أو بالناس،أفراداً أو جماعات،أو بالكون،أو بالخالق،وتهدف من ذلك إلى سعادة الإنسان من طريق إرضاء الله تعالى،بحيث تصبح الأخلاق هي ذلك النشاط الذي يربط بين تعاليم الإسلام،وبين الإنسان،فرداً وجماعة،بحيث تتحول هذه التعاليم إلى حياة يومية تمارَس.

ب- ضرورة تقوية إرادة المسلم،وإحساسه بمسؤوليته الذاتيّة في تهذيب غرائزه ودوافعه.. وإشباعها بالطريق السويّ المشروع.

ج- المساعدة على تنمية الشعور بالمسؤولية تجاه الجماعة،وصون عقيدتها ونظامها الأخلاقي وكيانها الاجتماعي من مختلف عوامل التفكك والانحلال.

د- تكوين الجماعة الفاضلة التي تأمر بالمعروف،وتتناهى عن المنكر،وتتعاطف وتتراحم وكأنها جسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر،وكأنها بنيان مرصوص يشدّ بعضه بعضاً.

٤- وأظهرت التربية الجسمية ما يأتي:

أ- أهمية تمكين التكوين العضوي في الإنسان من القيام بوظيفته، وذلك بتنمية الوعي الغذائي الصحي السليم، وتنظيم تناوله طعامه وشرابه،والاهتمام بأساليب النظافة الذاتية، وجعلها عادات تمارس في حياة الفرد اليومية.. إذ لا يخفى أن النظافة الذاتية من أهم وسائل الوقاية من الأمراض.

ب- التوجيه إلى الاهتمام بأساليب الوقاية الصحية، وتنمية الوعي المستمر بها، والالتزام بقواعدها.. لما لها من أثر في صحة الأفراد من جهة، وفي نهضة المجتمع وتطوره وسلامته من جهة أخرى.

ج- تأكيد تسخير قوة البدن وقدراته وطاقاته في السبل المشروعة التي أحلها الله عزّ وجلّ.. حتى يرتقي بطاقاته كلها،ويوفرها لأداء رسالته في هذه الحياة، وينال السعادة في الدنيا والآخرة.

٥- وأظهرت التربية الاجتماعية ما يأتي:

أ- أهمية تمكين الفرد من استكمال نموه ونضجه الاجتماعي على النحو السليم،والذي يكفل التوازن والاعتدال بين جميع جوانب شخصيته الإنسانية.

ب- ضرورة تعميق شعور الفرد بالانتماء الاجتماعي،مع بيان الحقوق والواجبات.

ج- المساعدة على جعل الفرد عضواً صالحاً في الجماعة،يعمل لخيرها،ويصون دينها ونظامها الأخلاقي وتراثها الاجتماعي.. وذلك بتجرّده من الأنانية وحبّ الذات، ودفعه إلى محبة الآخرين محبة صادقة كحبه لنفسه.

د- قيمة إكساب الأفراد الآداب الاجتماعية التي تقوي ترابطهم،وتمتن تعاطفهم،وترسخ تكافلهم.

٦- وأظهرت التربية البيئية ما يأتي:

أ- أهمية نشر المعرفة لمساعدة الفئات الاجتماعية والأفراد على اكتساب خبرات متنوعة تتصل بالبيئة ومشكلاتها وتحقق لهم فهماً أساسياً لها.

ب- ضرورة التوعية اللازمة كي يدرك الإنسان أنه جزء لا ينفصم من نظام يتألف من: الإنسان وثقافته،وبيئته الطبيعية الحيوية.. وأنه يستطيع أن يغيّر العلاقات التي تربط بين أجزاء هذا النظام.

ج- مساعدة الأفراد والجماعات على اكتساب المهارات اللازمة لحل المشكلات البيئية،وتطوير ظروف البيئة على نحو أفضل.

د- ضرورة التعاون المستمر بين الإنسان ومحيطه،وانعكاس ذلك مباشرة وغير مباشرة،على صعيد الفرد أو على صعيد المجتمع.

إذاً، هذه الميادين التربوية تتكامل بعضها مع بعض، في سبيل بناء الشخصية الإسلامية السويّة المتزنة المتكاملة... في عالم المعرفة وفق ثوابت العلوم الإنسانية، وصياغتها في إطار الإسلام لتحيا الأمة الإسلامية من جديد، متميزة بشخصيتها، وتتحرر من ذل التبعية الفكرية. ويتحقق للمسلم الواعي المثقف المعاصر الامتلاء النفسي إعجاباً وفخراً بدينه الحق، لكماله وشموله على كل ما يحتاج إليه.

وصلى الله على سيدنا محمّد وعلى آله وأصحابه.

الهوامش و المصادر

١- محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، الجامع الصحيح، جـ: ٥، ص: ٦٢٢، مكتبة مصطفى الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ..

٢- الشريف الرضى، نهج البلاغة، ص: ٣٥٧- ٣٥٨، دار البلاغة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤١٢هـ.

٣- مجمع اللغة العربية، المعجم الوجيز، ص: ٢٥٠، مادة: "ربَّ"، دار التحرير للطبع والنشر، مصر، د.ط، د.ت.

٤- محمد بن مكرم بن علي الأفريقي (٦٣٠ – ٧١١هـ، ١٢٣٢ – ١٣١١م): أبو الفضل،جمال الدين ابن منظور الأنصاري،صاحب"لسان العرب"،الإمام اللغوي الحجة. ولد بمصر وقيل: في طرابلس الغرب. وخدم في ديوان الإنشاء بالقاهرة،ثم وَلِيَ القضاء في طرابلس،وعاد إلى مصر فتوفي فيها. من كتبه: نثار الأزهار في الليل والنهار،ولطائف الذخيرة،وأخبار أبي نواس،وغير ذلك. خير الدين الزركلي،الأعلام،جـ: ٧،ص: ١٠٨،دار العلم للملايين،بيروت – لبنان،الطبعة السابعة،١٩٨٦م.

٥- محمد بن مكرم الأفريقي، لسان العرب، جـ: ١، ص: ٤٠١، مادة: "ربب"، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت.

٦- عباس محجوب، أصول الفكر التربوي في الإسلام، ص: ١٥، دار ابن كثير، دمشق، ومؤسسة علوم القرآن، عجمان، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م،(بتصرف).

٧- عبد الحميد السيد الزنتاني، أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، ص: ٢٥، الدار العربية للكتاب، ليبيا، د.ط، ١٩٨٤م.

٨- فتحي بيومي حمودة وزميله، التربية والطرق الخاصة بتدريس العلوم الاسلامية واللغة العربية، ص: ١٠، دار البيان العربي، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٩- أحمد فؤاد الأهواني، التربية في الإسلام، ص: ١٦٦، دار المعارف، القاهرة، د.ط، ١٩٨٠م.

١٠- عبد الحكيم بحلاق، التربية والإنسان من منظور إسلامي، ص: ١٣، دار النابغة، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.

١١- محمد لبيب النجيحي، الأسس الاجتماعية للتربية، ص: ١٤، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة السابعة، ١٩٧٨م.

١٢- ساطع الحصري، حوليّة الثقافة العربية، ص: ٤٤، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٤٩م.

١٣- حنا غالب، التربية المتجددة وأركانها، ص: ١٠-١١، مطبعة عيتاني، بيروت، د.ط، ١٩٦٥م، (بتصرف).

١٤- عمر أحمد عمر، منهج التربية في القرآن والسنة، ص: ١٠، دار المعرفة، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٦

هـ - ١٩٩٦ م.

١٥- سورة الإسراء، الآية: ٩.

١٦- عبد الله بن عمر بن محمّد (... - ٦٨٥هـ،... - ١٢٨٦م): ابن علي الشيرازي،أبو سعيد،أو أبو الخير،ناصر الدين البيضاوي. قاض،مفسر،علاّمة. ولد في المدينة البيضاء،بفارس قرب شيراز،وولي قضاء شيراز مدة. وصرف عن القضاء،فرحل إلى تبريز فتوفي فيها. من كتبه: أنوار التنزيل وأسرار التأويل،وطوالع الأنوار،ومنهاج الوصول إلى علم الأصول،وغير ذلك.. خير الدين الزركلي،الأعلام،جـ: ٤،ص: ١١٠،دار العلم للملايين،بيروت - لبنان،الطبعة السابعة،١٩٨٦م،(بتصرف).

١٧- أي الله تعالى.

١٨- عبد الله بن عمر البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، جـ: ١، ص: ٣، الطبع والنشر: عبد الحميد أحمد حنفي، مصر، د.ط، ١٣٥٥هـ.

١٩- سورة الفاتحة، الآية: ٢.

٢٠- سورة النساء، الآية: ٢٣.

٢١- محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، جـ: ١، ص: ١٣٧، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، د.ط، ١٩٨٥م.

٢٢- محمد فاضل الجمالي، تربية الإنسان الجديد – محاضرات في مبادئ التربية، ص: ١٣٣، الشركة التونسية للتوزيع، د.ط، ١٩٦٧م.

٢٣- علي خليل مصطفى أبو العينين، فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم، ص: ١٩، مكتبة إبراهيم الحلبي، المدينة المنورة، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٢٤- سورة آل عمران، الآية:١٣٨.

٢٥- سورة النساء، الآية: ٥٨.

٢٦- سورة النحل، الآية: ٩٠.

٢٧- عبد الرحمن النحلاوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ص: ٢٢، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٧٩م.

٢٨- سورة البقرة، الآية: ٢٣١.

٢٩- سورة الجمعة، الآية:٢.

٣٠- سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

٣١- محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، جـ: ٢، ص: ٩٩٧، باب: إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه،المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، د.ط، ١٩٩٥م.

٣٢- محمد بن محمد اليعمري، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، جـ :١، ص: ١٦٨، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٣٣- سورة القلم، الآية:٤ .

٣٤- محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، جـ: ١، ص: ٩٢، باب: صب الماء على البول في المسجد، مرجع سابق.

٣٥- محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، جـ: ٤، ص: ٢٠٠٧، باب: التعوذ من فتنة الدنيا، مرجع سابق.

٣٦- عبد الغني عبود،أنبياء الله والحياة المعاصرة،ص: ١٥٧،دار الفكر العربي،القاهرة،الطبعة الأولى،١٩٧٨م.

٣٧- فؤاد البهي السيد،الأسس النفسيّة للنمو من الطفولة إلى الشيخوخة،ص: ٢٨٤،دار الفكر العربي،القاهرة،د.ط،د.ت.

٣٨- عبد الغني عبود،أنبياء الله والحياة المعاصرة،ص: ١٥٨،مرجع سابق.

٣٩- لتكوين شخصيته المتزنة السوية المتكاملة.

٤٠- عبد العزيز عبد المجيد وزميله،التربية وطرق التدريس،جـ: ١،ص: ٤١،مرجع سابق.

٤١- الموافقة للتكاليف والأحكام الشرعية.

٤٢- محمد علي أبو ريان،الفلسفة ومباحثها،ص: ١٢،دار المعارف بمصر،القاهرة،د.ط،١٩٦٨م.

٤٣- نازلي صالح أحمد،مقدمة في العلوم التربوية،ص: ٩،مكتبة الأنجلو المصرية،القاهرة،الطبعة الأولى،١٩٦٧م.

٤٤- فيليب هـ. فينكس،التربية والصالح العام،ترجمة: يوسف خليل وزميله،ص: ٢١،مركز كتب الشرق الأوسط،القاهرة،د.ط،١٩٦٥م.

٤٥- ولا يشعر بالقيمة في حياته أو الفائدة.

٤٦- فوزية دياب،القيم والعادات الاجتماعية،ص: ١٦،دار الكتاب العربي للطباعة والنشر،القاهرة،د.ط،١٩٦٦م.

٤٧- نجيب إسكندر إبراهيم وآخرون،قيمنا الاجتماعية وأثرها في تكوين الشخصية،ص: ١١،مكتبة النهضة المصرية،القاهرة،الطبعة الأولى،١٩٦٢م.

٤٨- حامد عبد السلام زهران،علم النفس الاجتماعي،ص: ١١٧،عالم الكتب،القاهرة،الطبعة الثانية،١٩٧٣م.

٤٩- عبد الرحمن بدوي،الأخلاق النظرية،ص: ٩٠،وكالة المطبوعات،الكويت،الطبعة الأولى،١٩٧٥م.

٥٠- قباري محمد اسماعيل،قضايا علم الأخلاق،ص: ١٨٧،الهيئة المصرية العامة للكتاب،الاسكندرية،الطبعة الأولى،١٩٧٥م.

٥١- سهام محمد العراقي،دراسة لآراء المدرسين بمحافظة الغربية نحو التربية الأخلاقية في المدارس،ص: ٦٤،مرجع سابق.

٥٢- فيليب هـ. فينكس،فلسفة التربية،ترجمة وتقديم: محمد لبيب النجيحي،ص: ١٣٤،دار النهضة العربية،القاهرة،د.ط،١٩٦٥م.

٥٣- محمد فاضل الجمالي،نحو تربية مؤمنة،ص: ٣٧،الشركة التونسية للتوزيع،تونس،د.ط،١٩٧٧م.

٥٤- صابر طعيمة،المعرفة في منهج القرآن الكريم،ص: ١٩٣،دار الجيل،بيروت،د.ط،د.ت.

٥٥- سورة الروم،الآية: ٣٠.

٥٦- عبد الواحد بن محمد التميمي الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم، ص: ٨٢، ٨٤، ٨٨، مركز الدراسات الإسلامية، مكتب الإعلام الإسلامي، الحوزة العلمية في مدينة قم المقدسة، ط ١، ١٩٨٦م.

٥٧- عبد الكريم الخطيب،الله ذاتاً وموضوعاً،قضية الألوهية بين الفلسفة والدين،ص: ٩٠،دار الفكر العربي،القاهرة،د.ط،١٩٧١م.

٥٨- عبد الرزاق نوفل،الله والعلم الحديث،ص: ١٦،دار الشعب،الناشرون العرب،د.ط،١٩٧١م.

٥٩- زكريا ابراهيم،الفنان والإنسان،ص: ١٨٥،مكتبة مصر،الطبعة الثانية،١٩٦٧م.

٦٠- محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي،(٤٥٠ – ٥٠٥هـ،١٠٥٨ – ١١١١م): أبو حامد،حجة الإسلام. فيلسوف،متصوف،له نحو مائتي مصنف. مولده ووفاته في الطابران (قصبة طوس،بخراسان) رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر،وعاد إلى بلدته. نسبته إلى صناعة الغزل (عند من يقوله بتشديد الزاي) أو إلى غَزَالة (من قرى طوس) لمن قال بالتخفيف. من كتبه: إحياء علوم الدين،وتهافت الفلاسفة،والاقتصاد في الاعتقاد،والمنقذ من الضلال،وبداية الهداية،وغير ذلك. خير الدين الزركلي،الأعلام،جـ: ٧،ص: ٢٢،مرجع سابق،(بتصرف).

٦١- محمد بن محمد الغزالي،إحياء علوم الدين،جـ: ٣،ص: ٢،دار المعرفة،بيروت،د.ط،١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٦٢- عبد الجواد سيد بكر،فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف،ص: ١٨٢ - ١٨٣،دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.

٦٣- عبد الحميد الزنتاني،أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية،ص: ٣٢٦،مرجع سابق.

٦٤- شهاب الدين الحسيني العذاري، ملامح المنهج التربوي عند أهل البيت عليهم السلام، ص: ٣٥،

سلسلة المعارف الإسلامية ٤٢، مركز الرسالة، د.م، د.ط، د.ت.

٦٥- الصلاة هي أولى العبادات ذات التأثير الفعال على الجانب النفسي والوجداني والسلوكي لدى الفرد،لأنها تؤدى خمس مرّات في اليوم والليلة،مما يجعل ترسيخ وتدعيم القيم الروحية لدى المسلم تتم بصورة متتابعة لا انقطاع فيها.

٦٦- لا تقتصر هذه الآثار على الجانب الروحي بتقوية الإيمان وتنمية العقيدة،ولكنها تشمل الجانب الخلقي بتزكية النفس وتطهيرها،والجانب العقلي بتنمية المدارك والقدرات العقلية،والجانب الاجتماعي بدعم وتعزيز معاني المحبة والتآخي والتعاطف والتسامح والتعاون والتكافل....

٦٧- لا يبتغي إلا مرضاة الله تعالى مبرأة نفسه من تحقيق أي مغنم أو جاه أو كسب دنيوي.

٦٨- نتيجة ذلك: الاستقامة،التي هي تجسيد الإيمان الكامل،وترجمان العقيدة الصحيحة،وثمرة الدين الإسلامي الحنيف.

٦٩- محمد بن إسماعيل البخاري،صحيح البخاري،جـ: ٤،ص: ٢١٤١،كتاب: الديات،مرجع سابق.

٧٠- سورة السجدة،الآية: ١٧.

٧١- عبد الواحد بن محمد التميمي الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم، ص: ٣٦، مرجع سابق.

٧٢- سورة الفتح،الآية: ٤.

٧٣- محروس سيد مرسي،التربية والطبيعة الإنسانية في الفكر الإسلامي وبعض الفلسفات الغربية،ص:٣٤٩،كلية التربية،جامعة أسيوط،مصر،د.ط،١٩٧٩م.

٧٤- محمد فاضل الجمالي،نحو تربية مؤمنة،ص: ٣٨،مرجع سابق.

٧٥- فيليب هـ. فينكس،التربية والصالح العام،ص: ٣٠٥-٣٠٦،مرجع سابق.

٧٦- محمد تقي المدرسي،الفكر الإسلامي مواجهة حضارية،ص: ٢١٩،دار الجيل،بيروت،الطبعة الثانية،١٣٩٥هـ -١٩٧٥م.

٧٧- محمد بن إسماعيل البخاري،صحيح البخاري،جـ: ٢،ص: ٨٦٨،كتاب: الجهاد والسير،باب: قول الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾،مرجع سابق.

٧٨- علي عبد الحليم محمود،المسجد وأثره في المجتمع الإسلامي،ص: ١٤،دار المعارف بمصر،القاهرة،د.ط، ١٩٧٦م.

٧٩- عبد الواحد بن محمد التميمي الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم، ص: ٣٨٥، مرجع سابق.

٨٠- محمد قطب،دراسات في النفس الإنسانية،ص: ٣٨٢،مرجع سابق.

٨١- James P. shaver & William strong. Facing values Decision: Rationale.،Building .for teachers. Belmont،Calf: wads worth Publishing CO

٨٢- عبد الفتاح جلال،من الأصول التربوية في الإسلام،ص: ٥١،المركز الدولي للتعليم الوظيفي للكبار في العالم العربي،القاهرة،د.ط،١٩٧٧م.

٨٣- محمد جمال الدين الفندي،الله والكون،ص: ٥٠،الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة،الطبعة الأولى،١٩٧٦م.

٨٤- سيد حسين نصر،الإسلام أهدافه وحقائقه،ص: ٦٦،الدار المتحدة للنشر،بيروت،الطبعة الأولى،١٩٧٤م.

٨٥- أبو الفتوح التوانسي وزميله،دراسة مقارنة في التربية الإسلامية،ص: ١٠،مكتبة الأنجلو المصرية،القاهرة،د.ط، ١٩٧٣م.

٨٦- سعيد إسماعيل علي،ديمقراطية التربية الإسلامية،ص: ٤٣،دار الثقافة للطباعة والنشر،القاهرة،د.ط، ١٩٧٤م.

٨٧- عبد الغني عبود،الله والإنسان المعاصر،ص: ١٠٧،مرجع سابق.

٨٨- محمّد بن يعقوب الفيروزآبادي،القاموس المحيط،جـ: ٤،ص: ١٩،باب: اللام، فصل: الغين،دار الجيل،بيروت - لبنان،د.ط،د.ت.

٨٩- يحيي هاشم حسن فرغلي،معالم شخصية المسلم،ص: ٧،المكتبة العصرية،صيدا – بيروت،د.ط،د.ت.

٩٠- عبد الجواد سيد بكر،فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف،ص: ١٩٩،مرجع سابق.

٩١- سورة طه،الآية: ١١٤.

٩٢- محمد بن إسماعيل البخاري،صحيح البخاري،جـ:١،ص:٥٠،كتاب: العلم،باب: العلم قبل القول والعمل،مرجع سابق.

٩٣- يحيي بن شرف النووي،رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين،ص: ٣٧٩،باب: فضل العلم،دار الجيل،بيروت - لبنان،د.ط،د.ت.

٩٤- محمد فاضل الجمالي،نحو توحيد الفكر التربوي،ص: ٨٩،مرجع سابق.

٩٥- سيد قطب،هذا الدين،ص: ٢٢،دار الشروق،بيروت،د.ط،١٩٦٨م.

٩٦- عبد الغني النوري وزميله،نحو فلسفة عربية للتربية،ص: ٢٧٨،دار الفكر العربي،القاهرة،الطبعة الأولى،١٩٧٦م.

٩٧- عبد الغني عبود،في التربية الإسلامية،ص: ٩٦،مرجع سابق.
٩٨- سيد خير الله،علم النفس التربوي أسسه النظرية والتجريبية،ص: ١٠٢،دار النهضة العربية، بيروت، د. ط، ١٩٨١م.
٩٩- حلمي المليجي،سيكولوجية الابتكار،ص: ١٦٧،دار المعارف بمصر،الاسكندرية،الطبعة الثانية،١٩٦٩م.
١٠٠- فيليب هـ. فينكس،فلسفة التربية،ترجمة وتقديم: محمد لبيب النجيحي،ص: ٢٨١،دار النهضة العربية،القاهرة،د.ط،١٩٦٥م.
١٠١- عبد الغني عبود،أنبياء الله والحياة المعاصرة،ص: ١٢٦،مرجع سابق.
١٠٢- محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، جـ: ١، ص: ٤٤، دار الكتب الإسلامية، طهران، إيران، ط ٥، ١٣٦٣ ش.
١٠٣- محب الدين الخطيب،مع الرعيل الأول،ص: ١٤٤،المكتبة السلفية،القاهرة،د.ط،١٤١٠هـ.
١٠٤- علي بن أبي بكر الهثيمي،مجمع الزوائد ومنبع الفوائد،جـ ٨، ص ١٩١، دار الكتب العلمية،بيروت – لبنان،د.ط،١٩٨٨م.
١٠٥- عبد الواحد بن محمد التميمي الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم، ص: ٤٠٩، مرجع سابق.
١٠٦- مقداد يالجن،الاتجاه الأخلاقي في الإسلام،ص: ٣٥٥،مكتبة الخانجي بمصر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٣م.
١٠٧- علي خليل أبو العينين،فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم،ص: ١٥٩،دار الفكر العربي،القاهرة،الطبعة الأولى،١٩٨٠م.
١٠٨- عباس محمود العقاد،الإنسان في القرآن،ص: ٣٨٩،دار الكتاب اللبناني،بيروت،د.ط،١٩٧٤م.
١٠٩- جودت أحمد سعادة وآخرون،المنهج المدرسي الفعال،ص: ١٧،دار عمار،عمان – الأردن،الطبعة الثانية،١٩٩٥م.
١١٠- عز الدين فراج وآخرون،الموسوعة العلمية المصورة – للنشء الحديث، جـ:٣،ص: ١٢٧،فصل: في جسم الإنسان وتغذيته،مكتبة الرياض الحديثة،د.ط،د.ت.
١١١- أحمد بن حنبل،مسند أحمد بن حنبل،جـ: ٤،ص: ١٨٠،المكتب الإسلامي،بيروت – لبنان،الطبعة الأولى،١٩٩٣م.
١١٢- محمّد بن محمّد الغزالي،إحياء علوم الدين،جـ: ١،ص: ١٢٦،مرجع سابق.
١١٣- فيليب هـ. فينكس،التربية والصالح العام،ص: ١٦٩،مرجع سابق.

١١٤- "Chap man،J.C،& G،S. Counts،"Rumples of Education ،١٩٢٤،p. ١٩٥.

١١٥- كليفورد. اندرسون،طريقك إلى الصحة والسعادة،ترجمة: شاكر خليل نصار،ص: ٣٢١،دار الشرق الأوسط للطباعة والنشر،بيروت،الطبعة الخامسة،١٩٧٢م.

١١٦- محمد بن إسماعيل البخاري،صحيح البخاري،جـ: ٤،ص: ١٨٣٠،كتاب: الطب،باب: ما يذكر في الطاعون،مرجع سابق.

١١٧- الجذام: مرضى حبيبي مزمن معد يصيب البشر،ويهاجم بأشكاله المختلفة الجلد والأغشية المخاطية للمسالك التنفسية العليا،وبعض الأعصاب الطرفية وقد انتشر الجذام في جميع العصور ويبلغ عدد المصابين في العالم حوالي ١٢,٥ مليون نسمة. هشام الخطيب،الوجيز في الطب الإسلامي،ص: ٩٤،دار الأرقم،عمان،الطبعة الأولى،١٩٨٥م.

١١٨- مسلم بن الحجاج،صحيح مسلم،جـ: ٢،ص: ٢٩٣،باب: اجتناب المجذوم ونحوه،تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي،دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، د.ط، ١٩٩٢م.

١١٩- صالح عبد العزيز وزميله،التربية وطرق التدريس،جـ: ٢،ص: ١٨،مرجع سابق.

١٢٠- كليفورد. اندرسون،طريقك إلى الصحة والسعادة،مقدمة الكتاب،مرجع سابق.

١٢١- محمّد بن عيسى الترمذي،سنن الترمذي،جـ: ٤،ص: ٢٨٠،باب: الصبر على البلاء،مرجع سابق.

١٢٢- مسلم بن الحجاج،صحيح مسلم،جـ: ٢،ص: ٥٩٦،باب: المؤمن أمره كله خير،مرجع سابق.

١٢٣- سليمان بن الأشعث، المعروف بأبي داود،سنن أبي داود،جـ: ٤،ص: ٢٠٦،باب: في الأدوية المكروهة،دار الحديث، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٦٩هـ.

١٢٤- هشام الخطيب،الوجيز في الطب الإسلامي،ص: ١٤٤،دار الأرقم،عمان،الطبعة الأولى،١٩٨٥م.

١٢٥- محمد لبيب النجيحي،الأسس الاجتماعية للتربية،ص: ٥٢،مرجع سابق.

١٢٦- أحمد فؤاد الأهواني،التربية في الإسلام،ص: ٧،مرجع سابق.

١٢٧- ابن أبي حديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة، جـ: ٢٠، ص: ٢٧١، دار الكتاب العربي ودار الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد، ط ١، ٢٠٠٧م.

١٢٨- ابراهيم عصمت مطاوع،التخطيط للتعليم العالي،ص: ٢٧،مكتبة النهضة العربية،القاهرة،الطبعة الأولى،١٩٧٣م.

١٢٩- محمد لبيب النجيحي،الأسس الاجتماعية للتربية،ص: ٩،مرجع سابق.

١٣٠- عبد الله أحمد،بناء الأسرة الفاضلة،ص: ٦٢،دار البيان العربي،بيروت،د.ط،١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

١٣١- عبد الغني عبود،الأسرة المسلمة والأسرة المعاصرة،ص: ١١٩،مرجع سابق.

١٣٢- محمد لبيب النجيحي،في الفكر التربوي،ص: ٢٢٤،مرجع سابق.

١٣٣- شهاب الدين الحسيني العذاري، ملامح المنهج التربوي عند أهل البيت عليهم السلام، ص: ١٨-١٩، سلسلة المعارف الإسلامية ٤٢، مركز الرسالة، د.م، د.ط، د.ت.

١٣٤- محمد فاضل الجمالي،تربية الإنسان الجديد،ص: ٥٥،مرجع سابق.

١٣٥- فوزية دياب،نمو الطفل وتنشئته بين الأسرة ودور الحضانة،ص: ١٣٠،مكتبة النهضة المصرية،القاهرة،د.ط،١٩٨٧م.

١٣٦- علي عبد الحليم محمود،المسجد وأثره في المجتمع الإسلامي،ص: ١٨،مرجع سابق.

١٣٧- سورة المائدة،الآية: ٢.

١٣٨- سورة هود،الآية: ٧.

١٣٩- سورة التوبة،الآية: ١٢٢.

١٤٠- حسن أيوب،السلوك الاجتماعي في الإسلام،ص: ١٧٢،دار المهاجرين للطباعة والنشر،د.ط،د.ت.

١٤١- محمد بن إسماعيل البخاري،صحيح البخاري،جـ: ٢،ص: ٧٣٣،كتاب: المظالم،باب: أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً،مرجع سابق.

١٤٢- محمد السيد محمد الزعبلاوي،تربية المراهق بين الإسلام وعلم النفس،ص: ١٦٣،مؤسسة الكتب الثقافية،بيروت – لبنان،الطبعة الأولى،١٩٩٤م.

١٤٣- محمد فاضل الجمالي،تربية الإنسان الجديد،ص: ٥٩،مرجع سابق.

١٤٤- محمد بن إسماعيل البخاري،صحيح البخاري،جـ: ٣،ص: ١٦٦٨،كتاب: النكاح،باب: ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ﴾،مرجع سابق.

١٤٥- حسن إبراهيم عبد العال،التربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري،ص: ٢١،مرجع سابق.

١٤٦- عبد الغني عبود،في التربية الإسلامية،ص: ٥٨،مرجع سابق.

١٤٧- صبري الدمرداش،التربية البيئية النموذج والتحقيق والتقويم،ص: ١٦،دار المعارف،القاهرة،الطبعة الأولى،١٩٨٨م.

١٤٨- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم،المرجع البيئي في مراحل التعليم العام،ص: ١٢،القاهرة،د.ط،١٩٧٦م.

١٤٩- إبراهيم عصمت مطاوع،التربية البيئية في الوطن العربي،ص: ١٢،دار الفكر،مصر،الطبعة الأولى،١٩٩٥م.

١٥٠- محمد سعيد الصباريني وزميله،الإنسان والبيئة،ص: ١٩٨،مكتب الكتاني،أربد،الأردن،الطبعة الأولى،١٩٩٤م.

١٥١- محمد منير سعد الدين،التربية البيئية،ص: ١٤،دار بيروت المحروسة،بيروت،الطبعة الأولى،١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

١٥٢- المرجع نفسه،ص: ١٦.

١٥٣- محمد السيد أرناؤوط،الإسلام والتربية البيئية،ص: ١٤٥،دار الأمل للنشر والتوزيع،جيزة،الطبعة الأولى،٢٠٠٠م.

١٥٤- لأن للبيئة أثراً كبيراً في صلاح سلوك الفرد أو فساده.

١٥٥- على الرغم من وضع قوانين لحماية البيئة،فإن الكثير من الناس يسيؤون إليها،كرمي الفضلات في غير أماكنها،وإتلاف الأشجار،والسرقة،وإشعال النار في الغابات...

١٥٦- رياض الجبَّان،التربية البيئية مشكلات وحلول،ص: ١٣،دار الفكر المعاصر،بيروت،الطبعة الأولى،١٩٩٧م.

١٥٧- ماجد عرسان الكيلاني،مناهج التربية الإسلامية،ص: ١٦٧،مرجع سابق،بتصرف.

١٥٨- أحمد حسين اللقاني وفارعة حسن محمد، التربية والبيئة واجب ومسؤولية،ص: ٥٥، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى،١٩٩٩ م، (بتصرف).

١٥٩- محمد السيد أرناؤوط،الإسلام والتربية البيئية،ص: ١٣٨،مرجع سابق.

١٦٠- ابراهيم عصمت مطاوع،التربية البيئية،ص: ٢٣،مرجع سابق.

١٦١- محمد السيد أرناؤوط،الإسلام والتربية البيئية،ص: ١٣٧،مرجع سابق.

١٦٢- من هذه المهارات: الاستماع مع الفهم،وإدراك المشكلات البيئية وتحديدها،وجمع المعلومات وتنظيمها وتحليلها،واقتراح الحلول البديلة،ووضع خطة للعمل.

١٦٣- صبري الدمرداش،التربية البيئية،ص: ٧٤،مرجع سابق.

١٦٤- محمد منير سعد الدين،التربية البيئية،ص: ١٣٩،مرجع سابق.

الفكر الجغرافي في كتاب نهج البلاغة

Geographical Mindset in the Road of Eloquence

أ.د رياض محمد علي عودة المسعودي

جامعة كربلاء/ قسم الجغرافيا التطبيقية.

Prof .Dr. Riaz Mohammad Ali Al-Masoudi
Applied Geography , University of Karbala

ملخص البحث:

ينبغي القول إنَّ علوم الجغرافيا وفروعها تنطلق من ثلاث حقائق وأُسسٍ مهمة تتمثل بـ (الثنائية –الطبيعية والبشرية- ، المكان ، الخارطة). ذلك ساعدنا في الوصول إلى حقائق أكثر أهمية تمثلت بالعمق المعرفي الهائل المتمثل بما ورد عن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام)، في خطبه ومراسلاته ووصاياه التي جمعت في مجموعة نهج البلاغة وشروحاته وتفصيلاته.

الشيء المهم الذي لابدَّ من بيانه هي تلك الحلقات والمساحات المعرفية المفقودة في العلوم التي تقع ضمن مجال الأسرار المعرفية والعلمية والحقائق الفيزيائية (العليات)، هذه المساحات نجد جلياً وضوحها في مرويات النبي محمد و آله الأطهار. إذْ انفردت علومهم بالدقة والواقعية والتراتبية التي قلما نجد لها مثيلاً ، ففيما يخص العلوم الطبيعية ومنها الجغرافيا نجد الجدلية الكبرى في خلق السموات والأرضين والشمس والكواكب الشمسية والمناخ وعناصره وخلق الذرات والمعادن والصخور والتربة والمياه والنبات والحيوان ودورات حياتها الطبيعية، التي استلزم الأمر أنْ نؤصلها فوجدت الضالة في الفكر النبوي العلوي الناصح والمتمثل بحالة البحث التي أشرنا إليها، والتي امتازت بالآتي:

-الرجوع بالخلق لله تعالى بما ورد في الآيات القرآنية الكريمة ومعرفة ما ورد فيها من حقائق مذهلة وناصعة وترجمتها للناس.

- الخروج عن النطاق والحيز البيئي لوجود علي بن ابي طالب.

-التنبؤ للمتغيرات الجغرافية ومستقبلها.

Abstract :
It is to state that the sciences of geography and its branches emanate from three salient facts : the duality of naturality and humanity , place and the map. Such lend us all the hand in fathoming the enormous epistemic depth delivered at the hand of Imam Ali in his ceremonies, messages and advices that are reckoned in the explanation of the Road of Eloquence.
The paper takes issue with certain facts that are innovative:
- Having recourse to Allah as mentioned in the Glorious Yates ,perceiving the pure facts and interpreting them to people.
- Transgressing the orbit and the environmental zone for the presence of Imam Ali.
- Predicting the future geographical changes.

المُقَدِّمة:

نهج البلاغة، كتاب جمع فيه الشريف الرضي مختارات عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ في جميع فنون المعرفة. وقد ارتكز هذا الجمع على: الخطب والمواعظ، العهود والرسائل، والحكم والآداب. وهو يتضمن عجائب البلاغة وغرائب الفصاحة وجواهر العربية، وهو ما لا يوجد مجتمعاً في كلام، ولا مجموعاً في كتاب، وكيف لا يكون كذلك، وصاحبه مشرع الفصاحة وموردها، ومنشأ البلاغة ومولِدها. ومنه ﷺ ظهر مكنونها، وعنه أُخذت قوانينها[١].

يضم الكتاب (٢٣٧) كلاماً وخطبة و [٧٩] بين كتاب ووصية وعهد و (٤٨٠) من الكلمات القصار[٢].

هنا في بحثنا نسلط الاضواء على النزر القليل من فيض مكنوناته بما يدور في مضمار علوم الجغرافيا وفروعها الاساسية التي نالت شيئاً لا بأس به من المعطيات والمؤشرات والرؤى العظيمة التي يمكن من طريقها الاستدلال على مكنونات علم الجغرافيا وأسراره التي لم ينجح علماؤها لغاية اليوم من الوصول على الكثير من تفسير لغز تلك القوى الطبيعية والبشرية التي تحرك عناصر الجغرافيا سواء من حيث السبب والنتيجة على حدٍّ سواء. فقد وردت فيه الكثير من المعطيات والإضاءات الجغرافية خصوصاً حول حركة الشمس والقمر واختلاف الليل والنهار وحركة الرياح وتأثيراتها على السكان وحركة السُحب، وانتفاع الناس من الأرض وعن طبيعة طوبوغرافية الأرض وآلية انبساط الأرض، فضلاً عن الارتباط الوثيق بين الجانب العبادي للسكان بالظواهر الجغرافية. عموماً إنَّ العلوم بحسب ما ذكرها الإمام علي ﷺ تندرج بأربعة اتجاهات " الفقه للأديان، والطب للأبدان والنحو للسان ، والنجوم لمعرفة الزمان"[٣].

مشكلة الدراسة: ما مدى اقتراب المقولات الذي ذكرها الإمام علي ﷺ من تلك النظريات الحديثة في علم الجغرافيا.

فرضية الدراسة: كتاب نهج البلاغة فيه قدسية كبيرة وردت فيه معلومات وإضاءات علمية هائلة نالت منها العلوم الجغرافية الشيء الكثير.

أولاً:

قال تعالى(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا*وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا*وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا*وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا*)[٤].ورد في خطبته ﷺ :"وجعل شمسها آية مبصرة لنهارها وقمرها آية ممحوة من ليلها فأجراها في مناقل مجراها وقدر سيرهما في مدارج درجهما ليميز بين الليل والنهار بهما"[٥].

الشمس خلق عظيم وهي آية من آيات الله عز وجل فأقسم بها من حيث ظهورها واحتجابها وأقسم بالقمر حيث يتصل ضوؤه بضوء الشمس بحيث لا تفصل الظلمة بينهما واقسم بالنهار الذي أظهر الشمس وأبرزها للعيان جلية واضحة وبيَّن قدرة الله تعالى في جعل الليل يغطي ضوء الشمس ولا يبقى لها أثر مباشر[٦]. وهنا أشار الإمام علي بن ابي طالب﵇ إلى قدرة الله في خلق الشمس والقمر والليل والنهار، فمن نعمه (عز وجل) أنْ سخر لنا الشمس والقمر وذللهما، ولنتفع بالشمس من ضوئها وحرها للدفء ونضج الثمار وتقويم الحساب للثواني والدقائق والساعات والأيام والاسابيع والشهور والسنين[٧]. وهنا نُشير إلى الإضافات والإسهامات الكبيرة التي أضافتها إلى الفكر الجغرافي الحديث وأثرها في الاستدلال الزمني كون علم الجغرافيا علم (المكان والزمان)، فضلًا عن ارتباط الظاهرة الجغرافية بشكل مباشر بالزمن كونها حركية (ديناميكية).

ثانياً:

قال تعالى (ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)[٨]. وقوله تعالى (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)[٩]. ورد في خطبة له ﵇: إذ قال: "الحمد لله كلما وقب ليل وغسق"[١٠]. استشهاداً لما تقدم من ذكر التدبير الجاري في نظام الليل والنهار إذ يزيد او ينقص ذلك بحسب الفصول المختلفة من حيث المدة والخصائص وبحسب الموقع الجغرافي (الفلكي والارضي)، وبقاء الأرض في نظام ثابت جار على اختلافه وكذا التدبير الجاري في الشمس والقمر على اختلاف طلوعهما وغروبهما واختلاف مسيرهما، وكل يجري بنظام معقد ودقيق للغاية بدون اختلاف او تشويش في النظام الذي لهما وهذا كله مما يمتنع من غير علم وخبرة من مدبرها فالمراد بجريان الشمس والقمر المسخرين إلى اجل مسمى انتهاء كل وضع من اوضاعها على وقت محدد ومقدر ثم عودتهما إلى البدء فمن شاهد هذا النظام الدقيق الجاري لم يشك في أمر مدبره[١١].

لقد بيَّن الإمام علي بن الحسين السجاد ﵇ في دعائه عند الصباح أو المساء ذلك إذ قال: "الحمد لله الذي خلق الليل والنهار بقوته وجعل لكل واحد منهما حدًا محدودًا وأمدًا ممدودًا يولج كل واحد في صاحبه ويولج صاحبه فيه بتقدير منه للعباد"[١٢]. فقد أراد الامام علي بن الحسين ﵇ التعريف بما لا تدركه العقول في تلك العصور والمتمثل بكروية الأرض، إذ إن هذا المعنى بعيد عن أفهام الناس لانصراف العقول

عن إدراك ذلك، لقد تلطف الإمام ﷺ وهو العالم بأساليب البيان بإشارته إلى ذلك بأسلوب بليغ فلو كان بصدد ما يشاهده عامة الناس من أن الليل ينقُص تارة فتضاف من ساعاته إلى النهار تارة أُخرى فتضاف من ساعاته إلى الليل، لذا لم يقتصر الإمام ﷺ في قوله على الجملة الأولى فقط (يولج كل واحد منهما في صاحبه) واحتاج إلى ذكر الجملة الثانية (يولج صاحبه فيه)، للدلالة على كروية الأرض. فمثلًا عندما يلازم إيلاج الليل في النهار يكون ايلاج النهار في الليل عند قوم آخرين[١٣].

ثالثًا:

ورد في خطبة له ﷺ: "... ونشر الرياح برحمته.."[١٤]. إذْ ورد المعنى بقوله تعالى: (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)[١٥] فإنَّ المفسرين الاقدمين وان حملوا اللقاح في الآية الكريمة على معنى الحمل باعتبار انه احد معانيه، وفسر الآية المباركة بحمل الرياح للسحاب، او المطر الذي يحمله السحاب، فما تقوم به الرياح هو انها تدفع السحاب من مكان لآخر، والنظر الصحيح ان الرياح أيضًا- بعد ما اكتشفه علماء النبات- تفيدنا سرًا دقيقًا لم تدركه أفكار السابقين هو الإشارة إلى حاجة الشجر والنبات إلى اللقاح، وأنَّ اللقاح يكون سبب الرياح، وهذا كما في المشمش والرمان والصنوبر والقطن والحبوب وغيرها، فاذا نضجت حبوب الطلع وانفتحت الاكياس وانتشرت خارجها محمولة على أجنحة الرياح فتسقط على مياسم الازهار الاخرى بشكل عفوي[١٦]. وقوله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)[١٧]. فالمراد بكون الرياح مبشرات تبشيرها بالمطر حيث تهب قُبيل هطوله على الارض، وقوله تعالى ليذيقكم من رحمته هو عطف على موضوع مبشرات لما فيها من معنى التعليل والتقدير ويرسل الرياح لتبشركم وليذيقكم من رحمته والمراد بإذاقة رحمته إصابة أنواع النعم المترتبة على جريان الرياح، كتلقيح الاشجار ودفع العفونات وتنقية الاجواء وغير ذلك مما يشمله إطلاق الجملة، وقوله تعالى (ولتجري الفلك بأمره) أي جريان الرياح وهبوبها، وقوله تعالى (ولتبتغوا من فضله) أي تطلبوا من رزقه الذي هو من فضله[١٨]. فضلًا عن ذلك فقد ورد ذكر الرياح في قوله تعالى (وتصريف الرياح)، فالتصريف هو النقل والتغيير، أما الرياح فهو الهواء المتحرك بفعل الاختلاف في الضغط أو وزن الهواء في مساحة ما. وتصريف الرياح هو تغييرها وتبديلها وتوجيهها بإرادة الله عز وجل فان في ذلك دخلا في بقاء النبات والحيوان بل البشرية جمعاء من حيث المرض والصحة وكدرة النفس وصحوتها، كما أثبته العلم الحديث. فقد ذكر ان الرياح على طبائع مختلفة منها، الصبا وحلها من مطلع الشمس والجدي عند الاعتدال، والشمال من الجدي إلى مغرب الشمس. ومنها الأعاصير،

ومنها الملقحة للنبات، ومنها العميقة والمتناوحة التي تهب من كل جانب ومنها الاستوائية الدافئة والقطبية الباردة والموسمية والتجارية التي تجري بها السفن ومنها الهادئة، كل هذه تهب وفق الإرادة الأزلية وبحسب الحكمة والنظام مما يدل على حكمة صانعها ورحمة مدبرها ومنِّه على خلقه[١٩].

رابعًا:

ورد أيضًا في إحدى خطبه ﷺ: "فمن أحب الدنيا وتولاها أبغض الآخرة وعاداها وهما بمنزلة المشرق والمغرب وماشٍ بينهما كلما قرب من واحد بَعُد عن الآخر"[٢٠]. إنَّ من الأسرار التي كشف عنها القرآن قبل أربعة عشر قرنًا هو وجود قارة أخرى أو عدة قارات أخرى غير تلك التي يعيش عليها البشر نفسه. فقال تعالى (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ)[٢١]. هذه الآية الكريمة قد شغلت أذهان المفسرين قرونًا عديدة فذهبوا في تفسيرها مذاهب شتى، فقال بعضهم مشرق الشمس ومشرق القمر ومغربهما، وحمله بعضهم على مشرق الصيف والشتاء ومغربهما، ولكن الظاهر أنَّ المراد بها الإشارة إلى وجود قارة أخرى تكون على السطح الآخر للأرض يُلازم شروق الشمس عليها غروبها عنا، ذلك بدليل قوله تعالى(حَتَّى إِذَا جَاءنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ)[٢٢]. فإنَّ الظاهر من هذه الآية أنَّ البعد بين المشرقين هو أطول مسافة محسوسة، فلا بدَّ من أن يراد بها المسافة التي ما بين المشرق والمغرب، ومنها ذلك أن يكون المغرب مشرقًا لجزء آخر من الكرة الأرضية، ليصح هذا التعبير، فالآية الكريمة تدل على وجود هذا الجزء الذي لم يُكتشف إلاَّ بعد مئات السنين من نزول القرآن الكريم[٢٣]. الشيء المهم الذي لا بدَّ من بيانهِ أنَّ الشمس وحركتها قد أخذت الكثير من اهتمام العلماء والفلاسفة ورجال الدين ودخلت في الاساطير وغيرها، بل اتُّخذت إلهًا عند بعض الحضارات، وشغلت بالهم معتقدات دورانها وشكلها، لكنَّ الإشارات التي وردت على لسان الإمام ﷺ، كانت الفيصل في فك لغز ذلك، وتأكيد حركتها وشكلها الظاهريين.

خامسًا:

أورد الإمام علي ﷺ:" وأرسى أرضًا يحملها الأخضر....فجعلها لخلقه مهادًا، وبسطها لهم فراشا...."[٢٤]. قال الله تعالى (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى)[٢٥]. لقد تضمن قول الامام ﷺ ما جاء في الآية القرآنية الكريمة من إشارة جميلة إلى حركة الأرض التي لم تتضح إلاَّ بعد قرون وكيف استعير للأرض لفظ المهد الذي يُعمل للطفل الرضيع، فهو يهتز بنعومة ورفق لينام فيه مستلقيًا ومستريحًا هادئًا وكذلك الأرض فهي ملائمة لهم

من جهة حركتها الوضعية والانتقالية فكما أنَّ تحرك المهد لغاية تربية الطفل واستراحته، كذلك الأرض فإنَّ حركتها اليومية والسنوية هي لتربية الإنسان، بل جميع ما عليها من الكائنات الحية وغير الحية. وقد أشارت الآية المباركة إلى حركة الأرض إشارةً جميلة ولم تُصرح بها لأنها نزلت في زمان اجتمعت عقول البشر فيه على سكون الأرض حتى أنه كان يُعد من الضروريات التي لا تقبل التشكيك[٢٦]. لقد تجرأ الحكيم (غاليليو) بعد الألف الهجري فأثبت الحركتين للأرض الوضعية والانتقالية فأهانوه واضطهدوه حتى قارب الهلكة ثم سُجن طويلًا، فصار حكام الفرنجة يكتمون اكتشافاتهم الأنيقة المخالفة للخرافات العتيقة خوفًا من الكنيسة الرومية[٢٧]. ولا يُمكن أن نغفل ذكر ما آلت إليه العديد من النظريات في موضوعة الجغرافيا الحيوية Biogeography ، التي ما انفكت من تبيين دور الطبيعة في تشكيل الغلاف الحيوي ونسيان أو تناسي دور الله عز وجل في توفير سُبل تكوين هذا الغلاف وديمومته.

سادسًا:

ورد في خطبة أخرى لأمير المؤمنين علي عليه السلام قال "وأنشأ السحاب الثقال فأهطل ديمها وعدد قسمها فبلَّ الأرض بعد جفوفها وأخرج نبتها بعد جدوبها"[٢٨]. وقال أيضًا عليه السلام "...ومتراكم سحابه أرسله متداركًا، فلما القت السحاب برك بوانيها وباع ما أستقلت به العبء المحمول عليها أخرج به من هوامد الأرض النبات، ومن زعر الجبال الأعشاب فهي تبتهج بزينة رياضها وتزدهي بما البسته من ريق أزاهيرها،..."[٢٩]. لقد ورد هذا المعنى بقوله تعالى: (الله الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاء كَيْفَ يَشَاء وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)[٣٠] كذا في قوله تعالى: (أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ الله تَعَالَى الله عَمَّا يُشْرِكُونَ)[٣١]. إنَّ الله عز وجل يرسل الرياح فتحرك وتنشر ذلك السحاب في جهة العلو من الجو (السماء) ويجعله قطعات متراكبة فترى قطرات المطر تخرج من خلاله وهنا تعني الآية الكريمة تلك الرحمة الإلهية المتمثلة برحمة المطر النازل من السحاب وما يترتب من نزول المطر من إنبات وإحياء الموجودات، فضلاً عن المظاهر التي يكونها المطر والمياه الجارية في إعادة تشكيل معالم سطح الأرض وباطنه، فبتسخيره (جل وعلا) للرياح والسحاب والأمطار تتحقق الحياة في الأرض وما عليها[٣٢]. الإشارات التي وردت هنا يتمُّ اليوم التعرض لها بمفهوم دورة المياه في الطبيعة والنشاط الفيزيائي المعجز في حدوثها دون خلل او مشاكل ليتحرر الماء منها ليكون سببًا في وجود الحياة وسرًا من أسرار وجودها، بل بها تزول الحياة بزوال الماء وانقطاع دورة المياه في الطبيعة.

سابعًا:

ورد في خطبةٍ له ﷺ قال "فصلوا بالناس الظهر حتى تفيئ (*)الشمس من مربض العنز وصلوا بهم العصر والشمس بيضاء حية في عضوٍ من النهار.... وصلوا بهم العشاء حين يتوارى الشفق إلى ثُلث الليل"[٣٣]. وقد ورد المعنى في قوله تعالى: (أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا)[٣٤]، عن عبيد الله بن زرارة سأل الإمام الصادق ﷺ عن تفسير هذه الآية فقال "إنَّ الله تعالى افترض أربع صلوات أول وقتها زوال الشمس إلى انتصاف الليل منها صلاتان أول وقتها عند زوال الشمس إلى غروبها إلاَّ أنَّ هذه قبل هذه ومنها صلاتان أول وقتها من غروب الشمس على انتصاف الليل إلاَّ أنَّ هذه قبل هذه"[٣٥]. فلحركة الشمس أثر كبير في حياة الإنسان حيث ارتباطه بالله (عز وجل) ووقت صلاته ودعائه. فدلوك الشمس في الآية الكريمة يعني بها زوالها من دائرة نصف النهار والتي يتحدد معها وقت الظهر أو يعني بها الميل إذ إنَّ الشمس تميل من دائرة نصف النهار إلى طرف المغرب[٣٦].

ثامنًا:

ورد في خطبة له ﷺ أنَّه قال ".... ورب هذه الأرض التي جعلها قرارًا للأنام.... ورب الجبال الرواسي التي جعلها أوتادًا وللخلق أعمادًا"[٣٧]. لقد ورد المعنى بقوله سبحانه وتعالى (وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ)[٣٨]. فمن لطائف رحمة الله أنْ بسط الأرض وجعلها طويلة وعريضة لكي تكون موضع استقرار وسكن لسائر الكائنات الحية والموجودات غير الحية، وجعل فيها الجبال التي عبَّر عنها القرآن الكريم بالرواسي لأنَّها السبب في اضطرابها في الماء وعدم تفتتها كما ترسو السفينة في الماء وتستقر، وأنبت النبات في الأرض بدقة إحكام وتقدير وليس في ذلك اعتباط في حجمه وشكله ولونه وسائر مزاياه بل كل ذلك بالوزن والتقدير[٣٩].

ولو أمعنا النظر إلى الجبال لحسبناها واقفة في مكان واحد ولكنها في الحقيقة تمر مرًا حثيثًا كما يمر السحاب[٤٠]. كما ورد في قوله تعالى :(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ الله الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ)[٤١].اليوم هناك العديد من النظريات التي انطلقت من نهايات القرن الثامن عشر تتحدث عن نشوء معالم سطح الأرض او ما يُعرف بالتضاريس Relief ، التي تتباين من حيث الشكل والارتفاعات وكلها وقفت عاجزة عن بيان تلك القوى الخفية في تكوين تلك المظاهر العظيمة وجعلتها في خانة قوى الحرارة والتفاعلات والتوازن وكلها لا يُمكن الركون إليها دون الغور العميق في وجود قوى أكبر وأكثر عقلانية في بيان نشأة تلك المظاهر العملاقة.

تاسعًا:

يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: "...ليس بلدٌ بأحقَّ بك من بلدٍ...خيرُ البلادِ ما حَمَلَكَ..."[٤٢]. ومما ورد في الكريم الحكيم: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)[٤٣]، فالرقعة الجغرافية بمنافعها تتماشى مع إنسانية شاغلها، وبها نتخطى مشاكل عديدة منها المشكلة الاقتصادية ومشكلة الموارد والمشاكل الإنسانية والأخلاقية وغيرها من المشكلات التي تتعلق بها أو ناجمة عنها، لذا قد يؤثر أحد الجوانب او بعضها او غالبيتها في اختيار الموقع الاقتصادي، وأهمية معرفة ما يؤثر فيه من القرب أو البُعد عن أي من الموارد الجاذبة[٤٤].

إنَّ أبرز ما يتضمنه القول المبارك لأمير المؤمنين عليه السلام[٤٥]:

الأحقية المكانية: فهدر القدرات والطاقات والخيرات والمواهب والإبداعات، أمر خطير، ومسؤولية يتحملها كل مسؤول، وكل من يسهم في اقتراف مثل هذا الذنب العظيم والجريمة الإنسانية، وفي عالمنا المعاصر، أرفع موجود لدى الدولة والمشاريع والمؤسسات، هو رأس المال المعرفي والعلمي والعقلي.

الأفضلية المكانية: هو ما يشمل قدرات البلاد على الإفادة من كل ما يمتلكه الإنسان من قدرات وقابليات على الإبداع والابتكار، ودوره الحاسم في اختيار أفضل السُبل في اختيار موقع المشروع وديمومته (الاستدامة) والاستثمار الأمثل للموارد الاقتصادية ووسائل الإنتاج لغرض الإفادة القصوى منها للجيل الحالي وللأجيال القادمة.

الاستنتاجات:

أخذت الظاهرة الجغرافية خصوصًا الطبيعية منها اهتمامًا كبيراً لدى أمير المؤمنين(عليه السلام)، مركزًا على محورية تلك الظواهر والإعجاز الكبير فيها.

هناك دور كبير للظاهرة الجغرافية في حياة السكان بصورة مباشرة وغير مباشرة، وذلك بارتباط العديد من المعتقدات والعبادات الدينية الإسلامية بالظاهرة الجغرافية، حال الصلاة والحج والصيام وغيرها. لذلك ركز الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام)عليها.

نهج الإمام علي بن ابي طالب(عليه السلام) في العديد من خطبه وحكمه على الاستعانة بالظاهرة الجغرافية ، ليبين للناس نعم الله تعالى عليهم وتسخير تلك النعم لهم.

إنَّ جميع النظريات الحديثة ، في تفسير نشأة الكون والمجموعة الشمسية، لا ترتقي لما ذكرَه الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام). لكونها لم تأخذ بنظر الاعتبار الأُسس العلمية التي وردت في القرآن الكريم.

التوصيات:

ضرورة إنشاء مركز وطني متخصص في البحث عن الآثار العلمية العظيمة التي أوردها أمير المؤمنين(عليه السلام).

تأكيد الاعتماد على ما أورده أمير المؤمنين(عليه السلام)، في تفسير الكثير من النظريات العلمية الحديثة، فضلًا عن أهمية وضع نظريات علمية حديثة تتناغم مع المعطيات الجغرافية التي أُشير إليها.

التوصية بإنجاز أطلس جغرافي حديث مستوحى من معطيات الظواهر الجغرافية التي أوردها وأشار إليها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام).

هوامش البحث ومصادره

١. منصور مذكور شلش، نهج البلاغة بين صحة النسبة إلى المؤلف وتوثيق النص دراسة في كتاب نهج البلاغة، مجلة أهل البيت، جامعة أهل البيت، العدد (١١) السنة السادسة، ٢٠١١، ص٦.

٢. ابن أبي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة، المجلد الثامن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ٢٠٠٤، ص٦٧.

٣. باقر شريف القرشي، المعالم الحضارية في نهج البلاغة، ط١، (تحقيق) مهدي باقر القرشي، مؤسسة الإمام الحسن عليه السلام، ٢٠١٢، ص٢٧.

٤. القرآن الكريم، سورة الشمس.

٥. محمد عبده، شرح نهج البلاغة، الجزء الاول، دار المعرفة لطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ص١٣.

٦. محمد جواد مغنية، التفسير الكاشف، المجلد السابع، ط١، مؤسسة الكتاب الاسلامي، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣، ص٥٧٠.

٧. محمد حسين الشيرازي، تقريب القرآن إلى الأذهان، المجلد الثالث، ط١، دار العلم للتحقيق والطباعة والنشر، ٢٠٠٣، ص١٣٢.

٨. القرآن الكريم، سورة الحج/ ٦١.

٩. القرآن الكريم، سورة لقمان/ ٢٩.

١٠. محمد عبده، مصدر سابق، ج١، ص٩٧.

١١. محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ط٢، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٩٧٣، ص٢٣٤.

١٢. الصحيفة السجادية الكاملة، تقديم محمد باقر الصدر، ط٣، مؤسسة الثقلين الثقافية، دمشق، ص ص٣٢-٣٣.

١٣. أبو القاسم الخوئي، البيان في تفسير القرآن، ط٣، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٩٧٤، ص٧٦.

١٤. محمد عبده، المصدر السابق، ص١٤.

١٥. القرآن الكريم، سورة الحجر/ ٢٢.

١٦. أبو القاسم الخوئي، مصدر سابق، ص٧٢.

١٧. القرآن الكريم، سورة الروم/ ٤٦.

١٨. محمد حسين الطباطبائي، مصدر سابق، ص١١٩.

١٩. عبد الأعلى السبزواري، مواهب الرحمن في تفسير القرآن، الجزء الثاني، مطبعة الآداب، النجف الاشرف، ١٩٨٦، ص٢٨.

٢٠. محمد عبده، ج٤، مصدر سابق، ص٢٣.

٢١. القرآن الكريم، سورة الرحمن/ ١٧.

٢٢. القرآن الكريم، سورة الزخرف/ ٣٨.

٢٣. أبو القاسم الخوئي، مصدر سابق، ص٧٣.

٢٤. محمد عبده، ج٢، مصدر سابق، ص١٩١.

٢٥. القرآن الكريم، سورة طه/ ٥٣.

٢٦. أبو القاسم الخوئي، مصدر سابق، ص٧٢.

٢٧. هبة الدين الشهرستاني، الهيئة والإسلام، طبعة بغداد، ١٣٨١هـ، ص٦٣.

٢٨. محمد عبده، ج٢، مصدر سابق، ص١١٩.

٢٩. المصدر نفسه، ١٧٥.

٣٠. القرآن الكريم، سورة الروم/ ٤٨.

٣١. القرآن الكريم، سورة النمل/ ٦٣.
٣٢. محمد حسين الطباطبائي، مصدر سابق، ص٢٠٢.
٣٣. (*)أي تصل في ميلها جهة الغرب إلى أنْ يكون لها فيئ أي (ظل) من حائط المربض على قدر طوله وذلك حيث يكون ظل كل شيء مثله.
٣٤. محمد عبده،ج٣، ص٨٢.
٣٥. القرآن الكريم، سورة الاسراء/ ٧٨.
٣٦. الحر العاملي، وسائل الشيعة، المجلد٢٠، ط١، ج٣، دار إحياء التراث العربي، ص١١٥.
٣٧. ناصر مكارم الشيرازي، الامثل في تنزيل كتاب الله المنزل،ط١،ج٧، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ٢٠٠٧، ص٣٦٥.
٣٨. محمد عبده، ج٢، مصدر سابق، ص٨٣.
٣٩. القرآن الكريم، سورة الحجر/ ١٩.
٤٠. محمد الحسيني الشيرازي، مصدر سابق، ص١٦٢.
٤١. فتح الله بن شكر الله الشريف الكاشاني، زبدة التفاسير، ط١، ج٥، مؤسسة المعارف الإسلامية، قم المقدسة، إيران، ١٤٢٣هـ، ص٢٩.
٤٢. القرآن الكريم، سورة النمل/ ٨٨.
٤٣. محمد عبده، مصدر سابق، ج٣، ص٥٥٤.
٤٤. القرآن الكريم، سورة الملك/ ١٥.
٤٥. إدجار هوفر، النظرية المكانية في إختيار المكان المناسب للنشاط الإقتصادي، (ترجمة)عزت عيسى غوراني، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ١٩٧٤، ص١٢٣.
٤٦. المحنك، هاشم حسين ناصر، علم الاقتصاد في نهج البلاغة،ط١، دار انباء للطباعة والنشر، ١٩٩١، ص٢٢٢.

الهِجرَةُ
في مفهومِ أميرِ المؤمنين
الإمامِ عليٍّ عليه السلام

Immigration in the
Conceptuality of the
Commander of the Believers
Imam Ali (Peace be upon him)

أ.د. جواد كاظم النصرالله

جامعة البصرة / كلية الآداب/ قسم التاريخ

Prof. Dr. Jawad K. Al.Nasrullah

Dpartment of History

College of Arts . Basra University

م.د.انتصار عدنان العواد

جامعة البصرة / كلية الآداب/ قسم التاريخ

Lecturar. Dr. Intisar A. Al.Awwad

Dpartment of History

College of Arts . Basra University

ملخص البحث :

إن الهجرة في نظر الإسلام لا تقتصر على الهجرة المكانية والخارجية بل يلزم قبل ذلك أن تتحقق لدى الفرد المسلم هجرة داخلية باطنية، يترك فيها كل ما ينافي الأصالة والكرامة الإنسانية، لكي يتيسر له بهذا السبيل الهجرة المكانية – إذن فالهجرة الباطنية ضرورية قبل أن يبدأ الإنسان المسلم هجرته الخارجية – وإذا لم يكن بهذا الإنسان حاجة إلى الهجرة الخارجية، يكون قد نال درجة المهاجرين بهجرته الباطنية.

نجد هذا المعنى ماثلا في أحاديث النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم كما في قوله: " أفضل الهجرة أن تهجر ما كره الله"

Abstract:
Not only does immigration, in view of Islam, designate the acts of transferring from one place to another, but also it refers to the innermost journey; man has to run a change in himself before physically immigrating and has to abnegate whatever derails from originality and human dignity, as such it will be possible to lead the immigration acts, such comes in line with the speeches of the great prophet (Peace be upon him and his posterity) : Best of all

الهجرة لغة: مأخوذة من هجر: وكلمة هجر تأتي بمعنيين:

الأول: الهجَرَ بالفتح يعني الهذيان، والهُجر بالضم الاسم من الاهجار، وهو الإفحاش في المنطق [١]، ويقال للنخلة الطويلة ذهبت الشجرة هجرا أي طولا وعظما، وهذا أهجر من هذا أي أطول منه، وناقة مهجرة، أي فائقة في الشحم، ويقال لكل شيء أفرط في الطول أو تمام وحسن إنه لمهجر، ويقال جارية مهجرة، إذا وصفت بالفراهة والحسن، وإنما قيل ذلك لان واصفها يخرج من الحد المقارب للشكل الموصوف في صفة فكأنه يهجر فيها أي يهذي [٢].

الثاني: الهجر ضد الوصل، وقد هجره هجرا وهجرانا: صرمه، والاسم الهجرة. ويقال هجرت الشيء هجرا إذا تركته وأغفلته، وهجر فلان الشرك هجرا وهجرانا وهجرة حسنة ، والتهاجر: التقاطع [٣].

والهجرة: بالكسر والضم، الخروج من أرض إلى أخرى، ولقيته عن هجرة، بالفتح أي بعد حول أو بعد ستة أيام فصاعدا أو بعد مغيب [٤]. وأصل المهاجرة عند العرب خروج البدوي من باديته إلى المدن، يقال: هاجر الرجل إذا فعل ذلك، وكذلك كل مخل بمسكنه منتقل إلى قوم آخرين بسكناه، فقد هاجر قومه [٥].

وقد سمي المهاجرون مهاجرين لأنهم تركوا ديارهم ومساكنهم التي نشؤوا فيها لله، ولحقوا بدار ليس لهم بها أهل ولا مال حين هاجروا إلى المدينة، فكل من فارق بلده من بدوي أو حضري أو سكن بلداً آخر، فهو مهاجر، وكل من أقام من البوادي بمباديهم ومحاضرهم في القيظ، ولم يلحقوا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولم يتحولوا إلى أمصار المسلمين وان كانوا مسلمين، فهم غير مهاجرين، وليس لهم في الفيء نصيب [٦].

لقد كان لهؤلاء (المهاجرين) ميزة في تاريخ الإسلام، إذ مثلوا الحجر الأساس لصرح الإسلام، فقد أثنى عليهم القرآن بالتكريم، وأولاهم عنايته الخاصة؛ لأنهم بذلوا في سبيل الله كل ما ملكوا من غال ونفيس [٧].

إن الهجرة في نظر الإسلام لا تقتصر على الهجرة المكانية والخارجية بل يلزم قبل ذلك أن تتحقق لدى الفرد المسلم هجرة داخلية باطنية، يترك فيها كل ما ينافي الأصالة والكرامة الإنسانية، لكي يتيسر له السبيل إلى الهجرة المكانية – إذن فالهجرة الباطنية ضرورية قبل أن يبدأ الإنسان المسلم هجرته الخارجية – وإذا لم يكن بهذا الإنسان حاجة إلى الهجرة الخارجية، يكون قد نال درجة المهاجرين بهجرته الباطنية [٨].

نجد هذا المعنى ماثلا في أحاديث النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم كما في قوله: " أفضل الهجرة أن تهجر ما كره الله " [٩]، وأوضح صلى الله عليه وآله وسلم أن أفضل الهجرة " أن تهجر السوء " [١٠] ، وفي حديث آخر إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن الهجرة خصلتان إحداهما ان تهجر السيئات والأخرى ان تهاجر إلى الله ورسوله ولا تنقطع الهجرة ما تقبلت التوبة [١١]. وفي رواية " أشرف الهجرة أن تهجر السيئات " [١٢].وفي حديث لأمير المؤمنين عليه السلام يقول فيه " ويقول الرجل هاجرت ولم يهاجر، إنما المهاجرون الذين يهجرون السيئات ولم يأتوا بها " [١٣] .

نجد في هذا الحديث ما يدل على أن الذين هاجروا بأجسامهم دون أن تتحقق هجرة حقيقية في بواطنهم، هم ليسوا في درجة المهاجرين الذين استوجبوا رضا الله ورسوله.

ولقد جاء في أحاديث النبي ﷺ بشأن الهجرة ما قد يبدو للوهلة الأولى أنها متناقضة أو متعارضة، إذ يقول ﷺ: " لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية" [١٤]، ولكنه في حديث آخر يقول: " لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة" [١٥]. وقد جمع ابن الأثير [١٦] بين الحديثين، بالتأويل الآتي: الهجرة هجرتان: أحداهما التي وعد الله عليها الجنة في قوله: ((إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ))١٧، فكان الرجل يأتي النبي ﷺ ويدع أهله وماله لا يرجع في شيء منه، وينقطع بنفسه إلى مهاجره، وكان النبي ﷺ يكره أن يموت الرجل في الأرض التي هاجر منها، فقال حين قدم مكة " اللهم لا تجعل منايانا بها " [١٨] فلما فتحت مكة صارت دار إسلام كالمدينة، وانقطعت الهجرة.

والهجرة الثانية: من هاجر من الأعراب وغزا مع المسلمين، ولم يفعل كما فعل أصحاب الهجرة الأولى، فهو مهاجر، وليس بداخل في فضل من هاجر تلك الهجرة ، وهو المراد بقوله: " لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة " فهذا وجه الجمع بين الحديثين.

ولكن الإمام أمير المؤمنين ﷺ يكشف عن مفهوم آخر للهجرة إذ يقول:" والْهِجْرَةُ قَائِمَةٌ عَلَى حَدِّهَا الأَوَّلِ، مَا كَانَ لله فِي أَهْلِ الأَرْضِ حَاجَةٌ، مِنْ مُسْتَسِرِّ الإِمَّةِ ومُعْلِنِهَا، لَا يَقَعُ اسْمُ الْهِجْرَةِ عَلَى أَحَدٍ، إِلَّا بِمَعْرِفَةِ الْحُجَّةِ فِي الأَرْضِ، فَمَنْ عَرَفَهَا وأَقَرَّ بِهَا فَهُوَ مُهَاجِرٌ، ولَا يَقَعُ اسْمُ الِاسْتِضْعَافِ عَلَى مَنْ بَلَغَتْه الْحُجَّةُ، فَسَمِعَتْهَا أُذُنُه ووَعَاهَا قَلْبُه" [١٩].

وفي هذا النص جملة أمور يستلزم المقام الوقوف عندها بمزيد من التأمل:

لقد اختلف الشراح في هذا المقطع من كلامه الشريف فابن أبي الحديد المعتزلي [٢٠] فرق بين هذه الهجرة التي ذكرها أمير المؤمنين ﷺ وبين الهجرة التي ذكرها النبي ﷺ بقوله: " لا هجرة بعد الفتح" إذ شفع عمه العباس بن عبد المطلب في نعيم بن مسعود الاشجعي [٢١] أن يستثنيه، فاستثناه، وخص الأولى بالهجرة إلى الإمام، التي عدها من أسرار الوصية.

بينما نجد ابن ميثم [٢٢] يعطي لكلامه تأويلا آخر إذ عند شرحه لكلام الإمام ﷺ: " الهجرة قائمة على حدها الأول"، يقول: " إذ لما كانت حقيقة الهجرة ترك منزل إلى منزل آخر لم يكن تخصيصها عرفا بهجرة رسول الله ﷺ ومن تبعه وهاجر إليه من مكة إلى المدينة، مخرجا لها عن حقيقتها وحدها اللغوي، إذ كان أيضا كل من ترك منزله إلى منزل آخر مهاجرا.

ويضيف ابن ميثم [٢٣]: إذا عرفت ذلك فنقول: إن مراده ﷺ من بقاء الهجرة على حدها بقاء صدقها على

من هاجر إليه والى الأئمة من أهل بيته في طلب دين الله وتعرف كيفية السلوك لصراطه المستقيم كصدقها على من هاجر إلى الرسول ﷺ وفي معناها ترك الباطل إلى الحق وبيان هذا الحكم بالمنقول والمعقول.

ثم يبين ابن ميثم[٢٤] ذلك نقلا وعقلا، فيذكر: أما المنقول فمن وجهين: أحدهما: قوله تعالى: ((وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ الله يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً)) [٢٥]، فقد سمى من فارق وطنه وعشيرته في طلب دين الله وطاعته مهاجرا. وقد علمت في أصول الفقه: (من) للعموم فوجب أن يكون كل من سافر لطلب دين الله من معادنه مهاجرا. الثاني: قول الرسول ﷺ: " المهاجر من هجر ما حرم الله عليه" [٢٦]، وظاهر إن من هاجر معصية الأئمة إلى طاعتهم والاقتداء بهم، فقد هاجر ما حرم الله عليه فكان اسم الهجرة صادقا عليه.

وأما المعقول: فلأن المفارق وطنه إلى الرسول ﷺ مهاجر، فوجب أن يكون المفارق لوطنه إلى من يقوم مقامه من ذريته الطاهرين مهاجرا لصدق حد الهجرة في الموضعين، ولان المقصود من الهجرة ليس إلا اقتباس الدين وتعرف كيفية سبيل الله، وهذا المقصود حاصل ممن يقوم مقام الرسول ﷺ من الأئمة الطاهرين عليهم السلام بحيث لا فرق بين النبوة والإمامة، ولا مدخل لأحد هذين الوصفين في تخصيص مسمى الهجرة بمن قصد الرسول ﷺ دون من قصد من الأئمة فوجب عموم صدقه على من قصدهم [٢٧].

ولكن ابن أبي الحديد [٢٨] يرى أن هذا معارض بقوله ﷺ: " لا هجرة بعد الفتح" حتى شفع عمه العباس في نعيم بن مسعود الاشجعي أن يستثنيه فاستثناه.

أجاب ابن ميثم [٢٩] على ذلك قائلا: يحمل ذلك على انه لا هجرة من مكة بعد فتحها إلى المدينة، توفيقا بين الدليلين، وسلب الخاص لا يستلزم سلب العام. واعلم أن فائدة هذا القول الدعوة إلى الدين واقتباسه منه ومن أهل بيته عليهم السلام بذكر الهجرة والتنبيه عليها وما تستلزم من الفضيلة، على أن التارك لأهله ووطنه إليهم طلبا للدين منهم يلحق بالمهاجرين الأولين في مراتبهم وثوابهم.

وأيده على ذلك حبيب الله الخوئي [٣٠] بقوله في تأويل النص نفسه: " لم تتغير ولم تتبدل أي من أراد الفوز بالإيمان والوصول إلى معارج اليقين فليهاجر إلى أئمة الدين، لان الهجرة قائمة على حدها الأول الذي كان في بدء البعثة، إذ الغرض الأصلي في ذلك لم يكن إلا الوصول إلى حضور حجة الله ورسوله، وتحصيل الإيمان والمعرفة ومعالم الشرع معه، وهذا الغرض موجود الآن ويحصل بالوصول إلى حضور الأئمة، لكونهم حجج الله على عباده وخلفائه في بلاده وقائمين مقام الرسول ﷺ، فالهجرة إليهم هجرة إليه".

وبعد أن ذكر أمير المؤمنين عليه السلام قيام الهجرة وبقاءها على حدها الأول تنبيها بذلك على مطلوبيتها ووجوبها أردفه بقوله:" مَا كَانَ لله فِي أَهْلِ الأَرْضِ حَاجَةٌ، مِنْ مُسْتَسِرِّ الإِمَّةِ و مُعْلِنِهَا" [٣١]. فقد عد الراوندي [٣٢] أن ما هنا نافية، أي لم يكن لله في أهل الأرض ممن أسر دينه، أو أعلنه وأظهر حاجة، فتكون " من هنا لبيان

الجنس"، وقد اعترض على ذلك ابن أبي الحديد [٣٣] بقوله: " وهذا ليس صحيحا لأنه إدخال كلام منقطع بين كلامين متصل احدهما بالآخر"، وفُسِّر كلامه ﷺ بأنه: كناية عن بقاء التكليف كما يدل عليه قول النبي ﷺ: " لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة".

وبين ابن ميثم [٣٤] مراده من ذلك بقوله: " وجعلها هو – أي ابن أبي الحديد – بمعنى المدة: أي والهجرة قائمة على حدها الأول ما دام لله في أهل الأرض ممن اسر دينه، أو أعلنه حاجة: أي ما دامت العبادة مطلوبة لله تعالى من أهل الأرض بالتكليف، وهو كقولك في الدعاء: (اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي)، ويكون لفظ الحاجة مستعارا في حقه تعالى باعتبار طلبه للعبادة بالأوامر وغيرها كطلب ذي الحاجة لها.

وأيده في ذلك المجلسي [٣٥] قائلا: " والظاهر أن قوله ﷺ ما كان لله في أهل الأرض حاجة" كناية عن بقاء التكليف كما يدل عليه قول النبي ﷺ: لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، وللتجوز مجال واسع، وفي الصحيفة السجادية: " ولا ترسلني من يدك إرسال من لا خير فيه، ولا حاجة بك إليه" [٣٦]، وقيل كلمة ما ها هنا نافية ووجهوه بتوجيهات ركيكة".

وتوقف ابن ميثم [٣٧] في كلام ابن أبي الحديد المعتزلي إذ يقول: " إنه غير بعيد أن تكون نافية مع اتصال الكلام بما قبله، ووجهه أنه لما رغب الناس في طلب الدين والعبادة، فكأنه أراد أن يرفع حكم الوهم بما عساه يحكم به عند تكرار طلب الله للدين والعبادة من حاجته تعالى إليها من خلقه إذ كرر طلبه منهم بتواتر الرسل والأوامر الشرعية، ويصير معنى الكلام: إن الهجرة باقية على حدها الأول في صدقها على المسافرين لطلب الدين، فينبغي للناس أن يهاجروا في طلبه من أئمة الحق، وليس ذلك لأن لله تعالى إلى أهل الأرض ممن أسر دينه، أو أظهره حاجة ، فانه تعالى الغني المطلق الذي لا حاجة به إلى شيء".

في حين إن حبيب الله الخوئي ضعّف مقالة ابن أبي الحديد بل أنكرحتى على ابن ميثم البحراني تأويله، مستعرضا ما يراه مناسبا لشرح كلام امير المؤمنين ﷺ فيقول: " مَا كَانَ لله فِي أَهْلِ الأَرْضِ حَاجَةٌ، مِنْ مُسْتَسِرِّ الامَّةِ و مُعْلِنِهَا" إشارة إلى مطلوبيتها ليس لأجل حاجة وافتقار منه إلى المهاجرين وغيرهم من أهل الأرض مضمرين لما قصدوه بالهجرة أو مظهرين له. وبعبارة أخرى أنه سبحانه طلب الهجرة من المهاجرين، لا لأجل حاجة منه في هجرتهم، وغرض عائد إليه تعالى عن جلب منفعة أو دفع مضرة أو طلب ثناء ومحمدة، بل هو الغني المطلق المتعالي عن الفاقة والافتقار، وإنما حثهم على الهجرة وعلى الإيمان المتحصل بالهجرة وسائر التكاليف الشرعية المتفرعة عليه لأجل إيصال النفع إلى العباد وانجائهم من العقوبة يوم المعاد.

فهذه الجملة – اعني قوله: (ما كان لله) – بمنزلة الاستئناف البياني، فإن قوله: والهجرة قائمة، لما كان دالا بدلالة التنبيه والإشارة على مطلوبية الهجرة، وربما يسبق منه إلى الأوهام القاصرة أنّ مطلوبيتها لأجل حاجة

إليها منه سبحانه أتى بهذه الجملة دفعا لذلك التوهم.

وزاد قائلا: قد ظهر بما ذكرناه ضعف ما قاله الشارح المعتزلي من أن معناه: ما دام لله في أهل الأرض المستسر منهم باعتقاده والمعلن حاجة أي ما دام التكليف باقيا زعما منه أن جعل " ما " نافية موجب لإدخال كلام منقطع بين كلامين يتصل أحدهما بالآخر.

ثم أوضح وجه الضعف في كلام ابن أبي الحديد وهو منع استلزام كونها نافية، لانقطاع هذه الجملة عما قبلها، إذ قد ظهر بما ذكرناه اتصالها وحسن ارتباطها به كما لا يخفى. مضافا إلى أن وصف الله سبحانه بالحاجة على إبقائها على حقيقتها باطل، وعلى تأويلها بالمعنى المجازي كما أوّلها الشارح البحراني، فقدجعل لفظ الحاجة مستعارا في حقِّه تعالى باعتبار طلبه للعبادة بالأوامر وغيرها، كطلب ذي الحاجة لها مما تشمئز منه الطباع، ويأبى عنه الذوق السليم كما لا يخفى.

وخلص للقول: وبالجملة فهذه الجملة معترضة بين الجملتين، والغرض من الاعتراض تنزيه الله سبحانه من الحاجة والافتقار إلى عبادة أهل الأرض، فهي نظير الجملة المعترضة في قوله سبحانه: ((وَيَجْعَلُونَ لله الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُون)) [٣٨]، فان قوله (سبحانه) جملة لكونه بتقدير الفعل وقعت في أثناء الكلام، لان قوله: ولهم ما يشتهون، عطف على قوله: (لله البنات)، والنكتة فيه تنزيه الله وتقديسه عما ينسبون إليه [٣٩].

ثم أوضح أمير المؤمنين عليه السلام شرطاً أساسياً في مصداق الهجرة، بقوله: " لا يقع اسم الهجرة على أحد إلا بمعرفة الحجة في الأرض، فمن عرفها، وأقر بها، فهو مهاجر "[٤٠] يعني انه لا يستحق احد إطلاق اسم المهاجر عليه ووصفه بالهجرة إلا بمعرفة حجة الله في أرضه والإيمان به، وهذا الحجة هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم في زمانه والأئمة المعصومون القائمون مقامه بعده [٤١].

إن اشتراط " المعرفة " بقوله " فمن عرفها " يعني أن الفرد يعد مهاجرا بشرط الخروج إلى الإمام والسفر إليه، أو المراد بالمعرفة المعرفة المستندة إلى المشاهدة والعيان، ويحتمل أن يكون المراد أن مجرد معرفة الإمام والإقرار بوجوب إتباعه كاف في إطلاق اسم الهجرة كما هو ظاهر الجزء الأخير من الكلام. فمعرفة الإمام والإقرار به في زمانه قائم مقام الهجرة المطلوبة في زمان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم [٤٢].

وهنا يمكن أن نفهم القصد من كلامه عليه السلام حين وبّخ فئة من الناس ممن شذّ عن طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وطاعته عليه السلام في خطبة مشهورة عرفت بالقاصعة [٤٣] فقال لهم: " واعْلَمُوا أَنَّكُمْ صِرْتُمْ بَعْدَ الْهِجْرَةِ أَعْرَاباً " [٤٤].

إن " التعرب بعد الهجرة " يعدّ من كبائر الذنوب في الإسلام [٤٥]، لأنه يوجب الرجوع عن الدين، والتخلّق بأخلاق الجهلة. ولذا فإن الأعراب من أهل البادية ممن أظهر الشهادتين على وجه حكم بإسلامه ظاهرا، ولا يعرف من معنى الإسلام ومقاصده وأحكامه سوى الشهادتين [٤٦].

وقال ابن أبي الحديد٤٧: إن الأعراب على عهد رسول الله ﷺ من آمن به من أهل البادية، ولم يهاجر إليه، وهم ناقصو المرتبة عن المهاجرين لجفائهم، وقسوتهم، وتوحشهم، ونشأتهم في بعد عن مخالطة العلماء، وسماع كلام الرسول ﷺ وفيهم أنزل الله تعالى: ((الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ الله عَلَى رَسُولِهِ وَالله عَلِيمٌ حَكِيمٌ)) [٤٨].

إذن فحقيقة الهجرة هي الهجرة إلى الحجة وهو أمير المؤمنين ﷺ لمعرفته والعلم بوجوب إطاعته وامتثال أحكامه، وعلى هذا فيكون كلامه ﷺ في مقام التوبيخ على أنهم " بعدما كانوا عارفين به وبمقامه ﷺ ووجوب طاعته وعالمين بأحكام الشرع وآدابه، ووظائف الإسلام كما هو شأن المهاجر، قد تركوا ذلك كله وصاروا مثل الأعراب الذين لا يعرفون إلا ظاهر الإسلام كما قال الله عز وجل ((وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ الله))أي أحرى بان لا يعلموا حدود الله في الفرائض والسنن والحلال والحرام. يعني أنكم قد صرتم بالعصبية والاستكبار والعناد وإثارة الفتن بمنزلة الأعراب الجاهلين بما لهم وما عليهم بعدما كنتم عارفين بذلك كله"[٤٩].

ويتجلى هذا المعنى بوضوح في تتمة كلامه ﷺ وهو يشير إلى الحال الذي آل إليه هؤلاء بقوله " مَا تَتَعَلَّقُونَ مِنَ الإِسْلَامِ إِلَّا بِاسْمِه، ولَا تَعْرِفُونَ مِنَ الإِيمَانِ إِلَّا رَسْمَه"[٥٠]، فهم لم يأخذوا من الإسلام وأحكامه شيئا إلا أنهم يتسمَّون بالمسلمين، ولم يعرفوا من الإيمان إلا صورته. ومن هنا صح إطلاق لفظ الأعراب عليهم كما ورد في الحديث: " التعرّب بعد الهجرة: التارك لهذا الأمر بعد معرفته". [٥١] وفي حديث للإمام الرضا ﷺ أنه قال: " حرّم الله عز وجل التعرّب بعد الهجرة للرجوع عن الدين، وترك المؤازرة للأنبياء والحجج ﷺ وما في ذلك من الفساد، وإبطال حق كل ذي حق لا لعلة سكنى البدو" [٥٢]، وبالفعل فإننا نلمح في كلام أمير المؤمنين ﷺ ما يقارب هذا المعنى إذ يقول ﷺ: " أَلَا وإِنَّكُمْ قَدْ نَفَضْتُمْ أَيْدِيَكُمْ مِنْ حَبْلِ الطَّاعَةِ، وثَلَمْتُمْ حِصْنَ الله الْمَضْرُوبَ عَلَيْكُمْ بِأَحْكَامِ الْجَاهِلِيَّةِ" [٥٣]. فها هم قد خذلوا الإمام أمير المؤمنين ﷺ وتركوا مؤازرته، وبذلك فقد وقعوا في معصية أمر الله ورسوله ﷺ الذي اوجب طاعته ﷺ بقوله ((أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)) [٥٤].

وحين نطل على المشهد من زاوية أخرى فإننا ندرك معنى الحديث النبوي الذي يقول: " لا هجرة بعد الفتح ولكن إنما هو الإيمان والنية والجهاد" [٥٥]، وفي حديث " لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية،وإذا استنفرتم فانفروا " [٥٦]. وفي حديث: " لا تنقطع الهجرة ما دام العدو يقاتل" [٥٧] أو " ما دام الجهاد"[٥٨].

ونحن نعلم أن المقام قد استوجب من الإمام ﷺ محاربة البغاة والخارجين عن الدين من الناكثين والقاسطين والمارقين، إذ يقول ﷺ: " أَلَا وقَدْ قَطَعْتُمْ قَيْدَ الإِسْلَامِ، وعَطَّلْتُمْ حُدُودَه وأَمَتُّمْ أَحْكَامَه، أَلَا وقَدْ

أَمَرَنِيَ الله، بِقِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ والنَّكْثِ والْفَسَادِ فِي الأَرْضِ، فَأَمَّا النَّاكِثُونَ فَقَدْ قَاتَلْتُ، وأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَقَدْ جَاهَدْتُ، وأَمَّا الْمَارِقَةُ فَقَدْ دَوَّخْتُ، وأَمَّا شَيْطَانُ الرَّدْهَةِ فَقَدْ كُفِيتُه، بِصَعْقَةٍ سُمِعَتْ لَهَا وَجْبَةُ قَلْبِه ورَجَّةُ صَدْرِه، وبَقِيَتْ بَقِيَّةٌ مِنْ أَهْلِ الْبَغْيِ، ولَئِنْ أَذِنَ الله فِي الْكَرَّةِ عَلَيْهِمْ، لأُدِيلَنَّ مِنْهُمْ إِلَّا مَا يَتَشَذَّرُ فِي أَطْرَافِ الْبِلَادِ تَشَذُّراً فضل الوحي أَنَا وَضَعْتُ فِي الصِّغَرِ بِكَلَاكِلِ الْعَرَبِ، وكَسَرْتُ نَوَاجِمَ قُرُونِ رَبِيعَةَ ومُضَرَ"[٥٩].

ولسنا بصدد إيراد شرح تفصيلي لهذا الكلام، وإنما ذكرناه بطوله ليتبين لنا ما يناسب مقام البحث وما استلزم من إيراده بيان انطباق حديث رسول الله ﷺ وما فيه من ضرورة على استمرار خط الجهاد لأعداء الدين مما يضمن استمرار فضيلة الهجرة إلى الله بنصرة أوليائه وحماة دينه، وعدّ خذلانهم في قمع المنكر وقتال أهل البغي.

إن إشارة الإمام عليه السلام في صدر هذا المقطع تبّين حال المتخاذلين الذين خالفوا أمر الله ورسوله ﷺ بوجوب إطاعة أمير المؤمنين عليه السلام الذي نبههم على أن قتاله لهذه الفرق إنما كان بأمر الله وعلى لسان رسوله ﷺ كما هو واضح في كلامه: " ألا وقد أمرني الله بقتال أهل البغي" وكما مر في حديث الرسول ﷺ: " فان استنفرتم فانفروا " ولكنهم تخاذلوا ولم يطيعوه عليه السلام .

هذا من جانب فيما لو اختص حديثه عليه السلام بالقوم الذين حضروا خطبته من أهل الكوفة، فإن من عصاه ولم يطع أوامره فقد كان متخلفا عن مقام الهجرة إلى الله، أما لو توسعت دائرة الحديث فإنها تشمل كل من كان في عصره أولا، بل كل آت بعده ثانيا فان الأمر يستلزم وقفة توضيحية موجزة:

فأما الذين كانوا في عصره ممن كانوا يفخرون بهجرتهم مع النبي ﷺ فإنهم أتموا تلك الفضيلة بمعرفة الحجة على الخلق من بعده ﷺ والقائم مقامه ألا وهو أمير المؤمنين عليه السلام فآزروه ونصروه وهاجروا إلى طاعته وجاهدوا معه، فإنهم قد فازوا بمرتبة المهاجرين الأولين الذين حازوا رضا الله ورسوله ﷺ. وأما من نقض شرط الهجرة فقد كان ممن تعرب بعد هجرته فهم ممن ترك أمر طاعته عليه السلام بعد معرفته، فاستوجبوا غضب الله ولعنته عليهم.

وأما شمول حديثه لكل أهل زمان أتوا بعده، فدليله قائم من حديثه نفسه إذ يقول عليه السلام: " لَا يَقَعُ اسْمُ الْهِجْرَةِ عَلَى أَحَدٍ، إِلَّا بِمَعْرِفَةِ الْحُجَّةِ فِي الأَرْضِ". ومعلوم أن " لَا تَخْلُو الأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ لله بِحُجَّةٍ، إِمَّا ظَاهِراً مَشْهُوراً وإِمَّا خَائِفاً مَغْمُوراً، لِئَلَّا تَبْطُلَ حُجَجُ الله وبَيِّنَاتُه، وكَمْ ذَا وأَيْنَ أُولَئِكَ أُولَئِكَ والله الأَقَلُّونَ عَدَداً، والأَعْظَمُونَ عِنْدَ الله قَدْراً، يَحْفَظُ الله بِهِمْ حُجَجَه وبَيِّنَاتِه حَتَّى يُودِعُوهَا نُظَرَاءَهُمْ، ويَزْرَعُوهَا فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ".[٦٠]

وهذا الكلام نص صريح على وجوب دوام الحجة وبقائه في الأرض ما دام التكليف باقيا، فما إن يموت

منهم أحد حتى يخلفه من يقوم مقامه، وقد دلت الآثار وتواترت الأخبار على أن المقصود بهم أئمة أهل البيت ﷺ فـ " لو بقيت الأرض بغير إمام لساخت " [٦١]، فهم الأمان لأهل الأرض كما النجوم أمان لأهل السماء [٦٢].

فأئمة أهل البيت ﷺ أحدهم يقوم مقام الآخر حتى يرث الله الأرض ومن عليها. وبهذا فإن الهجرة قائمة على حدها الأول كما أشار بذلك أمير المؤمنين ﷺ، وهي مستوجبة معرفة أولئك الأئمة الأطهار كل منهم في زمانه ومقامه، وبهذا فإن " معرفة الإمام، والإقرار به في زمانه قائم مقام الهجرة المطلوبة في زمان رسول الله ﷺ " [٦٣].

أما المستضعفون في الأرض – في كل زمان – فقد ذكر امير المؤمنين ﷺ الحكم الذي يخصهم في قوله بهذا البيان، إذ يقول ﷺ: " وَلَا يَقَعُ اسْمُ الِاسْتِضْعَافِ عَلَى مَنْ بَلَغَتْه الْحُجَّةُ، فَسَمِعَتْهَا أُذُنُه ووَعَاهَا قَلْبُه " [٦٤].

قال الراوندي [٦٥] : يمكن أن يشير هذا الكلام إلى إحدى آيتين: أحدهما: قوله تعالى: ((إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا)) [٦٦]، فيكون مراده ﷺ – على هذا – أنه لا يصدق اسم الاستضعاف على من عرف الإمام وبلغته أحكامه ووعاها قلبه، وإن بقي في وطنه ولم يتجشم السفر إلى الإمام كما لايصدق على هؤلاء المذكورين في الآية. والثانية: قوله تعالى: ((إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا* فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا))[٦٧]، فيكون مراده ﷺ على هذا إن من عرف الإمام، وسمع مقالته، ووعاها قلبه لا يصدق عليه الاستضعاف كما يصدق على هؤلاء، إذ كان المفروض على الموجودين في عصر الرسول ﷺ المهاجرة بالأبدان دون من بعدهم بل يقنع منه بمعرفته والعمل بقوله دون المهاجرة إليه بالبدن. وكان الإمام موسى بن جعفر الكاظم ﷺ قد سئل عن الضعفاء، فقال: " الضعيف من لم ترفع له حجة، ولم يعرف الاختلاف، فإذا عرف الاختلاف فليس بضعيف "[٦٨].

وفي رواية عن الإمام أبي جعفر الباقر ﷺ لما سئل عن المستضعف قال " هو الذي لا يستطيع حيلة إلى الكفر فيكفر، ولا يهتدي سبيلاً إلى الإيمان، لا يستطيع أن يؤمن، ولا يستطيع أن يكفر، فمنهم الصبيان، ومن الرجال والنساء على مثل عقول الصبيان مرفوع عنهم القلم "[٦٩].

إذن فلا عذر لمن بلغته دعوة الحجة وسمعها وتأخر عن النهوض والمهاجرة إليه مع قدرته على ذلك ولا يصدق عليه اسم الاستضعاف كما يصدق على المستضعفين من الرجال والنساء والولدان حتى يكون ذلك عذرا له، بل يكون في تأخّره ملوما مستحقا للعذاب كالذين قالوا كنا مستضعفين في الأرض، ويكون

مخصوصا بالقادرين على النهوض دون العاجزين فان اسم الاستضعاف صادق عليهم، وهذا الاحتمال إنما يكون جائز الإرادة من هذا الكلام المقدم مشروطا بمعرفة الإمام بالمشاهدة والسفر إليه، إذ لو جاز أن يطلق عليه المهاجرة مع عدم السفر إلى الإمام لما كان ملوما في تأخره عنه [٧٠].

ولما علم من المقاطع السابقة تصريحا أو تلويحا بوجوب السعي والهجرة إليه عليه السلام والى الأئمة من ولده ممن حق على الخلق طاعتهم ولا تخلو الأرض من بركة وجودهم، وبين عليه السلام انه لا يسوغ التقصير والاستضعاف في معرفة حقهم أردف ذلك بالتنبيه على أن معرفتهم حق المعرفة من خواص المؤمنين المخلصين: "إِنَّ أَمْرَنَا صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ لَا يَحْمِلُه إِلَّا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ، امْتَحَنَ الله قَلْبَه لِلإِيمَانِ" [٧١]. وبهذا فإن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أعطى للهجرة مفهومها ومقامها الصحيح وفق مارسمته الشريعة المقدسة، ونجد في كلماته إشارات في معرض المدح لمن حاز تلك الرتبة السامية في الإسلام ممن هاجر طائعا لله ورسوله صلى الله عليه وآله ونصرة الدين الحق، ومن ذلك قوله بادئا بنفسه في بيان سبقه عليه السلام للإيمان والهجرة إذ يقول: "فإِنِّي وُلِدْتُ عَلَى الْفِطْرَةِ وسَبَقْتُ إِلَى الإِيمَانِ والْهِجْرَةِ" [٧٢].

لقد أورد ابن ابي الحديد [٧٣] تساؤلا عن قول الامام عليه السلام السابق: إنه سبق إلى الهجرة، ومعلوم أن جماعة من المسلمين هاجروا قبله، منهم عثمان بن مظعون [٧٤] وغيره، وقد هاجر أبو بكر قبله، لأنه هاجر في صحبة النبي صلى الله عليه وآله! وتخلف علي عليه السلام، فبات على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله، ومكث أياما يرد الودائع التي كانت عنده، ثم هاجر بعد ذلك؟ وقال في جوابه:

انه عليه السلام لم يقل "وسبقت كل الناس إلى الهجرة" وإنما قال: "وسبقت" فقط، ولا يدل ذلك على سبقه للناس كافة، ولا شبهة انه سبق معظم المهاجرين إلى الهجرة، ولم يهاجر قبله أحد إلا نفر يسير جدا. وإن سيل الهجرة استمر حتى فتح مكة سنة ٨ هـ.

وأيضا فان اللام في "الهجرة" يجوز ألا تكون للمعهود السابق، بل تكون للجنس، وأمير المؤمنين عليه السلام سبق أبا بكر وغيره إلى الهجرة التي حصلت قبل هجرة المدينة، فان النبي صلى الله عليه وآله هاجر من مكة مرارا يطوف على أحياء العرب، ويتنقل من ارض قوم إلى غيرها، وكان علي عليه السلام معه دون غيره ثم ذكر عدد هجراته صلى الله عليه وآله التي سبقت الهجرة إلى المدينة التي رافقه فيها أمير المؤمنين عليه السلام [٧٥].

إن التعليل الثاني مقبول ولا إشكال فيه، وأما ما ذكره أولا من انه عليه السلام قد سبقه احد من الصحابة إلى الهجرة فلا نجده متوافقا مع واقع أمير المؤمنين عليه السلام وان كلامه صريح جدا في سبقه للجميع بلا استثناء، وأما كيفية ذلك، فنحن قد أدركنا المعنى الواقعي الحقيقي "للهجرة" مما بينه أمير المؤمنين عليه السلام وإنها هجرة إلى طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وآله ومعرفة مقامه صلى الله عليه وآله والإيمان به وتحصيل معالم الشريعة منه والتسليم له تسليم مطلقا.

ومما لا خلاف فيه أن ذلك كله متحصّل له ﷺ ومن أسبق منه لنيل هذه الرتبة من اليقين والمعرفة بحجة الله على خلقه وهو النبي الأعظم ﷺ؟!، فهو ﷺ وان تأخر عن الهجرة بدنيا ليسبقه إليها غيره إلا أنه قد هاجر ذاتيا وأدرك المقام الأسمى لتلك الفضيلة التي لم يسبقه إليها احد. وقد مر علينا أن صحة إطلاق اسم " الهجرة " على احد لا يستلزم السفر والمسير من مكان إلى مكان بل يكفي معرفته واقراره ونيته.

وفي إشارة أخرى له ﷺ إلى مقام الهجرة الممدوح لديه وممن خصه بالذكر من المهاجرين قوله ﷺ لمعاوية، وقد استنكر عليه ﷺ خوضه في شأن لا يعنيه وهو لما أرسل إليه معاوية كتابا اقتص فيه ذكر بعض الصحابة معرضا بأفضليتهم – بحسب زعمه – على أمير المؤمنين ﷺ فأجابه قائلا:

" ... وزَعَمْتَ أَنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ فِي الإِسْلَامِ فُلَانٌ وفُلَانٌ، فَذَكَرْتَ أَمْراً إِنْ تَمَّ اعْتَزَلَكَكُلُّه، وإِنْ نَقَصَ لَمْ يَلْحَقْكَ ثَلْمُه، ومَا أَنْتَ والْفَاضِلَ والْمَفْضُولَ والسَّائِسَ والْمَسُوسَ، ومَا لِلطُّلَقَاءِ وأَبْنَاءِ الطُّلَقَاءِ، والتَّمْيِيزَ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ الأَوَّلِينَ، وتَرْتِيبَ دَرَجَاتِهِمْ وتَعْرِيفَ طَبَقَاتِهِمْ، هَيْهَاتَ لَقَدْ حَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا، وطَفِقَ يَحْكُمُ فِيهَا مَنْ عَلَيْه الْحُكْمُ لَهَا، أَلَا تَرْبَعُ أَيُّهَا الإِنْسَانُ عَلَى ظَلْعِكَ، وتَعْرِفُ قُصُورَ ذَرْعِكَ، وتَتَأَخَّرُ حَيْثُ أَخَّرَكَ الْقَدَرُ، فَمَا عَلَيْكَ غَلَبَةُ الْمَغْلُوبِ ولَا ظَفَرُ الظَّافِرِ، وإِنَّكَ لَذَهَّابٌ فِي التِّيه رَوَّاغٌ عَنِ الْقَصْدِ، أَلَا تَرَى غَيْرَ مُخْبِرٍ لَكَ، ولَكِنْ بِنِعْمَةِ الله أُحَدِّثُ، أَنَّ قَوْماً اسْتُشْهِدُوا فِي سَبِيلِ الله تَعَالَى مِنَ الْمُهَاجِرِينَ والأَنْصَارِ، ولِكُلٍّ فَضْلٌ، حَتَّى إِذَا اسْتُشْهِدَ شَهِيدُنَا قِيلَ سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ، وخَصَّه رَسُولُ الله – صلى الله عليه وآله – بِسَبْعِينَ تَكْبِيرَةً عِنْدَ صَلَاتِه عَلَيْه، أَولَا تَرَى أَنَّ قَوْماً قُطِّعَتْ أَيْدِيهِمْ فِي سَبِيلِ الله، ولِكُلٍّ فَضْلٌ، حَتَّى إِذَا فُعِلَ بِوَاحِدِنَا مَا فُعِلَ بِوَاحِدِهِمْ، قِيلَ الطَّيَّارُ فِي الْجَنَّةِ وذُو الْجَنَاحَيْنِ "[٧٦] .

وهو واضح في كلام أمير المؤمنين ﷺ كيف استنكر على معاوية الخوض في مسألة التفضيل والترتيب بين الصحابة، إذ يقول له ﷺ إن هذا الترتيب إما أن يتم أو لا، فان تم فهو – أي معاوية – بمعزل عنه، إذ ليس له نصيب في تلك المراتب والسبق في الإسلام، وان نقص فلا يلحق معاوية عيبه أو نقصه لأنه لم يكن منهم، فعلى كلا الوجهين كان معاوية خائضا فيما لا يعنيه [٧٧].

ثم بين ﷺ عدم لياقة معاوية لتمييز الفاضل والمفضول منهم، وترتيب درجاتهم، فوجه إليه استفهاماً على سبيل الاستحقار والإنكار عليه أن يخوض على صغر شأنه وحقارته في هذه الأمور، لأنه هو وأباه وجده أبا سفيان من الطلقاء. ممن كانوا في زمن الهجرة مشركين، ولما رفع الله الكلمة العليا ودخل الناس في دين الله أفواجا استسلما، وما اسلما كما قال بذلك أمير المؤمنين ﷺ: " فَوَ الَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وبَرَأَ النَّسَمَةَ، مَا أَسْلَمُوا ولَكِنِ اسْتَسْلَمُوا وأَسَرُّوا الْكُفْرَ، فَلَمَّا وَجَدُوا أَعْوَاناً عَلَيْهِ أَظْهَرُوهُ "[٧٨].

وأما قوله ﷺ: " بين المهاجرين الأولين "، فإنّه يشير إلى قوله تعالى: ((وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ

وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ))[٧٩].

لقد جاء في تفسير الطبرسي [٨٠] لهذه الآية: إن فيها دلالة على فضل السابقين، ومزيتهم على غيرهم لما لحقهم من أنواع المشقة في نصرة الدين، فمنها مفارقة العشائر والأقربين، ومنها مباينة المألوف من الدين، ومنها نصرة الإسلام وقلة العدد وكثرة العدو، ومنها السبق إلى الإيمان والدعاء إليه، إلى أن قال: وروى الحاكم أبو القاسم الحسكاني [٨١] في قوله تعالى بإسناده مرفوعا عن عبد الرحمن بن عوف (والسابقون الأولون) قال: هم عشرة من قريش أولهم إسلاما علي بن أبي طالب.وبالجملة فإن شأن معاوية وقدره أدنى من أن يدخل في التمييز بين هؤلاء ونحوهم وليس بأهل لذلك [٨٢].

ونجد في كتاب آخر لأمير المؤمنين عليه السلام وجهه لمعاوية ذكر فيه المعنى نفسه بقوله: " ولَمَّا أَدْخَلَ الله الْعَرَبَ فِي دِينِه أَفْوَاجاً، وأَسْلَمَتْ لَه هَذِه الأُمَّةُ طَوْعاً وكَرْهاً، كُنْتُمْ مِمَّنْ دَخَلَ فِي الدِّينِ إِمَّا رَغْبَةً وإِمَّا رَهْبَةً، عَلَى حِينَ فَازَ أَهْلُ السَّبْقِ بِسَبْقِهِمْ، وذَهَبَ الْمُهَاجِرُونَ الأَوَّلُونَ بِفَضْلِهِمْ". [٨٣]

ثم نبّهه أمير المؤمنين عليه السلام على ضعفه وقصور ذرعه عن البلوغ لتلك المراتب السامية، وأنى للأعرج العروج إلى قلل شامخة، فقال عليه السلام: " ألا تربع أيها الإنسان ... الخ" استفهام على سبيل الاسترحام أو الاستحقار والتقريع، فهل للظالع - وهو الأعرج - أن يحمل حملا ثقيلا؟ فرفقا بنفسك حتى لا تحمل ما لا تطيق؟ وألا تعرف قصور ذرعك وعدم قدرتك عن بلوغ درجات السابقين؟ ألا تضع نفسك حيث وضعها الله؟! [٨٤].

ويواصل أمير المؤمنين عليه السلام تقريعه وتوبيخه لمعاوية، إلى أن بلغ إلى تذكيره وتنبيهه بأفضليته عليه السلام وأهل بيته وتقدمهم على من سواهم، وإن شاركهم بعضهم في تلك الخصائص والفضائل، وذكر لهم مثالين وهما: حمزة سيد الشهداء عليه السلام الذي كان من المهاجرين الأولين، وممن حاز مرتبة الشهادة وخصّه الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم بما ذكره عليه السلام فيما تقدم، وجعفر بن أبي طالب عليه السلام أيضا الذي هاجر هجرتين، كانت الأولى الى الحبشة والثانية الى المدينة، وكان سباقا في نيل رتبة الهجرة والجهاد، ومن ثم الشهادة، وخص بذي الجناحين والطيار في الجنة.

وفي مقام آخر نجده عليه السلام يستنكر على معاوية ما ادعاه بأنه لا موجب للتفاضل بينهما ما داما من أصل واحد إذ أرسل إلى الإمام يقول: " إنا بنو عبد مناف " فأجابه الأمير عليه السلام مستنكرا " ولا المهاجر كالطليق" [٨٥].فعرض الإمام عليه السلام" شرفه من جهة هجرته مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وخسة خصمه من جهة كونه طليقا وابن طليق، وهذه الفضيلة وان كانت خارجية إلا أنها تستلزم فضيلة نفسانية، وهي حسن الإسلام والنية الصادقة الحقة". [٨٦]

فالإمام عليه السلام يستنكر على معاوية المساواة بين فضيلة الهجرة التي اختص بها عليه السلام وبين كون معاوية طليقا

لم يحظ بشرف تلك الرتبة في الإسلام.

وفي الوقت الذي يفتخر فيه أمير المؤمنين ﷺ بان جيشه يشتمل على نخبة من المهاجرين، مشرعا في وصفهم بأوصاف تزلزل أركان العدو من شدة الزحام وسطوع القتام إذ يقول ﷺ مخاطبا معاوية: " وأَنَا مُرْقِلٌ نَحْوَكَ فِي جَحْفَلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ والأَنْصَارِ، والتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، شَدِيدٍ زِحَامُهُمْ سَاطِعٍ قَتَامُهُمْ، مُتَسَرْبِلِينَ سَرَابِيلَ الْمَوْتِ، أَحَبُّ اللِّقَاءِ إِلَيْهِمْ لِقَاءُ رَبِّهِمْ" [٨٧].

فهؤلاء الأفذاذ ممن صدق عليه " الهجرة " بواقعها السامي الذي اشترطه أمير المؤمنين ﷺ، إذ إنهم فضلا عن تلك الهجرة المتحققة في عهد رسول الله ﷺ فإنهم لم ينحرفوا عن جادة الصواب، وحافظوا على مراتبهم العليا في نيل فضيلة المهاجرة إلى حجج الله في أرضه، فنالوا بذلك رضا الله سبحانه وجنانه إذ يقول الله تعالى: ((وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)) [٨٨].

وفي موضع آخر نجد أمير المؤمنين ﷺ يرد مزاعم معاوية حين توعد بأنه قادم إليه بجيش يضم المهاجرين والأنصار، إذ قال له ﷺ: " وذَكَرْتَ أَنَّكَ زَائِرِي فِي الْمُهَاجِرِينَ والأَنْصَارِ، وقَدِ انْقَطَعَتِ الْهِجْرَةُ يَوْمَ أُسِرَ أَخُوكَ" [٨٩]. وكلامه ها هنا تكذيب لمعاوية فيما ادعاه، إذ ليس معه مهاجر لان أكثر من معه ممن رأى رسول الله ﷺ هم أبناء الطلقاء، ومن أسلم بعد الفتح، وقد قال ﷺ : "لا هجرة بعد الفتح"، وعبّرعن يوم الفتح بعبارة حسنة فيها تقريع لمعاوية وأهله بالكفر،وإنهم ليسوا من ذوي السوابق، فقال ﷺ: " وقدانقطعت الهجرة يوم اسر أخوك" [٩٠]، يعني يزيد بن أبي سفيان [٩١] أسر يوم الفتح في باب الخندمة [٩٢]، وكان قد خرج في نفر من قريش يحاربون ويمنعون من دخول مكة، فقتل منهم قوم وأسر يزيد بن أبي سفيان، أسره خالد بن الوليد، فخلصه أبو سفيان منه، وأدخله داره، فأمن لان رسول الله ﷺ قال يومئذ: " من دخل دار أبي سفيان فهو آمن" [٩٣].

ومن ثم نراه يُعرض بحال أهل الشام ممن كان في ركب معاوية إذ يقول ﷺ عنهم: " جُفَاةٌ طَغَامٌ وعَبِيدٌ أَقْزَامٌ، جُمِعُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ وتُلُقِّطُوا مِنْ كُلِّ شَوْبٍ، مِمَّنْ يَنْبَغِي أَنْ يُفَقَّه ويُؤَدَّبَ، ويُعَلَّمَ ويُدَرَّبَ ويُوَلَّى عَلَيْه، ويُؤْخَذَ عَلَى يَدَيْه، لَيْسُوا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ والأَنْصَارِ، ولَا مِنَ (الَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ والإِيمانَ)". [٩٤]

إن الذي يعنينا من كلامه الشريف ﷺ أن هؤلاء ليسوا من المهاجرين والأنصار في معرض الذم لهم لكون ذلك نقصانا لهم عن المهاجرين والأنصار وقد سبقت الإشارة إلى افتخاره ﷺ بتواجد هذه الفئة في جيشه ﷺ.

وفي معرض مدحه ﷺ للمهاجرين نجده خص أحد الصحابة بالذكر وهو خباب بن الارت [٩٥]، إذ يقول

عنه: " يَرْحَمُ الله خَبَّابَ بْنَ الأَرَتِّ فَلَقَدْ أَسْلَمَ رَاغِباً، وهَاجَرَ طَائِعاً وقَنِعَ بِالْكَفَافِ ورَضِيَ عَنِ الله وعَاشَ مُجَاهِداً "[٩٦].

كان خباب بن الارت من أفذاذ أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم المخلصين والحاملين لأسرار الشريعة الإسلامية، ممن تلمسوا الحقيقة بقلوبهم، وبلغوا الدرجة القصوى من اليقين في معالم الدين، ومن الذين كانوا شهداء على الناس ومؤازرين للحق عند ظهور الخلاف، فكونه في صف أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام مجاهدا معه في صفين من الأدلة القاطعة على أن الإمام علياً عليه السلام مع الحق والحق مع علي يدور معه أينما دار[٩٧]، مثله في أصحابه عليهم السلام مثل عمار[٩٨]. وقال ابن أبي الحديد: هو قديم الإسلام، قيل: إنه كان سادس ستة، وشهد بدرا وما بعدها من المشاهد وهو معدود في المعذبين في الله[٩٩]. وورد في حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: " السباق خمسة: فانا سابق العرب، وسلمان سابق الفرس، وبلال سابق الحبشة، وصهيب سابق الروم، وخباب سابق النبط "[١٠٠]. وقد وصفه أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الوجيز من الكلام بما لا مزيد عليه، واثبت له فضيلة الرغبة في الإسلام، والطوع على الهجرة، وصرف الحياة في الجهاد فناهيك بهذه الفضائل عن التتبع للأقوال، وثناء سائر الرجال [١٠١].

ومن حظوة مقام الهجرة قوله عليه السلام في المهاجرين في كتاب إلى معاوية: " انَّه بَايَعَنِي الْقَوْمُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وعُمَرَ وعُثْمَانَ، عَلَى مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْه، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ، ولَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ، وإِنَّمَا الشُّورَى لِلْمُهَاجِرِينَ والأَنْصَارِ، فَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ وسَمَّوْه إِمَاماً كَانَ ذَلِكَ لله رِضًا، فَإِنْ خَرَجَ عَنْ أَمْرِهِمْ خَارِجٌ، بِطَعْنٍ أَوْ بِدْعَةٍ رَدُّوه إِلَى مَا خَرَجَ مِنْه، فَإِنْ أَبَى قَاتَلُوه عَلَى اتِّبَاعِه غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، ووَلَّاه الله مَا تَوَلَّى " [١٠٢].

اولاً لا بد من الإشارة إلى أن كلامه " على مقتضى عقيدة القوم مداراة ومماشاة معهم بما اعتقدوا من أمر الخلافة إنما هو بالبيعة من أهل العقد والحل لا بالنص، وإلا فإمامته بلا فصل كانت ثابتة بالبراهين القطعية، فالقياس جدلي على اصطلاح أهل الميزان، لأنه اعتبر في مقدماته التسليم من الخصم أي تبكيت الخصم إلزامه بما سلم به " [١٠٣]. فهو بمقتضى المقام قد حصر الشورى في المهاجرين والأنصار لأنهما أهل الحل والعقد في أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فمتى اتفقت كلمتهم على أمر اجمعوا عليه كان ذلك حقا مرضيا لله تعالى فيجب على الناس إتباعه. ومن ذلك إطباقهم على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام.

ومما مضى يتبين لنا أن التعامل مع فضيلة " الهجرة " كان على وفق رؤيتين:

الأولى: تمثلت في رؤية أمير المؤمنين عليه السلام لهذه الفضيلة، وكيف أعطى لها أبعادا تتجاوز معناها اللغوي والاصطلاحي الذي قد يتحدد بهجرة البدن من مكان إلى آخر، إذ عدها عليه السلام ظاهرة ذات علاقة بالرسالة الإلهية وديمومتها، ومنوطة بمعرفة الحجة في الأرض، القيِّم على تأدية حق الشريعة في كل زمان، وقد اخرجها

من افقها الضيق الذي لا تعدو أن تكون فيه مجرد حركة انتقال مكاني قد يطلب من ورائه السعة بعد الضيق والراحة والدعة والاستقرار في مكان آخر تتوافر فيه هذه المقومات.

الثانية: التي طرح فيها عنوان " المهاجرين " امتيازاً يحاول بعضهم التكسب فيه للحصول على أطماع دنيوية بحتة، إذ اظهروا أنهم تحملوا الآلام والمحن بترك أوطانهم، بهجرتهم مع النبي ﷺ وبهذا بات من حقهم الاستئثار بامتيازات ومناصب، كما حدث في السقيفة [١٠٤]، فقد طرحت " الهجرة " امتيازاً تفاضلياً في وجه الأنصار لبيان أحقية المهاجرين بالخلافة دون سواهم، ومن ثم غدت من القضايا التي تمثل منهجا في العامل السياسي، وتحولت فيما بعد إلى ما هو اخطر في الوجود الإسلامي، إذ أوجدت الطبقية في المجتمع الإسلامي، ففي عهد عمر بن الخطاب كان توزيع الأموال متفاوتاً بحسب أمور عدة منها القدم في الإسلام، وهذا يعني تقديم المهاجرين على الأنصار [١٠٥].

الهوامش

١- ابن منظور: لسان العرب: ٥/ ٢٥٠-٢٥١. الفراهيدي: العين: ٣/ ٣٨٦. الجوهري: الصحاح: ٢/ ٨٥١. الرازي: مختار الصحاح: ص٣٥٣ . الفيروز آبادي: القاموس المحيط: ٢/ ١٥٨ – ١٥٩. الزبيدي: تاج العروس: ٧/ ٦٠٧ – ٦١٣ .

٢- ابن منظور: لسان العرب٥/ ٢٥٢.

٣- ابن منظور: لسان العرب٥/ ٢٥٠-٢٥١. الفراهيدي: العين٣/ ٣٨٦. الجوهري: الصحاح٢/ ٨٥١. الرازي: مختار الصحاح ص٣٥٣. الفيروز آبادي: القاموس المحيط ٢/ ١٥٨ – ١٥٩. الزبيدي: تاج العروس ٧/ ٦٠٧ – ٦١٣.

٤- الفيروز ابادي: القاموس المحيط ٢ / ١٥٨ – ١٥٩.

٥- ابن منظور: لسان العرب : ٥ / ٢٥٠.

٦- ابن منظور: لسان العرب : ٥ / ٢٥١.

٧- ومن ذلك قوله تعالى:((إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ((سورة البقرة الآية ٢١٨؛ وقوله: ((فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللهِ وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ)) سورة آل عمران الآية ١٩٥. وقوله: ((وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا((سورة آل عمران الآية ١٩٥. وقوله: ((وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آَوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)) سورة الأنفال الآية ٧٤. وقوله: ((الَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ((سورة التوبة الآية ٢٠. وقوله: ((وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)) سورة التوبة الآية ١٠٠. وقوله: ((وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ((سورة النحل الآية ٤١. ((لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)) سورة الحشر الآية ٨. وغيرها من الآيات الكريمة التي أشادت بفضلهم.

٨- ناصر مكارم الشيرازي: تفسير الأمثل: ٣ / ٢٧٦.

٩- ابن حنبل: المسند : ٢ / ١٩٥ . النسائي: السنن الكبرى : ٤ / ٤٢٥.

١٠- الصنعاني: المصنف: ١١ / ١٢٧. الهيثمي : مجمع الزوائد : ١ / ٥٩ .

١١- ابن حنبل: المسند: ١/ ١٩٢. الطبراني: الدعاء ص٦١٦، المعجم الأوسط ١/ ٢٣. البيهقي: شعب الإيمان: ٥/ ٤٤٤.

١٢- الطبراني: مسند الشاميين١/ ٣٧٨، المعجم الصغير١/ ١٣. الهيثمي: مجمع الزوائد١/ ٦٠. السيوطي: الجامع الصغير ١/ ١٦١.

١٣- الثقفي: الغارات: ٢/ ٥٠٢. الميرجهاني: مصباح البلاغة: ٣/ ٣٢٣.

١٤- ابن حنبل: مسند أحمد١/ ٢٢٦. البخاري: الصحيح٣/ ٢٠٠. الدارمي: السنن٢/ ٢٣٩. ابن حزم: المحلى ٧/ ٤٥. النووي: المجموع ١٩/ ٢٦٣.

١٥- الطوسي: المبسوط ٢/ ٤. ابن إدريس الحلي: السرائر ٢/ ١٤. ابن قدامة: المغني ١٠/ ٥١٣. المدني: رياض السالكين ٢/ ١٠٧، ٦٠٦ .

١٦- النهاية في غريب الحديث والأثر: ٥ / ٢٤٤. وينظر: المجلسي: البحار: ٦٦ / ٢٢٩ – ٢٣٠.

١٧- سورة التوبة الآية ١١١.

١٨- ابن حنبل: المسند: ٢/ ٢٥. الطبراني: الدعاء : ص ٢٦٨. ابن عبد البر: الاستذكار: ٧/ ٢٧٧، التمهيد ٨/ ٣٩٣. الذهبي: ميزان الاعتدال : ٤/ ٣٤٣. الهيثمي: مجمع الزوائد: ٥/ ٢٥٣. المجلسي: البحار: ٦٦ / ٢٢٩ – ٢٣٠.

١٩- نهج البلاغة : ص ٣٧٥.

٢٠- شرح نهج البلاغة: ١٣ / ٨١.

٢١- هو نعيم بن مسعود الاشجعي أسلم يوم الخندق، وينسب له دور في تخذيل المشركين واليهود في معركة الخندق، أرسله رسول الله ﷺ إلى ابن ذي اللحية، استشهد في يوم الجمل الأصغر مع حكيم بن جبلة العبدي . ينظر: ابن عبد البر: الاستيعاب في أسماء الأصحاب : ٤/ ١٥٠٨، الدرر ص١٧٧.

٢٢- شرح نهج البلاغة: ٤/ ٢٢٧ .

٢٣- شرح نهج البلاغة : ٤ / ٢٢٧ .

٢٤- شرح نهج البلاغة: ٤ / ٢٢٧ – ٢٢٨ .

٢٥- سورة النساء الآية ١٠٠ .

٢٦- ابن سلامة: مسند الشهاب: ١/ ١٣٨، ابن عبد البر: الاستذكار: ٧/ ٢٧٧.

٢٧- ابن ميثم: شرح نهج البلاغة: ٤ / ٢٢٧ – ٢٢٨ .

٢٨- شرح نهج البلاغة: ١٣/ ١٠٣.

٢٩- شرح نهج البلاغة : ٤ / ٢٢٧ – ٢٢٨ .

٣٠- منهاج البراعة: ١١/ ١٣٩.

٣١- نهج البلاغة : ص ٣٧٥.

٣٢- منهاج البراعة : ٢/ ٤٤٥ . ينظر أيضا: ابن ميثم: شرح نهج البلاغة:٤/ ٢٢٨ .

٣٣- شرح نهج البلاغة : ١٣ / ١٠٣.

٣٤- شرح نهج البلاغة: ٤ / ٢٢٨ – ٢٢٩.

٣٥- البحار: ٦٦ / ٢٣٠- ٢٣١.

٣٦- وهو مقطع من دعاء الإمام زين العابدين ﷺ يوم عرفة. ينظر: الصحيفة السجادية ص٣٢٨. ويعد من مناسك الحج ومستحباته أن يدعو به الحاج يوم عرفة. ينظر: السيد علي السيستاني: مناسك الحج ص٣٢٥، وحيد الخراساني: مناسك الحج ص٣٥٢، محمد إسحاق الفياض: مناسك الحج ص٢٩٢.

٣٧- شرح نهج البلاغة : ٤ / ٢٢٩ .

٣٨- سورة النحل الآية ٥٧ .

٣٩- منهاج البراعة : ١١ / ١٣٩ – ١٤٠.

٤٠- نهج البلاغة: ص ٣٧٥ .

٤١- حبيب الله الخوئي: منهاج البراعة: ١١ / ١٤٠.

٤٢- المجلسي: البحار: ٦٦ / ٢٣١.

٤٣- جاء في سبب إلقاء هذه الخطبة المسماة بالقاصعة: " إن أهل الكوفة كانوا في آخر خلافته ﷺ قد فسدوا، وكانوا قبائل متعددة، فكان الرجل يخرج من منازل قبيلته فيمر بمنازل قبيلة أخرى، فيصيبه أدنى مكروه، فينادي باسم قبيلته، ... فتثور الفتن، وتسل السيوف، ولا يكون لها أصل في الحقيقة إلا تعرض الفتيان بعضهم لبعض، وكثر ذلك، فخرج ﷺ على ناقته

فخطبهم بهذه الخطبة كسرا لصولتهم. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ١٣/ ١٦٧- ١٦٨ حبيب الله الخوئي: منهاج البراعة: ١١ / ٢٢٤.

٤٤- نهج البلاغة: ص٤٠٤.

٤٥- الكليني: الكافي: ٢/ ٢٨١. الطبري: جامع البيان: ٥/ ٥٤. المناوي: فيض القدير: ١/ ٧٣. السيد السيستاني: فقه المغتربين: ص ٥١.

٤٦- الشهيد الثاني: مسالك الإفهام: ٣/ ٦٥.

٤٧- شرح نهج البلاغة : ١٣/ ١٨١.

٤٨- سورة التوبة الآية ٩٧.

٤٩- حبيب الله الخوئي: منهاج البراعة: ١٢/ ١١.

٥٠- نهج البلاغة: ص ٤٠٤.

٥١- الصدوق: معاني الأخبار: ص ٢٦٥.

٥٢- الصدوق: علل الشرائع: ٢ / ٤٨١، عيون أخبار الرضا عليه السلام : ١ / ٩٩.

٥٣- نهج البلاغة: ص ٤٠٣.

٥٤- سورة النساء الآية ٥٩.

٥٥- المتقي الهندي: كنز العمال: ١٠ / ٥٠٠، ١٦ / ٦٦٠. الريشهري: ميزان الحكمة: ٤ / ٣٤٢٩.

٥٦- ابن حنبل: المسند: ١/ ٢٢٦، ٣١٦، ٣/ ٤٠١. الدارمي: السنن: ٢/ ٢٣٩. البخاري: الصحيح: ٢/ ٢١٤. مسلم: الصحيح: ٤ / ١٠٩.

٥٧- ابن حنبل: المسند : ١ / ١٩٢. الهيثمي: مجمع الزوائد: ٥ / ٢٥٠ . المتقي الهندي: كنز العمال : ١٦ / ٦٥٩.

٥٨- الطبراني: الأحاديث الطوال: ص ٣٤. الهيثمي: مجمع الزوائد: ٩ / ٣٩٥. السيوطي: الجامع الصغير: ١ / ٣٢٨ . المتقي الهندي: كنز العمال: ٤ / ٣٨٢.

٥٩- نهج البلاغة: ص ٤٠٤- ٤٠٥.

٦٠- نهج البلاغة : ص ٦٨٦-٦٨٧.

٦١- الصفار: بصائر الدرجات: ص ٥٠٨. الكليني: الكافي: ١ / ١٧٩ . الصدوق: علل الشرائع: ١ / ١٩٦.

٦٢- نسبة للحديث " النجوم أمان لأهل السماء، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض " ينظر: الصدوق: علل الشرائع: ١ / ١٢٣، كمال الدين: ص ٢٠٥. الزرندي: درر السمطين: ص ٢٣٤. السيوطي: الجامع الصغير: ٢ / ٦٨٠ . المتقي الهندي: كنز العمال: ١٢ / ٩٦، ١٠١.

٦٣- المجلسي: البحار: ٦٦ / ٢٣١.

٦٤- نهج البلاغة: ص٣٧٥.

٦٥- منهاج البراعة :٢/ ٤٤٥-٤٤٦ .

٦٦- سورة النساء الآية ٩٧.

٦٧- سورة النساء الآية ٩٨.

٦٨- الكليني: الكافي: ٨ / ١٢٥ . المجلسي: البحار : ٤٨ / ٢٤٤.

٦٩ - الكليني: الكافي : ٢ / ٤٠٤ . الكاشاني: الوافي ٤/ ٢٢٠. البحراني: البرهان ٢/ ١٥٦. المجلسي: مرآة العقول: ١١/ ٢٠١، هادي النجفي: موسوعة أحاديث أهل البيت: ٣/ ٢٤٨- ٢٤٩ .

٧٠- ابن ميثم: شرح نهج البلاغة: ٤ / ٢٣٠ – ٢٣١.
٧١- نهج البلاغة: ٣٧٥.
٧٢- نهج البلاغة: ص٩٤.
٧٣- شرح نهج البلاغة : ٤/ ٩٧ . وينظر: ناصر مكارم الشيرازي: نفحات الولاية: ٢ / ٤١٠ – ٤١١.
٧٤- هو أبو السائب عثمان بن مظعون بن حبيب الجمحي. أسلم في مكة بعد أثني عشر ، وقيل هاجر الهجرتين وشهد بدرا، ومات بالمدينة بعد معركة بدر، كان من المقربين إلى أمير المؤمنين ﷺ لذا سمى ﷺ أحد أولاده عثمان على اسمه. ينظر: ابن سعد: الطبقات : ٣/ ٣٩٣. ابن عبد البر: الاستيعاب ٣/ ١٠٥٣ . التفرشي: نقد الرجال: ٣/ ١٩٧.
٧٥- ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة : ٤ / ٩٧ – ٩٩.
٧٦- نهج البلاغة : ص ٥٢٦ – ٥٢٨ .
٧٧- ابن ميثم: شرح نهج البلاغة: ٤ / ٥٢١. حبيب الله الخوئي: منهاج البراعة : ١٩ / ٩٣.
٧٨- نهج البلاغة : ص ٥١١ .
٧٩- سورة التوبة الآية ١٠٠ .
٨٠- مجمع البيان: ٥ / ١١٣ .
٨١- عند مراجعة الحاكم الحسكاني كانت الإشارة هكذا " هم ستة من قريش " شواهد التنزيل: ١/ ٣٣٤
٨٢- حبيب الله الخوئي: منهاج البراعة: ١٩ / ٩٣.
٨٣- نهج البلاغة: ص ٥١٢ .
٨٤- حبيب الله الخوئي: منهاج البراعة: ١٩ / ٩٤.
٨٥- نهج البلاغة: ص ٥١١.
٨٦- ابن ميثم: شرح نهج البلاغة: ٤ / ٤٦٧.
٨٧- نهج البلاغة : ص ٥٣٢.
٨٨- سورة التوبة الآية ١٠٠ .
٨٩- نهج البلاغة: ص ٦٣١.
٩٠- إن ابن ميثم لما ذكر أصل الخطبة أورد المقطع كالآتي" وقد انقطعت الهجرة يوم اسر أخوك" لكنه لما جاء على شرحه فانه ذكر المقطع بالصيغة الآتية" وقد انقطعت الهجرة يوم اسر أبوك " [شرحها قائلا] أي حين الفتح، وذلك إن معاوية وأباه وجماعة من أهله إنما اظهروا الإسلام بعد الفتح وقد قال ﷺ: " لا هجرة بعد الفتح " فلا يصدق عليهم إذن اسم المهاجرين، وسمى ﷺ اخذ العباس لأبي سفيان إلى رسول الله ﷺ غير مختار وعرضه على القتل أسرا. ثم شرح: وروى: يوم أسر أخوك، وقد كان أسر أخوه عمرو بن أبي سفيان يوم بدر، فعلى هذه الرواية يكون الكلام في معرض التذكرة له بأن من شأنه وشأن أهله أن يؤسروا أولا فيسلموا، فكيف يدعون مع ذلك الهجرة، فان الهجرة بهذا الاعتبار منقطعة عنهم، ولا يكون " يوم أسر " ظرفا لانقطاع الهجرة، لان الهجرة انقطعت بعد الفتح. ينظر شرح نهج البلاغة: ٥/ ٢٥٨.
٩١- هو أبو خالد يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس ، اسلم يوم فتح مكة ، فكان من الطلقاء ، والمؤلفة قلوبهم مع أبيه وأخيه معاويه ، لأنه أراد الحرب لكنه أسره خالد بن الوليد ، بدأ نجمه مع خلافة أبي بكر إذ استعمله على الشام ، ولما تولى عمر الخلافة ولاه فلسطين ، ثم الشام ، حتى وفاته بالطاعون سنة ١٨ هـ ، فولى مكانه أخوه معاوية ، ينظر: ابن سعد: الطبقات : ٧/ ٤٠٥ ، ابن حبان : مشاهير علماء الأمصار ص٣٥ ، ابن عبد البر: الاستيعاب : ٤/ ١٥٧٥، ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٨/ ٢٩٨ ، ١٥/ ٩٥، ١٧/ ٢٥٦. الخزرجي: خلاصة تذهيب تهذيب الكمال: ص٤٣٢.

٩٢- الخندمة: جبل في مكة في ظهر أبي قبيس لما اراد النبي ﷺ فتح مكة اجتمع صفوان بن امية، وعكرمة بن ابي جهل وسهيل بن عمرو في الخندمة، وفيه قال حماس بن قيس لزوجته:

إنك لو شهدت يوم الخندمة إذ فر صفوان وفر عكرمة
وحيث زيد قائم كالمؤتمة واستقبلتنا بالسيوف المسلمة
يقطعن كل ساعد وجمجمة ضربا فلا تسمع إلا غمغمة
لم تنطقِ باللوم أدنى كلمة

ينظر: الحموي: معجم البلدان ٢/ ٣٩٣، وينظر: الأزرقي: أخبار مكة ١/ ٢٢٢، ٢/ ٢٦٩.

٩٣- ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة: ١٧ / ١٩٧.

٩٤- نهج البلاغة: ص ٤٨٨ .

٩٥- هو خباب بن الارت بن جندلة التميمي النسب، الخزاعي بالولاء، حليف بني زهرة، كان عبدا يعمل السيوف قبل الإسلام، فأصابه سبي، فبيع بمكة، كان من المسلمين الأوائل ومن خيار المهاجرين، قيل هو سادس ستة، وقد تعرض إلى تعذيب المشركين حتى هاجر الى المدينة، شهد جميع مشاهد النبي ﷺ، وكان إلى جانب أمير المؤمنين عليه السلام في حروبه، حتى مات سنة ٣٧ أو ٣٩ هـ وصلى عليه الإمام ودفن في الكوفة. وكان ابنه عبدالله على منهج أبيه في موالاة أمير المؤمنين عليه السلام وهو الذي قتلته الخوارج لموالاته الإمام. ينظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٢/ ٤٣٧، ابن الجوزي: كشف المشكل من حديث الصحيحين ٤/ ٣٩، ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ١٨/ ١٧١ــ١٧٢، التبريزي: الإكمال في أسماء الرجال ص٥٧، الكرباسي: إكليل المنهج ص٥٤٢ .

٩٦- نهج البلاغة: ص ٦٦٢.

٩٧- حديث خرجه: أبو جعفر الإسكافي: المعيار والموازنة ص٣٥، ابن قتيبة: الإمامة والسياسة (المنسوب) ١/ ٧٣، ابن مردويه: المناقب ص١١٣، الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١٤/ ٣٢٢، ابن عساكر: تاريخ دمشق ٤٢/ ٤٤٩، الشامي: الدر النظيم ص٤٤١.

٩٨- حبيب الله الخوئي: منهاج البراعة: ٢١ / ٨٦.

٩٩- شرح نهج البلاغة: ١٨/ ١٧١.

١٠٠- الصدوق: الخصال: ٣١٢. ابن الفتال: روضة الواعظين: ص ٢٨ .

١٠١- حبيب الله الخوئي: منهاج البراعة: ٢١ / ٨٧.

١٠٢- نهج البلاغة: ص٤٩٩-٥٠٠.

١٠٣- حبيب الله الخوئي: منهاج البراعة: ١٧/ ١٦٩.

١٠٤- لمزيد من التفاصيل والتحليل عما جرى في السقيفة ينظر: محمد رضا المظفر: السقيفة ص٩-١٥٦، الخليلي: السقيفة أم الفتن ص١١-١١٨. النصرالله: مصادرة الحق السياسي والاقتصادي لأهل البيت، ص١٨٩ـ ٢٧٤، العواد: السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام: ص٧٢٥-٧٨٦.

١٠٥- ذكر اليعقوبي: ودون عمر الدواوين، وفرض العطاء سنة ٢٠، وقال: قد كثرت الأموال ، فأشير عليه أن يجعل ديوانا، فدعا عقيل بن أبي طالب، ومخرمة بن نوفل، وجبير بن مطعم بن نوفل بن عبد مناف، وقال: اكتبوا الناس على منازلهم، وابدؤوا ببني عبد مناف. فكتب أول الناس علي بن أبي طالب في خمسة آلاف، والحسن بن علي في ثلاثة آلاف، والحسين بن علي في ثلاثة آلاف، وقيل بدأ بالعباس بن عبد المطلب في ثلاثة آلاف، وكل من شهد بدرا من قريش في ثلاثة آلاف، ومن شهد بدرا من الأنصار في أربعة آلاف، ولأهل مكة من كبار قريش مثل أبي سفيان بن حرب، ومعاوية بن أبي سفيان في خمسة آلاف، ثم

قريش على منازلهم ممن لم يشهد بدرا، ولأمهات المؤمنين ستة آلاف ستة آلاف، ولعائشة وأم حبيبة وحفصة في اثني عشر ألفا، ولصفية وجويرية في خمسة آلاف خمسة آلاف، ولنفسه في أربعة آلاف، ولابنه عبد الله بن عمر في خمسة آلاف، وفي أهل مكة الذين لم يهاجروا في ستمائة وسبعمائة، وفرض لأهل اليمن فئ أربعمائة، ولمضر في ثلاثمائة، ولربيعة، في مائتين. وكان أول مال أعطاه مالا قدم به أبو هريرة من البحرين، مبلغه سبعمائة ألف درهم. قال: اكتبوا الناس على منازلهم، وكتبوا بني عبد مناف، ثم أتبعوهم أبا بكر وقومه، ثم أتبعوهم عمر بن الخطاب وقومه على الخلافة. فلما نظر عمر قال: وددت والله اني هكذا في القرابة برسول الله، ولكن ابدؤوا برسول الله ثم الأقرب فالأقرب منه، حتى تضعوا عمر بحيث وضعه الله. وفرض للنساء المهاجرات وغيرهن على قدر فضلهن، وكانت فريضته لهن في ألفين، وألف وخمسمائة، وألف، وفرض لأسماء بنت عميس، وأم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وخولة بنت حكيم بن الأوقص امرأة عثمان بن مظعون في ألفين، وفرض لأم عبد في ألف وخمسمائة، وفرض لأشراف الأعاجم، وفرض لفيروز بن يزدجرد دهقان نهر الملك والنخير خان، ولخالد وللجميل ابني بصبهرى دهقان الفلوجة، وللهرمزان، ولبسطام بن نرسي دهقان بابل، وجفينة العبادي في ألفين ألفين، وقال: قوم أشراف أحببت أن أتألف بهم غيرهم. وقال عمر في آخر سنيه: اني كنت تألفت الناس بما صنعت في تفضيل بعض على بعض، وإن عشت هذه السنة ساويت بين الناس، فلم أفضل أحمر على أسود، ولا عربيا على عجمي، وصنعت كما صنع رسول الله وأبو بكر؛ تاريخ :٢/ ١٥٣ـ١٥٤. ولمزيد من التفاصيل عن ذلك ينظر: ابن الاثير: الكامل : ٢/ ٥٠٢ _ ٥٠٥، الكتاني: التراتيب الادارية ١/ ٢٠٠_٢٠٢ .

المصادر والمراجع

❁ القرآن الكريم

المصادر الاولية :

❁ ابن الأثير: أبو الحسن عز الدين علي بن محمد ت٦٣٠هـ .

الكامل في التاريخ ، دار صادر، بيروت ، ١٩٦٥.

❁ ابن الأثير: مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد ٥٤٤-٦٠٦هـ .

النهاية في غريب الحديث والأثر، تح : طاهر الزواوي - محمود الصناجي ، ط٤ ، قم ، ١٣٦٤ ش .

❁ ابن إدريس الحلي : أبو جعفر محمد بن منصور ت ٥٩٨ هـ .

السرائر الحاوي لتحرير الفتاوي ، مؤسسة النشر الإسلامي ، قم ، ط ٢ ، ١٤١٠ هـ .

❁ الأزرقي: أبو الوليد محمد بن عبد الله بن احمد ت ٢٥٠ هـ

أخبار مكة وما جاء فيها من الاثار ، تح : رشدي الصالح ملحس ، ط٣ ، بيروت ،١٩٨٣ م.

❁ البحراني: السيد هاشم التوبلي الموسوي ت ١١٠٧ هـ .

البرهان في تفسير القرآن ، تح: قسم الدراسات الإسلامية ، مؤسسة البعثة ، قم، ب.ت.

❁ البخاري: أبو عبد الله إسماعيل بن محمد ت ٢٥٦هـ.

الصحيح، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١ هـ.

❁البيهقي : احمد بن الحسين بن علي (٣٨٤- ٤٨٥ هـ).

شعب الإيمان، تح: أبو هاجر محمد السعيد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠.

❁ التبريزي: ولي الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله ت٧٤١ هـ.

الإكمال في أسماء الرجال، تعليق: أبو أسد بن الحافظ محمد عبد الله الأنصاري، مؤسسة أهل البيت، قم، ب.ت.

❁التفرشي: السيد مصطفى ق ١١هـ.

نقد الرجال، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث ، ط١ ، قم ، ١٤١٨هـ .

❁الثقفي: أبو هلال إبراهيم بن محمد ت ٢٨٣ هـ .

الغارات، تح: السيد جلال الدين المحدث ، مط بهمن ، ب .ت .

❁ أبو جعفر الاسكافي: محمد بن عبد الله المعتزلي ت ٢٤٠ هـ .

المعيار والموازنة ، تح : محمد باقر المحمودي ، ط ١ ، ب .مكا ، ١٩٨١ .

❁ ابن الجوزي : أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي (٥١٠-٥٩٧ هـ) .

كشف المشكل من حديث الصحيحين، ط١، دار الوطن، الرياض، ١٩٩٧.

❁ الجوهري: إسماعيل بن حماد ت (٣٩٣هـ / ١٠٠٣م) .

الصحاح، تح : احمد عبد الغفور ، ط٤ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٧م .

❁ الحاكم الحسكاني: الحافظ عبيد الله بن أحمد الحنفي النيسابوري (القرن الخامس الهجري).

شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، تح: محمد باقر المحمودي، ط١، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، طهران، ١٩٩٠.

❁ ابن حبان: محمد البستي التميمي ت ٣٥٤هـ .

مشاهير علماء الأمصار، تح: مرزوق علي، ط١، دار الوفاء، ب.مكا، ١٩٩١م.

❁ ابن أبي الحديد: عز الدين عبد الحميد بن هبة الله المدائني ٥٨٦-٦٥٦هـ .

شرح نهج البلاغة، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧ .

❁ ابن حزم: أبو محمد بن احمد ت٤٥٦.

المحلى ، تح : احمد محمد شاكر ، ب.ط ، دار الفكر ، بيروت ، ب.ت .

❁ ابن حنبل : أبو عبد الله احمد بن محمد (١٦٤-٢٤١هـ).

المسند، ب.محق، دار صادر، بيروت، ب.ت .

❁ الخزرجي : صفي الدين احمد بن عبد الله الأنصاري اليمني ت بعد ٩٢٣هـ .

خلاصة تهذيب تذهيب الكمال ، قدم له : عبد الفتاح أبو غده ، ط ٤ ، بيروت ، ١٤١١ هـ .

❁ الخطيب البغدادي: أبو بكر احمد بن علي ت٤٦٣هـ

تاريخ بغداد ، ب. محق، مط السعادة ، القاهرة ، ١٩٣١ .

❁ الدارمي : أبو محمد عبد الله بن بهرام (ت٢٥٥ هـ) .
السنن، ب.محق ، ب.ط ، الناشر : مطبعة الاعتدال ، دمشق ، ب.ت .
❁ الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧م.
ميزان الاعتدال ، تح :علي محمد البجاوي ، ط١ ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٨٢هـ.
❁ الرازي : محمد بن أبي بكر بن عبد القادر ، ت بعد ٦٦٠هـ / ١٢٦٨م .
مختار الصحاح : تح : احمد شمس الدين ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٤ .
❁ الزبيدي : محمد مرتضى ت ١٢٠٥هـ.
تاج العروس، مكتبة الحياة، بيروت، ب.ت.
❁الزرندي : جمال الدين محمد بن يوسف الحنفي ت ٧٥٧هـ .
نظم درر السمطين في فضائل المصطفى والمرتضى والبتول والسبطين ، مكتبة أمير المؤمنين ﷺ العامة ، ط١ ، ١٩٥٨هـ .
❁زين العابدين: الإمام علي بن الحسين ﷺ ت ٩٥ هـ.
الصحيفة السجادية، تح: السيد محمد باقر الموحد الأبطحي الاصفهاني، ط١، قم، مؤسسة الإمام المهدي. ١٤١١ هـ
❁ ابن سعد: محمد ت٢٣٠هـ .
الطبقات الكبرى ، تح : إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٧٨م.
❁ ابن سلامة: أبو عبد الله محمد القضاعي ت٤٥٤ هـ.
مسند الشهاب، حققه وخرج أحاديثه: حمدي عبد المجيد السلفي، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥
❁ السيوطي: ابو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت٩١١هـ .
الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١ هـ.
❁ الشامي: أبو حاتم جمال الدين يوسف بن حاتم العاملي ت ٦٦٤ هـ.
الدر النظيم ، مؤسسة النشر الإسلامي ، قم ، ب .ت .
❁ الشريف الرضي: أبو الحسن محمد بن الحسين (٣٥٩-٤٠٦هـ) .
نهج البلاغة، ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية: صبحي الصالح، ط ٦، دار الاسوة، طهران، ١٤٢٩ هـ.
❁الشهيد الثاني : زين الدين بن علي الجبعي العاملي (٩١١- ٩٦٦ هـ) .
مسالك الإفهام إلى تنقيح شرائع الإسلام، ط١، مؤسسة المعارف الإسلامية ، قم ، ١٤١٣ هـ .
❁ الصدوق: أبو جعفر محمد بن علي بن الحسن بن بابويه القمي ت ٣٨١هـ .
الخصال ، تح : علي اكبر غفاري ، جماعة المدرسين ، قم ، ١٤٠٣هـ .
علل الشرائع ، المطبعة الحيدرية ، النجف ، ١٩٦٦ .
عيون أخبار الرضا ﷺ، ط١ ، مط شريعت ،المكتبة الحيدرية، قم، ١٤٢٥هـ.
كمال الدين وتمام النعمة، صححه وعلق عليه: علي أكبر غفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤٠٥ هـ.
معاني الأخبار ، صححه : علي اكبر الغفاري ، ب.ط ، قم ، ١٣٦١ .
❁الصفار : محمد بن الحسن ت ٢٩٠هـ .
بصائر الدرجات ، تح : ميرزا محسن ، مؤسسة الاعلمي ، طهران ، ١٤٠٤هـ .
❁ الطبراني : أبو القاسم سليمان بن احمد (٢٦٠-٣٦٠هـ).
الاحاديث الطوال، تح: مصطفى عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.
كتاب الدعاء ، تح : مصطفى عبد القادر، ط١ ، بيروت ، ١٤١٣هـ .
مسند الشاميين ، تح : حمدي عبد المجيد السلفي ، ط٢ ، بيروت ، ١٩٩٦م .
المعجم الأوسط ، تح : إبراهيم الحسيني ، دار الحرمين ، القاهرة ، ب.ت .
المعجم الصغير ، ب.محق ، ب.ط ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ب.ت .
❁الطبرسي: أبو علي الفضل بن الحسن ت٥٤٨ هـ.
مجمع البيان في تفسير القرآن، حققه وعلق عليه: لجنة من العلماء، ط١، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٩٥.

❁ الطوسي : أبو جعفر محمد بن الحسن (٣٨٥ ـ ٤٦٠هـ) .
المبسوط في فقه الإمامية، تح: محمد تقي الكشفي، المكتبة المرتضوية، طهران، ١٣٧٨هـ.
❁ ابن عبد البر : أبو عمرو يوسف القرطبي ت ٤٦٣هـ .
الاستذكار ، تح : سالم محمد عطا و محمد علي معوض ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٠ .
الاستيعاب في أسماء الأصحاب، تح: علي محمد البجاوي، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م.
التمهيد، تح: مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، وزارة الأوقاف، المغرب، ١٣٨٧ هـ.
الدرر في اختصار المغازي والسير، ب.محق، ب.مكا، ب.ت.
❁ ابن عساكر: أبو القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله الشافعي (٤٩٩-٥٧١هـ).
تاريخ مدينة دمشق ، تح : علي شيري ، ب.ط ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٥م .
❁ ابن الفتال النيسابوري : أبو جعفر محمد بن الحسن ت٥٠٨ هـ.
روضة الواعظين ، ط٢ ، مط : أمير ، قم ، ١٣٧٥هـ .
❁ الفراهيدي: أبي عبد الرحمن الخليل بن احمد (١٠٠ ـ ١٧٥ هـ).
العين، تح : مهدي المخزومي و إبراهيم السامرائي ، دار الهجرة ط ٢ ، ١٤٠٩ هـ .
❁ الفيروز آبادي : مجد الدين محمد بن يعقوب ت ٨١٧ هـ .
القاموس المحيط ، جمع وشرح : نصر الهوريني ، ب . مكا ، ب ت .
❁ الفيض الكاشاني: محمد محسن (١٠٠٧– ١٠٩١هـ).
الوافي، مكتبة أمير المؤمنين عليه السلام، ط١، إصفهان، ١٤٠٦هـ.
❁ ابن قتيبة : أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري ت٢٧٦هـ.
الإمامة والسياسة (منسوب) ، تح: علي شيري، ط١ ، مط : أمير ، الناشر : الشريف الرضي ، قم ، ١٤١٣هـ .
❁ ابن قدامه: موفق الدين أبي محمد عبد الله بن احمد ت ٦٢٠هـ.
المغني، ب.محق، دار الكتاب العربي، ب. ت.
❁ الكرباسي: محمد جعفر بن محمد طاهر الخراساني ت١١٧٥ هـ.
إكليل المنهج في تحقيق المطلب، الطبعة الأولى، تحقيق السيد جعفر الحسيني الأشكوري، دار الحديث، قم، ١٤٢٥ هـ.
❁ الكليني : أبي جعفر محمد بن يعقوب ت ٣٢٩ هـ .
الكافي ، تح علي اكبر غفاري ،ط٣ ، دار الكتب الإسلامية ، ١٣٨٨ هـ .
❁ المتقي الهندي: علاء الدين بن علي ت ٩٧٥ هـ/ ١٥٦٧م.
كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، ط٢، حيدر آباد الدكن، الهند، ١٩٥٠ ـ١٩٦٧ .
❁ المجلسي : محمد باقر ت١١١١هـ .
بحار الأنوار، ط٢، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٣ .
مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، ط٢، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٤٠٤ هـ.
❁ المدني: السيد علي خان الشيرازي (١٠٥٢ – ١١٢٠هـ).
رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين صلوات الله عليه، تح: محسن الموسوي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤١٥هـ.
❁ ابن مردويه : أبو بكر احمد بن موسى الاصفهاني ت ٤١٠هـ.
مناقب علي بن أبي طالب، جمع: عبد الرزاق حرز الدين، ط٢، دار الحديث، قم، ١٤٢٤ هـ.
❁ مسلم بن الحجاج النيسابوري ت ٢٦١ هـ .
صحيح مسلم ، ب. محق ، دار الفكر، بيروت، ب. ت.
❁ المناوي: محمد عبد الرؤوف ت ١٠٣١هـ .
فيض القدير في شرح الجامع الصغير ، تح: احمد عبد السلام، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥ هـ .
❁ ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ت ٧١١هـ/ ١٣١١م.
لسان العرب ، ط١ ، دار أحياء التراث العربي ، أدب الحوزة ، ب .ت.
❁ابن ميثم :كمال الدين بن علي البحراني ت٦٧٩ ه .
ـشرح نهج البلاغة ،ط١ ،مط :وفا ،قم ،١٤٢٧ هـ .

❁النسائي: أبو عبد الرحمن احمد بن شعيب (٢١٥ - ٣٠٣ هـ) .
السنن الكبرى، تح: عبد الغفار سلياناد سيد كسروي حسن، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١ هـ/ ١٩٩١.
❁ النووي: محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف الدمشقي (٦٣١_٦٧٦هـ).
الأذكار النووية، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م.
المجموع ، من شرح المهذب ، دار الفكر ، ب.ت .
❁ الهيثمي: نور الدين علي بن أبي بكر (ت٨٠٧هـ) .
مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥٢-١٣٥٣هـ.
❁ ياقوت الحموي: أبو عبد الله الرومي ت٦٢٦ هـ .
معجم البلدان ، تح : وستنفلد ، لا يبزج ، ١٨٦٨ .
❁ اليعقوبي :احمد بن أبي يعقوب (كان حيا في ٢٩٢هـ).
التاريخ ، علق عليه : خليل المنصور، ط١، مط مهر، دار الاعتصام ، ١٤٢٥هـ.

المراجع الثانوية

❁ حبيب الله الخوئي: الميرزا الهاشمي ت ١٣٢٤ هـ.
منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، تح: علي عاشور، ط٢، دار احياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٨.
❁ الخراساني: حسين الوحيد.
مناسك الحج، ب.مكا، ب.ت. (قرص مكتبة أهل البيت عليهم السلام).
❁ الخليلي: جواد جعفر .
السقيفة أم الفتن، ط١، الإرشاد للطباعة والنشر، بيروت، ب.ت.
❁ الريشهري: محمد.
ميزان الحكمة، دار الحديث، ط١، قم، ١٤١٦هـ.
❁السيستاني: السيد علي الحسيني.
الفقه للمغتربين ، ترتيب وتنظيم : عبد الهادي محمد تقي الحكيم ، لندن ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.
مناسك الحج، ط١، مطبعة شهيد، قم،١٤١٣هـ.
❁العواد: انتصار عدنان.
السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام دراسة تاريخية، مؤسسة البديل، بيروت، ٢٠٠٩ .
❁ الفياض: محمد إسحاق.
مناسك الحج ، ط١، مطبعة أمير، قم، ١٤١٨هـ.
❁ الكتاني: السيد محمد عبد الحي الادريسي الحسني الفاسي.
التراتيب الادارية(نظام الحكومة النبوية)، ط٢، اعتناء وتحقيق: عبد الله الخالدي، بيروت ، ١٩٩٦م.
❁ المظفر :محمد رضا.
السقيفة: تقديم : د. محمود المظفر ، ط٤ ، قم ، ٢٠٠٤ .
❁ المير جهاني: حسن الطباطبائي.
مصباح البلاغة في مشكاة الصياغة (مستدرك نهج البلاغة)، طهران، ١٣٨٨ هـ
❁ ناصر مكارم الشيرازي.
الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل،ط٢ ،دار احياء التراث العربي،بيروت ،٢٠٠٥ م.
نفحات الولاية (شرح نهج البلاغة شرح عصري جامع لنهج البلاغة)،بمساعدة مجموعة من الفضلاء،اعداد:عبد الرحيم الحمراني،ط٢،دار جواد الائمة عليهم السلام،بيروت،٢٠٠٩ م.
❁ النجفي: هادي.
موسوعة أحاديث أهل البيت، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٢م.
❁ النصرالله: جواد كاظم.
مصادرة الحق السياسي والاقتصادي لأهل البيت عليهم السلام دراسة في مرويات الجوهري البصري ت٣٢٣ هـ من علماء الجمهور، مراجعة وتدقيق: مركز تراث البصرة، دار الكفيل، العتبة العباسية المقدسة، ٢٠١٤.

السِّمَاتُ العَمَلِيَّةُ فِي شَخْصِيَّةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَقِيمَتُهَا التَّرْبَوِيَّةُ وَالتَّعْلِيمِيَّةِ لِلطُّلَّابِ وَالنَّاشِئَةِ فِي العَالَمِ المُعَاصِرِ

Practical Traits in Prophet Muhammad and their Educational and Teaching Values to the Students and Juniors in the Contemporary World

أ.م.د.سليمان بن سالم الحسيني
جامعة نزوى، سلطنة عُمان

Asst. Prof. Dr. Suleiman S. AL-Husseini
Nazwe University / Oman

ملخص البحث:

تهدف الورقة البحثية الحالية إلى تسليط الضوء على السمات العملية في شخصية الرسول محمد ﷺ وأثرها التربوي والتعليمي على الطلاب والناشئة في هذا العصر؛ فقد تمتع الرسول محمد بشخصية عملية مؤثرة وفاعلة مكنته من تحقيق النجاحات المتتالية التي تعيشها الإنسانية وتشاهدها البشرية ماثلة جلية إلى هذا اليوم، بل إلى قيام الساعة. وسيرته ﷺ العطرة فيهذا المجال تعجُّ بالأمثلة والمواقف التي يمكن لإنسان هذا العصر أن يستلهم منها الأسوة الحسنة التي تهديه إلى طرق النجاح وتحقيق الأهداف سواء على المستوى الشخصي أو على مستوى الأمة . فلم يتوانَ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم ، في اتخاذ كل السبل التي تؤدي به إلى تحقيق أهدافه، والعيش في الحياة بكرامة ،والتغلب على التحديات التي تعترض طريقه، وحلال مشكلات التي تواجهه حتى يصل إلى مبتغاه وغايته.

وقد كانت تلك السمات جلية واضحة في شخصيته وهو فتى صغيرٌ وشابٌّ يافعٌ يشارك مجتمع مكة خوض معترك الحياة والسير في طريقها المفعم بالتطلعات والتحديات. وبعد نزول الوحي وتكليفه بأعباء الرسالة، كبُرت طموحات رسول الله وأهدافه ،وكبُرت معها قدراته العملية، وزادت من همته ونشاطه، فلم يُرى إلا عاملًا لإنجاز مهمة، ولم يشاهد إلا ساعيًا إلى تحقيق خير أو درءِ مفسدة . فما السمات العملية التي تميزت بها شخصية الرسول محمد، صلى الله عليه وآله وسلم ؟ وكيف يمكن للطلبة والناشئة الاستفادة من تلك الخصائص والاقتداء بسيرته العطرة في تسيير دفَّة الحياة المعاصرة إلى الخير والفلاح والنجاح؟ هذا ماتحاول الورقة البحثية الحالية الإجابة عنه.

ABSTRACT :

The current research paper aims at highlighting the traits of practical personality that possessed by Messenger of Allah- peace and blessing be upon him and alih and his companions. The paper also elaborates on the educational values of Prophet's practical personality and its significance for Muslim youth and humanity in general. The paper argues that Prophet Mohammed sustained a practical personality that enabled him to plan his life very well, face the challenges, impact the surrounding environment, influence people and obtain goals. If well presented to new generations of Muslims, especially students and learners, Messenger's traits of personality, method of planning and ability to impact people would provide a good model to appreciate and follow. During his life, his personality attracted people who then believed in him and followed him. Nowadays people who manage to read objectively and analytically bout his life and achievements get fascinated by him- his personality and achievements. Muslims' faith in him becomes even stronger and stronger. Non-Muslims, consequently, change their view towards him in a positive way- some even embrace Islam. ...

المقدمة

كان رسول الله ﷺ عمليًّا في تعاطيه مع الحياة وواقعيًّا في نظرته إليها. اختط في حياته منهجًا عمليًّا فاعلًا ومؤثِّرًا؛ جعلته عاملًا مشتغلًا غير متقاعس ولا متكاسل، ومطبِّقًا على أرض الواقع ما يؤمن به من أفكار ورؤى، وما يدور في خلده من تصوُّرات وتأمُّلات. واجه الحياة بروحٍ توَّاقةٍ إلى المعالي وتحقيق المنجزات. وواجهته الحياة بكثيرٍ من التحديات، ووقفت في طريقه كثيرٌ من العقبات فتعامل معها بإصرارٍ لا ينثني، وعزيمةٍ لا تتقهقر؛ فحقّق ما كان يصبو إليه ونال ما كان يريد. وقد ترك للسائرين عليخطاه وسنته منهجًا حياتيًّا مباركًا بوحي السَّماء يهدي من تمسَّك به إلى النجاح في هذه الحياة الدنيا والفوز والفلاح الأبدي في الحياة الأخرى، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ، صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ (الآيات ٥٢-٥٣، سورة الشورى).

من هذا المنطلق تسلِّط الورقة البحثية الحالية الضوء على السمات العملية في شخصية الرسول محمد ﷺ والمنهج الذي سار عليه، وأسلوبه الفريد المميز في تحقيق الأهداف التي كان يطمح إليها. فمعرفة سيرته ومنهجه وأسلوب حياته يشحذ الهمم، وينعش النفس، ويهدي إلى الصراط المستقيم في خضّم الحياة المعاصرة التي تعجُّ بالتحديات والاضطرابات، وفي الوقت الذي أصبحت الأمة الإسلامية، بل البشرية جمعاء، أحوج ما تكون إلى تمثُّل سيرته والعمل بمنهجه والاقتداء بأسلوب حياته. وتقديم السمات العملية في شخصيته بأسلوب تربوي تعليمي إلى الطلبة يمكن أن ينمِّي في وعيهم حبَّ الاقتداء به واتخاذه قدوةً في تنمية الذات وتطوير سمات الشخصية العملية لديهم.

وقبل مناقشة السمات العملية التي تحلَّت بها شخصية الرسول محمد ﷺ لابدّ من توضيح المقصود بالشخصية العملية وفق معطيات علم النفس المعاصر. فقد قدم سترنبرج وزملاؤه (Sternberg et al، ٢٠٠٠) لفهم الشخصية العملية وتعرف سماتها ثلاث نظريات هي: نظرية الشخصية العملية (practical personality)؛ ونظرية الذكاء العملي (practica lintelligence)؛ أي: القدرة على إدراك الأعمال اليومية في الحياة، والتعامل معها، وتحقيقها؛ ونظرية ذكاء النجاح (practical intelligence)؛ أي: خصائص النجاح في الحياة وفق المعايير التي وضعها الشخص لذاته. وينبع اهتمام علم النفس بدراسة الشخصية العملية ممَّا لخصائصها وسماتها من دورٍ في تحقيق النجاح في الحياة على المستوى الشخصي للفرد وعلى مستوى الجماعة أو المؤسسة التي ينتمي إليها؛ فالحياة اليومية والعالم الواقعي هما السياق الذي يبرهن فيه الشخص بأنَّه إنسانٌ عمليٌّ، ويمكن مشاهدة ملامح تلك الشخصية وملاحظة آثارها في سلوك الفرد مع الآخرين، وفي إنجازاته التي يحققها على صعيد العمل والحياة. فخصائص الشخصية العملية وما ارتبط بها من الذكاء العملي

والنجاح العملي قابلةٌ للقياس ويمكن للآخرين ملاحظتها على أرض الواقع على هيأة إنجازات وتغييرات؛ وبذلك يمكنهم تقييمها ونقدها والاستفادة منها أو رفضها. والشخص العملي لديه القدرة على التفاعل مع البيئة المحيطة به للتأثير فيها حتى تنقاد لهو تحقِّق له ما يصبو إليه، ويتجاوب هو مع تلك البيئة بالقدر الذي يكفل له تحقيق أهدافه. ولكي يحدث ذلك التفاعل المثمر البنَّاء لابد من أن يكون الشخص طموحًا ولديه أهداف، وأن يمتلك القدرة على التفكير النقدي، وابتكار الأفكار وتحليلها وتقييمها وتطبيقها على أرض الواقع، وحلّ المشكلات التي تثور بشكل يوميٍّ معيقة التطبيق السلس والفاعل للأفكار والابتكارات، واتخاذ القرارات الصحيحة في الوقت المناسب.

وإلى جانب ذلك، يتمتع صاحب الشخصية العملية بقدرٍ من المعرفة المضمرة (tacit knowledge) بالحياة والبيئة التي يعيشها. فهذه المعرفة لا تكتسب الدراسة ومقاعد الكليات والجامعات، بل تكتسب من تعاطي الشخص اليوميّ مع واقع الحياة ومستجداتها، وأنها ليست منقولةً شفويًّا وليست نظريةً ولا افتراضيةً، وإنما هي معرفةٌ عمليةٌ (procedural) إجرائيّةٌ (action-oriented) تُعنى بالسياق اليومي للأحداث، وبكيفية إحداث التغيير وتحقيق المكاسب، والأهداف والطموحات ونيل غاياته(Gottfredson، ٢٠٠٣).

وبحسب نظرية سترنبرج وزملائه، فإن خصائص الشخصية العملية مهمَّةٌ للحياة الأكاديمية للطلبة من منطلقين؛ أولهما: أنّ كثيرًا من خصائص الشخصية العملية تتشابه مع خصائص الشخصية الأكاديمية للطالب لاسيّما من حيث القدرة على اكتساب المعرفة التي توفرها البيئة واستثمارها لتحقيق الأهداف الشخصية للفرد. والنجاح الأكاديمي حاله كحال النجاح في الحياة؛ يقوم على استثمار جوانب القوة في الشخصية والاهتمام بجوانب الضعف وتنميتها وتطويرها. وثانيهما: أنّ امتلاك الفرد لخصائص الشخصية العملية وخصائص الشخصية الأكاديمية في آنٍ واحدٍ يجعلانه متحكّمًا في خصائص سمتين مركزيتين من سمات ذكاء النجاح -أي: خصائص الشخصية العملية وخصائص الشخصية الأكاديمية-وذلك يساعده في الوصول إلى النجاح الذي يصبو إليه (Gottfredson، ٢٠٠٣).

والدراسة الحالية لا تُعنى بتقديم تحليلٍ لشخصية الرسول محمدﷺ يتم وفق نظريات علم النفس، ولا يستعمل مقاييسها ولا أدواتها، فليس ذلك هدف الدراسة ولا غايتها. وإنما تعرض الدراسة وفق رؤيةٍ إيمانيةٍ روحيةٍ الجانب العملي في شخصية الرسول محمد(ص) وتتعرف الخصائص الفاعلة والمؤثرة في شخصيته ﷺ والجوانب المنيرة المشرقة في سيرته؛ لتبرهن للقارئ أن صاحب هذه السيرة العطرة والشخصية المؤثرة جديرٌ أن يُتّخذ قدوةً في الحياة ودليلًا ومرشدًا إلى الخير والفلاح: ﴿قُل هـٰذِهِ سَبيلي أَدعو إِلَى الله عَلى بَصيرَةٍ أَنا وَمَنِ اتَّبَعَني وَسُبحانَ الله وَما أَنا مِنَ المُشرِكينَ﴾ (الآية ١٠٨ سورة يوسف). وقد ناقش الباحث السمات

العملية التي تمتاز بها شخصية الرسول محمد ﷺ في مؤلفه المنشور سابقا تحت عنوان (سمات النجاح لدى الأنبياء) والذي يعدُّ المصدر الأساس لمحتوى هذا البحث المرتبط بالسمات العملية في شخصية الرسول محمد، إلا أنَّ البحث الحالي يمتاز بتأكيد الأهمية التربوية والتعليمية للجانب العملي في شخصية الرسول ودورها في تقديم القدوة الحسنة التي يمكن أن يتمثلها الشباب المسلم في هذا العصر.

طموحاته العظيمة سرُّ حياته العملية ومنهجه القويم:

كان رسول الله محمدٌ ﷺ طموحًا؛ ملأ حياته بالأهداف السامية العظيمة التي يسعى إلى تحقيقها وإنجازها. ولا يستطيع الإنسان أن يجد في تاريخ البشرية طُمُوحًا عظيمًا كطموح رسول الله، أو صاحب طموح عظيم كرسول الله.وقد عكس طموحه ﷺ مفهومه المتميز عن الحياة، ونظرته الخاصة إليها. فالعيش بدون هدف ليس أسلوب حياة الإنسان العاقل، فضلًا عن كونه من خصائص الرسول الكريم؛﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الآية ٢٢ سورة الأنبياء). ولم يكن طموحه ﷺ منبثقًا من منطلقات ذاتية كالهوى وحبِّ الشهرة، بل نابعٌ من عقيدة إيمانية، ومن توجيهٍ إلهيٍّ يخاطبه قائلا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الآية ١٠٧ سورة الأنبياء).فكان النبي المصطفى يطمح أن يجعل من شخصه الكريم تلك الرحمة العالمية التي اختارها الله للعالمين، ويطمح في إنشاء حضارة عظيمة، لا تقيدها حدود جغرافية، أو عرقية، أو زمانية ، أو ثقافية ،تمتد عبر الزمان إلى قيام الساعة، وعبر المكان لتشمل تحت مظلتها كل أجناس العالم وشعوبه بمختلف تطلعاتهم ورؤاهم. يخبرنا عنه أصحابه أنه خرج عليهم ذات يوم وقال: «أيها الناس إنَّ الله قد بعثني رحمةً وكافّةً، فلا تختلفوا عليَّ كما اختلف الحواريون على عيسى ابن مريم» (الزعبي، ١٩٨٧ص ٢٩٩).

وقد عملت كثيرٌ من العوامل على تنوُّع أهداف رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم؛ يأتي في مقدمتها التحديات التي واجهها في نشر دعوته، والناس الذين يتعامل معهم، والبيئة الجغرافية التي عاش فيها. ولم تكن أهداف الرسول، صلى الله عليه وآلهوسلم، مبعثرةً، بالرغم من كثرتها وتنوعها؛ فكانت جميعها تصبُّ في نهايةٍ واحدةٍ متمثلةٍ في طموحه العظيم بنشر راية التوحيد في كلِّ عوالم الكون. وحتى قراراته الشخصية كان يهدف من ورائها تحقيق أهداف تخدم الدين، وتعمل على تقوية إنجازاته في مجال الدولة الناشئة التي أسسها. فكان زواجه من أمّهات المؤمنين- رضي الله عنهنّ- يحقق مكاسب للإسلام أكثر من كونه يعطيه امتيازاتٍ شخصية؛ فزواجه من ابنة عمَّته زينب بنت جحش -رضي الله عنها- كان بأمرٍ إلهيٍّ هدف إلى اجتثاث فكرةٍ كانت سائدة في المجتمع العربي، تنصُّ على حرمة مطلّقة الابن بالتبني على الرجل المتبني له:﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ الله عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا الله مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَالله أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ الله مَفْعُولًا﴾ (الآية ٣٧ سورة الأحزاب).

وكانت كلُّ مرحلةٍ من مراحل الدعوة لها أهدافها التي تتناسب مع طابعها وظروفها؛ فقد بقي الرسول في مكَّة المكرمة ما يقارب ثلاث عشرة سنة وهو مدركٌ تمامًا لما يريد أن يحققه. ففي البداية، كانت مرحلة

الدعوة السرية حيث كان هدفه إدخال أسرته وأقاربه إلى الإسلام. فتمكَّن من تحقيق هذا الهدف؛بإيمان جميع أفراد أسرة الرسول بدعوته ابتداء من زوجه الفاضلة الجليلة أمِّ المؤمنين خديجة، إلى بناته الطاهرات البارات؛ لتصبح هذه الأسرة بمثابة الحضن الحنون للرُّسول في المراحل القادمة من مسير الدعوة. وفي هذه المرحلة أيضًا، تحقّق للرسول هدفه الآخر، وهو إدخال عددٍ من أقاربه في دعوته، منهم ابن عمه علي بن أبي طالب - كرَّم الله وجهه- وابنه بالتبنّي زيد بن حارثة. فتكوّنت بذلك أول نواة للإسلام في مكّة المكرمة من جيل الشباب والناشئة الذين شاركوا رسولهم في تحمُّل عبء نشر الدين الجديد.

وبعد الهجرة وتأمين الحاضنة المكانية والاجتماعية للدعوة عمل رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- على تحقيق ثلاثة أهداف عظام؛ فكان تأسيس الدولة الإسلامية ذات المجتمع المدني والعاصمة المركزية بالمدينة المنورة أول هدف عمِلَ الرسول لتحقيقه، والهدف الثاني هو إدخال الجزيرة العربية في الإسلام، وأما الهدف الثالث فكان نشر الإسلام عالميًّا برسائله ورسله الذين وصلوا إلى عواصم الإمبراطوريات والدول المعاصرة لمبعثه، يحملون الدعوة المباركة الكريمة لأهل تلك الدول وقادتها باعتناق الإسلام وعبادة الله الرب الواحد الخالق. وبكل تأكيد، لم يأتِ تحقيق تلك الأهداف في السنوات العشر التي قضاها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم- في المدينة من فراغ، ولم يكن يتأتّى لولا تكريس الرسول حياته كلها لتلك الغاية وذلك الطموح. فقد كانت أهدافه - صلى الله عليه وآله وسلم- تتحقق على يديه الأول تلو الآخر؛ ليس لأنَّها نبيلةٌ وراقيةٌ فحسب، بل لأنَّه كان دقيقًا للغاية في وضع الخطط والبرامج لتنفيذها على أرض الواقع وكان يستثمر كلَّ الطاقات لتطبيقها وتحويلها إلى حقيقةٍ لا مريةَ فيها.

التخطيط الصحيح والتنفيذ السليم من السمات العملية في شخصية الرسول محمد - صلى الله عليه وآله وسلم-:

تبلورت السمات العملية في شخصية رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم -قبل نزول الوحي، واستمرت شعلتها المتقدة بعد نزوله، وتحمَّل الرسول الكريم أعباء الرسالة وقيادة الأمة. فقبل نزول الوحي وفي مجتمع مكة المكرمة الذي يتمايز أفراده فيما بينهم بما يتمتعون به من مكانةٍ اجتماعيةٍ ومالية، ويتنافسون فيما بينهم على الوجاهة والنفوذ والسلطة والشهرة وجمع المال وتكديس الثروات، كان الرسول محمدٌ متميِّزًا بشخصيته التّواقة إلى العمل وتحقيق الإنجازات وعدم الرضا بالدونية رغم التجارب الصعبة التي مر بها منذ طفولته بين يتم وفقر. ففي مرحلةٍ مبكرةٍ من سنّ الشباب عمل الرسول الكريم في التجارة، فبرع فيها حتى أصبح واحدًا من أشهر تجَّار مكة.

وقد وسَّع نشاطه التجاري ليشمل إلى جانب التداولات التجارية في محيط مكة، ما يعرف في المصطلحات المعاصرة، بالاستيراد والتصدير، خاصة من منطقة الشام وإليها. وكان يقوم بنفسه، ويشرف مباشرة، على معاملاته التجارية عند اشتراكه في القوافل التجارية المسافرة في خط التجارة الصيفي بين مكة والشام. ومن المعلوم أن التجارة، ولاسيما الاستيراد والتصدير، كانت تدر أموالاً طائلة على تجار مكة. لذا فقد برز منهم شخصيات ذات ثروات مالية عظيمة.وقد أشار القرآن الكريم، في أكثر من موضع، إلى مثل تلك الشخصيات خاصة أولئك الذين أبطرتهم أموالهم عن قبول دعوة الرسولﷺ مثل الوليد بن المغيرة. كما أشار القرآن الكريم في أكثر من موضع إلى حالة الازدهار التجاري الذي كانت تعيشه مكة حينئذ، ﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الآية ٥٧ سورة القصص). وأشار القرآن الكريم كذلك إلى ممارسة الرسول، صلى الله عليه وسلم، للتجارة، وذلك على لسان قومه عندما أنكروا عليه ذلك مدعين بأن الرسل لا يقومون بذلك ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ (الآية ٧ سورة الفرقان). يقول ابن كثير في تأويل ﴿وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾ «أي يتردد فيها وإليها طلباً للتكسب والتجارة» (ابن كثير، ٢٠٠٢ ج ٦، ص ٨٦).

وقد أكسبت رسول اللهﷺ نجاحاته في مجال التجارة شهرة واسعة في مجتمعه. وقادته تلك النجاحات والسمعة الحسنة إلى الزواج بأم المؤمنين خديجة- رضي الله عنها. فلم تكن خديجة إحدى سيدات الطبقة الراقية في المجتمع المكي فحسب، بل كانت عبقرية، وذات نظرة شمولية مستقبلية. ففي الوقت الذي كانت

فيه أرملة، كانت متأنية جداً في موضوع الزواج بالرغم من العروض المتكررة التي كان يتقدم بها رجالات قريش وزعماؤها للزواج منها. وفي تلك الأثناء كانت تشرف على إدارة مشاريعها التجارية بنفسها، وتنتقي أفضل الرجال وأكفأهم وكلاء تنيط بهم المتاجرة بأموالها. ومن هنا جاءت معرفتها برسول الله ﷺ التي انتهت بالارتباط به بتلك العلاقة المصيرية تحت مظلة الزواج.

وربما كان في الوسط المكي حينذاك من الرجال من هو أكثر شهرةً، وأموالًا، ومكانةً اجتماعيةً، ونجاحًا من رسول الله ﷺ لترتبط به خديجة. فبغض النظر عن حقيقة أن الرسول ﷺ كان ينتمي إلى بيت بني هاشم، وهو أحد بيوتات الوجاهة والشرف في مكة، كان في ذلك الوقت يشق طريق حياته بعناءٍ بين يتم وفاقة، لا إخوة له يسند ظهره إليهم، ولا أولاد يحفون به في مجامع قريش ونواديها، كما هو حال كثيرٍ من شرفاء مكة وكبرائها. إلا أن خديجة– رضي الله عنها– كانت ترى في محمد– صلى الله عليه وآله وسلم– مقوماتٍ شخصيةً لا تراها في أي رجلٍ آخر في مكة وما حولها؛ لذا فقد اختارته هو على من سواه.

وربما كان رسول الله ﷺ الذي بلغ سن الخامسة والعشرين، وهي سنٌّ متأخّرةٌ على زواج الرجل في المجتمع العربي يومئذ، يبحث بين نساء مكة عن امرأة ذات خصائص وسماتٍ معيَّنةٍ لم يجدها إلا في خديجة التي كانت قد بلغت سن الأربعين. فكان زواجها نقلةً نوعيَّةً ومنعطفًا فاصلًا في حياة كلّ منهما. فهنا التقت خصائص محمد،الشاب العبقري، صاحب الهمَّة العالية، والأخلاق السامية، والشِّيم الرفيعة، الذي أدَّبه ربُّه فأحسن تأديبه، مع خصائص خديجة سيدة نساء مكة، ومن أكبر أثريائها، ذات المعرفة بأحوال مجتمعها، وصاحبة الكلمة المؤثرة فيه.

ولم يكن أثر زواج رسول الله بأمِّ المؤمنين خديجة مقتصرًا على الجانب المادي والاجتماعي وحسب؛ بل كان لأمِّ المؤمنين دورٌ عظيمٌ في توجيه مسير الدعوة في مراحلها الأولى؛ نتيجة مواقفها المشرِّفة والمساندة لرسول الله ﷺ ومسارعتها إلى الإيمان بدعوته والتصديق برسالته بدون تردُّد.

وبلا شك، فقد أثْرتْ مهارات رسول الله ﷺ التجارية، وخبراته العملية التي اكتسبها في مرحلة ما قبل الوحي، في تأسيس النظام الاقتصادي الإسلامي، الذي شرع في تكوينه في المراحل الأولى لنشأة الدولة الإسلامية في المدينة المنورة. وقد أعانته تلك المهارات والخبرات في فهم تشريعات الوحي التجارية والاقتصادية.

فمباشرةً بعد وصوله المدينة المنورة، أمر الرسول محمد ﷺ بتأسيس سوق للمسلمين، بالرغم من وجود عددٍ من الأسواق في المدينة المنورة يومئذ. وكانت هذه الخطوة ذات بُعدٍ استراتيجيٍّ ترمي لتحقيق أكثر من هدف، فلم تُنشأ سوق المسلمين هذه ليحتكر ارتيادها على المسلمين وتمنع على غيرهم، بل كانت مفتوحةً لأصحاب الديانات الأخرى. فكان الهدف هو إنشاء سوقٍ تخضع إدارتها للمسلمين، وتتم المعاملات التجارية فيها

وفق التشريع الاقتصادي الإسلامي. فمن غير الممكن، بديهيًّا، أن توضع التشريعات الاقتصادية الإسلامية موضوع التطبيق في سوق يديرها غير المسلمين ووفق تشريعات تخالف شريعة الإسلام.

ومن جانب آخر، فقد ساعدت هذه السُّوق في معرفة غير المسلمين بالإسلام في مركزه وعقر داره. فالأسواق، خاصة في الحواضر الاستراتيجية، تعدُّ مراكز جذب، يفِد إليها الناس من المناطق المجاورة، ويسافر إليها التجار من أقطار بعيدة. والمعروف أن سوق المدينة هذه كانت نشطةً للغاية؛ لذا، فقد شكّلت بؤرة جذب لغير المسلمين الذين كانوا يرتادون المدينة من أجل التجارة فيتعرفون على الإسلام، ويخالطون المسلمين، ويتعاملون معهم في بيعهم وشرائهم.

وقد سهَّل قربُ السوق من المسجد النبوي [1] للتجار غير المسلمين، المرتادين للسوق، الوصول إلى رسول الله ﷺ في مسجده ومقابلته، وتعرفه، وتعرف الإسلام منه مباشرةً. ووضع السوق قرب المسجد جعله تحت الرقابة المباشرة للرسول، الذي كان لا يستنكف من زيارتها وتعرّف أوضاعها. وفي تلك الزيارات الميدانية كان الرسول ﷺ يضع الأسس والمبادئ التجارية وفق المفهوم الإسلامي. ففي هذه السوق قال رسول الله الحديث المشهور: «من غَشَّنَا فليس منَّا» [2] (مسند الإمام أحمد، ج ٢، حديث رقم ٥١٠٥)،ليصبح بمثابة قاعدةٍ إيمانيَّةٍ يتعامل بها المسلمون فيما بينهم.

وقد استفاد الرسول ﷺ من معرفته بالواقع الاقتصادي لمكة المكرمة، ونقاط القوة والضعف فيه، في وضع الخطط الاستراتيجية لمحاربة كفار مكة اقتصاديًّا، بعد أن هاجر إلى المدينة المنورة، كما حاربوه اقتصاديًّا عندما كان بين ظهرانيهم يدعوهم إلى الإسلام وترك عبادة الأوثان. فالمدينة المنورة تحتلُّ موقعًا استراتيجيًّا في طريق القوافل بين مكة والشام، وأيُّ تهديد لسلامة هذه الطريق كفيلٌ بخنق الحركة التجارية لمكة. وكان الرسول ﷺ مدركًا هذه الحقيقة. فبدأ بتوجيه دورياتٍ عسكرية إلى المناطق التي تمر بها قوافل قريش المسافرة بين مكة والشام.

وفي الحقيقة، لم يكتفِ الرسول محمد ﷺ بتهديد طرق قوافل مكة المتجهة إلى الشام وحسب. فقد وجه سراياه إلى مراقبة طرق قوافل قريش شرق مكة المكرمة. ومن تلك السرايا سريَّة عبدالله بن جحش التي تمكّنت من الاستيلاء على إحدى القوافل التجارية لكفار مكة والتي كانت مسافرةً بين الطائف ومكة. وقد أعطى تعرُّض سرايا رسول ﷺ لقوافل مكة غير المسبوق نتائجه بشكلٍ سريع للغاية، لم يكن في تصوُّر أيٍّ أحد حتى المسلمين أنفسهم. فقد أثار حفيظة قريش، ووصل ذلك الأثر ذروته عندما بلغ قريشًا أن رسول الله ﷺ قد تعرَّض لقافلةٍ قادمةٍ من الشام بقيادة أبي سفيان بن حرب. فوجَّهت قريش جيشًا للتصدِّي لرسول الله، فوقعت بذلك معركة بدر الكبرى الفاصلة والمصيرية، التي هزم فيها المسلمون جيش قريش،

وقُتل فيها عددٌ كبيرٌ من زعاماتهم.

وكانت الكيفية التي هيَّأ بها الرسول محمد ﷺ المدينة المنورة لقبول هجرته وتبنِّي أفكاره- في الوقت الذي رفضته مكة والطائف- إحدى المجالات التي برزت فيها عبقرية رسول الله العملية، وقدرته غير العادية في التخطيط والإبداع وجني المكاسب العظيمة.

فقد كان قبول أهل المدينة- ممثلين بأسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث، ورافع بن مالك، وقطبة بن عامر، وعقبة بن عامر، وجابر بن عبدالله- للدين الإسلامي نجاحًا كبيرًا لجهود رسول الله ﷺ في البحث عن بديلٍ لمكة المكرمة يحتضن الدعوة، ويكون مركزًا للدولة الإسلامية الناشئة. وبالرغم من أنَّ كلَّ المؤشرات كانت تدلُّ منذ البداية أن المدينة المنورة أرضٌ خصبةٌ لقبول رسول الله، إلا أن الملاحظ أن انتقاله إليها كان متأنيًّا ومتريثًا. فلم يهاجر رسول الله إلى المدينة المنورة إلا بعد أكثر من عامين من لقاء أولئك النفر الستة واعتناقهم الإسلام. وما حدث بين هذا اللقاء وهجرته، كان بمثابة التهيئة المتبصِّرة المتأنية، للمدينة المنورة لقبول حدث الهجرة الضخم والمفصلي في تاريخ المدينة نفسها، وفي تاريخ الدعوة الإسلامية.

فكانت المدة بين رجوع أولئك الرجال الستة إلى المدينة وعودتهم إلى مكة مرة أخرى من العام القادم، بمثابة فترة اختبار لمدى قدرتهم على العمل لصالح الإسلام في المدينة المنورة. وفعلاً قد أثبتوا مقدرةً متميّزةً على العمل على نشر الإسلام في المدينة المنورة؛إذ «لم تبقَ دارٌ من دور الأنصار إلا وفيها ذكرٌ من رسول الله» (ابن هشام، ١٩٨٥ ص ٤٣٠). وكان من ثمرة هذه الجهود الدعوية المباركة عودتهم إلى رسول الله من العام القادم، وقد ارتفع عددهم من ستة إلى اثني عشر رجلاً. وقد شجّعت هذه الإنجازات رسول الله في أن يمضي قُدمًا في جهوده معهم. فحدثت بيعة العقبة الأولى، وهي عهودٌ قطعها الأنصار على أنفسهم بالالتزام بمبادئ الإسلام التي نصّ عليها رسول الله،صلى الله عليه وآله وسلم، وعدم الإخلال بها أو تجاوزها. إضافة إلى ذلك، فقد اختار رسول الله الصحابي الجليل مصعب بن عمير- وهو من خيرة شباب مكة الذين اعتنقوا الإسلام وآمنوا بالرسول- للتوجُّه مع هؤلاء الرجال كموفودٍ خاصٍّ منه إلى المدينة المنورة للقيام بتعليم الأنصار أمور الدين، ونشر تعاليم الإسلام، والدعوة إلى الله.

وقد شكَّل مصعب بن عمير مع زملائه من الأنصار، بزعامة مضيفه أسعد بن زرارة، فريقًا نشطًا للغاية في نشر الإسلام في المدينة المنورة. فمجموعة الأنصار كانوا يعرفون المدينة وأهلها، وأدرى بمن يجب أن يستهدفوه بأفكارهم بحسب أولويات وضعوها لتحقيق ذلك. أما مصعب بن عمير فكان شابًّا متّقد الذهن، عاش منذ نعومة أظافره الإسلام في مكة المكرمة مع رسول الله،صلى الله عليه وآله وسلم. فتعلَّم مصعب من الرسول منهج الدعوة، وأساليب الخطاب،وفنون الإقناع والتعامل مع الناس. وقد ركز هؤلاء الدعاة

أعمالهم على الزعماء ومسؤولي القبائل لعلمهم بالأثر الكبير الذي يتركه إسلامهم على أتباعهم.

فكان أسعد بن زرارة يجوب بمصعب دُور المدينة؛ يعرِّفه برجالها وزعمائها، ويشرح له أثر كل زعيمٍ على قبيلته. وكان مصعب بحكمته، ومقدرته على الإقناع، يقتنص الرجال والزعماء الواحد تلو الآخر. وهكذا صنع مصعب ورفاقه مجتمعًا مسلمًا في المدينة المنورة في أقل من سنة واحدة، حيث «لم تبق دارٌ من دُور الأنصار إلا وفيها رجالٌ ونساءٌ مسلمون» (ابن هشام، ١٩٨٥ ص ٤٣٧).

وقد ظهرت ثمار الدور الرائع الذي قام به مصعب بن عمير ورفاقه من الأنصار في موسم الحج التالي، إذ ارتفع عدد وفد المدينة المنورة الذي قدم على رسول اللهﷺ إلى ثلاثة وسبعين رجلًا وامرأتين. وبهذا كانت كل الوقائع تشير إلى أن المدينة المنورة أصبحت مهيَّأةً لاحتضان الرسول ودعوته. فمقارنةً بالوضع في مكة، لا أحد يضطهد المسلمين في المدينة المنورة؛ فالمسلم قادرٌ على إظهار إسلامه، وممارسة الشعائر الدينية بدون خوف. وأن عدد المسلمين دائما في ازدياد مستمر. والأهم من ذلك أن الأنصار يعرضون على الرسول الهجرة إليهم مؤكدين له الولاء والطاعة، ويعرضون عليه الحماية التامة له من كلِّ أحد.

ومن هنا جاءت الخطوة المهمة التالية في طريق إعداد المدينة للهجرة المباركة. فقد دعا الرسولُ الأنصار إلى بيعة العقبة الثانية. وتختلف هذه البيعة عن سابقتها بأن أضيفت إليها مادةٌ جديدةٌ تنصُّ على حماية الأنصار للرسول، صلى الله عليه وسلم، كما يحمون نساءهم وأبناءهم، حتى وإن أدى ذلك إلى أن يخوضوا من أجله المعارك والحروب. وقد أكد الأنصار للرسول قبولهم لهذا البند.فقد قال البراء بن معرور، رضي الله عنه: «نعم، والذي بعثك بالحق نبيًّا، لنمنعنَّك مما نمنع منه أزرنا، فبايِعنا يا رسولَ الله. فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة، ورثناها كابرًا عن كابر» (ابن هشام، ١٩٨٥ ص ٤٤٢). ولما كانت هذه المعاهدة خطوةً مصيريَّةً في تاريخ المدينة ولها تبعاتٌ عظيمة، اشترط الأنصار من جانبهم على رسول الله أن يبقى في المدينة المنورة، وأن لا يعود إلى مكة المكرمة بعد الفتح. وقد قبل رسول الله ذلك، رادًّا عليهم : «أنا منكم وأنتم منِّي، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم» (ابن هشام، ١٩٨٥ ص ٤٤٢).

وبانعقاد بيعة العقبة الثانية وصلت العلاقة بين الرسول والأنصار إلى مستوى عالٍ من القوة والمتانة. فالبيعة نصَّت على أن يهاجر الرسول إلى المدينة المنورة. وسكان المدينة المنورة نفسها يتحوَّلون إلى الإسلام بشكلٍ سريعٍ ومطّرد.لكن بالرغم من هذه التطورات المهمة لم ينتقل الرسول بعد إلى المدينة المنورة؛ فهناك خطوةٌ مهمَّةٌ يقوم بها في سبيل تهيئة المدينة لاستقباله وقبوله، فقد عمل على تنظيم إجراءات هجرة أصحابه إليها.

لقد حقَّقت هجرة أصحاب الرسول محمدﷺ قبل خروجه من مكة هدفين متوازيين؛ فمن ناحية، ما

كان النبي يريد أن يخرج عن أصحابه من مكة ويتركهم خلفه تحت وطأة كفار مكة؛ فمسلمو مكة يشكلون حجر الأساس في ظهور الإسلام وبروزه، وقد تحمَّلوا الكثير في سبيل إيمانهم برسول الله وتصديقهم برسالته. من هنا حرص رسول الله ﷺ على أن لا يفرط في هذه النخبة الصادقة من الرعيل الأول من المسلمين. فبقي في مكة حتى تأكَّد أن جميع أصحابه قد غادروها إلا المستضعفين منهم الذين لا سبيل إلى خروجهم، أو إخراجهم، في تلك الظروف الصعبة.

أما على صعيد المدينة المنورة، فقد عملت هجرة أصحاب رسول الله ﷺ على تهيئة سكان المدينة المنورة نفسيًّا لاستقبال المهاجرين وضمهم إليهم. وفي العادة، يُخشى من نزوح عددٍ كبيرٍ من المهاجرين من تغييرٍ مفاجئٍ في التركيبة السكانية. وتشكّل عادة الهجرة الجماعية عبئا على المدن، أو الدول المهاجر إليها،ومصادرها ومواردها الاقتصادية. وربما يترتب عن ذلك حدوث خللٍ أو مشكلاتٍ في النظام الاجتماعي، إلا أن اللافت للنظر أن شيئًا من هذا لم يحدث أبدًا في المدينة المنورة؛ فقد تمكنت المدينة المنورة من استيعاب المهاجرين نفسيًّا، واقتصاديًّا، واجتماعيًّا، وروحيّاً. فلم تُنشأ في المدينة المنورة معسكرات إيواء للقادمين الجدد. ولم تكن هناك أي مظاهر كراهية أو أعمالٍ عنصرية ضدهم. فعلى العكس من ذلك، وضع الأنصار برنامج دمج دقيقًا للمهاجرين في المجتمع المدني؛ فالمهاجر يمكنه أن يرى منذ الوهلة الأولى بأن الأمور مهيَّأة سلفًا لاستقباله، فبمجرد أن يصل إلى المدينة المنورة يُلحق بأحد بيوت الأنصار ليعيش كفرد من أفراد تلك الأسرة، وقد عُرف هذا البرنامج فيما بعد بـ«المؤاخاة»، حيث عمل الرسول – صلى الله عليه وسلم – بعد وصوله المدينة على المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

عملت المدة منذ وصول المهاجرين إلى المدينة المنورة وهجرة رسول الله إليها، على تعرُّف مجتمع المدينة المنورة إخوانهم المهاجرين وتأقلمهم مع الوضع الذي أوجده هذا النزوح إلى مدينتهم. وقد أثبت الأنصار في تلك المدة جدارتهم كراعٍ للإسلام والمسلمين، وحماةٍ واعدين للرسول، صلى الله عليه وآله وسلم؛ وبذلك، لم يبق أمام المدينة المنورة إلا انتقال رسول الله إليها. ولم يكن أمام رسول الله، وقد تهيَّأت المدينة المنورة لاستقباله، إلا انتظار ساعة الصفر لجني ثمار جهدٍ استمر أكثر من سنتين لتحويل المدينة المنورة إلى قاعدةٍ لانطلاقته الحضارية نحو نشر رحمته المهداة للعالمين.

ومن ضمن خصائص الشخصية العملية التي يتمتع بها الرسول محمد ﷺ قدرته الفائقة في التحكم في سير الأحداث وتحويل النهايات التي تبدو في ظاهرها ضده حتى تصبح لصالحه. فمعركة أُحُد التي هُزم فيها المسلمون، تحوَّلت نهايتها إلى نصر معنوي وروحي، وظَّفه الرسول لصالحه ولصالح المسلمين. ففي هذه المعركة التي ثبت فيها المسلمون في البداية حتى هزموا جيش المشركين، أدى ترك الرماة لأماكنهم التي أمرهم

رسول الله ﷺ بالبقاء فيها إلى التفاف المشركين من خلف جيش المسلمين في هجومٍ مباغت؛ أدى هذا الهجوم المفاجئ إلى إرباك جيش رسول الله، ومن ثمّ قُتِل عددٌ كبيرٌ من أفراده، منهم عمّه حمزة بن عبدالمطلب، سيد شهداء أهل الجنة، وأصيب الرسول نفسه بجروح بالغة في ذلك الهجوم.

لم يكن انتصار جيش المشركين في هذه المعركة إلا أمرًا مؤقتًا وآنيًّا، إذ لم يستطع المشركون الثبات، فسارعوا إلى مغادرة أرض المعركة، والخروج باتجاه مكة المكرمة. لم يقف الرسول، الخبير بفنون الحرب والقتال، عند هذا الإنجاز. فقد خرج في اليوم التالي وراءهم بمن معه من الصحابة، حتى بلغ موقعًا يسمّى «حمراء الأسد»، وهناك قام أحد المشركين الموالين للرسول محمد، واسمه معبد الخزاعي، بدور دعائي لرسول الله في جيش المشركين أدّى إلى هزيمته معنويًّا. فقد توجَّه معبد إلى أبي سفيان، قائد جيش قريش، وقال له: «محمد خرج في أصحابه يطلبكم في جمعٍ لم أرَ مثله قطّ، يتحرّقون عليكم تحرُّقًا، قد اجتمع معه من كان تخلّف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا. فيهم من الحنق عليكم شيءٌ لم أرَ مثله قط.»؛ وإثر ذلك قرّر أبو سفيان الإسراع بجيشه إلى مكة (ابن هشام، ١٩٨٥).

ورجع الرسول ﷺ بجيشه إلى المدينة المنورة وهم منتصرون معنويًّا، وقد تمكّنوا من إجبار جيش قريش الغازي على الفرار إلى مكة. من جانب آخر، خرج المسلمون عقب هذه المعركة بأعظم درسٍ تعلّموه في تاريخهم، هو وجوب طاعة أوامر رسولهم مهما كانت الظروف والاحتمالات.

وفي يومٍ من الأيام، وعندما كان الرسول ﷺ في سفرٍ،استغلّ رأس المنافقين عبدالله ابن أُبي بن سلول تشاجر اثنين من الرعاة على الماء أيّهما يسقي أولًا، ليثير فتنة بين المهاجرين والأنصار؛ فقد قال إثر ذلك الموقف: «أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل»؛ أي: إنه سيحارب رسول الله والمهاجرين حتى يخرجوهم من المدينة (ابن هشام، ١٩٨٥).

أثارت هذه العبارة ضجّةً كبيرةً في صفوف المسلمين؛ فابن أبي بن سلول زعيمٌ قديمٌ في المدينة المنورة، وقد تعوَّد الناس على أن يأخذوا كلامه مأخذ الجد، ولو أعطي فرصة للترويج لشعاراته الزائفة لربما حدث ما لا يحمد عقباه، لا سيما بين ضعاف النفوس من أمثاله. من جانب آخر، طالب الحريصون على وحدة صف المسلمين من أصحاب رسول الله ﷺ أن ينزل عقوبة الإعدام بابن أبي بن سلول؛ باعتبار أنه نافق وأعلن شنّ الحرب على رسول الله، وهي تهمةٌ أنكرها ابن أبي بن سلول، وحلف أمام رسول الله أنه ما قال شيئًا من ذلك.

في هذا الجو المشحون، أمر رسول الله ﷺ المسلمين بالركوب والارتحال من موقعهم ذلك. وقد سار الرسول ﷺ بجيشه حثيثا ذلك اليوم، ثم واصل المسير طول الليل، وصباح اليوم التالي، وعندما أوشك

النهار على الانتصاف، توقف الرسول عن المسير، وأمر جنده بالنزول عن الدواب، فما كادت أجسامهم تلامس الأرض حتى غط الجميع في نومٍ عميقٍ؛ من شدة التعب وعناء السفر، وقد شغلهم السير الجادّ طوال ذلك الوقت، وما لاقوه من إرهاقٍ وإنهاكٍ عن الخوض في تلك الحادثة التي كادت توقع بينهم الفتنة.

لم تقتصر ملامح الشخصية العملية التي كان يتمتّع بها الرسول محمد ﷺ على أعماله، بل كانت الحلول التي يطرحها على الآخرين ويقدمها لأصحاب الأزمات والمشكلات عمليةً وتؤتي نتائجها عند الإجراء التطبيقي. فقد «دَخَلَ رَسُولُ الله، صلى الله عليه وسلم، ذَاتَ يَوْمٍ المَسْجِدَ، فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ أَبُو أُمَامَةَ، فَقَالَ يَا أَبَا أُمَامَةَ، مَا لِي أَرَاكَ جَالِسًا فِي المَسْجِدِ فِي غَيْرِ وَقْتِ الصَّلاَةِ؟» (أبي داؤد، ٢٠١٠ الحديث رقم ١٥٥٦).لم يشدَّ انتباه رسول الله ﷺ جلوس الرجل في المسجد؛ فالمساجد للمسلمين يرتادونها، وإنما شدّ انتباهه جلوس الرجل في المسجد في غير وقت الصلاة؛ وهو وقتٌ على المسلم أن يستثمره في أغراض أخرى، ولتحقيق مكاسب مرتبطةٍ بالحياة والمعيشة. أليس من تعاليم الرسول أنه لا رهبنة في الإسلام؟! بمعنى آخر: أنّ الإسلام دين عملٍ وعطاء، وليس دين انكماشٍ على الذات، وامتناعٍ عن صناعة الحياة والقيام بدور الخلافة الحقة في الأرض.

وفي جوابه عن تساؤل الرسول، قالَ أبو أمامة: «هُمُومٌ لَزِمَتْنِي وَدُيُونٌ يا رسول الله»؛ ممَّا يعني أن الحياة قد ألقت بثقلها على كاهل هذا الرجل؛ فهو يعيش ثقل الدَّين همًّا بالليل وذلًّا بالنهار، كما يقول العرب. ولكن، الجلوس في المسجد لا يأتي بحلّ، وعلى الإنسان أن يعمل ويكسب ما يمكنه ليقضي ما عليه من ديون ويسدد ما يستطيع منها؟! من هنا، جاء الحل النفسي العملي من رسول الله لهذا الرجل. «قالَ: أَفَلاَ أُعَلِّمُكَ كَلاَمًا إِذَا أنت قُلْتَهُ أَذْهَبَ الله هَمَّكَ وَقَضَى عَنْكَ دَيْنَكَ؟ قال: قُلْتُ: بَلَى يا رسول الله. قال: قُلْ إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ: اللهمَّ إِنِّي أَعوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَأَعوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأعوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ والْبُخْلِ وَأعوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ».

والدعاء برمته دعوة إلى العمل. فقد ربط فيه الرسول ﷺ بين السبب والمسبب، والعمل والنتيجة. فما كاد يبدأ بالتعوَّذ بالله من الهم والحزن إلا وعرّج مباشرة على التعوّذ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وكأنه يقول لذلك الرجل- وللمسلمين عموماً- إن الْهَمِّ وَالْحَزَنِ الذي تعاني منه ليس علاجه الجلوس وفقدان الحيلة، فإن ذلك هو الْعَجْز «نقيض الحَزْم» (ابن منظور، ١٤١٤هـ باب العين). لذا، عليك أن تتعوَّذ بالله من صفة العجز؛ والتعوّذ منها تركها وأن تصبح نشطًا في طلب الرزق والسعي في الحياة. وإنك بحاجة إلى أن تتعوّذ بالله من الكسل، وهو «التَّثاقُل عما لا ينبغي أَن يُتثاقِل عنه» (ابن منظور، ١٤١٤هـ باب الكاف)؛ أي: عليك أن لا تكون متثاقلا عن العمل والسعي.

وما أن انتهى الرسول من التحذير من الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، حتى ذكر غلَبة الدَّين وقهر الرِّجال، وهما ما لا يطيق تحملهما الأحرار. وكأن الرسول يقول: إن كنتَ لا ترضى لنفسك الذلَّ والمهانة الناتجين عن تراكم الديون، فعليك أن تجانب الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وتذهب إلى السعي والكسب والعمل.

ولا أتوقع أن إنسانًا يردِّد هذا الدعاء بتمعُّنٍ وفهمٍ، كلَّ يوم مرَّتين، صباحًا ومساءً، سيكون منتهاه الخمول، والتواني عن العمل ومواجهة الحياة ومصاعبها. بل سيكون تكرار الدعاء صباحًا ومساءً بمثابة المنبّه النفسي البيولوجي بالمحافظة على التوازن العملي في الحياة. لذلك قال الصحابي الجليل:»فَفَعَلْتُ ذَلِكَ فَأَذْهَبَ الله هَمِّي وَقَضَى عَنِّي دَيْنِي». بلا شك، إنّ الله قد أذهب همَّه وقضى عنه دَينه؛ لأنه عمل وسعى، مستندًا إلى دعم روحي نفسي يزرعه في نفسه ذلك الدعاء الذي علمه إياه الرسول الكريم، صلى الله عليه وآله وسلم.

ويظهر أثر السمات العملية التي اتّسمت بها شخصية الرسول ﷺ واضحًا في شخصيات أصحابه الذين اقتدوا به وساروا على نهجه وسنته. والصحابي الجليل عبدالرحمن بن عوف، رضي الله عنه، واحد من الصحابة الذين تكونت لديهم شخصية عملية أكسبتهم النجاح في ميدان الحياة. فهو من كبار أثرياء الصحابة، وأبرع رجال الأعمال، وأمهر التجار في عهد رسول الله ﷺ وبعد وفاته.

لقد تكوّنت قدرات ابن عوف ومهاراته التجارية، عندما كان لا يزال في مكة واحدًا من تجارها الموفقين، ومن أثريائها المعروفين. وقد اعتمد على مهاراته التجارية للاستقرار السريع في المدينة المنورة عندما هاجر إليها. فقد آخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع، وكان هو الآخر من أثرياء المدينة المنورة. فعرض سعد على عبدالرحمن أن يعطيه نصف ماله، إلا أن عبدالرحمن، الذي شكر لأخيه عرضه السخي، فضّل الاعتماد على قدراته ومهاراته، مستفيداً من الوضع التجاري القوي للمدينة المنورة. وإذ رفض عبدالرحمن أن يكون أخاً ثقيلا على سعد، فقد طلب منه أن يدله على سوق المدينة، ليبدأ من هناك مشوار الألف ميل الناجح في التجارة.

أثبت عبدالرحمن بن عوف من أول يوم وطئت قدماه سوق المدينة المنورة أنه تاجرٌ قدير، وقد جمع ثروةً عظيمةً من التجارة إلى درجة أنه قال في إحدى المرات لأم المؤمنين أم سلمة، رضي الله عنها: «يا أمه قد خفت أن يهلكني كثرة مالي؛ أنا أكثر قريش مالًا. قالت: يا بني فأنفق». ويتّضح حجم ثروة عبدالرحمن بن عوف في إنفاقه على أعمال الخير والبر. فقد باعَ في إحدى المرات أرضًا له بأربعين ألف دينار، فقسَّم ثمنها في أرحامه من فقراء بني زُهْرَة، وفي المهاجرين، وأمهات المؤمنين. وقد تصدّق عبدالرحمن بن عوف على عهد رسول الله ﷺ بشطر ماله. وجهّز بنفسه في إحدى الغزوات خمسمائة فرسٍ وخمسمائة راحلة. وقد أوصى بعد موته بِحَدِيقَةٍ لأُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِيعَتْ بِأَرْبَعِمِائَةِ أَلْفٍ (العسقلاني، ١٩٩٥).

ولم تكن التجارة هي المجال الوحيد الذي نبغ فيه عبدالرحمن بن عوف، فهو من الطليعة الأولى من المسلمين الذين التحقوا بركب الإسلام. وكان من المقاتلين الشجعان، لم يترك معركة خاضها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم،إلا وكان هو ضيغمها الضاري، وفارسها الكرار. وقد مات رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنه. وكان ابن عوف زاهدًا، غير معجبٍ بالحياة، بل كان متلهفًا إلى رضوان الله والجنة. إنّ الذي جعل عبدالرحمن بن عوف يختار الشخصية التجارية الناجحة مفهومه الواعي، والواسع لدور الإنسان في الحياة؛ فنجاح التاجر المسلم في نظره نجاحٌ للأمة الإسلامية. فالمسلمون مطالبون كأفرادٍ بالنجاح والنبوغ في الحياة؛ ففي نجاحهم وتفوقهم عِزةُ الأمة ورِفعتها وتفوُّقها. ولا غرو إن يكن هذا مفهوم عبدالرحمن بن عوف للحياة فهو يسمع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول بملء فيه لأمته: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَىٰ الله مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ. وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ. احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِالله. وَلاَ تَعْجِزْ. وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كذا وكذا لم يُصبني كذا. وَلٰكِنْ قُلْ: قَدَرُ الله. وَمَا شَاءَ فَعَلَ. فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ» (مسلم، ١٩٩٠ الحديث رقم ٦٧٢٥).

الخاتمة:

ألقى البحث الحالي الضوء على بعض جوانب الشخصية العملية الفاعلة والمؤثرة التي يتمتع بها رسول اللهﷺ والبارزة في كلِّ مفاصل حياته وتفاصيل إنجازاته: همٌّ عاليةٌ، وتخطيطٌ محكمٌ، وإصرارٌ وثبات. ويدلّ وصف الإمام علي بن أبي طالب، كرّم الله وجهه، مشيَ الرسول الكريم بقوله: «إذَا مشَى تَكَفَّأَ تَكَفِّيًا كَأَنَّمَا يَنْحَط مِنْ صَبَبٍ»[٣] (الترمذي، ١٩٩٤الحديث رقم ٣٧٨٩)، على أنّ الرسول محمد يمشي مشية الواثق من خطاه، الذي يعرف هدفه ووجهته وغايته، ويسير في الحياة بلا تردُّد أو تململ يحقق النجاح الذي رسمه والإنجاز الذي حدده. وأي إنجاز على وجه الأرض أسمى وأعلى شأنًا من تلك النقلة النوعية التي أحدثها رسول اللهﷺ في حياة البشرية ومسيرة التاريخ؟!

والسمات العملية في شخصية الفرد-كما يؤكِّد علم النفس-تعدُّ من جوانب القوة التي تقوده إلى النجاح(Gottfredson، ٢٠٠٣)؛ لذا يحرص التَّربويُّون على حثّ الطلبة على اكتساب المهارات التي تنمّي لديهم جوانب الشخصية العملية؛ لكي ينجحوا في الدارسة وفي الحياة بشكل عام. ويحرص التربويون على تقديم أصحاب الشخصيات العملية الفاعلة للطلبة لكي يتخذوها قدوةً ويحذوا حذوها في الحياة. وسمات الشخصية العملية التي تمتّع بها الرسول الكريم جديرةٌ بأن يدرسها المسلم، ويتّخذها انموذجًا ساميًا للشخصية الناجحة في تسيير شؤون الحياة اليومية والتّغلُّب على مشاقها وتحدياتها ومصاعبها. وقد رسم رسول الله منهجًا دنيويًّا ودينيًّا لا إفراط فيه ولا تفريط لمن أراد النجاح في الحياة الدنيا والفلاح في الآخرة؛﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ الله وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَالله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الآية ٣١ سورة آل عمران).

ومن هذا المنطلق فإنَّ الدراسة الحالية، توصي بكتابة سيرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بلغة العصر التي تناسب الشباب والناشئة وتمكنهم من اكتشاف ما يتمتع به رسول الله من شخصيةٍ قويَّةٍ ومؤثرةٍ جديرةٍ بالاقتداء والسير على خطاها. وتوصي الدراسة بتضمين الكتب والمواد المعنية ببناء الشخصية قصصًا ومواقف من حياة الرسول وآل بيته الأخيار وصحابته الكرام يستشف منها الشباب عناصر القوة في الشخصية المؤمنة، ويستنبط منها وسائل تنمية النفس والرقي بالذات حتى تحقق ما تصبو إليه من تطلعات وتأمله من مكانة في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة.

الهوامش

١- كانت السوق تقع غرب المسجد النبوي، و حسب وضع المسجد النبوي الحالي فإن السوق تقع في الساحة الواقعة بين بابي الرحمة و السلام (انظر: «الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين» لغالي أمين محمد الشنقيطي، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة).

٢- عن ابن عمر قال: مرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بطعام وقد حسَّنه صاحبُه، فأَدخل يده فيه، فإذا به طعام رديء، فقال: «بعْ هذا على حِدَة، وهذا على حِدَة، فمن غَشَّنَا فليس منَّا»،مسند الإمام أحمد، ج ٢، حديث رقم ٥١٠٥.

٣- "التَّكَفِّي : التَّمايُلُ إِلى قُدَّام"، (لسان العرب).

المراجع:

١.ابـن كثـير، أبـو الفـداء إسـماعيل (٢٠٠٢) تفسـير القـرآن العظيـم، ج ٦، دار طيبـه.

٢.ابـن منظـور، محمـد بـن كـرم (١٤١٤هـ) لسـان العـرب. بـيروت: دار فاضـل.

٣.ابـن هشـام، عبدالملـك (١٩٨٥) السـيرة النبويـة. مؤسسـة علـوم القـرآن.

٤.أبـو داود، سـليمان بـن الأشـعث (٢٠١٠) سـنن أبي داؤد. بـيروت: المكتبـة العصريـة.

٥.الترمـذي، محمـد بـن عيسـى (١٩٩٤) سـنن الترمـذي. بـيروت دار الكتـب العلميـة.

٦.الشـنقيطي، غـالي محمـد الأمـين (١٩٩٢) الـدر الثمـين في معـالم دار الرسـول الأمـين. بـيروت: مؤسسـة علـوم القـرآن.

٧.الزعبـي، محمـد عفيـف (١٩٨٧) مختـصر السـيرة النبويـة لابـن هشـام. بـيروت: دار النفائـس.

٨.العسـقلاني، ابـن حجـر (١٩٩٥) الإصابـة في تمييـز الصحابـة. بـيروت: دار الكتـب العلميـة.

٩.مسـلم بـن الحجـاج (١٩٩٠). صحيـح مسـلم. بـيروت: دار الكتـب العلميـة.

10.Gottfredson، L. S. (2003) Dissecting practical intelligence theory: Its claims and evidence. Intelligence 31، 343–397.

11.Sternberg، R. J.، Forsythe، G. B.، Hedlund، J.، Horvath، J. A.، Wagner، R. K.، Williams، W. M.، Snook، S. A.، &Grigorenko، E. L. (2000). Practical intelligence in everyday life. New York: Cambridge University Press.

العلاقة بين الدال والمدلول عند الإمام جعفر الصادق عليه السلام

Nexus between the Utterance and Denotation of Imam Ja`afar Al-Sadiq (Peace be upon him)

أ.د.حسن عبد الغني الاسدي

جامعة كربلاء/ كلية التربية للعلوم الانسانية / قسم اللغة العربية

Prof. Dr. Hussein Abdelghani

Department of Arabic

Collage of Education for Human Sciences

University of Karbala

الباحث كرار عبد الحميد عدنان الموسوي

جامعة كربلاء / كلية التربية للعلوم الانسانية / قسم اللغة العربية

Karrar A. AL-Musawi

Department of Arabic

Collage of Education for Human Sciences

University of Karbala

ملخص البحث :

لم يعد يشغل بَالَ اللغويين البحث في نشأة اللغة ؛ ذلك لأنه أمر قائم على افتراضات نظرية ليست عاجزة عن كشف النقاب عن أولية اللغة فحسب ، وإنّما كانت محل خلاف قديم لم يُحْسَم أمره، وترتب عليه خلاف آخر، نال قسطاً وافراً من اهتمام اللغويين ألا وهو العلاقة بين اللفظ ومدلوله.

هذه العلاقة التي اصبحت حجر الزاوية في علم الدلالة (Semantics) المختص بدراسة المعنى الذي أصبح في حقبة من حقب البحث محور الدراسات اللغوية الحديثة.

وقد أثيرت تساؤلات عدة حول طبيعة هذه الصلة : أهي صلة طبيعة ؟ فتكون معها دلالة الألفاظ على معانيها ذاتية، أم أنّ هذه الصلة اصطلاحية مصطنعة يفرضها الإنسان بمحض إرادته باختياره ؟ وقد كانت للإمام جعفر الصادق عليه السلام إفاضات لسانية فيما يتعلق بالمسألة هذه، وتلك التساؤلات فقد أُثرت عنه العديد من الأقوال التي توضح وتبيّن العلاقة بين اللفظ ومعناه (الدال ومدلوله). وهذا البحث يحاول الكشف عن طبيعة الارتباط بين (اللفظ ومعناه) في ضوء ما أُثر عنه عليه السلام بوصفه نقطة المركز التي يدور حولها الحديث في هذا البحث

Abstract:

There is not space for the linguists to trace the fount of language as it is controversial from time immemorial and runs into sufficient discussion giving light to another count : the nexus between the utterance and its connotation. Semantics comes into consideration as the cornerstone in semiology.

Many inquiries rise as whether the nexus is normal, the meaning of the mere utterances or it is a artificial conceptual one man imposes himself . It is all talk in this concern. Many speeches for Imam Al-Sadaq manifests

توطئة

إذا كان حقاً فإنّهُ لم يعد يشغل بَالَ اللغويين البحث في نشأة اللغة ؛ ذلك لأنه أمر قائم على افتراضات نظرية ليست عاجزة عن كشف النقاب عن أولية اللغة فحسب ، وإنّما كانت محل خلاف قديم لم يُحْسَم أمره، وترتب عليه خلاف آخر، نال قسطاً وافراً من اهتمام اللغويين ألا وهو العلاقة بين اللفظ ومدلوله.

هذه العلاقة التي أصبحت حجر الزاوية في علم الدلالة (**Semantics**) المختص بدراسة المعنى الذي أصبح في حقبة من حقب البحث محور الدراسات اللغوية الحديثة.

وكان شيئاً طبيعياً بل ضرورياً أنْ تثير الصلة بين اللفظ والمعنى اهتمام اللغويين وأن تلفت أنظارهم ، هذه الصورة الصوتية التي بمجرد النطق بها تشير إلى صورة ذهنية تربط كلياً ، أو جزئياً بشيء خارجي ؛ فقد أثيرت تساؤلات عدة حول طبيعة هذه الصلة : أهي صلة طبيعة ؟ فتكون معها دلالة الألفاظ على معانيها ذاتية ، بمعنى : أنّ كل صوت يرمز إلى معنى فتكتسب الألفاظ دلالتها من خلال جرس أصواتها ، وينشأ ما يسمى بالمناسبة الطبيعة بين الأصوات والدلالات .**Sounds symbolism** ، أم أنّ هذه الصلة اصطلاحية مصطنعة يفرضها الإنسان بمحض إرادته باختياره اسماً لكل مسمى تواضعاً واتفاقاً ؟ فتكون الألفاظ ، رموزاً لغوية اصطلاحية تنفي التلازم الدائم والطبيعي بين الصوت والمعنى ، أو بين اللفظ ودلالته [1].

ومن أجل توضيح طبيعة الارتباط بين اللفظ والمعنى _ بين الدال ومدلوله _ عند اللسانين والإمام الصادق (عليه السلام) استعرض بإيجاز آراء اليونانيين ، والعرب القدامى ، ومن ثَمَّ انتقل إلى العصر الحديث لأعرض آراء علماء الغرب والعرب في هذه المسألة ؛ لأبين بعد ذلك رأي الإمام الصادق (عليه السلام) في ذلك ؛ ليتسنى لنا تناول المسألة برمتها تاريخياً ، وأن نرصد ما أمكننا ، أبرز الآراء وعلى الأخص رأي الامام (عليه السلام) موضوع البحث وكما يأتي :

اولاً :

رأي اليونانيين

تصدى فلاسفة اليونان لهذا الموضوع ، وأولوه عناية فائقة ؛ فإذا ما توغلنا في التاريخ قليلا سيصادفنا أفلاطون (٣٤٧ ق.م) بإصراره على وجود العلاقة الحميمة بين الكلمة وما تدل عليه، فقد كان مأخوذاً بسحر الكلمة مغتبطاً بشفافيتها انطلاقاً من اعتقاده : أنّ اللغة ظاهر طبيعة ، وفي محاولته البحث عن أصل اللغة يناقش هذه العلاقة في محاورات كراطيليوس (**Kretylas**)[٢]

يقول يسبر سن (**Jespersen**) : ((إن فكرة المناسبة الطبيعية بين الصوت والمعنى وأنّ الكلمات تكتسب محتواها وقيمها من خلال رمزية صوت معّينة كانت لها دائماً الافضلية في الاهتمام اللغوي ، وأكثر الامثلة شهرة على ذلك ما جاء في كرا طيليوس افلاطون (Kretylas platos)* يشير بذلك إلى ما عبرّ به أفلاطون عن رأيه بقوله على لسان كرا طيليوس : إن إطلاق الاسماء طبيعي وليس اصطلاحياً ، وأنّه ليس جزءً من الصوت الإنساني الذي اعتاد الناس على استعماله ، والذي يعطي ذلك وجهاً من الحق والصواب هو أنّها نفسها عند الهيلنيين (Hellenes) ، والبرابرة (Barbarians))) [٣] .

ولكن الصلة الطبيعية لم تكن موضع اتفاق بين فلاسفة اليونان ، فقد رفض الفيلسوف ديمقريطس (من فلاسفة القرن الخامس قبل الميلاد) هذا الرأي إذ يقول: ((إنّ أي اسم تطلقه ، في رأيي هو الصحيح ، وإذا غيّرته وأطلقت اسما أخر سيظل الاسم الجديد صحيحاً كالقديم ، إذاً فالطبيعة لا تطلق أسماً على شيء ، بل تتم هذه التسمية بالاتفاق والعادة من الذين يستعملونها))[٤].

فهو يرى أنّ دلالة الألفاظ ليست طبيعية ذاتية ، وإنّما هي دلالة مكتسبة بدليل إطلاقنا اسماء جديدة على المسميات فلا يتغير المضمون مع هذه الاسماء .

ورفض ارسطو (٣٢٢ ق.م) فكرة استاذه افلاطون ، وأخذ على عاتقه نقض نظريته ، وتحطيم مقولة المناسبة الطبيعية بين الاسم والمسمى بقوله : ((الاسم هو لفظة دالة بتواطؤ ..فأما قولنا بتواطؤ فمن قبل أنّه ليس من الاسماء اسم بالطبع الاّ إذا صار دليلاً فأن الأصوات أيضاً لا تُكتَب بحدها فتدلُّ ، مثل أصوات البهائم ،الاّ أنّهُ ليس شيء منها اسما)) [٥] ، فأرسطو يرى أنّ الصلة بين الدال والمدلول صلة اصطلاحية عرفية تواضع الناس عليها [٦] .

أمّا سقراط فقد وقف موقفاً وسطاً ، نستطيع أنْ نظفر بنظرته من خلال كلامه في محاورة كراطيليوس والتي مفادها :] إنّ الخوض في مثل هذه المسألة فيه مشقة ، وأنّ هناك نوعاً من الاسماء تدل وتشهد على أنّها

لم تتم اعتباطاً، وأن لها أصلاً من الطبيعة [... فمن الاسماء ما أطلق بالمواضعة والاصطلاح، وكثيراً ما يحدث تداول الألفاظ ألفة بينها وبين ذهن الإنسان فهو يمسك العصا من وسطها فاطلاق الاسماء يحدث أحياناً بالاتفاق والاصطلاح وأحياناً أخرى تكتسب الألفاظ معانيها وترسخ في الأذهان عن طريق التكرار، وكأن العلاقة بين اللفظ ومدلوله مكتسبة وليست طبيعية، ولا يصدق ذلك على جميع الألفاظ؛ لأن بعض الاسماء لها أصل طبيعي[٧].

ثانيا :

رأي علماء اللغة العرب الأقدمين :

انطلاقاً من حبهم واعتزازهم الشديدين للغتهم العربية أخذ علماء العربية القدماء يتلمسون معاني الأصوات المجردة ، محاولين إقامة جسرٍ من العلاقة بين اللفظ ومدلوله ، فقد جاء في (تهذيب اللغة) ما يُعزى إلى الخليل (١٧٥هـ) من أنّه قال : ((صرَّ الجندب صريراً ، وصرَّ الباب يصرُّ، وكل صوت يشبه ذلك فهو صرير إذا امتد ، فكان فيه تخفيف وترجيع في إعادة (صرَّ) كقولك : صرصر الاخطب صرصرة))[٨] ، وجاء في الخصائص : ((قال الخليل كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومداً ، فقالوا : صرَّ ، وتوهموا في صوت البازي تقطيعاً فقالوا : صرصر))[٩] ، فكانت هذه الاقوال اشارة واضحة من الخليل إلى هذه الظاهرة اللغوية التي يَحْكِي فيها صوت الكلمة معناها ، فصرَّ صورة لفظية لصوت الجندب المستمر دون تقطيع ، وصرصر يحكي صوت البازي الذي نسمعُ فيه تقطيعاً[١٠].

وفي كتاب سيبويه (١٨٠هـ) عبارة يربط فيها بين اللفظ والمدلول إذ يقول : ((ومن المصادر التي جاءت على مثال واحد ، حين تضاربت المعاني قولك : النزوان والنقزان والقفران ، وإنّما هذه الاشياء في زعزعة البدن واهتزازه في ارتفاع ، ومثلهُ العسلان والرّتكان ، ومثل هذا الغليان ؛ لأنّه زعزعة وتحرِّك))[١١] .

فالمصادر التي على وزن (فَعَلان) كما يرى سيبويه توحي أصواتها عن معناها ، أو تصور الحركات التي تصاحب الحدث ، فيتشعر في (الفَعَلان) الاهتزاز والاضطراب والحركة وينسحب هذا الحكم على كلِّ مصدر جاء على هذا الوزن ، مهما كانت حروفه لا بد أنْ نلحظ فيه هذا المعنى ، والمبنى فيه دلالة على المعنى فهذه صلة وثيقة واضحة بين الأوزن ومعانيها يعقدها سيبويه[١٢].

أمّا في القرن الثالث الهجري فقد كان للاتجاه العقلي الذي يسود فكر المعتزلة أثره الكبير في تفسيرهم للظواهر اللغوية ، فقد رُوي عن عبّاد بن سليمان الصيمري ، أنّهُ وجد صلة طبيعية بين اللفظ ومعناه ، واحتج بأنّ واضع الالفاظ إزاء المعاني لم يضعها اعتباطاً ، يقول السيوطي:((نقل أهل أصول الفقه عن عباد بن سلمان الصيمري من المعتزلة أنّه ذهب إلى أنّ بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية))[١٣] ، وحجة عباد* منطقية عقلية صرفة إذ يحتج لرأيه بقوله : ((لولا الدلالة الذاتية لكان وضع لفظ من الالفاظ بإزاء معنى من المعاني ترجيحاً بلا مرجح))[١٤] .

وجمهور الأصوليين ضد ما قاله الصيمري ، وحجتهم على فساد رأيه : ((إن اللفظ لو دلَّ بالذات لفهم كل واحد منهم كل اللغات لعدم اختلاف الدلالات الذاتية ، وإن كان الواضع هو الله فتخصيصهُ الألفاظ بالمعاني كتخصيص العالم بالاتحاد في وقت من سائر الأوقات ، وإن كان هو الناس فلعله لتعين الخطران بالبال))[١٥].

ومن الأصوليين من لا ينكر أنْ تتحقق المناسبة بين اللفظ ومعناه كالرازي (٦٠٦هـ) ، ولكنها ليست ذاتية شاملة وعامة في اللغة فهو يقول : ((دلالة الالفاظ على مدلولاتها ليست ذاتية حقيقية خلافاً لعباد ... وقد يتفق في بعض الألفاظ كونه مناسباً لمعناه مثل تسميتهم القطا بهذا الاسم ؛ لأن اللفظ يشبه صوته))[١٦].

وفي القرن الرابع الهجري نتلمس الرؤية القائلة بوجود العلاقة بين الدال ومدلوله عند ابن دريد (٣٢١هـ) في كتابه (الاشتقاق) فقد أخذ يُفسّر تسمية العرب لأبنائهم تفسيراً يعتمد على هذا الصلة الطبيعية حيث يقول : ((واعلم أنّ للعرب مذاهب في تسمية أبنائها فمنها ما سمّوه تفاؤلاً على اعدائهم نحو : غالب وظالم ... ومنها ما يسمى بالسباع ترهيباً لأعدائهم نحو أسد وليث ... ومنها ما سمي بما غلظ من الارض ... مثل حجر وصخر)) [١٧] فتفسيره قائم على وثوق الصلة بين الاسماء و مدلولاتها .

وكان ابن جني (٣٩٢ه) أكثر اللغويين المتحمسين لفكرة الصلة بين اللفظ والمدلول ، إذ بلور مفهوم هذه الصلة في أربعة أبواب ، فقد بسط المسألة ، وأخذ على عاتقه تفتيقها وتفصيل دقائقها، متلمساً هذه الصلة فيما يعرض له من ظواهر صوتية معتمداً على قوة التصريف التي أورثته دقة النظر في الاصوات وجرس الحروف الصقَ في ذهنه دلالات خاصة ؛ لطول مخالطته اياها ، والابواب التي عقدها في خصائصه هي :

*- ((تلاقي المعاني على اختلاف الاصول والمباني)) [١٨]

*- ((الاشتقاق الأكبر)) [١٩]

*- ((تصاقب الالقاب لتصاقب المعاني)) [٢٠].

* - ((امساس الالفاظ اشباه المعاني)) [٢١] .

وقرر ابن جني في أبحاثه أنّ لكل حرفٍ معنى ، وإذا لم يظهر ذلك من خلال اللغة المنطوقة فيرجع ذلك إلى أحد الأمرين : إمّا أنْ يكون الدارس لم يُنعم النظر في الدراسة ، وأمّا لأنّ لهذه اللغة أُصولاً وأوائل قد تخفى على الدارسين[٢٢].

ثالثا :

رأي علماء اللغة الغربيين المحدثين :

تحبو مناقشة هذه العلاقة فترة زمنية طويلة ، وكأنها قد أصبحت من المسلمات ليأتي (همبلت) الذي يُعَد أوّل من التفت من الغربيين إلى علاقة اللفظ بالمعنى في القرن التاسع عشر، إذا رأى أنّ : ((اللغات بوجه عام تُؤْثِر التعبير عن الاشياء بوساطة ألفاظ أثرها في الأذان يشبه أثر تلك الأشياء في الأذهان))[٢٣]

فهو يصرح ويعلن ((تأييده للعلاقة الطبيعية بين الالفاظ ومعانيها ، وبذلك ينفض الغبار عنها ، ويضعها تحت الانظار للمناقشة مرة أخرى)) [٢٤] ؛ إذ يقول في موضع آخر : ((إنّ اللغة تدل على الأشياء بالأصوات التي تارة بنفسها ، وتارة أخرى بالمقارنة مع غيرها تترك انطباعاً في الأذن مماثلاً للتأثير الذي تتركه الاشياء على العقل)) [٢٥] .

وقَبِلَ (جسبرسن) رؤية (همبلت) وانتصر لأصحاب المناسبة بين الالفاظ ومعانيها ، إلاّ أنّه أضاف ((أنّ هذه الظاهرة لا تكاد تطرد في لغة من اللغات ، وأنّ بعض الكلمات تفقد هذه الصلة على مرِّ الأيام في حين كلمات أُخر تكتسبها وتصبح فيها واضحة بعد أنْ كانت لا تلحظ فيها))[٢٦].

وبعد (همبلت) تصدى للمسألة اللغوي الامريكي ويتني (Whitney) (١٨٢٧-١٨٩٤م) ليرفض العلاقة الطبيعية بين اللفظ ومدلوله ويجعلها علاقة اعتباطية إذ يقول : ((إن الدالة (**Sign**) ترتبط بالمفهوم الذي تدل عليه بالاصطلاح (**Contventional**) ، والارتباط بينهما ذهني فقط . ولو كان الارتباط طبيعياً **Natural**)) ، أو داخلياً (**Internal**)، أو لازماً **Necessary**)) لوجب أن يتبع كل تغير في المفهوم تغير في الدليل))[٢٧].

وفي بَدء القرن العشرين تميل الكفة إلى معارضي الربط الطبيعي بين اللفظ ودلالته ، على يد اللغوي السويسري فرديناند دي سوسير (١٧٥٧-١٩١٣) في أبحاثه التي جمعها ونشرها ألمع طلبته (شارل بالي) و (البرت سيشهاي) سنة ١٩١٦ في (مصنف) سمّياه (Course in General Linguistics) الذي بحث فيه بالتفصيل طبيعة العلاقة بين اللفظ ومدلوله .

ومما جاء فيه ان العلاقة بين الدال والمدلول اعتباطية-Arbitrary – وبساطة أستطيع أن أقول إن العلاقة اللغوية جزافية ولا علاقة لها بذاتها وما يمكن أن تدل عليه إلا بالاتفاق والاصطلاح[٢٨]. ويقول في موضع آخر ما نصه : ((لا يختلف اثنان في الطبيعة الاعتباطية للإشارة ؛ ولكن اكتشاف الحقيقة أسهل من وضعها في مكانها المناسب))[٢٩] .

وذهب مذهب دي سوسير العديد من الباحثين ومنهم ماريو باي الذي يقول : ((القيمة التي يدل عليها الرمز تتم بطريق التحكم والفرض ، وأنّه ليس هناك أي رابطة فطرية بين اللفظ ومدلوله ، ولو صحَّ افتراض القائل بوجود علاقة فطرية بينهما لكان حتماً أنْ يتكلم الناسُ لغة واحدة ... اللغة المتكلمة إذن تعتمد على الاصطلاح والاتفاق الجماعي مهما قلَّ عدد افراد الجماعة اللغوية))[٣٠].

رابعا :

رأي علماء العربية المحدثين :

اختلفت نظرة المحدثين العرب بين مؤيد ومناصر لوجود صلة طبيعية بين الألفاظ ومعانيها ، وبين رافض لها ، ففي أواخر القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين ، كان الاتجاه الغالب للغويين العرب هو القول بالصلة الوثيقة بين الصوت والمعنى ، فنرى أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤-١٨٨٨) يقول : ((إنّ كل حرف يختص بمعنى من المعاني دون غيره وهو من أسرار اللغة العربية التي قلّ من تنبّه لها وقد وضعت لهذا كتاباً مخصوصاً سميتهُ : منتهى العجب في خصائص لغة العرب))[٣١].

وإذا كان الحرف عند (الشدياق) يوحي بدلالة الكلمة ، فإن الحرف عند جرجي زيدان ينوّع المعنى الأصلي للكلمة التي تشترك مع ألفاظ أخرى ((بحرفين هما الأصل المتضمن المعنى الأصلي ، والزيادة ، أي : (الحرف الزائد على الأصل) وبما نوّعتهُ تنويعاً طفيفاً مثالهُ : قط وقطب وقطف وقطم وقطل ؛ جميعها تتضمن معنى القطع إلاّ أنّ كل واحدة منها استعملت لتنوع من تنوعاته ، والأصل المشترك بينها قط وهو بنفسه حكاية صوت القطع كما لا يخفى))[٣٢] .

ونمضي قدماً لنجد (عبد الله العلايلي) يغالي في تصوره أن لكل حرف عربي معنى ((فالهمزة على الجوفية ، والباء تدل بلوغ المعنى في الشيء بلوغاً تاماً ، والجيم تدل على العظم مطلقاً ، والخاء على المطاولة والانتشار ، والدال على التصلب ، والذال على التفرد ، والراء على الملكة وشيوع الوصف ، والسين على السعة والبسطة ، والشين على التفشي بغير نظام ، والعين على الخلو الباطن أو على الخلو مطلقاً ... والياء على الانفعال المؤثر في الباطن))[٣٣] .

وفي مقابل هؤلاء الباحثين هناك من انكر ورفض القول بالصلة الطبيعية بين اللفظ والمعنى ، فالدكتور تمام حسّان يرى أنّ هذه العلاقة اعتباطية[٣٤] ، ويرى في موضع آخر أنّ دلالة الالفاظ كلها اصطلاحية[٣٥].

وأنكر الدكتور عبده الراجحي وجود مناسبة وصلة بين الالفاظ ومعانيها بقوله : ((غير أنّ أمتناع ابن جني بهذا الرأي ، واعجاب الدكتور صبحي الصالح به لا يمنع من التأكيد على أنّ أهل اللغة بوجهٍ عام يطبقون على رفضه ، ويرون أنّه ليس هناك مناسبة بين اللفظ ومدلوله ، وليست هناك علاقة بين الرمز والشيء الذي يرمز إليه)) [٣٦] ، وإلى ذلك ذهب الدكتور ابراهيم أنيس ، والدكتور رمضان عبد التواب[٣٧].

وللأصوليين المحدثين آراء مختلفة في مسألة الاقتران بين اللفظ والمعنى ؛ هل هو على نحو السببية أم على نحو آخر؟ فهنا تصوران لعلاقة اللفظ بالمعنى الموضوع له وكما مبين أدناه [٣٨]:

١ـ علاقة (الجعل والتخصص)، قال الخراساني : ((لا ريب في كون الألفاظ موضوعة بإزاء معانيها من

حيث هي لا من حيث هي مرادة للافظها)) [٣٩] ويقول محمد رضا المظفر :((دلالة الألفاظ على معانيها لا تكون إلا بالجعل والتخصص من واضع تلك الألفاظ لمعانيها)) [٤٠] وإلى ذلك ذهب السيد محمد محمد صادق الصدر(قدس) [٤١].

٢_ علاقة السببية ، التي تعني تصور اللفظ سبب لتصور المعنى في الذهن ، فهنا وجودان أحدهما صورة اللفظ والآخر صورة المعنى غير أن الأول سبب للثاني ، قال السيد محمد باقر الصدر(قدس): ((تصور اللفظ يؤدي إلى تصور المعنى ولأجل هذا يمكن القول بأن تصور اللفظ سبب لتصور المعنى كما تكون النار سبباً للحرارة وطلوع الشمس سبباً للضوء غير أن علاقة السببية بين تصور اللفظ وتصور المعنى مجالها الذهن ، وعلاقة السببية بين النار والحرارة أو بين طلوع الشمس والضوء مجالها العالم الخارجي)) [٤٢] وهذا ما قال به النائيني[٤٣]، والسيد أبو القاسم الخوئي (قدس) [٤٤].

أمّا السيد علي السيستاني (دام ظله) فقد وقف عند التصور الثاني واصفه بأنه : ((المعروف بين الأصوليين)) [٤٥]، من غير الإشارة إلى التصور الأول ، على الرغم من أنه لا يقل شهرة من الثاني ؛ ولعله في ذلك يسعى إلى بيان وجهة نظره في العلاقة بين اللفظ والمعنى من بيان فساد علاقة السببية ويؤكد ذلك قوله : ((لو كانت علاقة اللفظ بالمعنى علاقة السببية لم تستلزم هذه العلاقة حصول الفناء والغفلة عن اللفظ بينما الفناء والغفلة حاصلة ، فهذا دليل على كون العلاقة هي الهوهوية والعينية لا السببية والتلازم)) [٤٦].

وعليه فإن العلاقة بين (الدال ومدلوله) عند السيد السيستاني يصطلح عليها : (علاقة الهوهوية)، و(العينية) ، و(الاندماج) ، وهذه الألفاظ كلها تعني عنده ((اندماج صورة المعنى في صورة اللفظ فلا أثنينية بينهما)) [٤٧] كما هو متعارف بين اللغويين والأصوليين ، ومن ثم ينمُّ رأيه عن اجتهادٍ يميزه عن علماء اللغة والأصوليين في المصطلح من جهة ، ونفي الأثنينية (دال ومدلول) ، وتأكيد مبدأ الاتحاد بينهما من جهة أخرى[٤٨].

خامساً :

رأي الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)

اختلفت نظرة الإمام جعفر الصادق(عليه السلام) إلى اللغة ونشأتها ، وإلى الصلة بين اللفظ ومعناه _ الدال ومدلوله_ عن نظرة اللغويين والفلاسفة والمتصوفة ، ممّن بحث في اللغة ، والقى برأيه في ايضاح الصلة بين الدال ومدلوله.

فالإمام(عليه السلام) يفرّق بين مصطلحي (اللسان ، والكلام) ، بين (اللسان) بوصفه هيكلاً متشكلاً ومُكَّوناً من مجموعة من التسلسلات الصوتية ، مع امكانية تأليفها وترابطها في (مرحلة البناء) ، وبين (الكلام) _ المنطوق والمكتوب _ الذي يمثل مرحلة البناء ، أي : التحقق الفعلي الناتج من تأليف الأصوات اللغوية بعضها مع بعض ، تأليف اجتمعت عليه الأمور كلها ، من : اسم ، وفعل، وفاعل ، ومفعول ، ومعنى ، أو غير معنى .

فأمّا (اللسان) والمتشكل من تسلسلات صوتية لدى جميع الأمم ، فهو على حد قول الإمام الصادق (عليه السلام) من خلق الله وإرادته – عز وجل- ، ومن ثَمَّ أُلهِمَ هذا النظام الصوتي اللغوي إلى البشر ؛ يقول (عليه السلام) : [٤٩] ((كان أول ما توهم الله –عز وجل- شيئاً متوهماً ، وأراد مراداً ، وشاء مشيئاً فكان توهمه ومشيئته وإرادته للحروف ، التي جعلها –عز وجل- أصلاً لكل شيء ودليلاً على كل مدرك ، وفاصلاً لكل مشكل .

فمن تلك الحروف يُعرف كل شيء من اسم حق ، أو اسم باطل ، أو فعل أو فاعل أو مفعول ، أو معنى أو غير معنى ، وعليها اجتمعت الأمور كلها ، ولم يجعل للحروف عند توهمه لها شيئاً غير أنفسها بتناءٍ ، ولا وجود ؛ لأنها متوهمة بالتوهم ، والتوهم في هذا الموضع أول فعل الله _عز وجل- الذي هو نور السموات والأرض .

والحروف هي مفعولة لذلك الفعل ، وهي الحروف التي بني الكلام كله ، والعبارات واللغات كلها من الله –عز وجل- ومن خلقه ، وهي ثلاثة وثلاثون حرفاً : منها ثمانية وعشرون حرفاً تدل على لغات العربية ، واثنان وعشرون حرفاً تدل على اللغة السريانية والعبرانية التي هي (أ ، ب ،ج ، د) ومنها خمسة أحرف منحرفة في سائر اللغات من العجم في أقاليم الأرض كلها ، وهي خمسة أحرف انحرفت عن الثمانية والعشرين في اللغات ، فصارت الحروف كلّها لاختلاف اللغات عليها ثلاثة وثلاثين حرفاً))[٥٠] .

وقال(عليه السلام): ((أول شيء خلقه الله تعالى ليعرف به خلقه حروف المعجم ، وإن الرجل إذا ضُرب على رأسه بعصا (أو سواها) فزعم أنّهُ لا يُفصح بعض الكلام فالحكم فيه أن يعرض عليه (حروف المعجم) ثم يعطي من الدية بقدر ما لم يُفصح))[٥١]

وعن علي بن ابراهيم عن أبي عبد الله(عليه السلام) أنّه قال : ((إذا ضرب الرجل على رأسه فثقل لسانه عرضت

عليه (حروف المعجم) يقرأ ثم قسّمت الدية على حروف المعجم فما لم يفصح به الكلام كانت الدية بالقياس من ذلك))[٥٢] .

وقال (عليه السلام) في موضع آخر كما يروي سفيان الثوري ما نصّه: ((أُلْهِم إبراهيم الخليل(عليه السلام) هذا اللسان العربي إلهاماً))[٥٣] ، وعنه أيضاً أنّ الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) قال : ((ألهم إسماعيل هذا اللسان إلهاماً)[٥٤]

وبعد أن أثبتنا أقواله (عليه السلام) التي تخص (اللسان) نحاول أن ننظر فيها لمعرفة أبعادها الدلالية ، وأول شيء يمكن ملاحظته : أنّ الإمام جعفر الصادق(عليه السلام) يرى أنّ الحروف المكونة بتأليفها اللسان العربي وغيره من الألسن ، هي من إرادة الله –عز وجل- ومشيئته وهي على حدّ قوله : أصل كل شيء ودليل كل مدرك ، وفاصل كل مشكل.

وإن هذا (النظام اللساني) المكوّن من حروف مبدعة بفعل الخالق –جل شأنه- نظام صوتي يراعي الأصل المعبر عنه بثمانية وعشرين حرفاً – وهي مجموع الأصوات في العربية الفصحى، ثم فروع (منحرفة) تظهر في لغات اخرى.

يقول الإمام (عليه السلام) مخاطباً تلميذه المفضل بن عمر: ((أمّا تعلم أنّ الكلام هو كلّهُ يخرجُ من ثمانية وعشرين حرفاً ، وهي الحروف المعجمة ؟ قال المفضل : يا مولاي ، فهل بهذا تمت العربية ؟ قال (عليه السلام) : فأمّا العربية فتمت ، أما غيرها فلا))[٥٥].

وعليه فإنّ النظام الصوتي (اللسان) _ المكوِّن للكلام _ يتألف ويخرج من ثمانية وعشرين حرفاً، وهذا في اللغة العربية الفصحى فقط ، أمّا في غيرها ، فتراعى فيه أوضاع انحرافية متعلقة ببعض الحروف المنحرفة في سائر اللغات.

وتلك الأوضاع الإنحرافية التي أشار إليها الإمام الصادق(عليه السلام) اتضحت وارتسمت معالمها فيما بعد فمثلاً يشكّل غياب الأصوات (ط ، ق ، ظ ،ع) – الموجودة في اللسان العربي- في اللسان الانجليزي ثغرات في قدرة الكلام على وصف حالات كثيرة في الموجودات.

أضف إلى ذلك فإن هذا النظام اللساني وفقاً لما بيّنه الإمام الصادق (عليه السلام) قد أُلهمَ إلى البشر من قبل الله _ سبحانه وتعالى _ إلهاماً ، وفي هذا الصدد يقول استاذنا الدكتور مشتاق عباس معن : إنّ الإمام الصادق (عليه السلام) ينسب إليه القول بالإلهام في نشأة اللغة الأولى ، ويؤيد ذلك الرواية التي ذكرها العياشي في تفسيره بسند ينتهي إلى الإمام جاء فيها : ((سألته عن قول الله : ((وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا))[٥٦] ماذا علّمهُ ؟ قال : الأرضين والجبال والشعاب والأودية ، ثم نظر إلى بساط تحته ، فقال : وهذا البساط مما علمهُ))[٥٧].

ولأهمية النظام اللساني فإنّ قيمة الإنسان كلها ارتبطت فيه _ كما هو واضح من أقوال الإمام الصادق(عليه السلام)

_ إذ إنّه قسّم الدية على حروف المعجم ، ومن ثم إن ما لا يفصح عنه من الحروف يقابله بنفس العدد أعضاء من جسم الإنسان ، فمثلاً لو ضُرِب رجل على رأسه وزعم أنّه لا يستطيع أن يؤلف الأصوات بعضها مع بعض ، أي : لا يفصح بعض الكلام – فإنّ ديتهُ تكون بمقدار مالا يفصحه من حروف المعجم .

أمّا (الكلام)عنده (عليه السلام) فقلنا أنه يمثل : التحقق الفعلي لاستخدام الأصوات المكونة للنظام اللساني من خلال تأليفها مع بعض وفق بُنى وقواعد نحوية متعارف عليها في أمة ما.

ونستطيع الوقوف على هذا المعنى بالرجوع إلى أقواله (عليه السلام) وفي مقدمتها قوله: ((ولم يجعل (الله) للحروف عند توهمه لها شيئاً غير أنفسها بتناه ولا وجود ؛ لانّها متوهمة بالتوهم ، والتوهم في هذا الموضوع أول فعل الله –عز وجل- الذي هو نور السموات والأرض ، والحروف هي مفعولة لذلك الفعل ، وهي الحروف التي بُني الكلام كله ... والاسماء والصفات إنّما هي حروف مقطعة قائمة برؤوسها لا تدل على غير أنفسها ما دامت متفرقة . فإذا جُمعت دلّت باجتماعها على غير أنفسها ؛ لأنّ الله –عز وجل- لا يجمع منها شيئاً فيؤلفها ابداً إلاّ لمعنى . فإذا أُلف منها أحرفاً خمسة ، أو أربعة ، أو أقل من ذلك دلّت على معنى مُحدث لم يكن قبل ذلك مذكوراً))[٥٨] .

ويقول(عليه السلام) في موضع آخر مخاطباً المفضل بن عمر الجعفي إذ يقول : ((أمّا تعلم يا مفضل، أنّ الكلام ثمانية وعشرين حرفاً عبارة بين الخلايق ومعرفة لهم فيما أنكروه ... أمّا تعلم أنّ الكلام نسخة الكتاب ، والكتاب لا يجوز إلاّ بالهجاء ؟ أمَا تعلم أنّ الهجاء لا يجوز إلاّ بالحروف ؟ أمَا تعلم أنّ الكلام هو كلّه يخرج من ثمانية وعشرين حرفاً وهي الحروف المعجمة . قال المفضل : يا مولاي ، فهل بهذا تمت المعرفة ؟ قال (عليه السلام) : فأمّا العربية فتمت ، وأمّا غيرها فلا"[٥٩].

وعن المفضل بن عمر أنّه (عليه السلام) قال: ((وكذلك الكلام إنّما هو شيء يصطلح عليه الناس ، فيجري بينهم ؛ ولهذا صار يختلف في الأمم المختلفة وكذلك كتابة العربي والسرياني والعبراني وغيرها من سائر الكتابة التي هي متفرقة في الأُمم إنّما اصطلحوا عليها كما (اصطلحوا على الكلام))[٦٠]

وانطلاقاً من نصوص الإمام الصادق (عليه السلام) اعلاه يمكننا أنْ نقفَ على عدة نقاط تمثل محور نظرته ورؤيته اللغوية للكلام الإنساني وكما يأتي :

١ _ إن الحروف المبدعة من الله – سبحانه وتعالى – هي مَنْ بُني عليها الكلام كله ، وأنّها حسب منظوره (عليه السلام) معناها محدث لم يكن شيئاً من قبل وهي تتناهى لا وزن لها ، ولا لون ، مسموعة موصوفة ، غير منظور إليها ، وهذه الحروف تتألف فتكون اسماً ، او صفة ، أو فعلاً، أو مصدراً... وغير ذلك مما ينتفع به الناس في

معاملاتهم اليومية أو عباداتهم .

٢_ إنّ هذه الحروف في حالة الإفراد لا قيمة لها ، ولم يجعل الله لها معنى في أنفسها ؛ إذ لو جعل لها الله تعالى ذلك ، لما كانت متسعة ، ولا حدود لها ، وإنّما المعاني في تأليفها وترابطها إذا أتّها لو : ((أُلف منها أحرفاً خمسة أو اربعة ، أو أقل من ذلك دلت على معنى مُحدث لم يكن قبل ذلك مذكوراً)) (٦١) .

٣_ الكلام : شيء يصطلح عليه الناس لقضاء أمورهم ومعاملاتهم ؛ فيجري بينهم فالإمام الصادق (عليه السلام) يذهب إلى ((أنّ المواضعة فيما بين المتكلمين هي التي أعطت الكلام أنْ يكون وسيلة للتواصل بين أفراد الجماعة اللغوية ، وعلى هذا فالكلام هو ما يستعمله أفراد الجماعة اللغوية ملفوظاً للتواصل بينهم)) (٦٢) .

ومن ثَمَّ فالإمام الصادق (عليه السلام) يرى أنّ الصلة بين الدال ومدلوله (اللفظ ومعناه) اصطلاحية تواضعية مصطنعة يفرضها الإنسان باختياره اسماً لكل مسمى تواضعاً واتفاقاً ، وبذلك تكون الألفاظ لديه رموزاً لغوية اصطلاحية تنفي التلازم الدائم والطبيعي بين الصوت والمعنى ، أو بين اللفظ ودلالته ، وليس معنى المواضعة بين الدال والمدلول ((أنّ الفرد المتكلم له كامل الحرية في اختيار الدلالات التي يريد أنْ يعطيها لهذه العلامة أو تلك ، إن المتكلم في حالة تزامنية (ETAT SYNCHRNIQUE) معيّنة للسان لا يختار دلالة العلامات التي يستعملها ، ولا يمكنه أنْ يغيّر منها أو يحيد عنها))(٦٣)

وهذا ((الاتجاه نظراً لقربه من الطبيعة اللغوية العملية التي تأبى الغموض قد تيسر لهُ من الأنصار والمؤدين ما كتب له الغلبة حتى اصبح من المتفق عليه في الدرس اللغوي الحديث ؛ أنّ العلاقة بين اللفظ والمعنى علاقة اعتباطية arbitrary)) (٦٤).

ومما هو جدير بالذكر والإشارة : أنّ رؤية الإمام الصادق (عليه السلام) المتعلقة بـ (لغات البشر) والتي مفادها : أنّ اللسان المتشكل من تسلسلات صوتية الهام من الله –عز وجل- وأنّ الكلام الذي يمثل مرحلة بناء تلك التسلسلات الصوتية ، تواضع واصطلاح لقيت صداها فيما بعد ؛ اذ ظهرت نظرية ترى أنّ ((ابتداء اللغة وقع بالتعليم من الله سبحانه وتعالى والباقي بالاصطلاح))(٦٥).

ويدلل أحد الباحثين على ذلك ((بأن الله _ سبحانه وتعالى – لما أقرَّ آدم بأن يذهب ويسلم على الملائكة اعطاه صيغة السلام ، فقال : فقُل : السلام عليكم ، وأنّ ما يردون به عليه يكون تحيته وتحية ذريته من بعده ، فردّ السلام من الملائكة لم يعلمها آدم فدلَّ على التواطؤ والاصطلاح))(٦٦).

أضف إلى ذلك أنّ الدكتور هادي نهر كان قد ذكر أنّ السيوطي في كتابه (المزهر) وبعد نقله لآراء السابقين في هذه المسألة ذهب إلى إمكانية القول بأن اللغة تقوم على دعامتين : التوقيف الإلهي من ناحية والنشاط البشري من ناحية أُخرى ، وقد أطلق عليه السيوطي (امكان التوزيع)(٦٧).

وانطلاقاً من التفريق والتميز بين (اللسان والكلام) الذي قدّمه اللسانيون وقد سبقهم إليه الإمام الصادق (عليه السلام) في ذلك ، يرى تروبتسكوي[٦٨] أن اللسان نَسَقٌ لا يوجد إلاّ في شعور الأعضاء المنتمين إلى مجموعة لغوية معينة ، ويؤكد على علاقة التلازم بين اللسان والكلام ؛ اذ إنّ اللسان لا يمكنه أنْ يوجد دون عمليات الكلام الحسية بحيث تستلزم عملية اللسان وعملية الكلام أحداهما الأخرى ، وإنهما مرتبطان بكيفّية غير قابلة للانفصال ؛ ليذهب بعد ليقول : إنّ الدال والمدلول يدرسهما علمان مختلفان ، يختص علم الدلالة بالمدلول ، أمّا الدال فليس شيئاً بسيطاً كما يوحي بذلك تصور سوسير ، بل يمكن تقسيمه إلى مستويين :

الدال على مستوى اللسان .

الدال على مستوى الكلام .

ووفق هذا التقسيم كما يرى تروبتسكوي ، يمكن النظر إلى الدال من زاويتين مختلفتين :

زاوية اللسان

زاوية الكلام

فالدال في عملية اللسان ليس هو الدال في عملية الكلام ، فكل منهما له طبيعته الخاصة به ؛ إذ إنّ دال الكلام تدفق حسيّ قابل للإدراك عن طريق السمع ، لأنّه ظاهرة فيزيائية بينما يتمثل الدال في مستوى اللسان ، في كونه يُصبح مضموناً ، أو فكرة مجردة تقوم بخلق التنوع في معنى الكلمات ، وبعبارة أخرى ينبغي التمييز بين الصوت San كمعطى فيزيائي وموضوعي ، أي بوصفه تمثيلاً سمعياً ، والصوت كوحدة وظيفية لها دور تلعبهُ من خلال العلاقات التي تجمعها بغيرها من المصوتات داخل نسق محدد ؛ لذا تحتم وضع علمين متميزين لدراسة الدال ، يتناول احدهما الدال في مستوى الكلام ويتناول الثاني في مستوى اللسان ، ولّما كانت المادة الصوتية مختلفة بين المستويين فمن اللازم تصّور منهجين لدراستها . إن علم الكلام الذي له ارتباط بالظواهر الفيزيائية الحقيقية ، يستعمل مناهج العلوم الطبيعية (التجريبية) . أمّا الدال في مستوى اللسان فيستعمل مناهج العلوم السيكولوجية والاجتماعية وسُمي تروبتسكوي العلم الأول الاصواتية Phonetique ويسمي الثاني الصواته Phonologie[٦٩].

الخاتمة

١ _ إن البحث فيما يتعلق بعلاقة اللفظ بمعناه عند الفلاسفة والسفسطائيين اليونان يدور حول نظريتين هما : أن العلاقة بين اللفظ والمعنى علاقة طبيعية ، على حين ترى النظرية الثانية أنها مواضعة وعرف إنساني وقد امتد هذا البحث من عهد السفسطائيين وسقراط إلى أفلاطون وأرسطو الذي ذهب إلى أن العلاقة بين الدال ومدلوله اصطلاحية ناجمة عن اتفاق بين البشر.

٢ _ دخلت هذه المسألة اللسانية عند العرب ضمن مسائل الخلاف بين الفئات الدينية والفكرية ، وبالإمكان تلخيص ما تداوله المفكرون العرب _ كما أورد السيوطي _ في أربعة آراء هي :

الرأي الأول : يرى أن الألفاظ تدل على المعاني بذاتها .

الرأي الثاني : يرى أن الالفاظ تدل على المعاني بوضع الله _ عز وجل _ إياها .

الرأي الثالث : يرى أن الألفاظ تدل على المعاني بوضع من الناس .

الرأي الرابع : يرى أن يكون بعضها بوضع من الله _تعالى_ والباقي بوضع الناس

٣ _ أما عند المحدثين فتكاد تميل الكفة إلى معارضي الربط الطبيعي بين اللفظ ودلالته ، وكان ذلك على يد العالم السويسري سوسير الذي يرى أن العلاقة بينهما اعتباطية جزافية لا علاقة لها بذاتها وما يمكن أن تدل عليه إلا بالاتفاق والاصطلاح .

٤ _ أما عند الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) _ موضع البحث _ فقد اختلفت نظرة الإمام(عليه السلام) إلى اللغة ونشأتها ، وإلى الصلة بين اللفظ ومعناه _ الدال ومدلوله_ عن نظرة اللغويين والفلاسفة والمتصوفة ، ممّن بحث في اللغة ، والقى برأيه في ايضاح الصلة بين الدال ومدلوله.

فالإمام(عليه السلام) يفرّق بين مصطلحي (اللسان ، والكلام) ، بين (اللسان) بوصفه هيكلاً متشكلاً ومُكَّوناً من مجموعة من التسلسلات الصوتية ، مع امكانية تأليفها وترابطها في (مرحلة البناء) ، وبين (الكلام) _ المنطوق والمكتوب _ الذي يمثل مرحلة البناء ، أي : التحقق الفعلي الناتج من تأليف الأصوات اللغوية بعضها مع بعض ، تأليف اجتمعت عليه الأمور كلها ، من : اسم ، وفعل، وفاعل ، ومفعول ، ومعنى ، أو غير معنى . فأمّا (اللسان) والمتشكل من تسلسلات صوتية لدى جميع الأمم ، فهو على حد قول الإمام الصادق (عليه السلام) من خلق الله وارادته – عز وجل- ، ومن ثَمَّ أُلهِمَ هذا النظام الصوتي اللغوي إلى البشر.

وأما الكلام لديه (عليه السلام) فهو : شيء يصطلح عليه الناس لقضاء أمورهم ومعاملاتهم ؛ فيجري بينهم .

ومن ثَمَّ فالإمام الصادق (عليه السلام) يرى أنّ الصلة بين الدال ومدلوله (اللفظ ومعناه) اصطلاحية تواضعية مصطنعة يفرضها الإنسان باختياره اسماً لكل مسمى تواضعاً واتفاقاً ، وبذلك تكن الألفاظ لديه رموزاً لغوية اصطلاحية تنفي التلازم الدائم والطبيعي بين الصوت والمعنى ، أو بين اللفظ ودلالته .

الهوامش

١- يُنظر : علم اللسان العربي : ٣٧٨.

٢- علم اللسان العربي : ٣٧٨ .

* - Jespersen language Its nature Development and origin ، George Allen & unwin Ltd، London ، 1947. P . 38 . .

٣- علم اللسان العربي : ٣٧٩

٤- The Dialogues of plato : Kratylus: p ٨٥ . / نقلا عن كتاب : علم اللسان العربي : ٣٧٩

٥- منطق ارسطو:١/ ٦٠

٦- يُنظر : الخصائص : ٢/ ١٥٢ .

٧- The Dialogues of plato: kratylus :p.٨٩-٩٢ . ، وينظر : علم اللسان العربي : ٣٨٠

٨- تهذيب اللغة : ١٢/ ١٠٦ .

٩- الخصائص : ٢/ ١٥٢ .

١٠- يُنظر : علم اللسان : ٣٨٠ – ٣٨١ .

١١- الكتاب : ٢/ ٢١٨ .

١٢- يُنظر : علم اللسان العربي : ٣٨١ .

١٣ ١_ المزهر في علوم العربية : ١ / ٤٧

* - يعرف في المراجع الاصولية : بالضمري ، وهو من الطبقة السابعة من المعتزلة من اتباع هشام بن عمرو القوطي ، ربما تكون وفاته في حدود (٢٥٠هـ) ، يقال أنّه له كتباً وبدعاً كثيرة ، يُنظر : التبصير في الدين : الاسفراييني : ٤٦/ ٨٢ .

١٤- المزهر : ١/ ١٧ .

١٥- المصدر نفسه : ١/ ١٦-١٧ .

١٦- مفاتيح الغيب : ١/ ١٢ .

١٧- الاشتقاق : ٥ – ٦ .

١٨- الخصائص : ٢/ ١١٣-١٣٣.

١٩- المصدر نفسه : ٢/ ١٣٣-١٣٩ .

٢٠- المصدر نفسه : ٢/ ١٤٥ – ١٥٢ .

٢١- المصدر نفسه : ٢/ ١٥٢ – ١٦٨ .

٢٢- يُنظر : المصدر نفسه : ٢/ ١٦٨ .

٢٣- دلالة الالفاظ : ٦٨ .

٢٤- علم اللسان العربي : ٣٩٣ .

25- Otto Jespersen :language Its Nature ،Derlopment and Origin،P.397-397.

٢٦- دلالة الالفاظ : ٦٨ .

٢٧- الدلالة اللغوية عند العرب : ٢٢٨-٢٣٥ .

٢٨- يُنظر : علم اللغة العام : ٦٧ – ٧٠ .

٢٩- المصدر نفسه : ٨٧ .
٣٠- اسس علم اللغة : ٤١ .
٣١- اعترافات الشدياق : ١٥ .
٣٢- الفلسفة اللغوية والالفاظ العربية : ٩٩ – ١٠١ .
٣٣- تهذيب المقدمة اللغوية : ٦٣ – ٦٤ .
٣٤- يُنظر : مناهج البحث في اللغة : ٢٤٤ .
٣٥- يُنظر : اللغة بين المعيارية والوضعية : ١٢٧ – ١٢٨ .
٣٦- فقه اللغة في الكتب الاربعة : ٦٨ .
٣٧- يُنظر : دلالة الألفاظ : ٧١ ، ويُنظر : مناهج البحث اللغوي : ١١٤ .
٣٨- ينظر لتفصيل ذلك : المباحث الدلالية عند السيد علي السيستاني في كتابه (الرافِد في علم الأُصول):٤.
٣٩- كفاية الأصول : ٣١ ٠
٤٠- أصول الفقه ، محمد رضا المظفر : ١ / ١٩.
٤١- منهج الأصول ، محمد محمد صادق الصدر : ٢ / ١٠٧ .
٤٢- دروس في علم الأصول ، محمد باقر الصدر : ٢٧٢ .
٤٣- ينظر أجود التقريرات (تقريرات محمد حسين النائيني) : ١ / ٢١ – ٢٢ ٠
٤٤ _ ينظر : محاضرات في أصول الفقه (تقريرات أبي القاسم الخوئي) : ١ / ١١١
٤٥- الرافد في علم الأصول : ١٤٤.
٤٦- المصدر نفسه : ١٤٨ .
٤٧- المصدر نفسه : ١٤٤ .
٤٨- ينظر: المباحث الدلالية عند السيد علي السيستاني : ٤ .
٤٩- الزينة في الكلمات الاسلامية : ٧٧ – ٧٨ .
٥٠- الزينة في الكلمات الاسلامية : ٧٧ – ٧٨ .
٥١- معاني الاخبار : ١/ ٤٣ .
٥٢- الكافي : ٢/ ٣٢٢.
٥٣- المستدرك على الصحيحين : ٢/ ٣٧٤ .
٥٤- المصدر نفسه : ٢/ ٤٧٦ .
٥٥- الهفت الشريف : ١٥١ – ١٥٢ .
٥٦- البقرة : ٣١ .
٥٧- المعجم المفصل في فقه اللغة : ١٠٧ ، و يُنظر : تفسير العياشي : ١/ ٣٢-٣٣ .
٥٨- الزينة في الكلمات الاسلامية العربية : ٧٩ .
٥٩- الهفت الشريف : ١٤٩ – ١٥٠ .
٦٠- توحيد المفضل : ٨٠ .
٦١- الزينة في الكلمات الاسلامية العربية : ٧٩ .
٦٢- الفكر الصوتي عند الإمام جعفر بن محمد الصادق : مجلة الباحث : ٢٧٠ .

٦٣- اللسانيات النبوية منهجيات واتجاهات : ١٧٤ – ١٧٥ .

٦٤- علم اللسان العربي : ٣٧٨ .

٦٥- جهود الصحابة في اللغة : ٢٢٩ .

٦٦- المصدر نفسه : ٢٤٠ – ٢٤١ .

٦٧- يُنظر : نشأة اللغة وتطورها في مباحث اللغويين العرب والاجانب : مجلة الآداب المستنصرية العدد الرابع، ١٩٧٩م : ٢٢

٦٨- تروبتسكوي (نيقولاي) عالم باللغات واللسانيات ، احد مؤسسي حلقة براغ اللغوية روسي الاصل من اسرة عريقة ، يُعد تروبتسكوي واضع مبادئ الفونولوجية (علم وظائف الاصوات اللغوية) على انها علم قائم بذاته متفرع عن اللسانيات اشهر مؤلفاته في ميدان الصوتيات الوظيفية (مبادئ الفونولوجية) ، يُنظر : مدخل إلى اللسانيات : ٧٠.

٦٩- N.S.Troubet skoy .Principes de Phonologie،p. 1 ، نقلاً عن كتاب اللسانيات النبوية منهجيات واتجاهات : ٢٣٦-٢٣٧.

المصادر

القرآن الكريم

١- أجود التقريرات (تقريرات محمد حسين النائيني) : أبو القاسم الخوئي الموسوي (ت ١٤١٣ هـ) ، مطبعة العرفان ، لبنان (١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م) ٠

٢- أسس علم اللغة : ماريوباي ، ترجمة الدكتور أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٨م.

٣- الاشتقاق : ابو بكر محمد بن الحسن بن دريد (٣٢١هـ) ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، الخانجي ، القاهرة (د.ت) .

٤- أصول الفقه : محمد رضا محمد عبد الله المظفر (ت ١٣٨٣ هـ) ، ط٣ ، مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي ، طهران ، إيران (١٣٧٥ هـ) .

٥- اعترافات الشذياق (أحمد فارس)،عماد صالح،مطبعة السعادة،مصر،(د.ت) .

٦- التبصير في الدين أبو المظفر شاهفور بن طاهر بن محمد الاسفراييني المتوفى (ت ٤٧١ هـ)،تحقيق محمد زاهد بن الحسن الكوثري،المكتبة الازهرية للتراث ٢٠١٠ م .

٧- تفسير العياشي : أبو النضر محمد بن مسعود بن محمد بن عياش السلمي السمر قندي (٣٢٠ هـ) ، قم المقدسة ، (د.ت) .

٨- تهذيب اللغة : أبو منصور الأزهري (٣٧٠هـ) ، تحقيق : جماعة من العلماء منهم الدكتور رشيد العبيدي ، قم المقدسة ، ١٤١٧ه.

٩- تهذيب المقدمة اللغوية (لعبد الله العلايلي) : الدكتور أسعد علي ، دار النعمان ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٦٨م.

١٠- توحيد المفضل : إملاء الإمام جعفر الصادق عليه السلام على أبي عبد الله المفضل بن عمر الجعفي الكوفي (كان حيا سنة ١٨٣هـ) تقديم : كاظم باقر المظفر ، المطبعة الحيدرية ، الطبعة الثانية ١٩٥٥م.

١١- جهود الصحابة في اللغة ابن عباس إنموذجاً : خالد بن صالح بن محمد العزاني ، عالم الكتب الحديث ، اربد - الأردن- الطبعة الأولى ٢٠٠٦م.

١٢- الخصائص : أبو الفتح عثمان بن جني (٣٩٢هـ) ، تحقيق : محمد علي النجار ، المكتبة العلمية ، (د.ت).

١٣- دروس في علم الأصول : محمد باقر الصدر ، دار التعارف ، لبنان (١٤١٩هـ - ١٩٩٨ م

١٤- دلالة الألفاظ : الدكتور إبراهيم أنيس ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ٢٠٠٤ م

١٥- الدلالة اللغوية عند العرب : الدكتور عبد الكريم مجاهد ، دار الضياء ، عمان ١٩٨٥م.

١٦- الرافد في علم الأصول : السيد علي الحسيني السيستاني ، جمعه : منير السيد عدنان القطيفي ، ط١ ، دار المؤرخ العربي ، بيروت – لبنان ، ١٤١٤هـ - ١٤٩٤ م) ٠

١٧- الزينة في الكلمات الاسلامية : أبو حاتم الرازي (٣٢٢ هـ) ، تحقيق : حسين بن فيض الله الهمداني للدراسات الاسلامية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٥٧ م .

١٨- علم اللغة العام : فردينان دي سوسير : ترجمة الدكتور يوئيل يوسف عزيز،مراجعة النص العربي الدكتور مالك المطلبي، دار الآفاق العربية للصحافة والنشر،بغداد ١٩٨٥ م .

١٩- علم اللسان العربي : عبد الكريم مجاهد،دار أسامة للنشر والتوزيع،بيروت الطبعة الاولى ٢٠٠٥ م

٢٠- الفكر الصوتي عند الإمام الصادق (عليه السلام) : د. حسن عبد الغني الأسدي ، بحث منشور في مجلة الباحث ، كلية التربية الإنسانية ، جامعة كربلاء ، العدد ٦، لسنة ٢٠١٣م.

٢١- فقه اللغة في الكتب الأربعة : الدكتور عبده الراجحي ، دار النهضة العربية ، بيروت لبنان ، ١٩٧٤ م.

٢٢- الفلسفة اللغوية والالفاظ العربية : جرجي زيدان،مطبعة القديس جاورجيوس،بيروت _ لبنان ١٨٨٦ م .

٢٣- الكافي في الأصول والروضة : أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني ، مع شرح الكافي الجامع للمولى محمد صالح المازندراني (١٠٨١ هـ) ، مع تعليق الميرزا أبو الحسن الشعراني ، ضبط وتصحيح : السيد علي عاشور ، إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوريع ، بيروت _ لبنان _الطبعة الاولى ٢٠٠٠ م .

٢٤- كتاب سيبويه : أبو بشر عمر بن عثمان بن قنبر (١٨٠ هـ) ، تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون ، مكتبة

الخانجي بمصر ، الطبعة الثالثة ١٩٨٨ م .
٢٥- كفاية الأصول : محمد كاظم الخراساني (١٣٢٩ هـ) ط٥ ، مؤسسة النشر الإسلامي ، قم ، طهران (١٩٦٤م)
٢٦- اللسانيات البنيوية منهجيات واتجاهات : الدكتور مصطفى غلفان ، دار الكتاب الجديد للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ٢٠١٣ م.
٢٧- اللغة بين المعيارية والوصفية : الدكتور تمام حسان ، علم الكتب ، القاهرة،الطبعة الرابعة ٢٠٠٤ م .
٢٨- المباحث الدلالية عند السيد علي السيستاني في كتابه (الرافِد في علم الأُصول): إعداد : م ٠ أحمد عبد الكاظم علي ، جامعة المثنى / كلية التربية / قسم اللغة العربية .
٢٩- محاضرات في أصول الفقه (تقريرات أبو القاسم الخوئي) : محمد إسحاق الفياض ، مطبعة الآداب ، النجف (د ٠ ت) .
٣٠- مدخل الى اللسانيات : محمد محمد يونس ، دار الكتابة الجديدة للنشر ، بيروت ، الطبعة الاولى ٢٠٠٤ م .
٣١- المزهر في العربية وأنواعها : عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ، شرحه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته وعلق حواشيه : محمد أحمد جاد المولى بك محمد أبو الفضل إبراهيم ، علي محمد البجاوي ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ، الطبعة الثالثة (د.ت) .
٣٢- المستدرك على الصحيحين : الحافظ أبو عبد الله محمد بن محمد الحاكم النيسابوري (٤٠٥هـ)، تحقيق : الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي ، دار المعرفة ، بيروت ١٤٠٦ه.
٣٣- معاني الاخبار : أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (٣٨١هـ) ، عنى بتصيحه على أكبر الغفاري ، انتشارات إسلامي ، قم المقدسة ، ١٣٦١ هجري شمسي .
٣٤-المعجم المفصل في فقه اللغة : مشتاق عباس معن،دار الكتب العلمية ، بيروت،الطبعة الاولى ٢٠٠١ م .
٣٥-مفاتيح الغيب : محمد بن عمر بن الحسن الفخر الرازي (٦٠٦ هـ)،دار الكتب العلمية ،بيروت ٢٠٠٠ م
٣٦- مناهج البحث في اللغة : الدكتور تمام حسان،دار الثقافة،دار البيضاء _ المغرب _ الطبعة الثانية ١٩٧٤ م .
٣٧- منطق ارسطو : تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي ، نشر وكالة المطبوعات ، الكويت ، ودار القلم ، بيروت (مشترك) ، الطبعة الأولى ١٩٨٠م.
٣٨- منهج الأصول : محمد محمد صادق الصدر ، النجف (١٤١٨هـ - ١٩٩٨م) ٠
٣٩- نشأة اللغة وتطورها في مباحث اللغويين العرب والأجانب : الدكتور هادب نهر ، بحث مستل من مجلة آداب المستنصرية ، العدد ٤ ، لسنة ١٩٧٩م.
٤٠- الهدف الشريف : من فضائل الإمام الصادق (عليه السلام) ، رواه المفضل بن عمر الجعفي، تحقيق وتقديم : الدكتور مصطفى غالب ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، بيروت –لبنان- .

المصادر الاجنبية

41- The Dialogues of plato translatedin to English with anaiyses and in troduoti on by B, Jo wett , MH.3rd edition and corrected , c oxford university press 1931.

42- Jerpersen; language, Its nature devel-opment, and origin, London. G eorge Allen, unwin ltd 1997.

43- Troutet skoy, N.S, Princioes de pho-nologic, traduit parjcontineau . Paris Klincks-ieck, 1949.

أثرُ المَشْروعِ الفِكْريّ عِنْدَ الإمامِ عليّ الهَادِي عليه السلام
فِي نَشْرِ العُلُومِ الدِّيْنِيَّةِ والأَخْلاقِيّةِ
(قراءةٌ تَحليلِيّةٌ)

Impact of the Cultural Imam Ali Al-Hadi Project on Promulgating Ethical and Religious Sciences .

(Analytic Reading)

أ.م.د.رحيم كريم عليّ الشَّرِيفيّ

جامعة بابل/ كلية الدراسات القُرآنِيّة / قسم علوم القُرْآن

Asst.Prof.Dr. Raheem Kareem Ali Al-Shareeifi

Department of Quranic Sciences, College of Quranic Studies, University of Babylon

ملخص البحث

تحاول هذه الدراسة أنْ تقدّم رؤية واضحة المعالم في أثر المشروع الفكريّ عند الإمام الهاديّ (عليه السلام) في نشر العلوم الدينيّة ، والأخلاقية ، وهي دراسة تنطوي عِبْر ثلاثة مطالب تتساوق من أجل كشف هذه الرؤية ، سُبقت بمقدّمة عرضنا فيها أهمية الموضوع ، ثمّ انتظم المطلبُ الأول في بيان جامعية الإمام الهاديّ عليه السلام ، في ضوء جذور مؤهلاته ، وانتظم المطلب الثاني في الكشف عن أثر المشروع الفكريّ عند الإمام الهاديّ (عليه السلام) في نشر العلوم المختلفة ، وجاء المطلب الثالث ، مستجلياً أهم معالم التراث الضخم الذي تركه لنا الإمام الهادي (عليه السلام) وختمت البحث بأهم النتائج التي توصّلتُ إليها .

Abstract :

This study tries to present a clear view point concerning the effect of the intellectual project of Imam Al-Hadi (PBUH) in promulgating religious and moral sciences. The study is built on three chapters that reveal this view point, preceded by an introduction exposing the importance of the subject. The first chapter is specified in the universality of Imam Al-Hadi (PBUH) in the light of the bases of His qualifications. The second chapter is specified in uncovering the effect of Imam's intellectual project in promulgating the various sciences. The third chapter reveals the characteristics of the huge heritage which Imam Al-Hadi had left for us. Then, I have concluded the study by indicating the most important results that I have reached.

بِسمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيم

المقدّمة

الحمدُ لله ربّ العالمين عالِمِ الغيب الذي لم يطّلع على غيبه إلاَّ مَنْ ارتضَى، وصلَّى الله على نبيّه المصطفى محمّد – مهيب السماوات والأرضين محبوب القلوب أجمعين – وعلى آله أدلّة الرَّشاد، وأوعية العلم، وخزان الأدب، وعلى صحبه المخلّصين النجب.

أما بعدُ، فيشرفني أنْ أكتبَ في أثر المشروع الفكري عند إمام من أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، الإمام العاشر علي الهادي (عليه السلام) (ت ٢٥٤هـ) – إمام سامرّاء – ، ولا يخفى أنَّ الكتابة في هذا الموضوع لها أهمية جُلّى في إظهار أهم الأفكار والآراء التي قدح بها الإمام عليّ الهادي (عليه السلام)، والتي نخالُ أنَّ لها أثراً بالغاً في عصره، فضلاً عن العصور التي تلته، زد على ذلك فإنَّ هذا المشروع يُعدّ مَكْنزاً كشفيّاً يضطمّ على حقائق عظيمة البيان، وقوادح عالية البيان.

إنَّ المتأمل فيما كتب عن الإمام الهادي (عليه السلام)، وأخباره لاسيما المتصلة بتراثه الفكري يرى أنَّه قليل غير وافٍ، ولم يظهر أثر المشروع الفكري له (عليه السلام) في نشر العلوم المختلفة.

إنَّ المتدبر في تراث الإمام الهادي (عليه السلام) بمرقاب التأمل، ومنظار التدبّر يجدُ مشروعاً فكرياً عظيماً، أراد الإمام (عليه السلام) بوساطته أنْ يخلق مجتمعاً مثالياً ملتزماً بحدود الشرع المقدس من جانب، وواعياً المخاطر والتحدّيات المحدقة به من جانب آخر.

وسيقدح البحث بحزمة من الأفكار، والقبسات، والشذرات من لبنات المشروع الفكري عند الإمام الهادي (عليه السلام) يأمل كاتب هذه السطور من القارئ العزيز، والباحثين الأكارم أنْ يقتنصوها، ويُفيدوا منها علّهم يوسّعون هذه الدوائر، ويُشظُّون البؤر التي نَحْسَبُ أنها لم تتوسّع، ولم تتشظّ، ولاسيّما المتعلقة بأئمة أهل البيت (عليهم السلام)، وذراريهم وتلامذتهم.

إنَّ القراءة المتأنية الصبور في تراث الإمام الهادي (عليه السلام) توصلنا إلى بيان تجلّيات المشروع الفكري عنده (عليه السلام)، ومعطياته، فضلاً عن ذلك تجعلنا قادرين على وضع هيكلية للبحث، وقد جاءت في ثلاثة مطالب، هي :

الأول : جامعية الإمام الهادي (عليه السلام).

الثاني : مشروعه الفكري (عليه السلام) في ضوء تراثه.

الثالث : أثر المشروع الفكري عند الإمام الهادي (عليه السلام) في نشر العلوم الدينية والأخلاقية.

وهذا أوان الشروع في :

المطلب الأول : جامعية الإمام الهادي (عليه السلام)

سنحاول في هذا المطلب أنْ نكشف النقاب عن جذور مؤهّلات الإمام عليّ الهادي بن محمد الجواد بن عليّ الرضا بن موسى بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن عليّ سيّد العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب المتوفّى سنة (٢٥٤هـ)[١]، قال ابن خلّكان (ت ٦٨١هـ) : هو "أبو الحسن علي الهادي بن محمد الجواد بن عليّ الرضا (...)، وهو أحدُ الأئمة الاثني عشر عند الإمامية"[٢].

نشأتُهُ وبلوغُه المبكّر :

نشأ هذا البرعم العلوي، والفرع الزكيّ في مدينة طيبة (المدينة المنورة)، وهي مدينة رسول الرحمة والعدل محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم)، أعزّها الله وشرّفها ونوّرها بوجود سيّد الكائنات، وفخر الموجودات، ووجود ذريته الطاهرة، الزاكية، وصحابته البررة المخلَصين.

قال محمّد حسن آل ياسين مصوّراً نشأة الإمام الهادي (عليه السلام) في المدينة المنورة : "ثمّ حَلّ منذ صباه ناشئاً في دار هجرة جدّه (صلى الله عليه وآله وسلم) حيثُ مهبط الملائكة ومنزل الوحي، ومجمع آبائه الميامين وبقي مقيماً هناك في تلك البيوت التي أذن اللهُ أنْ ترفع مُجدّاً في القيام برسالته الدينية، ومسؤوليته الشرعية في تربية طالبي العلم، وعشاق المعرفة، وفي تزويدهم بفقه القرآن، وأسرار التنزيل وإبلاغهم لباب المأثور النبوي الصحيح، وحقائق الفكر الإسلامي الأصيل"[٣].

لقد تَرَبّى الإمام الهادي (عليه السلام) في حجر الفضيلة، والأخلاق والعلم، والتقوى، ونكران الذات، والشجاعة، والتضحية، والإخلاص زد على ذلك فالبيئة التي تَرَبّى في ظلالها مليئة بالتقوى، والعلم، والأدب والنضوج الفكري في جميع نواحي الحياة، وهي تزخر بكبار العلماء، والزهاد، والمفكّرين فهي عاصمة الدولة الإسلامية الروحيّة.

ولا غرابة حينئذ، ولا عجب أنْ يكون هذا الصبيُّ الموهوب قد حرص من عهده الأوّل باستلهام أجواء بيته، وعطاء بيئته، فكان يلتقط ما يدور بين أبيه وبين الجموع الفقيرة الوافدة عليه من السائلين المتطلعين إلى المعرفة في شَتّى مجالاتها المفتوحة على الفكر الإنسانيّ الواسع الآفاق أنْ يزقّ ما يسمع زقّاً، ويلتهم ما يُصفي إليه التهاما، ويستوعب جميع ذلك استيعاباً شاملاً[٤].

وقد ملك الإمام الهادي (عليه السلام) من الذكاء والنبوغ ما يذهل الأفكار ويحيّر العقول، فقد اعترف بنبوغه المبكر، وعقله النيّر الكثير من أهل المدينة فقد أسند إليه منصب الإمامة بعد شهادة أبيه الإمام الجواد (عليه السلام) وهو في سنّ الثامنة من عمره الشريف، وقيل السادسة وأشهر[٥].

لقد نشأ الإمام الهادي (عليه السلام) على مائدة القرآن الكريم، وخلق النبيّ المتجسد في خلق أبيه الكريم محمد الجواد (عليه السلام) خير تجسيد، فالبيوت صادحة بذكر الله (عزّ وجلّ) لا يسمع فيها سوى أصوات تلاوة القرآن، والأدعية، والأسحار، والأوقات تُفْنَى بالعبادة والذكر واستقبال الباحثين عن الحقائق من مريدي العلم، وهواة الحكمة، وطالبي الشرع، ومتفقهي ادين[٦].

لَقَبُهُ :

لُقّب الإمام الهادي (عليه السلام) بألقاب عدّة، ويُعدّ لقب (الهادي) أشهرها، ويعرف به في المدونات التاريخيّة أكثر من غيره، وإذا أطلق هذا اللقب فإنّه يراد به الإمام الهادي (عليه السلام) حصراً، وكُلّ آبائه هداة ميامين، فأصبح كالبديل عن اسمه، ومن هنا فإنَّ الدراسات والأبحاث التي تناولت سيرته، وحياته، ومشروعه الإصلاحي، وتراثه وغيرها قد حملت هذا اللقب ؛ لاشتهاره به (عليه السلام).

والذي يظهر في ضوء دراسة تراثه وأدبه لاسيما مشروعه الفكري (عليه السلام) أنَّ هذا اللقب أكثر الألقاب شهرة به، وانطباقاً وجرياً عليه، لأنه عاش في عصر كثر فيه الجهل والجهلة، والانحرافات، والعقائد الفاسدة، والبعد عن المنهاج الإسلامي الصحيح، فأراد الإمام (عليه السلام) أنْ يبني مشروعاً فكرياً كبيراً لمحاربة الجهل، والفساد والانحراف.

وعند تتبّع مادة (هـ . د . ي) واستقرائها في المعجمات العربية نرى أنَّ تصريفاتها منطبقة تمام الانطباق على صاحب هذا المشروع الفكري الكبير، إمام الهدى والرشاد، ومن هذه الدلالات :

الدليل والرَّشاد :

قال الأزهري (ت ٣٧٠هـ) : "الهدي نقيض الضلالة (...) الهدى البيان (...) هداه يهديه هداية : إذا دَلَّ على الطريق، وقال ابن السكّيت : الهديُّ : الرجل ذو الحرمة"[٧]، وقال الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ) : "الهُدَى بضم الهاء وفتح الدال (...) الرَّشاد والدلالة بلطفٍ إلى ما يوصلُ إلى المطلوب"[٨].

حُسْنُ المَذْهَب والرأي :

قال الأزهري : "فلان حسن الهدي : وهو حسن المذهب في أُموره كلّها، وفلان يذهب على هديته، أي : على قصده"[٩].

المتقدّم :

قال الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) : "الهادي من كلّ شيءٍ أوّله (...)، والدليل يسمّى هادياً

لتقدمه القوم بهدايته"[١٠]، وقال ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) : "وكلّ متقدم لذلك هادٍ (...) ويقال : هاديها أول رعيل منها ؛ لأنّه المتقدّم"[١١].

السيرة الحسنة :

نقول : ما أَحْسَنَ هَدْيَتَه ! بكسر الهاء وفتحها، أي : سيرته، ويقال : هَدَى هَدْي فلانٍ ، أي سار سيرته، وهو حسن الهَدْي، والهِدْية، أي الطريقة والسيرة[١٢].

نخلص من هذا الاستقراء لدلالات هذه المادة (هـ . د . ي) أنها منطبقة تمام الانطباق على الإمام الهادي (عليه السلام)، فهو الدليل والمرشد إلى الصواب ؛ لحسن مذهبه ورأيه وسيرته العاطرة، فأصبح الإمام والمتقدم للأمّة، لاسيّما في ذلك العصر الغارق بالعقائد الفاسدة، والأفكار المنحرفة فكان المرشد، والهادي، والدليل.

جامعيتُهُ :

لقد ظهر من الإمام الهادي (عليه السلام) علوم ومعارف جمة وهو في سن مبكرة، فقد امتحنه كبار العلماء بأدقّ المسائل الفقهية، والفلسفية، والكلامية، فأجاب عنها جواب العالم الخبير البصير المتخصّص، فخضع العلماء لإمامته، وفي ذلك دليل على أنَّ الله تعالى قد منح أئمة أهل البيت العلم والحكمة وآتاهم من الفضل ما لم يؤت أحداً من العالمين[١٣].

وقد صَرَّح الإمام الهادي (عليه السلام) بجذور أعلميته، وجامعيته، وأفضليته، ومرجعيتها، وهو يشرح لأصحابه، والحكام ما طلبوا معرفته من الأحكام الشرعية وغيرها من المسائل المختلفة، قال المسعودي (ت ٣٤٦هـ) : "قال : حدثني أبو دعامة، قال : أتيتُ علي بن محمد بن علي بن موسى (عليهم السلام) عائداً من علته التي كانت وفاته منها، فلمّا هممت بالانصراف قال لي: يا أبا دعامة، قد وجب حقّك عليّ، أفلا أحدّثك بحديث تسرّ به ؟ فقلتُ له : ما أحوجني إلى ذلك يا ابن رسول الله، قال : حدثني أبو محمد بن علي عن أبيه علي، وعن أبيه موسى بن جعفر عن أبيه جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن علي عن أبيه عليّ بن الحسين عن أبيه الحسين بن عليّ، عن أبيه علي بن أبي طالب (صلوات الله عليهم أجمعين) أنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال له : اكتب يا عليّ، قُلْتُ : وما أكتُب ؟ قال لي : اكتب "بسم الله الرحمن الرحيم : الإيمان ما وقّرته القلوب، وصدّقته الأعمال، والإسلام ما جرى به اللسان، وحلّت به المناكحة"، قال أبو دعامة : فقلتُ : يا ابن رسول الله، ما أدري والله أيهما أحسن، الحديث أم السند، فقال : إنّها لصحيفةٌ بخطّ عليّ بن أبي طالب، وإملاء رسول الله (صلى الله عليه وآله) نتوارثُها صاغراً عن كابر"[١٤].

وحينما تتضح لنا هذه النصاعة، والشرافة، والظهور في ضوء مصادر علم الإمام الهادي (عليه السلام) ومنابع عبقريته الفكرية والثقافية يكون من المنطقي جدّاً أنْ نتطلّع بمنتهى الشوق، والتلهف إلى معرفة ما أسند

إلى هـذا الإمـام العظيـم مـن تـراث الإمامـة الواسـع الممتـد عـبر عـوالم الفلسـفة، والتوحيـد، والتفسـير، والفقـه، والأخـلاق، والسـلوك[١٥].

وكان الإمـام (عليه السلام) بحسـب الروايـات التي وقفنـا عليهـا يمـضي، ويوقـع عـلى الكتـب والرسـائل التـي تصـدر منـه إلى وكلائـه الشرعيّـين الثقـاة في الأمصـار المختلفـة، ويسـتعمل (عليه السلام) عبـارات، منهـا : (أقَمْـتُ ، وجَعَلْـتُ ، وأوجبْـتُ ، وانظـروا ، والزمـوا ، صِيْروا ، وليقبـض حقّـي ، ارتضيْـتُ ، قَدَّمْـتُ)، وغيرهـا ولا يخفـى أن اسـتعمال هـذه العبـارات دليـل قاطـع عـلى سـلطته ومرجعيتـه الحقّـة مـن جانـب، ومكانـة وكلائـه والتزامهـم بالمرجعيـة – مرجعيـة الإمـام (عليه السلام) – مـن جانـب آخـر.

لذلـك حـرص الإمـام (عليه السلام) عـلى نـشر معـالم الشريعـة، وبيـان أحكامهـا وتدريـس علومهـا، وقـد احتـفّ بـه العلـماء، والفقهـاء وهـم ينتهلـون مـن نمـير علومـه، فـكان خاصـة الإمـام (عليه السلام) مـن أهـل بيتـه، وشـيعته، وغيرهـم يحرصـون عـلى حضـور مجالسـه، وعـلى تدويـن حديثـه، فـإذا نطـق بكلمـة، وأفتـى في نازلـة أَثبـت القـومُ مـا سَـمِعُوا منـه ذلـك اليـوم.

المطلب الثاني : مشروعه الفكري (عليه السلام) في ضوء تراثه

ترك الإمام (عليه السلام) لنا تراثاً ضخماً في العلم، والتقوى، والسلوك الإنساني، وأصول الأخلاق، زد على ذلك الأقوال الحِكَمِيَّة، والأدعية الجبارة التي تمثل وثائق تاريخيّة في بيان الظلم، والاضطهاد الذي عاناه الإمام (عليه السلام) في ظل حكومة بني العباس، لاسيّما المتوكل العباسي (ت ٢٤٧هـ).

ويظهر أنَّ هذا المشروع الفكري، والتراث العلمي العظيم كان متفاعلاً ومتناغماً مع الواقع المعيش آنذاك، فكان الفساد الإداري، والأخلاقي، وضعف السياسة والإدارة، ولهو الحكام مطبقاً في تلكم البيئة، في حين كان أئمة أهل البيت (عليهم السلام) يحاولون بثّ الوعي الإسلامي والحفاظ على أصالة الفكر، ومسار السياسة "فبعلومهم النجاة، وبهم الحياة، فقد أقام الله بهم الحجّة، وأقام بمكانهم المحجّة"[١٦].

إنَّ هذه النصوص الفكرية، والشرعية، والأخلاقية، والتربويّة التي صدرت عن الإمام الهادي (عليه السلام)، وكذلك المادة العلميّة المستخرجة من مراسلاته، وأدعيته، وأقواله الحِكَميّة القصار هي المصدر الرئيس في تراثه (عليه السلام)، ومشروعه العلمي، بيد أنَّ التعامل مع هذه النصوص لا يتوقف عند قضية جمعها من المصادر المتفرقة في كتب المسلمين، ومدوناتهم بل هي بحاجةٍ إلى دراسات تحليلية ليفاد منها في معرفة أنساق منظومة الإمام الهادي (عليه السلام) الثقافية، والفكرية ومن ثم تعرّفها الأجيال الجديدة، وهذا ما ندعو إليه لاسيما الدراسات التربوية، والأخلاقية، والروحية.

بعد هذه التوطئة، نقول : يمكننا حصر تراث الإمام الهادي (عليه السلام) الفكري – قدر المستطاع –والإحاطة به في ضوء عرض أهم المباحث التي سنقف عليها، وهي مناظراته واحتجاجاته العلمية، ومروياته، وأدعيتُهُ وأقواله الحكمية.

أولاً : مناظراته (عليه السلام) واحتجاجاته العلمية :

سنبسط في هذه الفقرة بعضاً من المناظرات، والاحتجاجات العلمية التي صدرت من الإمام الهادي (عليه السلام) في الجانب الفقهي، والجانب التفسيري، والجانب الكلامي، وإنَّ سَعة هذه المناظرات والاحتجاجات تدلّ بشكل واضح على الدور الكبير، والأثر المشرق للإمام (عليه السلام) وأصحابه في التشريع، ومساهمتهم في الحفاظ على خطّ الإسلام الأصيل، ومبادئه الساميات في أشدّ الظروف وأقساها.

الجانب الفقهي :

في ضوء النصوص التي وقفنا عليها المتصلة بالجانب الفقهي التشريعي نجد كثرة المسائل الفقهيّة والتشريعيّة التي صدرت عن الإمام (عليه السلام)، وقد أفاد عزيز الله العطارديّ في مسنده (مسند الإمام الهادي (عليه السلام))[١٧]، وباقر شريف القرشي في (حياة الإمام الهادي (عليه السلام) دراسة وتحليل)[١٨]، وحسين الشاكري في

موسوعته (موسوعة المصطفى والعترة صلى الله عليه وآله وسلم)[١٩]، في جمع هذه النصوص من الكتب الحديثية الأربعة، وكذلك الكتب الأُخر المعنيّة بالأحاديث، وقد ضمّت هذه المصادر قدراً كبيراً من الروايات عن الإمام الهادي (عليه السلام) في شؤون العبادات، والمعاملات، والعقود، والإيقاعات، وقد رتّب هؤلاء المسائل الفقهيّة ترتيباً موضوعيّاً.

لقد كان الإمام (عليه السلام) فقيه عصره بلا منازع سواءٌ أكان في المدينة المنورة، أم في بغداد، أم في سامرّاء، حتّى أنَّ الحكام العباسيّين لاسيّما المتوكّل الذي كان من أعدى أعدائه، وأشدّهم حقداً عليه كان يرجع إليه في المسائل الغامضات حينما يتعايى الفقهاء، والعلماء عن الجواب فضلاً عن ذلك نراه يقدّم فتوى الإمام (عليه السلام) على فتاوى الفقهاء.

والذي يهمنا أولاً هو عرض أهم المسائل الفقهيّة التي عرضت عليه (عليه السلام) من مناوئيه في المناظرات والمجالس العلمية التي كانت تعقد، أو الأسئلة التي توجّه إليه (عليه السلام) عن طريق بعض الفقهاء أو أصحابه من أجل إسقاط الإمام، والتشهير به (عليه السلام) والحطّ من شأنه، وإظهار عجزه إلاَّ أنَّه كان يردُّ على الأسئلة ردّاً قاطعاً يسكت الأفواه، ويخرس الألسنة، فدلّل على طاقاته العلمية الهائلة التي هي إحدى العناصر الواضحة في معالم شخصية الإمام (عليه السلام).

قال الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) : "اعتلّ المتوكّل في أوّل خلافته، فقال : لَئِن برئت لأتصدّقَنَّ بدنانير كثيرة، فلما برئ جمع الفقهاء، فسألهم عن ذلك ؟ فاختلفوا، فبعث إلى علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر فسأله فقال : يتصدّق بثلاثة وثمانين ديناراً، فتعجّب قومٌ من ذلك، وتعصّب قوم عليه، وقالوا : تسأله يا أمير المؤمنين من أين له هذا ؟ فردّ الرسول إليه، فقال له : قُلْ لأمير المؤمنين في هذا الوفاء بالنَّذر ؛ لأنَّ الله تعالى قال : ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ (التوبة / ٢٥)، فروى أهلنا جميعاً أنَّ المواطن في الوقائع والسرايا والغزوات كانت ثلاثة وثمانين موطناً، وأنَّ يوم حُنين كان الرابع والثمانين، وكلّما زاد أمير في فعل الخير كان أنفع له، وآجر عليه في الدنيا والآخرة"[٢٠].

ونلحظ مقدرة الإمام (عليه السلام) البيانية التفسيرية الواضحة، فآلية الاستدلال والاستشهاد بالنصوص من الآليات المهمة التي يتكئ عليها البيانيّ ؛ لأنها تمثّل تناصّات مضيئة في النصّ من جهة، ودعائم قويّة للخطاب البيانيّ من جهة أخرى، وقد أفاد الإمام الهادي (عليه السلام) من الخطابات القرآنية أيّما فائدة، ففي قضية النصراني الذي فجر بامرأة مسلمة حينما قدم إلى المتوكّل، فأراد أنْ يقيم عليه الحدّ فأسلم، فقال يَحْيى بن أكثم : قد هدم إيمانَه شركُهُ وفعله، وقال بعضهم : يضرب ثلاثة حدود، وقال بعضهم : يُفْعَلُ به كذا وكذا، فأمر المتوكّل بالكتاب إلى أبي الحسن (الهادي) (عليه السلام) وسؤاله عن ذلك، فلمّا قَرَأ الكتاب كتب (عليه السلام) يضربُ حتّى

يموت، فأنكر يَحْيى، وأنكر فقهاء العسكر ذلك فقالوا : يا أميرَ المؤمنين : سَلْه عن ذلك، فإنّه شيء لم ينطق به كتاب، ولم يجئ به سنة، فبيّن لنا لِمَ أوجبت عليه الضرب حَتّى يموت ؟ فكتب : "بسم الله الرحمن الرحيم ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ (غافر / ٨٤ – ٨٥)"، فأمر به المتوكّل فضرب حتّى مات[٢١].

ونفهم من سياق الآية المباركة أنَّ الإسلام الذي أظهره هذا النصراني الفاجر ليس إيماناً صادقاً، وإنما هو قلقلة لسان من أجل التهرب من إقامة الحدّ، والنجاة من العقاب، وكلّ من أظهر الإيمان خوفاً من العدل الإلهي لا يكون الإيمان نافعاً له، ويكون مستحقاً للعقاب الذي أمر به البارئ (ﷻ)، واستنبطه الإمام الهادي (عليه السلام).

ومن الاستدلالات الحجاجيّة للإمام (عليه السلام) في ضوء استشهاده بالنصوص القرآنية التي اتّخذها حُجَجاً لدعم رأيه الفقهي، ما روي أنَّ المتوكّل كان له كاتب نصرانيّ، وكان أثيراً عنده، وكان يخلص له في الحبّ فلم ينادِه باسمه، وإنما كان يكنيه (أبا نوحٍ)، فأنكر عليه جماعة من الفقهاء أنْ يكنيه، وقالوا : لا يجوز للمسلم أنْ يكنّي الكافر، وأجاز آخرون منهم، ورفع المتوكّل بذلك استفتاءً للإمام (عليه السلام) فكتب في الجواب بعد البسملة الآية الكريمة : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (المسد / ١)، فأخذ المتوكّل بفتوى الإمام (عليه السلام)[٢٢].

الجانب التفسيريّ :

ممّا لاشكّ فيه أنَّ أئمة أهل البيت (عليهم السلام) هم حملة القرآن الكريم، فقد نزل في بيوتهم، وهو يمثل أساساً فكرياً مهماً في توجّهاتهم (عليهم السلام)، ولا يمكن أنْ نمرّ على سيرة واحدٍ منهم من دون أنْ نتلمس ذلك الاهتمام الكبير وهو أمر بَدَهي، فالقرآن الكريم هو النصّ الخالد الذي يساير الزمان والمكان إلى يوم يبعثون، وهو البحر الذي لا ينضب ماؤه، والشجرة المعطاء التي لا تيبس، وقد أشار الإمام الهادي (عليه السلام) إلى هذا المضمون، فعن أبي جعفرٍ الطوسي، قال : "أخبرنا جماعة عن أبي المفضل، قال : حدثنا أبو الحسين رجاء بن يَحْيى العبرتائي قال : حدّثنا يعقوب بن السكّيت النحوي، قال : سألت أبا الحسن علي بن محمد بن الرضا (عليهم السلام) : ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس إلاَّ غضاضة ؟ قال : إنَّ الله تعالى لم يَجْعَلْه لزمان دون زمان، ولا لناس دون ناسٍ، فهو في كل زمانٍ جديد، وعند كلّ قوم غضٌّ إلى يوم القيامة"[٢٣].

ولا يخفى أنَّ لأهل البيت منهجاً خاصاً في تفسير القرآن الكريم يفهمه كلُّ من تدبّر كلماتهم، وأحاديثهم

في تفسير القرآن الكريم، والخطوط العامة له هو تفسير القرآن بالقرآن، وكذلك تنزيه الله (عزّ وجلّ) عن التجسيم، والوصف، والرؤية وكذلك تنزيه الأنبياء من المعاصي، وقولهم جميعاً بسلامة القرآن الكريم من التحريف[٢٤]، وقد نقل لنا المؤرخون ممّن ذكروا سيرة الإمام الهادي (عليه السلام) أنَّ سعيداً الحاجب لمّا أراد أنْ يتجسَّس على الإمام (عليه السلام) ليلاً بطلب من المتوكّل، قال : رأيتُه (عليه السلام) جالساً على حصير في وسط الدار، وعلى رأسه مِلحفة من الصوف متوجّهاً إلى ربّه يترنّم بآيات من القرآن في الوعد والوعيد[٢٥].

إنَّ اتّصال الإمام (عليه السلام) بالدستور الإلهي جعله يكثر من الاستشهاد بالقرآن الكريم فهو الثّقل الأكبر، والنظام العام للمسلمين كافة، ففي الرسالة التي وجهها الإمام الهادي (عليه السلام) إلى جماعة من الموالين يخبرهم بتعيينه أبا الحسن علي بن راشد البغداديّ وكيلاً له، قال (عليه السلام) : "وأحمدُ الله إليكم ما أنا عليه من عافيته، وأُصلّي على نبيّه وآله أفضل صلاته، وأكمل رحمته ورأفته، وإنّي أقمت أبا عليّ بن راشد مقام علي بن الحسين بن عبد ربّه، ومَنْ كان قبله من وُكلائي، وصار في منزلته عندي، ووَلَّيْتُه ما كان يتولاّه غيرُه من وكلائي قبلكم ليقبض حقّي، وارتضيته لكم، وقَدَّمْتُه على غيره في ذلك، فصيروا رَحِمكم الله إلى الدفع إليه ذلك وإلَيّ (...) وتعاونوا على البرّ والتقوى، واتّقوا الله لعلكم ترحمون، واعتصموا بحبل الله جميعاً، ولا تَمُوتُنَّ إلاَّ وأنْتم مسلمون"[٢٦].

وسنذكر بعضاً من النصوص التفسيرية التي جاءت عن الإمام الهادي (عليه السلام) وهي غيض من فيض :

سُئل الإمام (عليه السلام) عن المخاطب في قوله تعالى : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (يونس / ٩٤)، فأجاب : "إنَّ المخاطب به رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ولم يكن في شك مما أنزل إليه، ولكن قالت الجهلة : كيف لم يبعث اللهُ نبيّاً من الملائكة ؟ ولِمَ لم يفرّق بين نبيّه وبيننا في الاستغناء عن المآكل والمشارب والمشي في الأسواق ؟ فأوحى الله إلى نبيّه : ﴿فسئل الذين يقرؤون الكتب﴾، بمحضر من الجهلة هَلْ بعث الله نبيّاً قبلك إلاَّ وهو يأكل الطعام والشراب ؟، ولك بهم أسوة يا محمّد، وإنما قال : ﴿فإن كنت في شكٍ﴾، ولم يكن شكّاً، ولكن للنصفة"[٢٧].

وعن قوله تعالى : ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (يوسف / من الآية ١٠٠)، سجد يعقوبُ وولده ليوسف وهم أنبياء، فقال الإمام الهادي (عليه السلام) : "وأما سجود يعقوب (عليه السلام) وولده كان طاعة لله ومحبّة ليوسف (عليه السلام)، كما أنَّ السجود من الملائكة لآدم (عليه السلام) لم يكن لآدم (عليه السلام)، فسجود يعقوب (عليه السلام) وولده يوسف (عليهم السلام) معهم كان شكراً لله باجتماع شملهم، ألم تره يقول في شكره ذلك الوقت : ﴿رَبِّ قَدْ

آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (يوسف / من الآية ١٠١)"[٢٨].

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (الشورى / ٥٠)، كيف يزوّج اللهُ عباده الذكران وقد عاقب قوماً فعلوا ذلك، قال الإمام الهادي (عليه السلام) : "وأما قوله ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾، أي يولد له ذكور، ويولد له إناث يقال لكلّ اثنين مقرنين زوجان، كل واحد منهما زوج، ومعاذ الله أنْ يكون عَنَى الجليل ما لبست به على نفسك تطلب الرخص ؛ لارتكاب المحارم، ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴾ إن لم يتب"[٢٩].

الجانب الكلامي :

ظهر في ضوء استقراء النصوص المتصلة بالجانب الكلامي، التي صدرت من الإمام الهادي (عليه السلام) أنَّ لها جنبة متصلة بالتوحيد، وصفات الله (عزّ وجلّ)، وامتناع رؤيته، واستحالة التجسيم، واستحالة وصفه، وسنذكر شذرات ممّا جادت به قريحة الإمام الهادي (عليه السلام) وفاقاً لآبائه في رؤيتهم لهذه النظرية (التوحيد)، ورؤيتهم في استحالة وصف الحقّ (تعالى)، وامتناع رؤيته (تعالى).

أبان الإمام الهادي (عليه السلام) حقيقة التوحيد في نصوصٍ كثيرات نكتفي فيما رواه "الفتح ابن يزيد الجرجاني عن أبي الحسن (عليه السلام)، قال : سألتُه عن أدنى المعرفة، فقال : الإقرار بأنّه لا إله غيره ولا شبه له، ولا نظير له، وأنه قديم مثبت موجود غير فقيد، وأنه ليس كمثله شيءٌ"[٣٠].

ومما كشف النقاب عنه (عليه السلام) استحالة وصف الحقّ (عزّ وجلّ)، قال الإمام الهادي (عليه السلام) لـ (الفتح بن يزيد الجرجانيّ) : "اجلس يا فتحُ، فإنَّ لنا بالرسل أسوةً كانوا يأكلون ويشربون ويمشون في الأسواق، وكلّ جسم مغذوٌّ بهذا إلاّ الخالق الرازق ؛ لأنه جسمُ الأجسام، وهو لم يجسّم ولم يجزّء بتناه، ولم يتزايد، ولم يتناقص، مبرّؤٌ من ذاته، ما ركب في ذات من جسمه، الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد"[٣١].

وتتعالى عبارات استحالة رؤية الحقّ (عزّ وجلّ) من لدن الإمام الهادي (عليه السلام) ممزوجة بالفَهْم العميق، والاستدلال العقلي، "حدّثنا أحمد بن إسحاق، قال : كتبتُ إلى أبي الحسن عليّ بن محمد العسكريّ (عليه السلام) أسأله عن الرؤية، وما فيه الخلق، فكتب : لا تجوز الرؤية ما لم يكن بين الرائي والمرئي هواء ينفذه البصر فمتى انقطع الهواء، وعدم الضياء لم تصحّ الرؤية، وفي وجوب اتّصال الضياء بين الرائي والمرئي وجوب الاشتباه، والله تعالى منزّه عن الاشتباه، فثبت أنه لا يجوز عليه سبحانه الرؤية بالأبصار ؛ لأنَّ الأسباب لابُدَّ من اتّصالها بالمسببات"[٣٢].

أمّا فيما يتعلق ببيان أفعال الله (عزّ وجلّ)، فنرى الإمام (عليه السلام) يوظّف القصص القرآني من أجل تقريب العبارة للمتلقّين وهو ملمح أسلوبي غايتُه الوصول بالمتلقّي إلى أعلى درجات الفَهْم، والاستيعاب، قال (عليه السلام) : "إنَّ لله إرادتين ومشيئتين، إرادة حتم، وإرادة عزم، يَنْهَى وهو يشاء، ويأمر وهو يشاء، أو ما رأيت أنَّه نَهَى آدم وزوجته أنْ يأكلا من الشجرة وشاء ذلك، ولو لم يشأ أنْ يأكلا لما غلبت مشيئتهما مشية الله تعالى، وأمر إبراهيم أنْ يذبح إسماعيل ولم يشأ أنْ يذبحه، ولو شاء لما غلبت مشيئة إبراهيم مشيئة الله تعالى"[٣٣].

ثانياً : مرويّاتُهُ (عليه السلام)

في هذه الفقرة سنقف بإيجاز على أهم مرويّتين من مرويات الإمام الهادي (عليه السلام) الباهرة التي وردت عنه (عليه السلام) لاسيّما (الزيارة الجامعة) التي زار بها آباءه الأئمة الطاهرين (عليهم السلام) وهي تزخر بالاحتجاج على أحقيّة أهل البيت (عليهم السلام) بالإمامة وقد حوت وثائق وأدلّة مهمة من مآثرهم، وفضائلهم، ومناقبهم، وأحقيتهم، أما المروية الأخرى، فزيارة الغدير – وهي من أهم زيارات الأئمة الطاهرين – ، لأنها رمزٌ لذلك اليوم الخالد في دنيا الإسلام، ذلك اليوم الذي حدّد فيه النبي محمّد (صلى الله عليه وآله) المصير الحاسم لأمّته، فنصب الإمام عليّاً (عليه السلام) إماماً للمسلمين، وقد زار الإمام الهادي (عليه السلام) جدّه أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) في السنة التي أشخصه فيها المتوكّل من المدينة المنوّرة إلى سامرّاء[٣٤].

الزيارة الجامعة :

تعدّ هذه الزيارة كما قلنا آنفاً من أهم الزيارات المرويّة عن الإمام الهادي (عليه السلام)، لما فيها من دقة التعبير، وجمال الأسلوب، وعمق المضمون[٣٥]، وقد اشتملت على معان غريبة، وأسرار مستصعبة عجيبة وألفاظ بليغة، وأمور بديعة، وأحوال شريفة تشهد للعقل السليم بصحة ورودها عن الإمام الهادي (عليه السلام)، فإنَّ على كلّ حقّ حقيقة وعلى كلّ صواب نوراً[٣٦].

وقد تضمّنت هذه الزيارة مضامين عظيمة، منها : أنَّ الأئمة هم أهل البيت (الاصطفاء الإلهي)، وأنَّ الرسول محمداً (صلى الله عليه وآله) والأئمة (عليهم السلام) امتداد واحد، وخط رسالي متواتر، وأنهم عرفوا الخالق معرفة كبرى، وهم أهل للإتّباع والاهتداء، وهم معدن الفضائل والشمائل والمحاسن، وبهم يعرف الناس معالم الدين وينالون دار المتّقين، وطاعتهم طاعة الله، ومعصيتهم معصية الله (عزّ وجلّ)[٣٧].

زيارة الغدير :

تُعدّ هذه الزيارة وثيقة تاريخيّة عظيمة المضمون، ملأى بالأحداث التاريخيّة، والاستدلالات القرآنية والعقلية على أحقية صاحب هذا اليوم (يوم الغدير)، فقد تحدّث فيها الإمام الهادي (عليه السلام) عن فضائل أمير

المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) وما عاناه من المشاكل السياسية والاجتماعية، وأنه (عليه السلام) أوّل من أسلم وآمن بالله (عزّ وجلّ) واستجاب دعوة نبيّه، مبيّناً جهاده وبسالته، وشجاعته وصموده في الحروب، ووقايته النبي محمداً (صلّى الله عليه وآله وسلم) بنفسه.

ثالثاً : أدعيتُهُ (عليه السلام)

إنَّ أدعية أئمة أهل البيت (عليهم السلام) تمثل دوائر واسعة تزخر وتضطمّ على أنفس الكلام في تنزيه الخالق (عزّ وجلّ) عمّا ينسبه إليه الظالمون والمنحرفون، فضلاً عن ذلك فيها الترغيب في مغفرة الله (عزّ وجلّ) ومرضاته، والتعوّذ من بأسه وسخطه، وشكره على الإحسان، ونعمة العدل والتوحيد، والدعاء أسلوب روحي تربويّ يعلّم المرء كيفية عبادة الله (عزّ وجلّ)، وآلية التوسّل به (تعالى).

وقد ذكر باقر شريف القرشي أهم ملامح أدعية أهل البيت (عليهم السلام)، وهي :-

أنّها وضعت قواعد السلوك، وأُصول الأخلاق، وما تزدهر به الشخصية من القوى الروحية الواعية.

أنها تشتمل على وثائق سياسية خطيرة، فهي تمثل مدى الاضطهاد والظلم الذي مُني به العالم الإسلامي في تلك العصور من الحكام الأمويين، والعباسيّين الذين لم يألوا جهداً في ظلم الناس وإرغامهم على ما يكرهون.

أنها تمثل انقطاع الأئمة إلى الله، والتجاءهم إليه، وأنَّهم قد آمنوا به بمشاعرهم، وعواطفهم، وقلوبهم.

لقد ترك لنا الإمام الهادي (عليه السلام) ترنيمات عالية البيان في الأدعية، والمناجاة قلّما يجود بمثلها الزمن، وقد دأب (عليه السلام) على الدعاء والقنوت والمناجاة فلم ير الناسُ في عصره مثله في عبادته، وتقواه، وشدّة تحرّجه في الدين، فلم يترك نافلة من النوافل إلاَّ أتى بها، وقد جمع جُلّ أدعيته ومناجاته وقنوته رضي الدين بن طاووس الحلّيّ (ت ٦٦٤هـ) في (مُهج الدعوات).

ومن أهم الأدعية وأشهرها التي رويت عن الإمام الهادي (عليه السلام)– دعاء المظلوم على الظالم – ، ويُسمّى دعاء السيف، ودعاء اليمانيّ[٣٨]، وهذا الدعاء العظيم (الإكسير المجرّب) دعا به الإمام الهادي (عليه السلام) حينما أصابه الظلم والضّرر من المتوكّل، قال (عليه السلام) : ما ناقةُ صالح عند الله بأكرم منّي، مشيراً إلى قوله تعالى في قصة الناقة : ((فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ))(هود / من الآية ٦٥)، فما جاء اليوم الثالث حتّى هجم المنتصر ومعه الأتراك على المتوكّل فقتلوه، وقطّعوه هو ووزيره الفتح بن خاقان قطعاً حتّى لا يعرف أحدهما من الآخر، فقال الإمام (عليه السلام) : "لما بلغ بي الجهد رميت إلى كنوز نتوارثها عن آبائنا هي أعزّ من الحصون والسلاح والجند، وهو دعاء المظلوم على الظالم"[٣٩].

رابعاً : أقواله (عليه السلام) الحِكميّة القصار

أُثرت عن الإمام الهادي (عليه السلام) مجموعة واسعة من الجمل الصغيرة، والحكم القصيرة ذات أبعاد إنسانية عليا، وأهداف اجتماعية عُظْمى عالج فيها الإمام الهادي (عليه السلام) الكثير من القضايا التربوية والأخلاقية، والنفسيّة، وتعدّ من أحسن التعاليم التربوية، ومن أفضل وسائل تزكية النفوس وتطهير القلوب، وإصلاح المجتمع، وقد جاءت بأسلوب رصين مقرون بالفصاحة والبلاغة والإيجاز، وقد استمدّ الإمام الهادي (عليه السلام) في هديها هدي الكتاب الكريم، وسنة جدّه صلى الله عليه وآله وسلم، وهدي آبائه الأئمة المعصومين (عليهم السلام).

وسنصطفي مجموعة من أقواله الحكمية[٤٠] التي ترنّم بها الإمام الهادي (عليه السلام) تمثل جماع الحكمة في ألفاظ حكمية، ومبعث الأخلاق في كلمات أخلاقية.

قال (عليه السلام) : "مَنْ أمِن مكر الله وأليم أخذه تكبّر حتّى يحلّ به قضاؤه، ونافذ أمره، ومَنْ كان على بيّنة من ربّه هانت عليه مصائب الدنيا ولو قرض ونشر"[٤١]، وقال (عليه السلام) : "الشاكر أسعد بالشكر منه بالنعمة التي أوجبت الشكر ؛ لأنَّ النعم متاع، والشكر نِعَمٌ وعُقْبَى"[٤٢]، وقال (عليه السلام) : "إنَّ اللهَ هو المثيب والمعاقب والمجازي بالأعمال عاجلاً وآجلاً (...) لا تعد ولا تجعل للأيام صنعاً في حكم الله"[٤٣]، وقال (عليه السلام) : "الدنيا سوق رَبِحَ فيها قومٌ، وخَسِرَ آخرون"[٤٤]، وقال (عليه السلام) : "السهرُ ألذّ للمنام، والجوعُ يزيد في طيب الطعام"[٤٥]، ونختم هذا الانتقاء من كلماته الذهبيّة بحكمة فاه بها لسانهُ الطهر تُعدّ أنشودة في العلم، والأدب، والموعظة، "العِلْمُ وراثةٌ كريمة، والآداب حُلَلٌ حسانٌ، والفكرة مرآةٌ صافية، والاعتبار منذرٌ ناجحٌ، وكَفَى بك أدباً لنفسك تركك ما كَرِهْتَه من غيرك"[٤٦].

المطلب الثالث : أثر المشروع الفكري عند الإمام الهادي (عليه السلام) في نشر العلوم الدينيّة والأخلاقية.

سنشرعُ في بيان أثر المشروع الفكري عند الإمام الهادي (عليه السلام) في نشر العلوم الدينيّة والأخلاقية، ويبدو بلحاظ المدونات التي اطّلعنا عليها فيما يتصل بالمشروع الفكري لدى الإمام (عليه السلام) أنه تراث عظيم الأركان، واسع البناء، متعدّد الشعب، وأنَّ الباحث ليحارُ عندما يريد أنْ يسلّط الضوء على هذا المشروع الفكري الضَّخْم.

إنَّ الحديث عن أثر هذا المشروع الفكري الكبير يتطلب دراسة عميقة وواسعة، وجهداً كبيراً، يَحْسُن بنا وبالباحثين الأكارم أنْ نعقد دراسة مستقلة ومفصّلة عنه في قابل الأيام – إذا شاء الله (عز وجل) – ، إلاَّ أنَّ من لواحق هذه الدراسة، وتمامها يحتم علينا ألا نطوي تلك المطالب الفكرية، والعلمية للإمام (عليه السلام)، وأنْ نحيط – قدر المستطاع – بشذرات وقبسات من هذا المشروع الفكري العظيم.

قلنا من قبلُ : إنَّ الإمام الهادي (عليه السلام) كان حريصاً على نشر معالم الدين الشريعة، وبيان أحكامها، وتدريس علومها، وقد التفّ حوله العلماء والفقهاء وهم يرتشفون من نمير علومه.

ويظهر لنا أنَّ هذا المشروع الفكري الذي أسّس له الإمام الهادي (عليه السلام) من جانب، وجدّد له بلحاظ استثمار تراث آبائه (عليهم السلام) من جانب آخر، جنبتين، هما : فلسفية، والأخرى تتّصل بحملة هذا المشروع (أصحابه ورواته).

الأولى فلسفة مشروعه الفكري (عليه السلام) :

تتضح الرؤية الفلسفية لهذا المشروع في ضوء مجموعة من الفقرات هي :

إحياء العقل :

وَعَى الإمام الهادي (عليه السلام) الأحداث المحيطة بالمجتمع من جهة، والمحيطة به من جهة أخرى، فكان قارئاً واعياً للمشهد السياسي والاجتماعي، والثقافي، ومفكراً بارعاً في الإحاطة بنزعات النفوس وتخالجاتها، فالقراءة السايكلوجية الحاذقة للمجتمع عامة، ولخصومه ومناوئيه خاصة جعلته يصوّب سهام خطابه بصورة دقيقة في أغراض فهوم المجتمع والمناوئين من دون أنْ يخطئها، وهنا يكمن سرّ عظمة الخطاب الهاديّ السامي.

لقد استطاع الغلاة، والضّالون، والقوى المعادية للإسلام أنْ تتغلغل الحياة الدينية آنذاك بسبب طبيعة هذه الحياة ذات السمة القلقة والمضطربة، فالوعي الديني كان ضعيفاً، فلم يفهم الكثير من المسلمين دينهم عن دليل، أو إدراك فكانوا مقلّدين فيه لآبائهم، وقد حاربت حكومة المتوكّل حرية الفكر والتفكير، ووضعت خطّة منظمة ضد الشيعة والمعتزلة، فقد أحدث المتوكّل انقلاباً عظيماً حينما أطاح بالتيار العقلاني الذي

بلور الصفحات المشرقة للحضارة العربية، وجاء بمن يقفون مع ظواهر النقل مستنكرين العقل، ومنكرين جدواه، وبمن يقفون مع التشبيه والتجسيد المنافي للتوحيد والتنزيه(٤٧).

ويرى جورج طرابيشي أنَّ الإبادة الشاملة التي تعرّض لها العقل جاءت مبكرة في الانقلاب المتوكّلي (ت ٢٤٧هـ)، الذي أعلن فيه إقالة العقل، ومحاصرة كلّ انفتاح، ونزوح عقلي إلى الجديد(٤٨).

إنَّ الإمام الهادي (عليه السلام) أعاد للعقل مكانته، ومرتبته المتميزة فقد دعا أصحابه إلى إعمال العقل ردّاً على الانقلاب المتوكّلي، لأن المتوكّل أطاح بالعقل من أجل الاتّكاء على فتاوى فقهاء البلاط العباسي التي تتناغم مع أهواء الحاكم.

كان الإمام الهادي (عليه السلام) يشجّع على الحوار التعليمي الهادئ الرصين مع أصحابه من أجل استحضار القدرات العقلية المسوقة إلى النشاط الفكري الذي يقود إلى فهم الواقع الذي يتطلب الهداية والإرشاد، وغرس القيم والمبادئ التربوية في نفوسهم، ومن ثم التأثير في نفوس الناس، ومن دلالات هذا الاستحضار أنه (عليه السلام) كان يدعو أصحابه إلى الإصغاء، وفهم الجواب في ضوء شحذ الذهن، والقدرة على التفكير الفعّال، فقد أتى الفتح بن يزيد الجرجاني الإمام (عليه السلام) فسلّم، فردّ (عليه السلام) السلام : "فقلت يا ابن رسول الله تأذن لي في كلمة اختلجت في صدري ليلتي الماضية، فقال لي : سَلْ وأصغِ إلى جوابها سمعَك، فإنَّ العالم والمتعلم شريكان في الرشد مأموران بالنصيحة فأما الذي اختلج في صدرك، فإن يشاء العالِمُ أنبأك أن الله لم يظهر على غيبه أحداً إلاَّ مَنْ ارتضى من رسول، وكلّ ما عند الرسول فهو عند العَالِم، وكل ما اطّلع الرسول عليه فقد اطّلع أوصياؤه عليه، يا فتح، عسى الشيطان أراد اللبس عليك فأوهمك في بعض ما أورد عليك، وأشكك في بعض ما أنبأتك حتّى أراد إزالتك عن طريق الله وصراطه المستقيم، فقلت : متى أيقنت أنهم هكذا فهم أربابٌ، - معاذ الله - إنهم مخلوقون مربوبون مطيعون داخرون راغمون، فإذا جاءك الشيطان بمثل ما جاءك به فاقْمعه بمثل ما أنبأتك به"(٤٩).

دفع الشبهات العقدية :

القضية الأخرى المتصلة بالجنبة الأولى (فلسفة مشروعه الفكري (عليه السلام)) التي كان لها الأثر البالغ في نشر العلوم الدينية والأخلاقية هي دفع الشبهات العقدية، فقد شاعت في عصر الإمام الهادي (عليه السلام) الكثير من الشكوك والأوهام بخصوص أصول العقيدة الإسلامية، وكانت بدايتها أيام الحكم الأموي فهو الذي فسح المجال لانتشار الأفكار المضلّلة، وشجّع عليها، وقد استمرت متصاعدة أيام الحكم العباسي، وقد تصدّى علماء المسلمين، وفي طليعتهم أئمة أهل البيت (عليهم السلام) إلى تزييف الآراء الملحدة بالأدلّة العلمية الحاسمة، وقد سُجّلت ودوّنت في كتب علماء المسلمين لاسيما (الاحتجاج) لـ (الطبرسي ت ٦٥٠هـ)،

وغيره[٥٠].

إنَّ النصوص التي أُثرت عن الإمام الهادي (عليه السلام) حول الرؤية، والجبر، والتفويض، والردّ على الشبهات المثارة بخصوص آيات القرآن الكريم، تدلّ على تصدّي الإمام (عليه السلام) لهذه المسائل من أجل التحصين العقائدي في الساحة الإسلامية، ولم يكتفِ الإمام (عليه السلام) بالردّ على الشبهات العامة ؛ بَلْ للردّ الخاص على ما كان يثار من تساؤلات خاصة تعرض على أفراد من أتباعه، رادّاً الشبهات المنحرفة التي كانت رائجة، وتفنيد المزاعم الإلحادية التي ابتدعها الزنادقة، وجماعة الوضّاعين، فكان (عليه السلام) حريصاً على تنزيه تعاليم الإسلام من التشويه والتحريف والافتراء[٥١].

لقد اتّخذ الإمام موقفاً من الغلاة، والغُلوّ، وأعلن كفرهم وإلحادهم، وقد ظهرت في زمانه (عليه السلام) زمرة خبيثة من الملاحدة والمارقين في الدين نشروا البدع والأضاليل في صفوف المسلمين، لاسيما الجهّال والسذج الذين لا يميّزون بين الحقّ وبين الباطل، وبين الهداية وبين الضلال، ومن أهم الأفكار المنحرفة التي صدرت من هؤلاء الغلاة، وقد حاربها الإمام الهادي (عليه السلام)، (تأويل الفرائض والأحكام الشرعية)، و (تأليه أئمة أهل البيت (عليهم السلام) ولاسيما الإمام الهادي (عليه السلام)).

وقد رفع أحد أصحابه رسالة إليه (عليه السلام) ينسبُ فيها ضلالة أحد هؤلاء الزنادقة وهو (عليّ بن حسكة) : "جُعلت فداك يا سيّدي، إنَّ عليّ بن حسكة يدّعى أنه من أوليائك، وأنّك أنت الأول القديم، وأنه بابك ونبيك أمرته أنْ يدعو إلى ذلك، ويزعم أنَّ الصلاة والزكاة والحجّ والصوم كلّ ذلك معرفتك، ومعرفة من كان في مثال حال ابن حسكة فيما يدّعي من البابية والنبوة فهو مؤمن كامل سقط عنه الاستعباد بالصلاة، والصوم، والحجّ، وذكر جميع شرائع الدين، أنّ معنى ذلك كلّه ما ثبت لك، وحال الناس إليه، فإنْ رأيْت أنْ تمنّ على مواليك بجواب ذلك تنجيهم من الهلكة، قال (عليه السلام) : فكتب (عليه السلام) كذب ابن حسكة (عليه لعنة الله)، وبحسبك أني لا أعرفه في مواليّ، ما له ؟ لعنه الله، فوالله ما بعث الله محمداً والأنبياء قبله إلاَّ بالحنفية، والصلاة والزكاة والصوم، والحج، والولاية، وما دعا محمد (صلى الله عليه وآله) إلاّ إلى الله وحده لا شريك له، وكذلك نحن الأوصياء من ولده عَبيد الله لا نشرك به شيئاً إن أطعناهُ رَحِمَنا، وإن عَصَيْناه عَذَّبنا، ما لنا على الله من حجّة، بل الحجّة لله (عزّ وجلّ) علينا، وعلى جميع خلقه، أبرأ إلى الله ممّن يقول ذلك، وأنتفي إلى الله من هذا القول، فاهجروهم لعنهم الله"[٥٢].

وقد فضح الإمام (عليه السلام) مجموعة من الفرق الضّالة والمضلّة، معلناً (عليه السلام) براءته منها ؛ لأنّها لا تمثل الإسلام ومنهجه من قريب، ولا من بعيد، ومن تلك الفرق الصوفية، والفطحية، والواقفية[٥٣].

وقد جانب محمد عابد الجابريّ الصواب حينما تبنى النظرية الهرمسية وألصقها بالشيعة من جهة، وربط

الصوفية والمتصوّفة بالشيعة، قال : "نعم كانت الشيعة أول من تهرمس في الإسلام، ولكن التداخل بين غلاة الشيعة وأئمتها إلى جعفر الصادق من جهة، وبين المتصوفة من جهة ثانية حقيقة ثابتة لا غبار عليها"(٥٤)، ويبدو أنَّ الجابري في أبحاثه المتصلة بالعقل العربي قد ألصق كثيراً من التهم بالشيعة وهم براءٌ منها ؛ وسبب ذلك جهله بتراث الإمامية من جانب، وتعمّده عدم الرجوع إلى تراثهم من جانب آخر، فضلاً عن ذلك استعانته في كثير من المسائل المتعلقة بتراث أهل البيت (عليهم السلام) من تراث غيرهم، وهو أمرٌ غير مقبول في البحث العلمي، وقد تنبه على هذا الخلل المنهجي في البحث العلمي جورج طرابيشي في كتابه الأخير (نقد نقد العقل العربي) ذاكراً سرقات الجابري العلمية، وإحالاته الكاذبة، واستبداده بمصادر غيره، يقول إدريس هاني : "يبدو في ضوء مشروع الجابري أنه لم يكن له إلمام بالتاريخ والفكر الشيعيين كما تدلّ على ذلك مصادره المعتمدة، نعزو تلك المحاولة التي لم تحقّق النجاح المطلوب إلى الهاجس السياسي والأيديولوجي الساكن بقوة في أعماق مشروع الجابري، مضافاً إلى عدم التخصّص، والبعد عن المصادر، والسرعة وهي آفة كلّ مشروع أيديولوجي في تركيب الصور والأحكام التاريخيّة، ويكفي في هذا الإطار تصدّي الكثير من النقاد إلى تفكيك هذا المشروع، وبيان هواجسه ونقائضه"(٥٥)، والحقيقة أنَّ كلام الجابري هذا ليس رأياً في معرض الآراء حتّى يناقش ويتدبّر، ولكنه هذيان المحموم الذي لا يعي ما يقول، أعاذنا الله (عزّ وجلّ) من الذين يهرفون بما لا يعرفون، ويلقون الكلام على عواهنه، فقد روى الحسين بن أبي الخطاب، قال : كُنْتُ مع أبي الحسن الهادي (عليه السلام) في مسجد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فأتاه جماعة من أصحابه منهم أبو هاشم الجعفري، وكان بليغاً وله منزلة مرموقة عند الإمام (عليه السلام)، وبينما نحن وقوف إذ دخل جماعة من الصوفية المسجد فجلسوا في جانب منه، وأخذوا بالتهليل، فالتفت الإمام إلى أصحابه فقال لهم : "لا تلتفتوا إلى هؤلاء الخدّاعين فإنّهم حُلَفاء الشياطين، ومخرّبو قواعد الدين، يتزهّدون لإراحة الأجسام، ويتهجّدون لصيد الأنعام، يتجَوّعُون عُمْراً حتّى يُدَيّخوا للإيكاف حُمْراً، لا يُهَلِّلون إلاَّ لغرور الناس، ولا يُقَلّلون الغذاء إلاّ لِمَلء العِساس، واختلاف قلب الدِّفْناس يكلمون الناس بإملائهم في الحبّ، ويطرحونهم بإدلائهم في الجُبّ، أورادُهم الرقص، والتصدية، وأذكارهم الترنّم والتغنية، فلا يتبعهم إلاّ السفهاءُ، ولا يعتقدُ بهم إلاّ الحُمَقاء، فمن ذهب إلى زيارة أحدهم حيّاً أو ميّتاً فكأنّما ذهب إلى زيارة الشيطان، وعبادة الأوثان، ومن أعان واحداً منهم فكأنّما أعان معاوية ويزيد وأبا سفيان، فقال له رجلٌ من أصحابه، وإن كان معترفاً بحقوقكم؟ قال : فنظر إليه شبه المغضب، وقال : دَع ذا عنك، مَنْ اعترف بحقوقنا لم يذهب في عقوقنا، أما تدري أنهم أخسُّ طوائف الصوفيّة ؟ والصوفية كلّهم من مخالفينا، وطريقتهم مغايرة لطريقتنا، وإن هم إلاَّ نصارى ومجوس هذه الأمّة – أولئك الذين يجتهدون في إطفاء نور الله بأفواههم، والله متمٌّ نوره، ولو كره الكافرون"(٥٦).

ومن المسائل العقدية التي كان للإمام (عليه السلام) موقف منها (مسألة خلق القرآن)، على الرغم من أن الأئمة (عليهم السلام) لو يبحثوا فيها ؛ لكونها من القضايا غير المفيدة، فالقرآن الكريم كتاب هداية ونور، ويجب أنْ يُبْحث في دلائله وإعجازه وأحكامه، أما البحوث المخترعة التي تؤدّي إلى تضييع رسالته، وغايته فهي فتنة يجب أن يترفع عنها المتكلّمون، وأهل النظر، خصوصاً تلك التي تؤدي إلى الفرقة وتشغل الناس عن واجباتهم الشرعية(٥٧).

لذلك حرص الإمام الهادي (عليه السلام) على وصف هذه المسألة بالبدعة يشترك فيها السائل والمجيب، فهما يشتركان معاً في الإثم، كتب (عليه السلام) إلى أحد أتباعه (أحمد بن إسماعيل بن يقطين) في سنة (٢٢٧هـ) رسالة في شأن هذه المسألة : "عصمنا اللهُ وإياك من الفتنة فإن يفعل، فقد أعظم بها نعمة، وإن لم يفعل فهي الهلكة، نحن نرى أنَّ الجدال في القرآن بدعة اشترك فيها السائل والمجيب فيتعاطى السائل ما ليس له، ويتكلّف المجيب ما ليس عليه، وليس الخالق إلاَّ الله (عزّ وجلّ)، وما سواه إلاّ مخلوق، والقرآن كلام الله لا تجعل له اسماً من عندك فتكون من الضّالين"(٥٨).

ولابد من الإشارة – ونحن نطوي الجنبة الأولى – إلى مسألة عقدية مهمة (الجبر والتفويض)، وقد أبطلها الإمام (عليه السلام)، قائلاً بالأمر بين الأمرين، أو بالمنزلة بين المنزلتين، مفصّلاً الكلام في شرح هذه المسألة باستيعاب واستيفاء تامّين، وبشواهد غير قليلة من الآيات الكريمات، والأحاديث الشريفات، حتى أصبح ذلك الجواب الشافي النافع الناجح بمثابة رسالة مستقلة في هذا الموضوع الشائك المعقد، وقد مثّلت هذه الرسالة جانباً مهماً وأصيلاً من الكنوز والثروات العلمية الهائلة التي يمتلكها الإمام الهادي (عليه السلام)، فقد فنّد أوهام الأشاعرة والمعتزلة، وأثبت بالأدلّة الحاسمة (الأمر بين الأمرين)، وهي الفكرة المهمة التي يذهب إليها أئمة أهل البيت (عليهم السلام)(٥٩).

وهي رسالة تخصّ الجدل والخلاف الفكري الذي طال واستطال بين المسلمين بخصوص هذه المسألة، وهي طويلة أوردها ابن شعبة الحرّاني (من أعلام القرن الرابع الهجري) كاملة في خمس عشرة صحيفة، في كل صحيفة أربعة وعشرون سطراً تقريباً(٦٠).

الثانية حَمَلَةُ مشروعه الفكري (عليهم السلام) :

كان تنوّع ثقافة الإمام الهادي (عليه السلام)، وشمول معارفه وتخصّصه بالعلوم المختلفة، فضلاً عن مقدرته التفسيرية، والفقهية وآدابه الإسلامية، والأخلاقية سبباً في جعله مقصداً لطلاب العلوم – الذين يمثلون الخط الرسالي في الإسلام – ، فهم الذين صانوا رسالة الإسلام من الضياع، فلزموا أئمة أهل البيت (عليهم السلام) المنبع الفياض، والبحر الزخّار، فرووا أحاديثهم، ودوّنوها في أصولهم التي بلغت أربعمائة أصل،

وقد جمعت في الكتب الأربعة التي يرجع إليها فقهاء الإمامية في استنباطهم للأحكام الشرعية[٦١].

إنَّ الفضل الأكبر في وقوف الأجيال التالية لعصر الإمام الهادي (عليه السلام) على أدبه العظيم، وتراثه الكبير، وتعرّف مشروعه الفكري العملاق، وما حمل من فكر وعطاء يعود إلى أولئك الأصحاب، والرواة عنه، والمشافهين له، الذين سَمِعوا منه ذلك، فحدّثوا به، وأبلغوه إلى مَنْ جاء بعدهم فأنعموا علينا بالإطلاع عليه، والإفادة منه، والاهتداء بهديه لاسيما النوابغ الواعون من الرواة الذين أسرعوا إلى تدوين ما جاء به الإمام الهادي (عليه السلام) من أمال، ورسائل، وأحاديث، وكلمات في كتب ومؤلفات حفظتها من الضياع، وحمتها من النسيان[٦٢].

هذه الثُّلّة من حملة المشروع الفكري للإمام الهادي (عليه السلام) الذين عشقوا المعارف الإسلامية الأصيلة، ولاسيما الإلهية منها، كان لهم القِدح المُعَلَّى، وقصب السبق في نشر تراث أئمة أهل البيت (عليهم السلام) عامة، وعلوم الإمام الهادي (عليه السلام) وتراثه خاصة، وقد أورد الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠هـ) في رجاله نحو (١٨٥) تلميذاً وراوياً أخذوا عن الإمام الهادي (عليه السلام) العلم، والفقه والمعارف المختلفة، ويرى أنَّ "رواة الحديث لا ينضبطون، ولا يمكن حصرهم لكثرتهم، وانتشارهم في البلدان شرقاً وغرباً، غير أنْ أرجو أن لا يشذّ عنهم إلاّ النادر، وليس على الإنسان إلا ما تسعه قدرته، وتنال طاقته، ولم أجد لأصحابنا كتاباً جامعاً في هذا المعنى إلاَّ مختصرات قد ذكر كلّ إنسان طرف منها إلاّ ما ذكره ابن عقدة من رجال الصادق (عليه السلام) فإنه قد بلغ الغاية في ذلك، ولم يذكر رجال باقي الأئمة (عليهم السلام)"[٦٣].

هؤلاء الأصحاب والرواة البررة حملوا مشعل المشروع الفكري للإمام الهادي (عليه السلام) فبثوا العلوم الدينية والأخلاقية في البلاد التي تفرّقوا فيها، وقد ذكر الشيخ محمد حسن آل ياسين هؤلاء الأصحاب والرواة بحسب الأحرف الهجائية وفاقاً لما جاء في مدونة الشيخ الطوسي (رجال الطوسي)، مع ذكر مؤلفاتهم، وأن العقل ليحار في تنوّع العلوم التي كتبوا فيها، والموضوعات التي تناولوها[٦٤]، ومن أبرز تلامذة الإمام الهادي (عليه السلام) السيد عبد العظيم بن عبد الله الحسني، ويعقوب بن إسحاق الأهوازي المعروف بـ (ابن السكّيت).

خاتمة البحث ونتائجه :

دعوة الباحثين إلى دراسة المشروع الفكري لدى الإمام الهادي (عليه السلام) دراسة تحليلية واسعة، من أجل الإحاطة بمعطيات هذا المشروع ؛ لأنّه يضطمّ على معارف، وعلوم متنوعة.

دعا الإمام الهادي (عليه السلام) أصحابه، وشيعته إلى أعمال العقل، وإذكاء روح العمل والتفكر، واستحضار المثل الروحية والأخلاقية.

إنَّ ظهور الكم الهائل، والحشد الغفير من أصحابه ورواته دليل على انتفاع هؤلاء بعلوم الإمام ومعارفه،

وكان لهم الفضل الأكبر في نشر تراث الأئمة الأطهار عامة، وتراث الإمام الهادي (عليه السلام) وعلومه خاصة.

نَهَى الإمام (عليه السلام) أصحابه عن مجالسة الغلاة، والمنحرفين لاسيما الصوفية ؛ لأنهم مخرّبو الدين، ومضلُّو العباد، ونهى كذلك (عليه السلام) عن الخوض في مسألة (خلق القرآن)؛ لأنها من المسائل المحرقة التي تؤدي إلى تضييع الرسالة، وذهاب الغاية.

ترك لنا الإمام الهادي (عليه السلام) تراثاً ضخماً متمثلاً بالمناظرات والاحتجاجات، والأدعية، والكلمات الحِكمية القصار، وهي تمثل مشروعاً فكرياً عظيماً.

وآخر دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربّ العالمين.

هوامش البحث

١-ينظر : تاريخ الأئمة (عليهم السلام) ووفياتهم : ابن الخشاب البغدادي : ٢٤٠.

٢-وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : ابن خلكان : ٣ / ٢٧٢، وينظر : كشف الغمة في معرفة الأئمة : أبو الحسن الأربلي : ٤ / ٥.

٣-الأئمة الاثنا عشر (سيرة وتاريخ) : محمد حسن آل ياسين : ٢ / ٣٤١.

٤-ينظر : م . ن : ٢ / ٣٢٠ – ٣٢١.

٥-ينظر : أعلام الهداية (الإمام علي بن محمد الهادي (عليه السلام)) : المجمع العلمي لأهل البيت : ١٢ / ٤١ – ٤٢.

٦-ينظر : الأئمة الاثنا عشر (سيرة وتاريخ) : ٢ / ٣٢٠.

٧-تهذيب اللغة : الأزهري : ٥ (مادة هدي) / ٢٠١.

٨-تاج العروس من جواهر القاموس : الزبيدي : ٤٠ (مادة هدى) / ٢٨٢ – ٢٨٣.

٩-تهذيب اللغة : ٥ / (هدي) / ٢٠٣.

١٠-العين : الخليل بن أحمد الفراهيدي : ٣ (هدي) / ١٨٧٦ – ١٨٧٧.

١١-مقاييس اللغة : ابن فارس : هدى / ٨٩٣.

١٢-ينظر : تاج العروس من جواهر القاموس : ٤٠ (هدي) / ٢٨٦.

١٣-ينظر : حياة الإمام الهادي (عليه السلام) دراسة وتحليل : باقر شريف القرشي : ٤٤.

١٤-مروج الذهب ومعادن الجوهر : المسعودي : ٤ / ١٨٨.

١٥-ينظر : الأئمة الاثنا عشر (سيرة وتاريخ) : ٢ / ٣٥٥.

١٦-تُحف العقول عن آل الرسول : ابن شعبة الحرّاني : ١١.

١٧-ينظر : مسند الإمام الهادي (عليه السلام) : جمع وترتيب عزيز الله العطاردي : ١٧ – ٢٩.

١٨-ينظر : حياة الإمام علي الهادي (عليه السلام) دراسة وتحليل : ٩٠ – ١٠٧.

١٩-ينظر : موسوعة المصطفى وآله والعترة : ١٢ / ٨١ – ١٤٢.

٢٠-تاريخ بغداد أو مدينة السلام : الخطيب البغدادي : ١٢ / ٥٧.

٢١-ينظر : الاحتجاج : الطبرسي : ٢ / ٤٩٨ – ٤٩٩. (فقهاء العسكر : فقهاء سامراء).

٢٢-بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار : المجلسي : ١٢ / ٢٣٤.

٢٣-أمالي الطوسي : الطوسي : ٢ / ١٩٣.

٢٤-ينظر : موسوعة المصطفى وآله والعترة : ١٢ / ٢٧٧.

٢٥-ينظر : مروج الذهب : ٤ / ١٠٥ – ١٠٦.

٢٦-حياة الإمام عليّ الهادي (دراسة وتحليل) : ٢٣١.

٢٧-مناقب آل أبي طالب : ابن شهر آشوب : ٤ / ٤٣٢.

٢٨-تُحف العقول عن آل الرسول : ٣٥٤.

٢٩-م . ن : ٣٥٥. (الفرقان / ٦٨ – ٦٩).

٣٠-سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار : عباس القُمّي : ٦ / ٢١٨.

٣١-كشف الغمّة : ٤ / ٢٧ – ٢٨.

٣٢-الاحتجاج : ٢ / ٤٨٦.

٣٣-أعلام الهداية : ١٢ / ٢٢٢.

٣٤-ينظر : مفاتيح الجنان : عباس القُمّي : ٤٣٦.
٣٥-ينظر : موسوعة المصطفى ﷺ والعترة : ١٢ / ٧٨.
٣٦-ينظر : شرح الزيارة الجامعة الكبيرة : أحمد الإحسائي : ١ / ٢٠.
٣٧-ينظر : مَنْ لا يحضره الفقيه : الشيخ الصدوق : ٢ / ٦٠٩.
٣٨-ينظر : حياة الإمام علي الهادي (دراسة وتحليل) : ١٥٤.
٣٩-موسوعة المصطفى ﷺ والعترة : ١٢ / ٢٠.
٤٠-ينظر : تحف العقول : ٢٤٨ – ٢٥٢، ومسند الإمام الهادي (عليه السلام) : ٢٩٥ – ٣٠٥، وحياة الإمام عليّ الهادي (عليه السلام) دراسة وتحليل : ٢٠٤ – ٢١٤، وموسوعة المصطفى ﷺ والعترة : ١٢ / ٣٨٠ – ٣٨٥.
٤١-تحف العقول : ٣٥٨.
٤٢-م . ن : ٣٥٨.
٤٣-م . ن : ٣٥٨.
٤٤-م . ن : ٣٥٨.
٤٥-منتهى الآمال في تواريخ النبيّ والآل : عباس القمّي : ٢ / ٤٩٠.
٤٦-مسند الإمام الهادي (عليه السلام) : ٣٠٢.
٤٧-ينظر : الاستقلال الحضاري : محمد عمارة : ٣٦.
٤٨-ينظر : هرطقات عن العلمانية كإشكالية إسلامية – إسلامية : جورج طرابيشي : ٢ / ١٣ – ١٤.
٤٩-إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) : المسعودي : ٢٥٠.
٥٠-ينظر حياة الإمام علي الهادي (عليه السلام) دراسة وتحليل : ١٠٨، وأعلام الهداية : ١٢ / ٧١ – ٧٢.
٥١-ينظر : أعلام الهداية : ١٢ / ١٦٣، ودور الأئمة في الحياة الإسلامية : محمد اليعقوبي : ٣١.
٥٢-رجال الكشي : الكشي : ٥١٩.
٥٣-ينظر : موسوعة المصطفى ﷺ والعترة : ١٢ / ٢٧٤ – ٢٧٥، وحياة الإمام الهادي (عليه السلام) دراسة وتحليل : ٤٠١.
٥٤-تكوين العقل العربي : محمد عابد الجابريّ : ٢٧٥.
٥٥-الجابري واللامعقول الشيعي : إدريس هاني : ١٥٤ – ١٥٥.
٥٦-سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار : ٢ / ٥٨.
٥٧-ينظر : الإمام الهادي (عليه السلام) (أضواء من سيرته) : ٥٨.
٥٨-التوحيد : الصدوق : ٢٢٤.
٥٩-ينظر : الأئمة الاثنا عشر (سيرة وتاريخ) : ٢ / ٤٦١.
٦٠-ينظر : تُحف العقول : ٣٣٨ – ٣٥٢، والاحتجاج : ٢ / ٤٨٧ – ٤٩٦.
٦١-ينظر : حياة الإمام الهادي (عليه السلام) (دراسة وتحليل) : ٢١٧.
٦٢-ينظر : الأئمة الاثنا عشر (سيرة وتاريخ) : ٢ / ٣٦٦.
٦٣-رجال الطوسي : الطوسي : ٢٧.
٦٤-ينظر : الأئمة الاثنا عشر (سيرة وتاريخ) : ٢ / ٣٦٧ – ٣٨٦، وقد ذكر عزيز الله العطاردي (١٨٠) رجلاً في (مسند الإمام الهادي (عليه السلام)، وذكر الشيخ حسين الشاكري (٢٦٣) صحابيّاً وراوياً (موسوعة المصطفى ﷺ والعترة، وذكر الشيخ باقر شريف القرشي (١٨٥) صحابياً وراوياً. (حياة الإمام الهادي (عليه السلام) دراسة وتحليل).

مصادر البحث ومراجعه :

القرآن الكريم :

١.الأئمة الاثنا عشر (سيرة وتاريخ) : محمد حسن آل ياسين (ت ١٤٢٧ه)، ط١، منشورات الاجتهاد، قم – إيران، ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م.

٢.إثبات الوصية للإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) : أبو الحسن علي بن الحسن بن علي المسعودي الهذلي (ت ٣٤٦هـ)، ط١، دار الأندلس، النجف، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م.

٣.الاحتجاج : أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطَّبرسي (من علماء القرن السادس) : تحقيق : إبراهيم البهادري، ومحمد هادي، ط٣، دار الأسرة، إيران، ١٤٢٤هـ.

٤.الاستقلال الحضاري : محمد عمارة، دار الوحدة، بيروت، ١٩٨٦م.

٥.أعلام الهداية (الإمام علي بن محمد الهادي (عليه السلام)) : المجتمع العلمي لأهل البيت (عليهم السلام) : ط٢، مطبعة ليلى، قم – إيران، ١٤٢٥هـ.

٦.الأمالي (أمالي الطوسي) : الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، تحقيق : قسم الدراسات الإسلامية، ط١، نشر دار الثقافة، ١٤١٤ه.

٧.الإمام الهادي (عليه السلام) (أضواء من سيرته) : محمود السيف القطيفي، ط١، مطبعة طه، قم – إيران، ١٤٢٨ه – ٢٠٠٧م.

٨.بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: محمد باقر المجلسي (ت ١١١١هـ)، ط١، إحياء الكتب الإسلامية ، قم – إيران، ١٤٢٧هـ.

٩.تاج العروس من جواهر القاموس : محمد مرتضى الحسيني الزبيدي (ت ١٢٠٥ه) : تحقيق الدكتور ضاحي عبد الباقي، مؤسسة الكويت للتقدم العلميّ، الكويت، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.

١٠.تاريخ بغداد أو مدينة السلام : أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغداديّ (ت ٤٦٣ه)، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م.

١١.تُحف العقول عن آل الرسول : أبو محمد الحسن بن عليّ بن شعبة الحرّاني، (من أعلام القرن الرابع الهجري)، ط٥، منشورات الأعلمي، بيروت – لبنان، ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م.

١٢.تكوين العقل العربي : محمد عابد الجابري، ط٥، مركز دراسات الوحدةِ العربية، بيروت – لبنان، ٢٠١٠م.

١٣.تهذيب اللغة : أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت ٣٧٠هـ)، إشراف محمد عوض مرعب، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ٢٠٠١م.

١٤.التوحيد : أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القُمّي (الصدوق) : (ت ٣٨١ه)، نشر وتحقيق : مؤسسة النشر الإسلامي، قم المقدسة، ط٨، ١٤٢٣هـ.

١٥.حياة الإمام عليّ الهادي (عليه السلام) (دراسة وتحليل) : باقر شريف القرشي (ت ١٤٣٣هـ)، تحقيق : مهدي باقر القرشي، ط١٠، مؤسسة الإمام الحسن لإحياء تراث أهل البيت (عليهم السلام)، مطبعة الوردي، النجف – العراق، ١٤٣٤هـ – ٢٠١٣م.

١٦.دور الأئمة في الحياة الإسلامية : محمد اليعقوبي، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م.

١٧.رجال الطوسي : أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠ه)، تحقيق : جواد القيومي الأصفهاني، ط٤، مؤسسة النشر الإسلامي، قم – إيران، ١٤٢٨هـ.

١٨.رجال الكشّي : الكِشّيّ، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، (د . ت).

١٩.سفينة البحار ومدينة الحِكَم والآثار : عباس بن محمد بن رضا أبو القاسم القُمّي (ت ١٣٥٩هـ)، ط٤، دار الأسوة، إيران، ١٤٢٧ه.

٢٠.شرح الزيارة الجامعة الكبيرة : أحمد بن زين الدين الإحسائي (ت ١٤٢١ه)، ط١، مكتبة العذراء، بيروت، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

٢١.العين : الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ)، تحقيق مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، ط١، مطبعة باقري، قم – إيران، ١٤١٤هـ.

٢٢.كشف الغمّة في معرفة الأئمة : أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي (ت ٦٩٢هـ)، تحقيق : عليّ الفاضلي، مطبعة ليلى، إيران، ١٤٢٦هـ.

٢٣.مروج الذهب ومعادن الجوهر : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت ٣٤٦هـ)، ط١، دار القارئ، ١٤٢٦هـ– ٢٠٠٥م.

٢٤.مسند الإمام الهادي (عليه السلام) : جمعه ورتّبه عزيز الله العطارديّ، ط٢، دار الصفوة، بيروت – لبنان، ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م.

٢٥.معجم مقاييس اللغة : أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥هـ)، ترتيب : إبراهيم شمس الدين، ط٤، شركة الأعلمي، بيروت – لبنان، ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م.

٢٦.مفاتيح الجنان : عباس بن محمد رضا أبو القاسم القُمّي (ت ١٣٥٩هـ)، ط٤، دار الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، بيروت، ١٤٠٢هـ – ٢٠٠١م.

٢٧.مناقب آل أبي طالب : أبو جعفر محمد بن علي بن شهر آشوب المازندراني (ت ٥٨٨هـ)، تحقيق : يوسف البقاعي، ط٢، مطبعة سليما تراده، إيران، ١٤٢٧هـ.

٢٨.منتهى الآمال في تواريخ النبي والآل، عباس بن محمد رضا أبو القاسم القمّي (ت ١٣٥٩هـ)، ط١، مطبوعات دار الأندلس، بيروت – لبنان، ٢٠٠٥م.

٢٩.مَنْ لا يحضره الفقيه : أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القُمّي (الصدوق) (ت ٣٨١هـ)، ط١،مؤسسة الأعلمي للمطبوعات،١٤٢٦هـ–٢٠٠٥م.

٣٠.مُهج الدعوات : رَضي الدين أبو القاسم علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن طاووس الحسني الحسيني (ت ٦٦٤هـ)، ط١، منشورات الفجر، بيروت – لبنان، ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م.

٣١.موسوعة المصطفى صلى الله عليه وآله والعترة (الهادي عليّ (عليه السلام)) : حسين الشاكري (ت ١٤٣٠هـ)، ط١، مطبعة ستارة، قم – إيران، ١٤١٩هـ.

٣٢.هرطقات عن العلمانية كإشكالية إسلامية – إسلامية : جورج طرابيشي، ط١، دار الساقي، بيروت – لبنان، ٢٠٠٨م.

٣٣.وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (ت ٦٨١ه)، دار صادر، بيروت – لبنان، ١٩٧٠م.

المجلات والدوريات :

٣٤.الجابري واللامعقول الشيعي : إدريس هاني، مجلة المنهاج، العدد (٨)، بيروت – لبنان، ١٤١٨ه – ١٩٩٧م.

كلامُ أهلِ البيتِ عليهم السلام شاهداً لغوياً وبلاغياً
معجمُ الطرازِ الأوّل
لابن معصومٍ المدني ١١٢٠هـ اختياراً

Ahlalbayt Speeches : Eloquent and Linguistic Evidence
(Al-Taraz Al-Awal Dictionary of Ibn Ma`asum Al-Madani(1120) as a Nonpareil)

أ.م. د.كريمة نوماس المدني

جامعة كربلاء/ كلية التربية للعلوم الإنسانية/ قسم اللغة العربية

Asst. Prof. Dr. kareema N. Al.Madani

Dpartment of Arabic

College of Education for Human Sceinces

Karbala University

م. د. محمد نوري الموسوي

جامعة بابل/ كلية التربية للعلوم الإنسانية/ قسم اللغة العربية

Lecturar. Dr. Muhammad N. Al.Musawi

Dpartment of Arabic

College of Education for Human Sceinces

Babil University

ملخص بحث :

الحمد لله على ما أنعم، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد سيدنا ونبينا وعلى آله الطيبين الطاهرين..

يمثل كلام الائمة المعصومين (عليهم السلام) الوسيط الحامل للمعرفة الثقافية التي يستدلبها المبدع في تقديم نصوصه الابداعية للقارئ كونه يعد أحدث لاثر كائز في منظومتنا الدينية والخلقية والعلمية بعد كلام الله المقدس والسنة الشريفة،لذا يجتهد هذا البحث في دراسة كلام أهل البيت (عليهم السلام) في كتاب الطراز الاول للسيد ابن معصوم المدني، وقد شكلت هذه الاقوال المقدسة معلم اثريا كان لها الاثر البارز في إنتاج الدلالة وإضفاء الحيوية والقيمة التفاعلية وإكساب المعنى عمقا وتحفيز المتلقي على التفاعل المعرفي مما يجعلها أكثر حضورا وفاعلية في نفوس المتلقين ، واستلهم السيد ابن معصوم في كتابه المذكور هذه الاقوال المقدسة ومزجها في بنية نصوصه فأغنت النص دلاليا بانفتاحه على العالم العلوي .

وارتأينا أن ندرس هذه الاقوال في ضوء المنهج الوصفي التحليلي لبيان منزلة هذه الشواهد وقيمتها العلمية في كتاب الطراز الاول للسيد ابن معصوم المدني (رحمه الله تعالى) ،فاحتوت الدراسة على مدخل للتعريف بشخصية السيد علي خان بن معصوم المدني ونبذة عن حياته ومؤلفاته ومنزلته العلمية، ومن ثم التعريف بكتاب الطراز وبيان قيمته الادبية واللغوية، وتبعا لمدخل مبحثان الاول خص توظيف كلام اهل البيت عليهم السلام في الدرس اللغوي، اما الثاني فخص توظيف كلام اهل البيت عليهم السلام في الدرس البلاغي، ثم ختمت الدراسة بأهم نتائج التي توصل اليها.

Abstract
Thanks be to Allah for His Blesses and peace be upon the best of His creatures the prophet Mohammed and his benevolent and immaculate

The Ahlalbayt speeches are considered as a message of the cultural knowledge the creative mind employs , after the Glorious Quran and the traditions, in the religious fields . However the Traz Al-Awal of Bin Ma`asum Al-Madani delves into such angles . As a consequence, it is of necessity to explicate such sayings in light of the analytic descriptive methodology , there are an introduction, his life, achievements, ,the scientific niche and a conclusion.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ ، وصلى اللهُ على محمدٍ وآلِهِ الطيبينَ الطاهرينَ ، وأصحابِه الغرِّ المنتجبينَ وبعدُ:

فإنّ كلامَ أهلِ البيتِ عليهم السلامُ دونَ كلامِ الخالقِ ، وفوقَ كلامِ المخلوقِ – كما قيل – لذا كان من الطبيعيّ أنْ نجدَ تراثَنا العربيَّ مليئا بكلامِهم ؛ لأنّ كلامَهم في أعلى درجاتِ الفصاحةِ و البلاغة ، وقد عزمْنا على تتبّعِ كلامِهم في المعجماتِ اللغويةِ لنتبينَ مدى إفادةِ أصحابِ المعاجمِ من هذا التراثِ ، وقد لفتَ انتباهَنا وجودُ معجم كبير لعالم جليل قد أكثر من الاستشهادِ بكلامِ أهلِ البيتِ عليهم السلامُ هو كتابُ الطرازُ الأولُ للسيد ابنِ معصومٍ المدنيّ (ت١١٢٠هـ) ، فقد خصّص السيدُ ابنُ معصومٍ المدنيّ فِقْرةً خاصةً للحديثِ عن معاني أحاديثِهم سلام الله عليهم ، فضلا عن أنّه كتابٌ طُبع مؤخرا ولم يحظَ بالدراسة .

وقد قُسّم البحثُ على توطئة ومحورين تسبقهما مقدمة ، وتتبعهما خاتمة ، أما التوطئة فقد عرّفنا فيها بابنِ معصومٍ المدني وبكتابِه الطرازِ الأوّل ، وأما المحورانِ ، فقد تناولَ الأول منهما الاستشهادَ اللغويّ وقسمناه على ما ورد من شواهد في الصرف ، وما ورد من شواهد في النحو وقد ذكرناها على الموضوعات الصرفية والنحوية مرتبة على حروف المعجم ، وتناول المحور الآخرُ الاستشهادَ البلاغيّ وقسّمناه على شواهد التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز . وخَلُصَ البحثُ إلى نتائجَ تكفّلتْ الخاتمةُ ببيانِها .

وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربّ العالمينَ وصلى اللهُ على محمدٍ وآلِه الطيبينَ الطاهرينَ .

توطئة

تعريف بابن معصوم المدني وكتابه الطراز :

هو علي صدر الدين بن أحمد نظام الدين بن محمد بن معصوم المدني الملقب بـ علي خان، وابن معصوم المدني[١]

ولد سنة (١٠٥٢هـ) في المدينة المنورة،ليلة السبت الخامس عشر من جمادى الأولى سنة ١٠٥٢هـ[٢]، ويؤكد ذلك انتسابه إليها وكذلك اعتزازه بها وحنينه اليها في أكثر من قصيدة من ديوانه، وكانت ولادته قبل هجرة والده إلى الهند بسنتين[٣]ونشأ وترعرع في مكة المكرمة، وقبل أن يتخطى سن الصبا سافر أبوه إلى حيدر آباد بطلب من السلطان عبد الله قطب شاه[٤]، وزوجه السلطان ابنته وأسند إليه تدابير أمور المملكة، وفي هذه الأثناء بقي ابن معصوم في رعاية والدته.ثم سافر إلى الهند بطلب من والده وفي هذا يقول: ((فلم تثن مراجعتنا له عزما، ولم تعن إلا تصحيحا وجزما، فأعاد الجواب بالطلب، وحث على أن يكون إليه المنقلب فلم نر بدا من الإجابة، كي لا يجيء الخطأ من باب الإصابة فأخذنا في أهبة السفر.... ثم فارقنا تلك

الأوطـان مفارقـة الأرواح للأبـدان))[٥].

، وقد وصل إليها سنة(١٠٦٦هـ)[٦]، وأقام بها في كنف والده وبها تخرج على عدد من علماء عصره[٧].

وعُـرف بـين أقرانـه بالفطنـة والـذكاء، والدليـل عـلى ذلـك كثـرة مؤلفاتـه العظيمـة والقيمـة، التـي ظلـت إلى يومنـا هـذا شـاهداً عـلى ذكائـه وعبقريتـه، وقـد قـال أحدهـم: ((فكنـت أشـاهد مـن حذقـه الغايـة التـي لا تـدرك، ومـن غرائـب صنائعـه المنزلـة التـي لا تـشرك))[٨]،وكان طيـب القلـب متسـامحا، تسـلّح بالعلـم وتزيـن بأخـلاق العلـماء وتواضعهـم ولم يتبجـح بعلمـه، ومـن أمثلـة ذلـك قولـه مخاطبـاً الفـيروز آبـادي: ((ومـا علـم أن للعجـب آفـة، والعاسـف طريقـه لا يأمـن المخافـة))[٩].

وقـد ألَّـف كتابـاً سـماه ((سـلوة الغريـب))[١٠] أو رحلـة ابـن معصـوم، ذكـر فيـه رحلتـه إلى بـلاد الهنـد التـي عـاش فيهـا مـدة طويلـة، وبعـد وفـاة والـده انتقـل إلى برهـان بـور، وبعدهـا أراد أن يحـج فسـافر إلى بيـت الله الحـرام، وذلـك سـنة(١١١٤هـ)[١١] وزار العتبـات المقدسـة في العـراق، وبعدهـا زار مشـهد الإمـام عليه السلام، وذهـب إلى أصفهـان، فدخلهـا سـنة (١١١٧هـ)، ثـم انتقـل إلى شـيراز فبقـي فيهـا إلى أن تـوفي سـنة (١١٢٠هـ) عـلى الأرجـح ودفـن فيهـا[١٢].

ومن آثاره:

١- أنوار الربيع في أنواع البديع.

٢- الحدائق الندية في شرح الفوائد الصمدية.

٣ـ سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر.

٤ـــ الطراز الأول فيما عليه من لغة العرب المعول.

كتابه الطراز الأول فيما عليه من لغة العرب المعول :

هـو معجـم لغـوي قيّـم اشـتغل ابـن معصـوم المـدني بتأليفـه إلى يـوم وفاتـه ولم يتمـه ،إذ وصـل فيـه إلى الصـاد المهملـة ، طبـع بتحقيـق مؤسسـة آل البيـت بعنـوان (الطـراز الأول والكنـاز فيـما عليـه مـن لغـة العـرب المعـول)ونـرى أن كلمـة (الكنـاز) قـد أقحمـت في العنـوان بدليـل أن ابـن معصـوم المـدني قـال في المقدمـة : ((وإذ مَـنَّ الله بإتمامـه وتطـوَّل سـميته الطـراز الأول ؛ إذ كان اول مصنـف جمـع هـذا الجمـع))[١٣] وكذلـك قـال في موضـع آخـر : ((هـذا آخـر الجـزء الأول مـن الطـراز الأول فيـما عليـه مـن لغـة العـرب المعـول الجامـع للصريـح منهـا والمـؤول المغنـي عـن كل مختـصر فيهـا ومطـول))[١٤] فالسـجع الـذي بنـي عليـه العنـوان يأبـى دخـول كلمـة (الكنـاز) وقـال السـيد عـلي الشهرسـتاني وهـو المشرف عـلى تحقيقـه : ((هـذا المعجـم الـذي سـمي بحـق الطـراز الأول في لغـة العـرب المعـول والمـؤول))[١٥] بعـد كل هـذا نعتقـد ان العنـوان الصحيـح (الطـراز الأول فيـما عليـه مـن لغـة العـرب المعـول). نعـم

ذكر المصنف في مواضع من كتابه في أواخر بعض أجزائه اسم طراز اللغة أو الطراز في اللغة أو الطراز الأول والكناز ، ولكن ما ذكرناه هو الصحيح وكذلك فإن المعول عليه في العنوان ما ورد في مقدمة المصنف التي نقلناه.

وقد انتصر مؤلفه فيه للجوهري صاحب الصحاح وغلّط الفيروزآبادي ، ذكر فيه كل ما يتعلق باللفظة وتميز السيد المصنف بمنهج لم يسبق إليه في معجمات اللغة العربية ؛ إذ كان يذكر المعاني اللغوية للفظة ، ومن ثم يفرد بابا لذكر الآيات التي وردت فيها ، وبعد ذلك يفرد بابا للأثر فيذكر ما ورد من شواهد على اللفظة من كلام النبي المختار ، وأهل بيته الأطهار ، فأكثر من الاستشهاد بكلامهم عليهم السلام وهذا ما لم يسبق إليه بهذا الترتيب ، فقد كان ابن معصوم المدني لغويّا فذّا، يعقد للأثر ليذكر فيه الأحاديث النبويّة، وكلام أئمّة أهل البيت المعصومين، أرباب الفصاحة والبلاغة ومنابع الحكمة، ولذلك احتج ابن معصوم المدني بكلام النبيّ والأئمّة المعصومين، وأكثر من كلمات وخطب أمير المؤمنين عليّ، والصحيفة السجادية للإمام عليّ بن الحسين ، كما أكثر من الاستشهاد بزيارات أهل البيت عليهم السلام وأدعيتهم.ولا سيما إذا عرفنا أن ابن معصوم المدني قد ألف كتابه الطراز بعد فراغه من شرح الصحيفة السجادية ، مما يعني أنّه كان مستحضرا عيون لغاتها وفصيح كلماتها، ولذلك أكثر من الاستشهاد بكلام الإمام السجاد عليه السلام في فصل الأثر.

وهذه أهمّ ميزة تُميز الطراز من غيره ، فضلا عن أخذه من كتب غريب الأثر، وعرضه للوجوه المحتملة في شرح الأحاديث بعبارة سلسلة مختصرة .

ولم يقتصر على ما ورد في كتب غريب الأثر وكتب اللغة، بل تتبع هو مصادر الحديث الإسلامية، وكان قد أولى الكتب الشيعية الإمامية عناية خاصة كالكافي ومن لا يحضره الفقيه وغيرهما.ومما يجدر ذكره أن ابن معصوم المدني كان يرى أن كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام في أعلى درجات الفصاحة والبلاغة ولا يجوز أن يحمل على الشذوذ ولا يرمى بالندور؛ لأن كلامهم عليهم السلام فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق ،وهذا ما صرح به بقوله : ((وتخريج كلام المعصوم عليه السلام على الشاذ النادر لا وجه له))[١٦].

أولا : المحور اللغوي

الشواهد الصرفية

التصغير:

التصغير له أوزان معروفة في كتب الصرفيين ، وقد ورد في الحديث تصغير لكلمة (عقرى) لم يسمع تصغيرها في غيره كما عبر بعض العلماء فيكون الحديث شاهدا صرفيا على تصغيرها يقول ابن معصوم المدني : (((سكّن الله عقيراك) كقصيرى بالتصغير قيل : هو اسم من عقر الدار ، أي أسكنك بيتك وسترك ، وقال الزمخشري (٥٣٨هـ) : كأنه تصغير عقرى من عقر كفرح إذا بقي مكانه لا يتقدم ولا يتأخر فزعا أو أسفا أو خجلا وأصله من عقرت به كضربت إذا أطلت حبسه ... قال القتبي : لم أسمع بعقيرى إلا في هذا الحديث)) [١٧] .

تناوب صيغ الزوائد:

من الزوائد التي تدخل الكلمة لتؤدي غرضا معنويا ما يسمى بصيغ الزوائد ، ولكل صيغة معنى ، أو معان خاصة بها ، فإذا أراد المتكلم أن يوصل للسامع معنى معيناً فإنه يستعمل صيغة من هذه الصيغ كصيغة الأفتعال وغيرها ، وقد تتناوب هذه الصيغ في الدلالة على المعاني فتأتي (فعيل) بمعنى (مفعول) ، أو بالعكس ، ومنها كلمة (رأس) تأتي بمعنى (رئيس) ، وهذا ما ذكره ابن معصوم عند إيراده الحديث النبوي فقال : (((اتخذ الناس رؤوسا) جمع (رأس) بمعنى (رئيس) ويروى (رؤساء) جمع (رئيس))) [١٨] فناب وزن فعول عن فعلاء .

الجمع:

الجموع في اللغة العربية على قسمين جمع سلامة ، وجمع تكسير ، ولكل منهما شروط مذكورة في الكتب الصرفية ، وذكر ابن معصوم المدني رواية عن الإمام الصادق عليه السلام فيها جمع تكسير ، فذكره وخطّأ بعض اللغويين فقال : (((غرر أصحابك) جمع (غرة) أي : خيارهم ، وغرة كل شيء : خياره ، وقول بعضهم : هم جمع (أغر) ، وهو الكريم الأفعال والجمع (غرر) كصرد ، غلط قبيح فاحذره))[١٩]

فنرى أن ابن معصوم استشهد بكلام لأبي عبد الله الصادق عليه السلام وقد اختُلف في كلمة (غرر) فرأى السيد أنها جمع (غرة) وخطّأ من ذهب إلى أنها جمع (أغر) وهو الطريحي في مجمعه[٢٠] .

حذف حرف المضارعة:

حروف المضارعة : أحرف مخصوصة تزاد في بداية صيغة الماضي ، فتحولها إلى صيغة المضارع ، وهي أربعة يجمعها قولنا : (أنيت) . وتسمى الزوائد الأربعة [٢١] ، وذكر الصرفيون أنه إذا ما اجتمع فيه تاءان في أول المضارع ، يجوز حذف إحدى التاءين [٢٢] للتخفيف ، وهذا ما ذكره ابن معصوم المدني عند ذكره لقول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذ قال : (((إحدى يديه مثل ثدي المرأة تدردر) أي : يتدحرج ويضطرب ، وأصله تتدردر ، حذفت إحدى التاءين تخفيفا)) [٢٣] ، وإنما قال ابن معصوم " إحدى التاءين " لوجود خلاف بين النحويين في المحذوف من التاءين ، هل الأولى أو الثانية ؟ [٢٤] . وفي مادة (ضرر) ذكر ابن معصوم المدني قولا للرسول الأكرم فيه مضارع حذفت إحدى تاءيه فقال : (((لا تضارون في رؤيته) بفتح التاء ، وأصله (تتضارون) ، أي لا يخالف بعضكم بعضا بمنازعة ومجادلة فيها فيضره بذلك أو لا يحجب بعضكم بعضا عند رؤيته فيضره بذلك)) [٢٥].

حروف الزيادة:

تزاد على الكلمة بعض الحروف ، وهذه الزيادة إما أن تكون لغرض معنوي ، مثل زيادة الهمزة في أول الفعل الثلاثي المجرد لمعنى التعدية أو السلب أو الصيرورة وغيرها ، وإما أن تكون لأغراض أخرى كالتعويض عن محذوف ، ومدّ الصوت و الإلحاق وغيرها ، ومن أمثلة هذه الزيادات ما تحدث عنه ابن معصوم المدني ؛ إذ ذكر حديثا للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم فقال : (((أما أبو جهل فأخاف عليكِ قساسته العصا) ... وقيل : المراد قسقسته العصا ، أي : تحريكها فزاد الألف لئلا تتوالى الحركات)) [٢٦] ، فذكر أن الألف إنما زيدت في الكلام النبوي لغرض لفظي ، وهو الفصل بين الحركات المتتابعة ، ولكي لا تتوالى أربع حركات ؛ لأن العرب تكره توالي أربع حركات.

وتزاد الميم أيضا ، وهذا ما ورد في قول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم : (كقارص قمارص) ؛ إذ يرى ابن معصوم أن ميم (قمارص) زائدة ؛ إذ يقول : ((والقمارص تأكيد له وميمه زائدة)) [٢٧]

المصدر :

ذكر العلماء تعريفات للمصدر ، منها ما ذكره صاحب التعريفات إذ قال : " المصدر هو الاسم الذي اشتق منه الفعل وصدر عنه " [٢٨] ولكل فعل مصدر بحسب ضوابط وضعها الصرفيون مستعينين بالاستقراء ، وذكر ابن معصوم حديثا نبويا فيه مصدر ، وقال : (((فإذا قدمتم فالكَيسَ الكَيسَ) هما مصدرا (كاس المرأة كيسا) إذا جامعها ، وإنما حثّ على ذلك عند القدوم ؛ لأنه أحرى لعلوق النطفة ، وحصول الولد ؛ لبعد

عهد كلٍّ منهما عن الآخر ... ، ولم يتفطن لهذا المعنى أحد من شراح الحديث فتكلفوا في معناه بما لا يناسب المقام)) [٢٩] وقد راجعنا بعض شروح الحديث فلم نرهم يذكرون المعنى الذي ذكره السيد [٣٠]

المصدر الميمي:

المصدر الميمي هو المصدر المبدوء بميم زائدة ، ومنه ما ورد في الأثر (((حتى إذا طال مجلَسه) ، بفتح اللام مصدر ميمي أي جلوسه)) [٣١] فـ (مجلَس) مصدر ميمي للفعل (جلس) ، وهو ثلاثي على وزن فعل.

وزن الفعل :

للأفعال أبواب ستة ولكل باب علامات تميزها من غيرها من الأبواب ، وقد ورد في الحديث شاهد صرفيّ على أن الفعل (وقَر) هو من الباب الثاني (فتح كسر) يقول ابن معصوم المدني : (((فلما وقرت المال) حملته إلى البائع وهو شاهد لما حكاه الزمخشري من (وقره وقرا) كـ (وعد) بمعنى حمله ، فلله درّه ما أرسخ قدمه وأطول باعه في هذا الفن)) [٣٢].

الشواهد النحوية:

التضمين:

التضمين : إشراب لفظ معنى لفظ آخر ، فيعطى حكمه ، وفائدته أن تؤدي كلمة مؤدّى كلمتين [٣٣] ، ومنه قوله ﷺ : ((مَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبِيَّةٍ، أَو يُنْصُرُ عَصَبِيَّةً، أَوْيَدْعُو إِلَى عَصَبِيَّةٍ، فَقُتِلَ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا لَا يَنْحَاشُ مِنْ مُؤْمِنِهَا، وَلَايَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهدَهَا، فَلَيْسَ مِنِّي، وَلَسْتُ مِنْهُ)) [٣٤] ، وهذا الحديث أورده ابن معصوم المدني وشرحه ، وقال عنه : ((أي : لا يكترث له ، ولا يبالي به ، وعدّاه باللام ؛ لتضمينه معنى الاكتراث)) [٣٥] ؛ لأن الفعل (ينحاش) يتعدى بـ (عن) ، فلما رأيناه متعديا باللام عرفنا أنه تضمن معنى فعل آخر وهو (اكترث) الذي يتعدى باللام .

وقد ورد التضمين كذلك في كلام أمير البلاغة الإمام علي ﷺ كما نقل ذلك ابن معصوم المدني ؛ إذ قال : (((لأتيسنهم عن ذلك) أي ؛ لأبطلنّ قولهم ولأردنّهم عنه ... وتعديته بـ (عن) ؛ لتضمينه معنى الرد)) [٣٦]، فلما عدّى الفعل (لأتيسنهم) بالحرف (عن) عرفنا أن الفعل قد تضمن معنى فعل آخر ، وهو (رد) ؛ لأن هذا الفعل يتعدى بـ (عن) .

ومما ورد في كلام الإمام الحسن بن علي ﷺ شاهدا لغويا ما ذكره ابن معصوم بقوله : ((عن الحسن بن علي

عليه السلام : (أنه استنثر أنفه) قال المطرزي (٦١٧هـ) : لم يسمع باستنثر متعديا إلا في هذا الحديث ، وكأنه نُظر فيه الأصل ، أو ضمّن معنى نقّى فعُدّي تعديته)) [٣٧]

التوكيد:

وهو أحد التوابع في العربية ، وفائدته تقوية المؤكد وتمكينه في ذهن السامع ، وهو على نوعين توكيد لفظي ، ومعنوي [٣٨] ، وقد عدّ ابن معصوم المدني قول النبي الأكرم : (كقارص قمارص) من التوكيد اللفظي والميم زائدة [٣٩] .

الحال :

الحال وصف فضلة منصوب للدلالة على هيأة[٤٠] ، وقد ورد في حديث نبوي شبه جملة (جار ومجرور) أعربها ابن معصوم المدني في محل نصب حال ، فقال : (((مكبلا بالحديد بأزورة) ... وهو في محل نصب على الحال كأنه قيل : مكبلا مزورا)) [٤١] .

حذف حرف النداء:

للنداء أحرف مخصوصة منها حرف النداء (يا) ، وهذا الحرف أجاز النحويون حذفه إذا دل عليه دليل ، ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم فيما ذكر ابن معصوم المدني : (((أذهب البأس ربّ الناس) أي : الضر وشدة المرض يا رب الناس)) [٤٢] فحذف حرف النداء (يا) ؛ لأنها مفهومة من سياق الكلام ، أو لقربه من الله سبحانه لم يحتج لحرف النداء (يا) التي ينادى بها البعيد ، كما ذكر النحويون .

حذف المضاف:

ذكر ابن معصوم المدني أن المضاف قد حذف في حديث لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو جائز عند النحويين إذا دل دليل عليه يقول المدني : (((منهم الذي لا ذبر له) كـ (فلس) ، أي : لا قراءة له ، أو لا فهم له ، أو لا نطق له ، أو لا لسان له ينطق به من ضعفه ، على أن التقدير : لا ذا ذبر أي : لا لسان له ذا نطق فحذف المضاف وهو (ذو))) [٤٣].

عطف البيان :

ومنه ما ذكره ابن معصوم المدني ؛ إذ قال : (((أما أبو جهم فأخاف عليك قسقاسته العصا) القسقاسة : العصا بعينها فهي تفسير لها)) [٤٤] ، وقد عبر عن عطف البيان بمصطلح التفسير .

معاني الحروف :

لكل حرف من حروف المعاني في العربية معان كثيرة ، والذي يحدد المعنى المراد منه في الجملة ، هو السياق الذي يرد فيه هذا الحرف ، ومنه (حتى) ، فلها في العربية أكثر من معنى منها أنها تأتي بمعنى (إلا) ، ومثاله قول النبي الأكرم: ((كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه وينصرانه ويمجسانه)) ((أي : الخلقة والجبلة القابلة لمعرفته تعالى ، فإن الله تعالى قد هيأه بالعقل الذي ركزه فيه ، وبصحة الحواس والمشاعر لأن يعلم التوحيد ، ولم يجعل فيه مانعا يمنعه عن ذلك حتى يكون أبواه هما اللذان ينقلانه إلى دينهما فيصدانه عما فُطر عليه و (حتى) بمعنى (إلا) أو للغاية على تقدير : يولد على الفطرة ويستمر عليها حتى يكون)) [٤٥] فـ (حتى) جاءت في الحديث الشريف بمعنى (إلا) أو بمعنى (إلى أن) ، والذي جوّز هذا الاحتمال هو السياق الذي يقبل المعنيين .

ومن حروف المعاني الحرف (على) ، ويرد بمعان عدة منها أنه يأتي بمعنى الباء يقول ابن معصوم المدني عند ذكره حديثا نبويا شريفا : (((امكر لي ولا تمكر علي) أي : إلحقْ مكرك بأعدائي ، لا بي و(على) بمعنى الباء)) [٤٦] .

ومنها الحرف (أو) له معان عدة ، منها أنها تأتي للتقسيم ، و للشك وهذا ما ورد في حديث نبوي شريف ذكره ابن معصوم المدني ؛ إذ قال : (((من قاء أو قلس فليتوضأ) (أو) فيه للتقسيم أي : سواء كان هذا أو ذاك ، ويحتمل أن تكون للشك من الراوي في إحدى اللفظتين)) [٤٧] .

ومنها أيضا الحرف (من) ، فهي تأتي لمعان منها ، ابتداء الغاية يقول ابن معصوم عند حديثه على قول للنبي الأكرم ﷺ : (((لا يوطن المسجد للصلاة والذكر رجل إلا تبشبش الله به من حين يخرج من بيته كما يتبشبش أهل البيت بغائبهم إذا قدم عليهم) تبشبشه تعالى به مثل لارتضائه فعله ، ووقوعه الموقع الجميل عنده . و(من) لابتداء الغاية ، والمعنى أن التبشبش يبتدئ من بيته إلى أن يدخل المسجد ، فتُرك ذكر الانتهاء ؛ لأنه مفهوم ، أو تكرما عن ذكره ؛ لأن كرمه تعالى وإكرامه وتفضله لا انتهاء له)) [٤٨]

شواهد لهجية :

المعروف أن للغة العربية لهجات ، وقد ذكر ابن معصوم المدني لغات بعض الألفاظ الواردة في كلام الإمام علي ؛ إذ قال : (((وجبار القلوب على فِطراتها) ... والفِطرات جمع (فطرة) ككِسرة وكِسرات ، وفيها

وفي أمثالها ثلاث لغات : إسكان العين على الأصل ، وهي لغة تميم ، وكسرها إتباعا لحركة الفاء ، وهي لغة الحجاز ، وفتحها وهي لغة حكاها الأخفش وغيره ، وحملها قوم على أنها جمع (فطر) الذي هو جمع (فطرة) فهو جمع جمع)) [٤٩] .

ثانيا : المحور البلاغي:

في التشبيه :

استعان السيد ابن معصوم المدني (رحمه الله) بأقوال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم المأثورة وكلام أهل البيت عليهم السلام، في توصيل مادة كتابه اللغوي (الطراز)، لتوضيح فكرته ، وتقريبها إلى ذهن القارئ والسعي لتوضيح الفن البلاغي الذي يحاول تقريبه أو شرحه للمتلقي وتحبيبه إليه، وكان يستعين أيضاً بثقافته اللغوية والبلاغية ليصل إلى غايته.[٥٠]

فالأمثلة التي ذكرها في هذا الباب كثيرة ، فتراه يستشهد بأحاديث للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، أو أقوال أهل البيت عليهم السلام ليجعل منها مادته ودليله على الشاهد البلاغي الذي يستحضره فمن أمثلة ذلك، استشهاده في المادة اللغوية (عكس) إذ نراه يستحضرُ قولاً للرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الشيء قوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((اعكسوا أنفسكم عكس الخيل باللجم)).[٥١]ففسر قول الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم إذ قال : أي كفوها وردوها واردعوها عن شهواتها كما ترد الخيل باللجم

ونجدُ مثل هذه الإشارات والاستشهادات كثيرة في توضيح مادته اللغوية التي يذكرها، فمن ذلك أيضاً ، استشهاده بقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، : ((أن القلبَ يدثرُ كما يدثر السيف وجلاؤه ذكر الله)).[٥٢]

إذ نراه يدلل بقول الرسول الكريم ليجعل منه شاهداً بلاغياً في التشبيه، إذ يقول((شبّه ما يغشى القلب من الدين والقسوة بالصدأ الذي يغشى السيف فيغطي متنه)).[٥٣]

لقد جعل السيد ابن معصوم المدني من الأقوال المنقولة عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته المعصومين (عليهم السلام) مجالاً ليبسط آراءه البلاغية والنقدية، إذ كان يدرك هذا الفن وأهميته ، فمن ذلك أيضاً ما ورَدَ عنده في تشبيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الصائم الصابر بالطاعم الشاكر، ينقل ابن معصوم قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك : ((الطاعم الشاكرُ كالصائم الصابر)).[٥٤]

إذ نجده يفسِّر قول الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ويجعل منه شاهداً بلاغياً لتقريب المادة اللغوية التي تحدث عنها في باب (الشكر) إذ يقول : ((ذلك لانقسام الإيمان إلى الشكر والصبر كما جاء في الحديث، فإذا طعمَ العبدُ فذلك مما تحبه النفس وتؤثره، فإذا شكرت فقد أتت بنصف ما اقتضاه إيمانه وإذا جاءتْ فذلك مما تكرهه وتتأذى بَه، فإذا صبرتَ فقد أتت بالنصف الباقي ، وعلى هذا جميع أحوال العبد في السَّراء والضرِّاء .[٥٥]

وكان بتعليق السيد المدني (رحمه الله) على هذا الشاهد يدلّ على تعمقه وصلابة إيمانه واحتكامه إلى أقوال الرسول المصطفى ﷺ ليؤكد بذلك المضمون الديني الذي اتكأ عليه في الحكم على شاهده البلاغي في التشبيه.

وهكذا نجد ابن معصوم المدني يعد أقوال الرسول ﷺ شاهداً بلاغياً لما يأتي به من مواد لغوية متفق عليها في تثبيت القاعدة اللغوية ففي قوله ﷺ عن تشبيه البيوت التي تخلو من ذكر الله والصلاة بالمقابر، قوله ﷺ : ((لاتجعلوا بيوتكم مقابر))(٥٦)

إذ جاء به مستشهداً على خلوّ البيوت من الصلاة وذكر الله، فذكر لنا حديث الرسول هذا للدلالة على صحة المادة التي ذكرها وشاهدا بلاغيا في الوقت نفسه أي لاتجعلوها كالمقابر التي لايُصلى فيها، وأوردَ أيضاً حديثاً آخر للرسول ﷺ.

((اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً))(٥٧)

ونجد مثل هذه الاستشهادات كثيرة في باب التشبيه تنمُّ عن حقيقة ثقافته البلاغية واللغوية، ومن أمثلة ذلك أيضاً أورد حديثاً للرسول ﷺ في مادة (غور)، قوله ﷺ: ((شعبين بعيدي الغور))(٥٨)

إذا نجده يحلل قول الرسول ﷺ تحليلاً بلاغياً، فيذكر انه لا يدركه علمنا كالماء الغائر الذي لا يقدرُ عليه، أو كالبحر العميق الذي لاينتهي إلى قعرِهِ .(٥٩)

ونجد السيد ابن معصوم المدني في مواضع أُخر من كتابه الطراز الأول يستشهد بأقوال الإمام علي ﷺ ليتخذ منها حجة بلاغية للتدليل على صحة رأيه وإيصال فكرته البلاغية واللغوية.

فمن أمثلة ذلك ماورَدَ في تشبيه الشيطان بالصبي الذي ينشأُ في حجر والديه، إذ ينقلُ لنا حديثاً للإمام علي ﷺ في هذا الباب قوله ﷺ ((ودبَّ ودرجَ في حجورهم)) (٦٠)

فيوضح السيد ابن معصوم قول الإمام علي ﷺ بقوله: ((يعني الشيطان، شبهه بالصبيّ الذي ينشأ في جحر والديه بجامع الملازمة لهما، فيدُّبُ أول مشيه، أي يمشي رويداً ثم يدرجُ، أي يمشي الصاعد في الدرجة، ثم يقول هو كناية عن تربيتهم له كما يرُبي الوالدان الولد في جحورهما)) (٦١)

وهنا في هذا الشاهد نجد أن ابن معصوم المدني يجعل منه في بابين مرة يجعله شاهداً بلاغياً في التشبيه ، ومرة أخرى يعطي رأيه في الكناية، إذ يجعل منه شاهداً بلاغياً كنائياً.

ومن شواهده الأخرى ينقلُ لنا قولاً للإمام علي ﷺ، يبين فيه منزلته من منزلة الرسول المصطفى ﷺ إذ يورد لنا حديثه ﷺ في ذلك : ((وإني من أحمدَ بمنزلةِ الضوء من الضوء)) (٦٢)

إذ يذكر قوله ﷺ إيراداً لشاهد بلاغي لتوضيح مسألة لغوية ثم يذكر لنا الآراء التي قيلت بحق هذا الشاهد،

إذ يورد: ((قيل يُشير إلى أن كمالات نفسه المقدسة مقتبسة من كمالات نفس النبي صلى الله عليه وآله وسلم كشعلة مصباح اقتبست من شعلة مصباح على ماجرت به العادة والعُرف في تمثيل النفوس المقدسة والعلوم الإلهية)) (٦٣)

وأمثلة ذلك كثيرة في باب التشبيه، فمن أمثلة أخرى، ينقلُ لنا قولاللإمام علي عليه السلام في تشبيه حواميم السور بعرائس القرآن إذ يروي لنا قوله عليه السلام :

ما رواه عاصم بن زرّ بن حبيش، قال قرأتُ القرآن من أوله إلى آخره في مسجد الجامع بالكوفة على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فلما بلغت الحواميم قال لي عليه السلام ((بلغت عرائس القرآن)).(٦٤)

ثم نراه يستدرك قول الإمام علي عليه السلام فيقول تشبيهاً بالعروس التي تَكرّم وتعز على سائر الناس من أيام عرسها وإنما خُصت هذه السورة وسورة الرحمن بهذا التشبيه لما فيها من التذكير بالنعم السابقة على الثقلين. (٦٥)

في الاستعارة:

أما الاستعارة فقد وقفَ عندها ابن معصوم كثيراً دالاً على محاسنها وأنواعها، ومتخذاً من أحاديث السنة المطهرة وأقوال أهل البيت عليهم السلام حجة قاطعة على ذلك للتدليل على رأيه البلاغي وتقريب المادة اللغوية التي يذكرها وهو بهذا يجعل من أقوال الأئمة عليهم السلام دليلاً قاطعاً لتثبيت المادة اللغوية التي يستعرضها في معجمه (الطراز الأول) واستشهاده بهذه الأقوال المقدسة لإيضاح آرائه البلاغية والأمثلة كثيرة في هذا الباب، فنجده مثلاً في مادة (مجج) يذكر قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : ((مامزجَ امرؤٌ مزجة إلامجَّ من عقلِهِ مَجَّة)).(٦٦)

يرى ابن معصوم أن المجّ هو استعارة لطرح الإنسان ما يطرحه من عقلِهِ في مزاجهِ والمجة ، المَّرة من المج أُطلقت على الممجوج مفعوله بالمصدر، ثم يستشهد بآية قرآنية : ((فَقَبَضْتُ قَبْضَةً)) [طه/ ٩٦]، أي مجّ شيئاً من عقلِهِ ، وقبضتُ شيئاً من أثر الرسول .(٦٧)

فنجد ابن معصوم يجعل من حديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم شاهداً بلاغياً للإشارة إلى الفن البلاغي (الاستعارة) التي شرحها من قوله صلى الله عليه وآله وسلم ثمَ استشهد بآية كريمة ليثبت حجته وتفسيره مساندة مع قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

بل نجده في مواضع أُخر من كتابه (الطراز الأوّل) يبين نوع الاستعارة التي دلَّ بها على صحة كلامه من حديث يورده للرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهو قوله في ((مَنْ ولي القضاء فقد ذُبحَ بغير سكين)).(٦٨)

إذ يشرح قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ويبين أنه استعارة تبعية، إذ يصرِّح بقوله : ((استعار الذبح لهلاك الدين وهي استعارة تبعية قرينتها المجرور لأن الذبح الحقيقي لا يكون بغير السكين.

ثم وضح المعنى أكثر، فقال : فقد هلكَ هلاكاً لانجاةَ له منه، كما أن المذبوح لانجاة له من الموت، والغرض التحذير منه، والتوقي من حظره)).(٦٩)

ومن أمثلة الاستشهاد بأقوال أهل البيت المعصومين ﷺ في باب الاستعارة، يورد السيد معصوم قولاً للإمام علي ﷺ في ذكره لمادة (كبَسَ)، إذ روى حديثا للإمام ﷺ((كبس الأرض على مور أمواج مُسْتفحلة)).(٧٠)

فيحلل قول الإمام علي ﷺ ليوضح منه رأيه البلاغي إذ يقول: ((اي أدخلها في الماء بقوة واعتماد شديد أو أغاضها فيه بقوة وهو استعارة لجعلِهِ لها غائضاً معظمها في الماء كما يخوض بعض الأزقّ المنفوخ ونحوه بالاعتماد عليه)).(٧١)

وأمثلة هذا الباب كثيرة، فمن ذلك أيضاً ينقلُ لنا أيضاً قولاً للإمام ﷺ في شرح مادة (ضمر)، قوله ﷺ: ((اليوم مضمارٌ وغدا السباق)).(٧٢)يفسّر السيد ابن معصوم المدني قول الأمام ﷺ على انه استعارة من مضمار الخيل، هو موضع تضميرها أو مدته، أي اليوم العمل في الدنيا للاستباق غداً إلى الجنة، بل نراه في المشاهد نفسها يعززه بقول آخر للإمام ﷺ ليقوي مادته اللغوية وتوثيق رأيه البلاغي، فيذكر لنا في نفس الموضع، وقريب من هذا المثال أيضاً قوله ﷺ : ((الولايات مضامير الرجال)).(٧٣)

وفي هذا المثال يفسّر قول الإمام ﷺ تفسيراً يجمع فيه بين اللغة والبلاغة، فيقول : هو جمع مضمار وهو هنا بمعنى المسافة التي تجري فيها الخيل للسباق .فيعرف بها السابق من المقصّر، استعار لفظها للولايات باعتبار أنها تتميز بها الولاة فيظهر إحسان المحسن وإساءة المسيء.(٧٤)

ومن الشواهد الأخرى التي يوردها لنا لتثبيت رأيه البلاغي ، يورد أيضاً قولاللإمام ﷺ في مادة (نغب) قوله ﷺ: ((وجرَّعتموني نُغَبَالتُهمامأنفاساً)).(٧٥)

فنراه يوضح معنى المادة اللغوية (نغب)، إذ يقول أن معناها: الجرعة، ثم نراه يشير أن قوله ﷺ هو استعارة بليغة بمعنى ((أي أوردتم عليَّ الهموم وقتاً فوقتاً وهو من بليغ الاستعارة)).(٧٦)

في الكناية:

ولم يختلف ابن معصوم المدني في باب الكناية عن غيرها من الأبواب البلاغية التي تقدمت أيضاً فنجده يجعل من السنة المطهرة وأقوال أهل البيت (عليهم السلام) شاهداً لغوياً وبلاغياً لتثبيت حجته ورأيه اللغوي والبلاغي، فهو يمتلك حساً بلاغياً فضلاً عن امتلاكه حساً لغوياً.

ومن الأمثلة التي أوردها في باب الكناية، أحاديث مأثورة عن الرسول الكريم ﷺ قوله: ((بُعثتإليالأحمروالأسود)).(٧٧)

فنجده يبين قول الرسول ﷺ بأنه كناية من غير أن يصرّح بذلك، إذ يقول: أي العرب والعجم أو الجن والأنس ،لان الجن مخلوقون من النار الحمراء، والأنس من التراب الأسود.(٧٨)

ويورد أيضاً قولاً للرسول ﷺ في مادة (خصَرَ) قوله ﷺ ((وأمدَّهُ خواصر)).(٧٩)ففسَّر قول الرسول ﷺ:

جمع خاصرة ومدّها هو كناية عن امتلائها.[٨٠]

ومن الشواهد البلاغية الأخرى التي أوردها ابن معصوم المدني في باب الكناية أيضاً، قول للرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم :((ليس مثلَ الحصِرِ العقِصُ)).[٨١]إذ يشير ابن معصوم إلى مايتضمنه قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بأنه:أي البخيل الملتوي الأخلاق، ويعني عبد الله بن الزبير، الذي يُصلي ورأسه معقوص كالذي يصلي وهو مكتوف اليدين معقوص الرأس إذا سجد لم يسقط شعره على الأرض كالمكتوف الذي لاتصل يداه إلى الأرض عند السجود بخلاف المنتشر شعره فانه يسقط على الأرض فيشاب عليه.[٨٢]

ومن الأمثلة والشواهد الكنائية الأخرى التي أوردها السيد ابن معصوم المدني، قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الكناية عن اكتناز الأقوال ((أشحةٌ بجَرَةٌ)).[٨٣]

فيفسر المادة اللغوية التي أوردها إذ يقول: جمع باجر ككفرة وكافر وهو العظيم البطن، ثم يستشهد بالحديث الشريف لغاية أخرى هي الكناية ، فيضيف قائلاً وهو كناية عن كنزهم الأموال واقتنائهم لها وعدم التمتع بها.[٨٤]

ومن أقوالالإمام علي عليه السلام في هذا الباب، ينقل ابن معصوم قوله عليه السلام، لشُريح، إذ يقول له : ((ما تقول أنت أيها العبدُ الأبظر)).[٨٥]

فتراه يفسّر قول الإمام عليه السلام، ((وجعله عبداً لأنه وقع عليه سباء في الجاهلية ، وقيل الأبظر الصخّاب الطويل اللسان.[٨٦]

ومن الشواهد الأخرى التي يتخذ فيها السيد المدني حجة لغوية وبلاغية قول الإمام علي عليه السلام : ((رُمينا بكل جائحةٍ)).[٨٧]

فنجده يبين قول الإمام عليه السلام، بقوله، والجائحة المصيبة والعظيمة في المال تهلكه وتستأصله كله، وكل آفة مهلكة وفتنة مبيرة فهي جائحة.[٨٨]

ويورد لنا ابن معصوم في باب الكناية، قولاً يُنسبُ إلى الإمام الحسن بن علي عليه السلام إذ قال : ((إنه استنثر أنفه)).[٨٩]فيحلل قول الإمام عليه السلام ، بأنه الواسعة الإحليل كأنها تنثر الدرّ نثراً.[٩٠]، ويورد قولاً آخر للإمام الحسن عليه السلام في اليهود، قوله عليه السلام ((اليهود أنتنُ الناس عَذِرة)).[٩١]

ومن الشواهد البلاغية التي يوردها ابن معصوم أيضاً قول الإمام جعفر الصادق عليه السلام : ((نمرةٌ هي بظَنُ عرنَة بحيال الإدراك)).[٩٢]

ومن أقوال أخرى يوردها السيد المدني في باب الكناية قول للإمام الصادق عليه السلام أيضاً في أهمية الصدقة وفضيلتها قوله عليه السلام: ((الصدقةُ أنداءُ كبدٍ حَرّى)).[٩٣]

إذ يفسَّر قول الإمام الصادق عليه السلام تفسيراً يجعل منه شاهداً وحجة دامغة لتثبيت الرأي اللغوي الذي جاء به، وحجة بلاغته قوية لتأكد ثقافية البلاغية، إذ نراه يتخذُ من قول الإمام عليه السلام حجة قوية للتدليل على صحة رأيه فيُذكر لنا ((قيل إي في سقي كلِّ ذي كبدٍ عطشى أخر! لان العطش يوجب حرارة الكبد، والظاهر أن المراد بذلك إعانة كل لهيف فانه حرارة الكبد كناية عن اللهف والكرب كما يدل عليه قول الإمام الصادق عليه السلام.(٩٤)

فنرى ابن معصوم المدني يورد صوراً بلاغية جميلة بأقوال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته المعصومين ويستعين بهم لتثبيت آرائه اللغوية والبلاغية .

في المجاز:

وفي باب المجاز، نجد أن السيد ابن معصوم المدني قد استعان بأقوال الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته وكان يدعم مادته اللغوية ويقوى حجته البلاغية، ومرة يوردها من غير تبيين ويكتفي بأنها في باب المجاز، وتارة أخرى نجده يفسر قول الأئمة الواردة.فمن أمثلة ذلك يورد لنا قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ((تلّون كتاب الله رطباً)).(٩٥)

فنجدَه يحلل قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ويعطي رأيين في هذا الحديث فيقول: ((أي لا شدة في أصواتهم، شبّه الصوت بالجسم الرطب بجامع اللين، فاستعير له هذا الوصف وأسند إليه الكتاب المتلوَّ به على سبيل المجاز في الإسناد مبالغة)).(٩٦)

ومن أمثلة ذلك أيضاً يستحضرُ قولاً للرسول صلى الله عليه وآله وسلم في مادة (كبس): ((إن أكيس الكيس التقى وأحمق الحمُقِ الفجور)).(٩٧)

ثم شرح قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: أن أعظم الكيس المتناهي في حدِّ ذاتهِ اتقاء محارم الله (تعالى) وهذا من باب (الإسناد المجازي) نحو: الجاهلية الجهلاء، والسوأة السواء والقصد من ذلك المبالغة والتنبيه على تناهيه، حيث جعل للكيس كيساً فصار منه كيساً وأكيس، والمراد بالكَيْسَ العقلُ لمقابلته بالحمق ، ... وجعل الفعل كيساً (مجاز عقلي) نحو مطاع الأمر.(٩٨)

ومن أمثلة ذلك أيضاً ينقل لنا حديثاً للرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن أم معبد، قوله صلى الله عليه وآله وسلم ((لايأس من طولٍ)).(٩٩)

فيشرح قول الرسول شرحاً بلاغياً ليتخذ منه حجة لغوية وشاهداً بلاغياً ، إذ قال: على فاعل بمعنى مفعول كماء دافق بمعنى مدفوق، أي لا ميؤوس منه من أجل طوله ومعناه أن مطاوله لاييأس أن يطاوله لإفراط طوله .(١٠٠)

ومنه أيضاً قوله صلى الله عليه وآله وسلم في مادة (فند)، إذ يورد لنا قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في هذه المادة اللغوية، ثم يتخذ منها حجة

قوية لتدعيم رأيه البلاغي في باب المجاز، قوله صلى الله عليه وآله وسلم : ((ما ينتظرُ أحدُكم إلا هرماً مفنداً)).[١٠١]

فيذكر لنا رأيه في هذا الحديث الشريف، إذ يقول: اسم فاعل من الإفناد أو التفنيد، أي موقعاً في الفند وهو الحرفُ وضعف الفعل، والرأي من الكبر، أو هو الأول، أي من باب الإسناد المجازي كـ (نهاره صائم).[١٠٢]

وفي هذا الباب أيضاً يستحضر قولاً للإمام علي عليه السلام، فينقل لنا حديثه: ((قوموا إلى نيرانكم التي أوقدتموها على ظهوركم فأطفئوها)).[١٠٣]

إذ يوضح قول الإمام عليه السلام ويبين أن فيه مسألتين بلاغيتين بعد أن يثبت حجته اللغوية به، فيبينَ: أن الذنوب اكتسبتموها وحملتموها فكفروها بالصلاة، وهو إما استعارة بتشبيه الذنوب بالنار في إهلاك الواقع فيها أو مجاز مرسل من باب تسمية الشيء باسم مايؤول إليه على القول بتجسيم الأعمال في النشأة الآخرة .[١٠٤]

ويروي في باب المجاز أيضاً قولاً للإمام الحسين عليه السلام إذ يستحضره في مادته اللغوية (قصر)،يرويه لنا الفرزدق إذ يقول: حكى الفرزدق، قال: دخلتُ على الحسين بن علي (عليهما السلام) فقال: مَنْ الرجل ؟ قلتُ: الفرزدق بن غالب، فقال عليه السلام ((هذا نسبٌ قصير))، فقلتُ: أنتَ أقصر مني نسباً أنت ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .[١٠٥]

ثم يشرح ابن معصوم المدني قول الإمام عليه السلام بقوله: معناه: من (المجاز) فلان قصير النسب، إذا كان قريباً من أبيه الذي شُهرَ به في الناس فيكتفي بذكره عن تجاوزه إلى غيره وإذا لم يكن الأب المشهور قريباً منه احتاج إلى تعداد آباء كثير حتى ينتهي إليه.[١٠٦]

الخاتمة:

رجّح البحث أن عنوان المعجم الذي ألفه السيد ابن معصوم المدني هو (الطراز الأول فيما عليه من لغة العرب المعول) وليس (الطراز الأول والكناز فيما عليه من لغة العرب المعول) بأدلة ذكرت في أثناء البحث.

امتاز منهج ابن معصوم المدني بتنوع مصادر الاستدلال والاستشهاد، فتوزعت بين الكتاب الحكيم، والأثر المتضمن للحديث النبوي الشريف ، وأحاديث أهل البيت عليهم السلام، وأقوال فصحاء العرب ، وكذلك الأمثال العربية.

انماز كتاب الطراز بالاستقراء الكامل للمادة اللغوية من حيث جوانبها الدلالية وبيان معانيها البلاغية، من التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز.

اتخذ السيد ابن معصوم المدني من أحاديث السنة النبوية الشريفة ،وكلام أهل البيت المعصومين وسيلة وشاهدا لغويا و بلاغيا لبيان المعاني والمفردات اللغوية التي استعرضها في كتابه الطراز الأول.

أكَّد ابن معصوم من طريق شواهده أن كلام النبي المختار ، وأهل بيته الأطهار لا يجوز أن يُحمل على الشذوذ ولا يُرمى بالندور ، فهم أرباب الفصاحة والبلاغة.

هدف ابن معصوم باستشهاده بكلام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والائمة الاطهار عليهم السلام وبخاصة في الجانب البلاغي الى توجيه المتلقي – من حيث يحسب اولا يحسب - دينيا واخلاقيا.

نجد ابن معصوم المدني قد جعل شاهده اللغوي والبلاغي من كلام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة المعصومين عليهم السلام حجة على المادة اللغوية التي ابتدأ بها.

أصَّل ابن معصوم المدني قضية مهمة وهي أن كلام المعصومين أولى بالاستشهاد وأحق بالتقديم على كلام العرب جميعا، ويجب أن ينظر إليه من بعد القران الكريم.

الهوامش

١-نظر: نزهة الجليس: ١/ ٣٢٠.

٢- هدية العارفين: ٥/ ٢٦٣، والذريعة: ٩/ ٧٥٤.

٣- ينظر سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر: ٢٧٢-٢٧٥.

٤- هو السلطان عبد الله قطب شاه السابع بن سلطان محمد قطب شاه السادس ملك حيدر آباد دكن الهند، وهو الذي زوج ابنته من والد الشاعر ابن معصوم، تولى الملك سنة ١٠٢٣هـ وتوفي سنة ١٠٨٣هـ. ينظر: أعيان الشيعة: ١٢/ ٨٧، وسلوة الغريب وأسوة الأديب: ٢٠٤.

٥- سلوة الغريب : ٣٧.

٦-ينظر: رحلة ابن معصوم:١٣٧.

٧-ينظر: رياض السالكين:١/ ٨.

٨- نفحة الريحانة: ٤/ ١٨٧.

٩- ينظر :الطراز الأول: المقدمة.

١٠-طبع بتحقيق شاكر هادي شكر في مجلة المورد: المجلد الثامن، العدد الثاني،١٩٧٩.

١١-ينظر: أعلام العرب: ٣/ ١٢٩

١٢-ينظر: في ترجمته : البدر الطالع: ١/ ٤٢٩،و نزهة الجليس: ١/ ٣٢٠، نفحة الريحانة: ٤/ ١٨٧،وأعلام العرب: ٣/ ١٢٩، ورياض السالكين:١/ ٦.

١٣- الطراز الأول : مقدمة المصنف : ١٠

١٤- الطراز الأول : ٦/ ٤٤٨

١٥- الطراز الأول : مقدمة المحقق : ٢٩٠ ، والعبارة ركيكة ولكن نقلناها كما هي .

١٦- رياض السالكين : ٤/ ٢٦٢

١٧- الطراز الأول : ٨/ ٤٤٠-٤٤١ (عقر)

١٨- الطراز الأول : ١١/ ٣٦ (رأس)

١٩- الطراز الأول : ٩/ ٣٠ (غرر)

٢٠- ينظر : مجمع البحرين : ٣/ ٤٢٢

٢١- ينظر : المفصل في صنعة الإعراب : ٣٢١.

٢٢- ينظر : شرح شافية ابن الحاجب : ٣/ ٢٩٠.

٢٣- الطراز الأول : ٨/ ٤٣٣ (درر)

٢٤- ينظر : الإنصاف في مسائل الخلاف : ٢/ ٤٦٢ (المسألة ٩٣)

٢٥- الطراز الأول : ٨/ ٢٨٨ (ضرر)

٢٦- الطراز الأول : ١١/ ١٦٨ (قسس)

٢٧- الطراز الأول : ١٢/ ٢٣٤(قرص)

٢٨- التعريفات : ٢١٦

٢٩- الطراز الأول : ١١/ ٢١١-٢١٢(كيس)

٣٠- ينظر : عمدة القاري : ٢٠/ ٢٢١

٣١- الطراز الأول : ١٠/ ٣٦١ (جلس)
٣٢- المرجع نفسه : ١٠/ ٤١(وقر)
٣٣- ينظر : معاني النحو : ٣/ ١١
٣٤- مسند أحمد : ١٣/ ٣٢٦
٣٥- الطراز الأول : ١١/ ٣٦٢ (حوش)
٣٦- المرجع نفسه : ١٠/ ٣٤٦-٣٤٧.(تيس)
٣٧- الطراز الأول : ٩/ ٣٠٥ (نثر)
٣٨- ينظر : معاني النحو : ٤/ ١١٢
٣٩- ينظر : الطراز الأول : ١٢/ ٢٣٤ (قرص)
٤٠- ينظر : حاشية الخضري : ١/ ٤٢٩
٤١- الطراز الأول : ٨ / ٦٢.(زور)
٤٢- المرجع نفسه : ١٠/ ٣١٧. (بأس)
٤٣- المرجع نفسه : ٨/ ٧ (ذبر)
٤٤- الطراز الأول : ١١/ ١٦٨ (قسس)
٤٥- المرجع نفسه : ٩/ ٩١(فطر)
٤٦- المرجع نفسه : ٩/ ٢٨٩ (مكر)
٤٧- المرجع نفسه : ١١/ ١٧٨ (قلس)
٤٨- المرجع نفسه : ١١/ ٣٢١ (بشش)
٤٩- الطراز الأول : ٩/ ٩٢-٩٣ (فطر)
٥٠- ينظر الفائق : ٣/ ١٩ ، والنهاية ٣:٢٨٤ .
٥١- ينظر: الطراز الأول ١١/ ١٢٤. (عكس)
٥٢-الفائق : ١/ ٤١.
٥٣- ينظر : الطراز الأول:٧ / ٤٢٦. (دثر)
٥٤-مسند أحمد : ٢/ ٢٨٣.
٥٥- ينظر: الطراز الأول :٨/ ١٩٩(شكر)
٥٦-مسند احمد : ٦/ ٦٥.
٥٧- المصدر نفسه
٥٨- النهاية : ٣/ ٣٩٣.
٥٩- الطراز الأول:٩ / ٥٧(غور)
٦٠- نهج البلاغة :١/ ٣٧ .
٦١- الطراز الأول: ٢/ ١١(دبب)
٦٢- نهج البلاغة : ١/ ٣٣.
٦٣- الطراز الأول : ١/ ١٠٨. (ضوأ)
٦٤-(٣) كنز العمال ٢/ ٣٥١، ٤٢٢.

٦٥-الطراز الأول: : ١١/ ١٠٨. (عرس)
٦٦- غرر الحكم ودرر الكلم :٦٩٢/ ١٦٥.
٦٧-الطراز الأول: ٤/ ٢١٠ (مجج)
٦٨-مسند أحمد:٢/ ٢٣٠
٦٩- ينظر الطراز الأول : ٤ / ٣٠٨(ذبح)
٧٠- نهج البلاغة :١/ ١٧٢.
٧١- ينظر: الطراز الأول:١١ / ١٩٤(كبس)
٧٢- كنز العمال:٣/ ٢٤٥، ٦٧٣.
٧٣- نهج البلاغة :٣/ ٢٥٨/ ٤٤١.
٧٤- ينظر: الطراز الأول: ٨/ ٢٩٨ (ضمر)
٧٥- نهج البلاغة :١/ ٦٦/ ٢٦.
٧٦- ينظر الطراز الأول: ٣/ ١٠٨ (نغب)
٧٧- الفائق : ١/ ٣١٧ .
٧٨- ينظر الطراز الأول:٧ / ٣٥٠(حمر)
٧٩- مسند أحمد :٤/ ١٨١.
٨٠- الطراز الأول :٧/ ٣٦٦(خصر)
٨١- الفائق :٢/ ٤٦.
٨٢- ينظر الطراز الأول: ١٢/ ٢١٠-٢١١ (عقص)
٨٣- الغريب: ١/ ٧٨، النهاية: ٢/ ١٣٨.
٨٤- ينظر: الطراز الأول : ٧/ ٥٨ (بجر)
٨٥- نهج البلاغة :٣/ ٢٢٨
٨٦-الطراز الأول : ٧/ ١٩٩ (بظر).
٨٧-نهج البلاغة: ٣/ ١٧٩/ ١٢٢.
٨٨- ينظر الطراز الأول: ٤/ ٢٨٩(جوج)
٨٩- الكافي : ٤/ ٢٤٧، وتهذيب الأحكام :٥/ ٤٥٦.
٩٠- ينظر الطراز الأول: ٩/ ٢٤٩ (مثر).
٩١-ينظر: الطراز الأول : ٤/ ١١٠/ ٣١٩. (غدر)
٩٢- الكافي :٤/ ٥٧/ ٢ ، وتهذيب الأحكام :٥/ ٤٥٦.
٩٣-((الطراز الأول: ٦/ ٢١٣ (الكبد)
٩٤- الكافي :٤ / ٥٧ / ٢.
٩٥- صحيح مسلم:١٠/ ٢/ ٧٤٢
٩٦- ينظر: الطراز الأول : ٢/ ٦٧.
٩٧- الكافي : ٨/ ١٨، وكشف الغمة : ٢/ ١٩٣.
٩٨- ينظر: الطراز الأول: ١١/ ٢١٢. (كيس)

٩٩-الفائق : ١/ ٩٥.
١٠٠- ينظر: الطراز الأول :١١/ ٣٠٤ (يأس)
١٠١- الفائق: ٣/ ١٤٤ ، والنهاية في غريب الحديث : ٣/ ٤٧٤.
١٠٢- الطراز الأول: ٦/ ١٠٥. (فند)
١٠٣- من لا يحضره الفقيه: ١/ ١٣٣-٦٢٤.
١٠٤- الطراز الأول:١/ ١٦٠ (طفأ)
١٠٥- الجليس الصالح الكافي: ١/ ٥٥٤.
١٠٦- ينظر: الطراز الأول: ٩/ ١٥٥ (قصر)

ا المصادر والمراجع

لقرآن الكريم
- أعيان الشيعة، محسن الأمين العاملي، تحقيق، حسن الأمين،ط٥، دار التعارف للمطبوعات، (٢٠٠٠م) .
ـ أعلام العرب في العلوم والفنون، عبد الصاحب الدجيلي، ط٢، مطبعة النعمان- النجف الأشرف، (١٩٦٥م).
ـ الإنصاف في مسائل الخلاف ، أبو البركات، كمال الدين الأنباري (٥٧٧هـ) ، المكتبة العصرية الطبعة: الأولى ، ٢٠٠٣م
ـ البدر الطالع لأعيان القرن التاسع، محمد بن علي الشوكاني(١٢٥٠هـ)، دار المعرفة- بيروت.
ـ التعريفات ، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (٨١٦هـ)، ضبطه وصححه جماعة من العلماء ، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان الطبعة: الأولى ١٩٨٣م.
ـ حاشية الخضري على شرح ابن عقيل ، محمد الخضري ، ضبط وتشكيل وتصحيح ، يوسف البقاعي ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت الطبعة الأولى،٢٠٠٦.
ـ الذريعة إلى تصانيف الشيعة، محمد حسن الطهراني ، ط٣، دار الأضواء – بيروت، (١٤٠٣هـ).
ـ رحلة ابن معصوم المدني، تحقيق، شاكر هادي شكر. مجلة المورد، المجلد ٨ عدد ٢ ، ١٩٧٩.
ـ رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين، ابن معصوم المدني (١١٢٠هـ)، تحقيق، مؤسسة النشر الإسلامي، ط١، إيران.
ـ سلافة العصر، ابن معصوم المدني، المكتبة الرضوية لإحياء الآثار الجعفرية، إيران.
ـ شرح شافية ابن الحاجب ، محمد بن الحسن الرضي الإستراباذي،(٦٨٦هـ)
حققه محمد نور الحسن وآخرون ، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان ، ١٩٧٥ م
ـ الطراز الأول فيما عليه من لغة العرب المعول ، ابن معصوم المدني (١١٢٠هـ) ، تحقيق : مؤسسة آل مؤسسة لإحياء التراث ، مشهد إيران ، مطبة الوفاء قم ، الطبعة الأولى ، ١٤٣٤هـ .
ـ عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العينى (٨٥٥هـ) ، دار إحياء التراث العربي – بيروت
ـ الفائق في غريب الحديث والأثر ، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (٥٣٨هـ) تحقيق: علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعرفة – لبنان ،الطبعة الثانية
ـ الكافي ، محمد بن يعقوب الكليني (٣٢٨هـ) ، دار الكتب الإسلامية ، طهران، الطبعة الثانية ، ١٣٦٢هـ.
ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ،علاء الدين المتقي الهندي (٩٧٥هـ) تحقيق: بكري حياني – صفوة السقا ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الخامسة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م
ـ مجمع البحرين ، فخر الدين الطريحي (١٠٨٥هـ) ، تحقيق السيد أحمد الحسيني ، المكتبة الرضوية لإحياء الآثار الجعفرية، ١٣٨٦ه).
ـ المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، مسلم بن الحجاج النيسابوري (٢٦١هـ) ،تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ،دار إحياء التراث العربي – بيروت
ـ مسند أحمد بن حنبل ، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (٢٤١هـ) ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م
ـ مشارق الأنوار على صحاح الآثار ، عياض اليحصبي السبتي(٥٤٤هـ) ، المكتبة العتيقة ودار التراث
ـ معاني النحو ، د. فاضل صالح السامرائي ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٣هـ .
ـ المفصل في صنعة الإعراب ، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (٥٣٨هـ) تحقيق: د. علي بو ملحم ، مكتبة الهلال – بيروت الطبعة: الأولى، ١٩٩٣
ـ من لا يحضره الفقيه ، محمد بن علي الصدوق (٣٨١هـ) تحقيق السيد حسن الخرسان ، دار الكتب الإسلامية ، طهران ، ١٣٩٠هـ.
ـ نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس، عباس الحسيني، مطبعة الحيدرية، النجف الأشرف ١٩٦٧.
ـ نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، محمد أمين بن محب الدين المحبي، تحقيق، عبد الفتاح محمد الحلو، مطبعه عيسى

البابي الحلبي ١٩٦٩
ـ النهاية في غريب الحديث والأثر ، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ) ، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحيالمكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م
ـ نهج البلاغة ، شرح محمد عبده ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة الاستقامة .
ـ هدية العارفين، إسماعيل باشا البغدادي (١٣٣٩هـ)، ط٣، المكتبة الإسلامية، طهران، ١٩٥١

تكامل الشخصية النبوية على لسان الإمام علي عليه السلام

Prophetic Personality Perfection at the Tongue of Imam Ali (PBUH)

أ.م.د.عباس علي الفحام
جامعة الكوفة / كلية التربية الاساسية
Asst. Prof. Dr. Abaas Ali AL-Fahham
University of Kufa / College of Basic Education

ملخص البحث:

يعنى هذا البحث بدراسة السيرة النبوية كما وصفها أمير المؤمنين علي عليه السلام وذلك بأربعة محاور ، هي : الزهد والتواضع ، والشجاعة والمعجزات النبوية ، وسيرة الرحيل ، وانتهى البحث إلى مجموعة من النتائج التي تبين النظر العلوي لشخصية الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولا جرم أن يستأنس البحث برؤية أمير المؤمنين عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلطالما وصف أهل البيت بأنهم (عيش العلم وموت الجهل).

Abstract:

The present paper focuses upon the prophetic chronicle as describesd by the prince of the believers Ali (Peace be upon him) via four axes; self-abgnation and condesence ,valour, prophectic miracles and valediction chronicle . The research study terminates at certain findinfgs manifesting the sublime insight of the commander of the believers , no harm as the research has recourse to the viewpoint of Imam Ali for the messenger of Allah as Ahalalbayt described as the life of science and the death of ignorance

المقدمة

الحمد لله الذي وفقنا في الكتابة عن أفضل خلقه صلى الله عليه وعلى آله ، فكان توظيف القلم خدمة لنبي الإنسانية وإظهار جوانب مشرقة من سيرته العطرة على لسان ابن عمه العظيم علي عليه السلام اعتمادا على الأثر الرائع المجموع فيه كلامه (نهج البلاغة) . ولا ريب في أن للسيرة مذاقا من الجمال آخر حين يكون راويها الرفيق الملازم وابن العم الصادق الأمين وليس عنعنة عن الآخرين . لذلك وقع عنوان البحث (الشخصية النبوية المتكاملة على لسان الإمام علي) وتضمنت خطة الدراسة تمهيدا عرض للقيم الفنية والموضوعية للسيرة العلوية . ودرس بعده جوهر البحث بعنوان(مظاهر الشخصية النبوية المتكاملة) وحددها البحث بأربعة مظاهر هي :

الأول: الزهد والتواضع

الثاني: الشجاعة

الثالث: من قصص المعجزات

الرابع : سيرة الرحيل

وانتهى البحث بجملة من النتائج التي لخصت جوهر الموضوع . ولا شك في أن جدة الموضوع من جهة ذكر الشخصية النبوية على اللسان العلوي، لذلك جرى توثيق النص العلوي من كتاب (نهج البلاغة) المحقق وبالاستعانة بعد ذلك بكثير من مصادر التاريخ والأدب، من أجل تجلية الحقائق والوقوف عند الغامض منها لشرحه وتبيانه . فالحمد لله أولا وآخرا على نعمة الكتابة والمشاركة – بإذن الله – في مؤتمرات علمية تخدم قضية الإنسان والإسلام معا ممثلين بنبي الإنسانية صلوات الله عليه وعلى آل بيته .

التمهيد

القيمة الفنية والموضوعية للسيرة المباركة

ليست بنا حاجة للاستشهاد بالتاريخ للقول بأن عليا عليه السلام ربيب النبي صلى الله عليه وآله وتابعه صغيرا وكبيرا، فذلك أمسى من نافلة الحديث، فعلي الذي لازم ابن عمه النبي لأكثر من ثلاثة وعشرين عاما – وهي المدة التي قضاها مع النبي حتى وفاته صلى الله عليه وآله- هو الأقدر على الإحاطة برسم الصورة الكاملة للرسول صلى الله عليه وآله، وتحت أي عنوان كانت، لذلك بدا الوضوح من أولى السمات الفنية لسيرة الرسول التي رسمتها كلمات الإمام عليه السلام ، والوضوح يعني من جهة عمق التأثير في السامع ، لأن الإمام في كلامه كله عن ابن عمه صلى الله عليه وآله إما مشارك معه في الحدث أو شاهد عليه، إنه لا يرويه عن أحد فتفقد الصورة بريقها ، فثمة فارق كبير بين أن تصور مشهدا بعين الآخرين ، وبين أن تصوره بتفاعل ذاتك مع الحدث كونك الشاهد فيه[1].

ومن هنا سنجد في طيات البحث أن وضوح المضمون لدى الإمام عليه السلام مكنه من الوقوف على أجزاء الصورة أحيانا ولملمة تفاصيلها أحيانا أخرى، بإلقاء الضوء على ذلك الجزء أو هذا بغية التركيز على معنى ما فيها. وما كان ذلك ليتم لولا الإحاطة الكاملة بالمشهد وتشرب المعنى ووضوحه ثم القدرة على تمثيله بصورة فنية، وهو ما أطلقنا عليه المؤثرات الفنية. وثاني تلك السمات الفنية لسيرة الرسول صلى الله عليه وآله على لسان ابن عمه عليه السلام هي مؤثرات التعبير الفني. ولا ريب في أن وضوح الفكرة أفضى إلى القدرة على التعبير عنها بمهارات فنية باستغلال طاقة اللغة البيانية والتصويرية والموسيقية، بعبارة ثانية إسباغ المؤثرات على التعبير وإكسابه مزية الفن ، وهو ما تجسد في كلام أمير المؤمنين عليه السلام عامة في نهج البلاغة الموثق لكلام الإمام علي عليه السلام، وفي موضوع الصورة النبوية خاصة في الصورة النبوية سنجد مؤثرات حركية وموسيقية وأخرى تتعلق باللون، وفي شكل آخر قد يعبر عن المعنى بلغة الحقيقة، إذ الصورة ليست حكرا على المجاز وحده[2]، بل هي إعادة صياغة الموقف بتعبير فني يتم بحسن استثمار طاقة اللغة[3] .

ولعل من المؤثرات الخفية على السامع هي الإتيان بالصورة النبوية لا لأجلها، بل ليتخذ منها شاهدا يعزز به رأيه عليه السلام أو يقوي به حجته ، فيقف عند الصورة طويلا وبعد أن يبلغ التأثير حده يرجع في الكلام إلى الغرض الذي رمى إليه ، والأمثلة على ذلك كثيرة، ولاسيما حين يكون الكلام في الموعظة والزهد، أو عن أحقيته بالنبي صلى الله عليه وآله .وأمثلة البحث ستتكفل- إن شاء الله تعالى- توضيح ذلك كله.

مظاهر تكامل الشخصية النبوية

أولا: الزهد والتواضع

رسم الإمام لزهد النبي صلى الله عليه وآله وتواضعه صورا مفصلة أبان فيها كمال الشخصية النبوية مثل قوله: ((وَ لَقَدْ كَانَ صلى الله عليه وآله يَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ، وَ يَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ وَ يَخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ، وَ يَرْقَعُ بِيَدِهِ ثَوْبَهُ وَ يَرْكَبُ الْحِمَارَ الْعَارِيَ، وَ يُرْدِفُ خَلْفَهُ، وَ يَكُونُ السِّتْرُ عَلَى بَابِ بَيْتِهِ فَتَكُونُ فِيهِ التَّصَاوِيرُ فَيَقُولُ، يَا فُلَانَةُ لِإِحْدَى أَزْوَاجِهِ غَيِّبِيهِ عَنِّي، فَإِنِّي إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا وَ زَخَارِفَهَا، فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ وَ أَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ، وَ أَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ، لِكَيْلَا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشاً وَ لَا يَعْتَقِدَهَا قَرَاراً، وَ لَا يَرْجُوَ فِيهَا مُقَاماً فَأَخْرَجَهَا مِنَ النَّفْسِ، وَ أَشْخَصَهَا عَنِ الْقَلْبِ وَ غَيَّبَهَا عَنِ الْبَصَرِ.))[٤]، وفي كلام الإمام ثمة مشهدان تصدر الأول التواضع والثاني أخذ صورة الزهد، وقد كانت الأساليب الكنائية عُدَّة الإمام في رسم صور التواضع، وهي كلها مرتبطة بعصرها إلى حد بعيد، فالجلوس على الأرض وخصف النعل وركوب الحمار العاري كنايات عن الزهد[٥] بمظاهر الحياة على الرغم من امتلاك مسببات رفاهيتها كون النبي قائد الأمة.

ومن سير تواضعه أنه ((جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه و آله فأصابته رعدة. فقال النبيّ صلى الله عليه و آله: هوّن عليك فإني لست بملك إنّما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد)) [٦].ففضلا عن هيبة النبوة وما يحيط بشخص النبي محمد صلى الله عليه وآله من هالة قدسية تكتنف النفوس وتدخل القلوب،فإن صورة الملك في ثقافة أبناء الجزيرة العربية بعيدة المنال ودماء الملوك في أعرافهم تختلف عن سواها من أبناء البشر، والنبي صلى الله عليه وآله عرف ذلك في نفس هذا الرجل إذ هو شأنه شأن الناس في أطراف الصحراء يسمعون بسلطان النبي صلى الله عليه وآله، وربما يتصورونه ملكا جبارا فيهابونه ، غير أنهم يصدمون حين يعاملهم بهذا الخلق المتواضع الغريب عن ثقافة الملوك ـ إذا صح الكلام ـ . فمن ذلك روي في حديث إسلام عدي بن حاتم الطائي وقدومه على النبيّ صلى الله عليه و آله، قال عدي: ((...فانطلق بي إلى بيته فوالله إنه لعامد بي إليه إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة، فاستوقفته، فوقف لها طويلا تكلمه في حاجتها. قال: فقلت في نفسي: والله ما هذا بملك. ثم مضى رسول الله حتى دخل بيته، فتناول وسادة من أدم محشوة ليفا، فقذفها إلي. فقال لي: اجلس على هذه. قال: قلت: لا بل أنت، فاجلس عليها. قال: لا بل أنت. فجلست، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأرض. قال: قلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك. ثم قال: إيه يا عدى بن حاتم، ألم تك ركوسيا[٧]؟ قال: قلت: بلى. قال: أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع؟ قال: قلت: بلى. قال: فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك. قال: قلت: أجل والله. وعرفت أنه نبي مرسل يعلم ما يجهل...)) [٨]. وعدي ينكر صفة الملك على النبي صلى الله عليه وآله بحسب مفهومه للملك من جهة السلطان وقهر العباد لأن مفهوم النبي وما فيه من معان

روحية جديد عليه ولا يمكن استيعابه إلا بالتعامل معه كما تحصل مع أخته التي نصحته بالذهاب إليه والنظر في الأمر عن كثب كما تذكر مصادر التاريخ، لذلك كان عدي بن حاتم بعد ذلك صادق الإيمان ومن كبار المتفانين في حب الإسلام الذي جسده بمواقفه مع الإمام علي عليه السلام وقتاله إلى جانبه في صفين ،واستشهاده مع الإمام الحسين عليه السلام بعد ذلك.

ويبدو أن هيأة العبد حين يجلس بين يدي سيده لافتة للانتباه في التطامن والتصاغر، وكان ذلك مدعاة للضعة والاحتقار في عرف المجتمع المؤمن بطبقية السيد والمسود، ولكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حاربها بأخلاقه وسيرته، ولهذا حفظ له التاريخ أنه يجلس جلسة العبد، وأنه يجيب دعوة العبد، وأنه ((يدعى إلى خبز الشعير والإهالة السنخة[٩] فيجيب)) [١٠].

وتلك صورة قديمة انقرضت في عصرنا الحاضر ولكن يمكن تصورها عند التكنية عن معاني الزهد والتواضع، ولاسيما عندما يكون الحديث عن النبي وابن عمه وعمق معرفتهما بجبار السموات والأرض. ولذلك قد تستنكر هذه الصفة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند من لا يعرفه، إذ روي أن امرأة بذيّة مرت على النبيّ صلى الله عليه و آله و كان جالسا جلسة العبيد، فاستنكرت عليه ذلك فقال صلى الله عليه وآله وسلم: ((وأيّ عبد أعبد منّي))[١١].

كان النبي مثالا حيا للتواضع علم الأجيال على مر تاريخها السابق واللاحق كيف يمكن للقيادي أن يجتذب الناس إليه بخلقه وتواضعه حتى قال الله تعالى فيه: ((وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)) [١٢]، لذلك التفت إلى دقائق الأمور في الأخلاق فنمّى الحسن منها وحارب السيء فيها ، فكان مما نهى عنه التيه في طريقة المشي واللباس فقال: ((إياكم وسبل الإزار فإنها من الخيلاء والخيلاء لا يحبها الله)) [١٣].

وورد في الخبر ((عن أبي أمامة، قال: بينما نحن مع النبيّ صلى الله عليه و آله إذ لحقنا عمرو بن زرارة الأنصاري في حلة إزار و رداء، و قد أسبل، فجعل النبيّ صلى الله عليه و آله يأخذ بحاشية ثوبه، و يتواضع للهّ عزّ و جلّ و يقول: اللهمّ عبدك و ابن عبدك و ابن أمتك، حتّى سمعها عمرو بن زرارة. فالتفت إلى النبيّ صلى الله عليه و آله فقال: يا رسول الله إنّي حمش الساقين. فقال النبيّ صلى الله عليه و آله: إنّ الله قد أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ. يا عمرو بن زرارة، إنّ الله لا يحبّ المسبلين))[١٤].ويبدو أن سبل الإزار بإطالته بحيث يجره الماشي وراءه أسلوب من أساليب الترف والتيه يحمل التشبه بمشية الطاووس، ومن هنا مورد الانتهاء عنه كونه مدعاة للتكبر والخيلاء.ولذا حاول الأنصاري نفي هذه الصفة عنه حين برر سبله إزاره بأن ساقيه دقيقتان وأراد بذلك ستر عيبهما(حمشهما).

ومن كنايات التواضع التي رسمها الإمام للنبي صلى الله عليه وآله وسلم من خلال الصور الحقيقية خصف النعل وترقيع الثوب مع امتلاك النبي صلى الله عليه وآله وسلم أسباب الحياة المترفة فقال: ((و يخصف بيده نعله و يرقع بيده ثوبه)) وتشديد

الإمام على لفظة (يده) لتأكيد شدة التواضع والزهد. وقد يكل تصليح نعليه صلى الله عليه وآله إلى علي عليه السلام، ولعل حديث خاصف النعل من الشهرة بمكان لا يخفى[١٥].

والحديث في ذلك مستفيض فمن ذلك يروى: ((أن النبي صلى الله عليه وآله قال يوم الحديبية لسهيل بن عمرو وقد سأله رد جماعة فروى أن النبي قال : يا معشر قريش لتنتهوا أو ليبعثن الله عليكم من يضرب رقابكم على الدين امتحن الله قلبه بالإيمان. قالوا: من هو يا رسول الله؟ قال : هو خاصف النعل. وكان أعطى عليا عليه السلام نعله يخصفها))[١٦] . ويروى مثل ذلك في مسند أحمد بن حنبل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ((إن منكم من يقاتل على تأويل هذا القرآن كما قاتلت على تنزيله فاستشرفنا وفينا أبو بكر وعمر فقال لا ولكنه خاصف النعل قال فجئنا نبشره قال وكأنه قد سمعه)).[١٧]ومن الجدير بالذكر أن خصف النعل وترقيع الثوب مما عرف به الإمام أيضا في سير التواضع والزهد، وليس ذاك بغريب، فقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يرفع لعلي في صغره كل يوم علما من أخلاقه ويأمره بالاقتداء به كما عبر علي عليه السلام . وقوله (يركب الحمار العاري ويردف خلفه) صفة قصد منها الإمام التواضع وفي الوقت نفسه ألمح إلى ما هو أبعد من ذلك، إذ إن هذه الصفة وردت في التوراة بحسب ما يذكر التاريخ[١٨].والرديف المقصود بقوله(ويردف خلفه) هو أسامة بن زيد[١٩].

أما صور الزهد فقد حرص فيها الإمام عليه السلام على إلقاء الضوء في لوحاته على جوانب العلاقة العميقة بينه وبين السماء بإظهار عناصر التخلي عن الدنيا واحتقارها.وإمعانا في رسم صورة النبي صلى الله عليه وآله وسلم المرتبطة بالسماء، استعمل الإمام عليه السلام أسلوب الإطناب في رسم الصورة الحقيقية مجسدا طبيعة علاقة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالدنيا فقال: ((وَ يَكُونُ السِّتْرُ عَلَى بَابِ بَيْتِهِ فَتَكُونُ فِيهِ التَّصَاوِيرُ فَيَقُولُ، يَا فُلَانَةُ لِإِحْدَى أَزْوَاجِهِ غَيِّبِيهِ عَنِّي، فَإِنِّي إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا وَ زَخَارِفَهَا، فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ وَ أَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ، وَ أَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ، لِكَيْلَا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشاً وَ لَا يَعْتَقِدَهَا قَرَاراً، وَ لَا يَرْجُوَ فِيهَا مُقَاماً)).ويبدو أن التصاوير يقصد بها الرسوم التي كان يضعها الملوك على أبواب قصورهم ومجالسهم ومتكآتهم حكاية لترفهم وطغيانهم وهو ما يتناقض مع صفاء النفس وانقطاعها إلى الله تعالى المتمثل بالنفس المقدسة بين جنبي النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم .وقول الإمام عليه السلام (يا فلانة) تأدب في الحديث عن أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وصون لحرمتهن.وقوله الأخير(فَأَخْرَجَهَا مِنَ النَّفْسِ، وَ أَشْخَصَهَا عَنِ الْقَلْبِ وَ غَيَّبَهَا عَنِ الْبَصَرِ) قدرة تصويرية فائقة باستعمال حروف التعدية في الأفعال(أخرجها،أشخصها،غيبها) وإقامة الجمل على توازن نغمي لافت، وإيحاء بعظمة الشخصية النبوية كون الإعراض عن مباهج الدنيا وزينتها صادراً عنه صلى الله عليه وآله عن إرادة كاملة وتهذيب منقطع النظير، وفي ذلك أيضا عبر أخلاقية خالدة للأمة التي تتوخى شخصية القيادة في المستقبل. والمراد أيضا((إعراضه عنها ظاهرا و باطنا، فبعض يمكن ألّا تكون الدّنيا متمكّنة من قلوبهم، لكن أوضاع

الدنيا لهم منبسطة، و هو غير مذموم، و بعض بالعكس و هو مذموم، و الأوّل كالغنيّ الزاهد، و الثاني كالفقير الحريص. و الممدوح إذهابها عن القلب و البصر، كما فعل صلى الله عليه و آله)) [٢٠] .

وقوله(و لا يرجو فيها مقاما) صورة من حديث النبيﷺ في قوله: ((ما لي و للدنيا، إنّما مثلي و مثلها كمثل الراكب رفعت له شجرة في يوم صائف فقال تحتها ثمّ راح و تركها)) [٢١].والفعل (قال) من القيلولة والاستراحة.وهو قول لطالما ردده في وصف النبيﷺ في هذا الشأن نحو: ((حقّر الدنيا و صغّرها، فأعرض عنها بقلبه، و أمات ذكرها عن نفسه)) [٢٢] وقوله: ((قبضت عنه أطرافها(الدنيا)و وطّئت لغيره أكنافها)) [٢٣].وقوله: ((عرضت عليه الدنيا فأبي أن يقبلها)) [٢٤]، وقوله: ((و لقد كان في رسول اللهﷺ ما يدّلك على مساوىء الدّنيا و عيوبها؛ إذ جاع فيها مع خاصّته، و زويت عنه زخارفها مع عظيم زلفته)) [٢٥].

ثانيا: الشجاعة

للشجاعة مفهوم عميق يتجاوز القوة البدنية، فثمة شجاعة في الموقف والرأي، وشجاعة في اتخاذ القرار والثبات عليه، وشجاعة في تحدي الشهوات والانحرافات، وشجاعة في الإقدام ونزع الخوف في الحروب وغيرها ، وهذه من صور الشجاعة كان فيها النبي الأعظم المثال الأعلى في كل ما ذكرنا من ضروبها ، لذلك رسم لنا الإمام عليه السلام في ذلك كله أروع صورها.فمن صور الشجاعة إيثاره تقديم أهل بيته للتضحية قبل أصحابه في الحروب والقتل وقد سجلها أمير المؤمنين في أروع تعبير فقال: ((وَ كَانَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ، وَ أَحْجَمَ النَّاسُ، قَدَّمَ أَهْلَ بَيْتِهِ، فَوَقَى بِهِمْ أَصْحَابَهُ حَرَّ السُّيُوفِ وَالْأَسِنَّةِ، فَقُتِلَ عُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَ قُتِلَ حَمْزَةُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَ قُتِلَ جَعْفَرٌ يَوْمَ مُؤْتَةَ، وَ أَرَادَ مَنْ لَوْ شِئْتُ ذَكَرْتُ اسْمَهُ، مِثْلَ الَّذِي أَرَادُوا مِنَ الشَّهَادَةِ، وَ لَكِنَّ آجَالَهُمْ عُجِّلَتْ وَ مَنِيَّتَهُ أُخِّرَتْ)) [٢٦].وهؤلاء الذين ضرب الإمام عليه السلام بهم المثل في الإيثار والتضحية أعزة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأحباؤه وليس مجرد أرحام، إنهم العم وأولاد العم[٢٧]، عبر عنهم بأهل بيته لشدة القرابة والمحبة، افتدى بهم أصحابه في الأزمات الحرجة التي فيها(أحجم الناس) وجعل فداءهم وقاية لأصحابه من القتل الذي كنى عنه بحر السيوف والأسنة تلميحا إلى هول المعركة وشدة الموقف،وقدم المتعلق(بهم) للتشديد على دلالة الوقاية والافتداء.

وتشير الفاء إلى عدم تماهل النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الشجاعة باتخاذ قرار الإيثار بأهل بيته.فهو لم يقدمهم للتمثيل ليرجعوا بعد ذلك، وإنما قدمهم ليقي بهم أصحابه من الموت، وجدير بالذكر أن هذا الموقف الشجاع نفسه تكرر بعد أكثر من خمسة عقود مع حفيده الإمام الحسين عليه السلام في واقعة كربلاء، إذ قدم للقتل أولا أهل بيته قبل أصحابه، مع فارق أن أصحاب الحسين عليه السلام كانوا موقنين بموتهم أيضا[٢٨]. والإمام علي عليه السلام أدرج نفسه في المجموعة الهاشمية الفدائية، غير أن أدب الخطاب وتواضعه حمله على أن يحيد عن ذكر اسمه صراحة فكنى عنه بتركيب لغوي جديد فقال(وأراد من لو شئت ذكرت اسمه مثل الذي أرادوا) يعني بذلك توقه إلى الشهادة في سبيل الله[٢٩].

ومن صور الشجاعة الإقدام وحمل النفس على القتال وجها لوجه مع العدو، وفي هذا، كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يجلس بعيدا عن جنوده، بل كان قائدا ميدانيا مقداما يحمل سيفه وعدته ويقاتل شأنه شأن مقاتليه، وتلك من صفاته النبوية المشهورة، فقد روي أن أحد الأحبار لما علم بغزو النبي صلى الله عليه وآله وسلم لبني قريضة اليهود حكى لكعب بن أسيد- وهو من كبار قومه - ما قرأ في التوراة عن شجاعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنه:((يضع سيفه على عاتقه، و لا يبالي من لاقى)) [٣٠].

و لّما أراد النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم قتل كعب في أسراء بني النضير ذكّره قول ذاك الحبر، فأقرّ به، و

لكن قال: ((قد كان ذلك يا محمد ! ولولا أن اليهود يعيروني أني جزعت عند القتل لآمنت بك وصدقتك، ولكني على دين اليهود، عليه أحيا وعليه أموت)) (٣١).

ولم نعدم نقل هذه الفضيلة للنبي في سيرته العلوية ، إذ جاء في وصف شجاعة الرسول الأعظمﷺ في ساعات الشدة قول الإمامعليه السلام: ((كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللهﷺ، فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ))(٣٢)،واتقاؤهم برسول الله كونه موطن الرحمة والأمل بالوعد بالنصر، ولاسيما أن هذا الكلام صدر عن رجل معروف بالشجاعة وافتداء النبيﷺ في أزمات الحروب وخذلان الأصحاب. وقد وضح ابن أبي الحديد كلام الإمام بقوله: ((و معنى ذلك انّه إذا عظم الخوف من العدو، و اشتد عضاض الحرب، فزع المسلمون إلى قتال رسول الله صلى الله عليه و آله، فينزل الله عليهم النصر به، و يأمنون مما كانوا يخافونه بمكانه)) (٣٣).

واستعمل الإمام اللغة غير المباشرة في رسم صورة المعركة فقوله عليه السّلام: إذا احمر البأس كناية عن اشتداد الأمر و الحرب، و قد قيل في ذلك أقوال أحسنها: إنّه عليه السّلام شبّه حمي الحرب بالنّار التي تجمع الحرارة و الحمرة بفعلها و لونها(٣٤).وهذا معنى ابتكر النبي تركيبهﷺ من قبل، حين رأى مجتلد الناس يوم حنين، و هي حرب هوازن فقال: ((الآن حمي الوطيس)) (٣٥) و الوطيس: مستوقد النار. فشبّه صلى الله عليه و آله و سلم ما استحر من جلاد القوم باحتدام النار، و شدّة التهابها.ومن ضروب الشجاعة التي ذكرها الإمام لمجاهدة النبي لأعداء الله تعالى قوله: ((فجاهد في الله المدبرين عنه، و العادلين به))(٣٦).وفي لفظة المجاهدة فضل من التعب والحركة والذوبان في ذات الله فضلا عن استعمال صيغة (فاعل) التي توحي بالمشاركة في قتال المدبرين عن قيم الله تعالى والعادلين به إلى غيره من عبادة الحجارة والأصنام .

وفي موضع أكثر تخصيصا قوله: ((فقاتل بمن أطاعه من عصاه)) (٣٧).

وقالعليه السلام في موضع آخر علم فيها الناس الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله : ((...اللهم داحي المدحوات ... اجعل شرائف صلواتك ، ونوامي بركاتك ، على محمد عبدك ورسولك . الخاتم لما سبق ... ، والمعلن الحق بالحق ، والدافع جيشات الأباطيل ، والدامغ صولات الأضاليل . كما حمل فاضطلع ، قائما بأمرك ، مستوفزا في مرضاتك ، غير ناكل عن قدم ، ولا واه في عزم)) (٣٨).فوصف النبيﷺ بأنه (دافع جيشات الأباطيل) والجيشات جمع جيشة ، من جاشت القدر إذا ارتفع غليانها . والأباطيل : جمع باطل على غير قياس ،وكلها صور استعارية أراد بها أنه((المهلك لما نجم وارتفع من الأباطيل))(٣٩). وقوله(الدامغ..) بمعنى المهلك ، وهي استعارة من (دمغ الشيء) إذا شجه شجا بلغ به الدماغ ، ومع ذلك يكون الهلاك(٤٠) . والصولات : جمع صولة وهي السطوة . والأضاليل : جمع ضلال على غير قياس . وقد بنى الإمام كلامه

على التوازن القائم على الأسلوب السجعي بغية التأثير في نفس السامع وتلك سمة ميزت كلامه دائما.وفي ذلك كله تصوير استعاري للأباطيل والأضاليل بصورة الوحش الذي برز شره ((كأنه الذي يضرب وسط الرأس فيدمغ)) [٤١].وتأكيد الإمام للدماغ دون غيره باعتبار مركز الحياة فيه، فضلا عن إذلاله بضربه على دماغه كونه أشرف أعضاء البدن.

وهذه الصورة مأخوذة من قوله تعالى: ((بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ))[٤٢].ويبدو أن الكاف في قوله(كما حمل) تفيد التعليل، أي لأجل حمل أعباء الرسالة الإلهية، والعرب ربما تستعمل هذه الكاف بمعنى التعليل[٤٣]، قال الشاعر[٤٤] :

فقلت له أبا الملحاء خذها كما أوسعتنا بغيا وعدوا

أي هذه الضربة لبغيك علينا ، وتعديك [٤٥].وقوله(فاضطلع)، أي نهض بها قويا ، من الضلاعة ، أي القوة ، ويقال: فلان مضطلع بحمله ، إذا كان قويا عليه، فجيء بالطاء للإيحاء بالشدة لأن أصل الفعل مزيد بالتاء(افتعل) وقلبت طاء لقرب مخارجهما كما يقال في صبر اصطبر.

ومما يلحظ على تعبيرات الإمام استقصاؤه في التقاط مزيد من الصور بأسلوب الإطناب، فقوله (مستوفزا) صورة حالية مكملة لما سبق ((أي غير بطئ ، بل يحث نفسه ويجهدها في رضا الله سبحانه)) [٤٦]. والوفز : العجلة ، والمستوفز المستعجل.ومنها قوله (غير ناكل عن قدم)، أي غير جبان ولا متأخر عن إقدام ، والقدم هو التقدم أو المتقدم. و يقال رجل قدم ، إذا كان شجاعا .وقول الإمام عليه السلام: (ولا واه في عزم) تعزيز للأولى . والواهي : الضعيف .وقريب منها قوله عليه السلام في موضع آخر: ((.. وَ جَاهَدَ فِي الله أَعْدَاءَهُ، غَيْرَ وَاهِنٍ وَ لَا مُعَذِّرٍ)) [٤٧] . و المعذّر بالتشديد: المقصر ((الذي يعتذر بلا عذر))[٤٨] . وهي من قوله تعالى: ((وَ جاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرابِ.)) [٤٩] .

ثالثا : من قصص المعجزات

ذكر الإمام للنبيﷺ حادثة قلع الشجرة وائتمارها بأمره في محاولة لإقناع قريش برسالته ﷺ، وذكرها بصفته شاهدا حاضرا في هذه المعجزة فقال: ((وَ لَقَدْ كُنْتُ مَعَهُ ص لَمَّا أَتَاهُ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالُوا لَهُ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ قَدِ ادَّعَيْتَ عَظِيماً، لَمْ يَدَّعِهِ آبَاؤُكَ وَ لَا أَحَدٌ مِنْ بَيْتِكَ، وَ نَحْنُ نَسْأَلُكَ أَمْراً إِنْ أَجَبْتَنَا إِلَيْهِ وَ أَرَيْتَنَا،عَلِمْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ وَ رَسُولٌ، وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ عَلِمْنَا أَنَّكَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ. فَقَالَ ﷺ: وَ مَا تَسْأَلُونَ. قَالُوا: تَدْعُو لَنَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ حَتَّى تَقْلِعَ بِعُرُوقِهَا، وَ تَقِفَ بَيْنَ يَدَيْكَ. فَقَالَ ﷺ: إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فَإِنْ فَعَلَ اللهُ لَكُمْ ذَلِكَ أَ تُؤْمِنُونَ وَ تَشْهَدُونَ بِالْحَقِّ. قَالُوا: نَعَمْ . قَالَ: فَإِنِّي سَأُرِيكُمْ مَا تَطْلُبُونَ، وَ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكُمْ لَا تَفِيئُونَ إِلَى خَيْرٍ. وَ أَنَّ فِيكُمْ مَنْ يُطْرَحُ فِي الْقَلِيبِ وَ مَنْ يُحَزِّبُ الْأَحْزَابَ. ثُمَّ قَالَ ﷺ: يَا أَيَّتُهَا الشَّجَرَةُ ،إِنْ كُنْتِ تُؤْمِنِينَ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ، وَ تَعْلَمِينَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ فَانْقَلِعِي بِعُرُوقِكِ، حَتَّى تَقِفِي بَيْنَ يَدَيَّ بِإِذْنِ اللهِ، وَ الَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَانْقَلَعَتْ بِعُرُوقِهَا، وَ جَاءَتْ وَ لَهَا دَوِيٌّ شَدِيدٌ، وَ قَصْفٌ كَقَصْفِ أَجْنِحَةِ الطَّيْرِ، حَتَّى وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مُرَفْرِفَةً وَ أَلْقَتْ بِغُصْنِهَا الْأَعْلَى عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَ بِبَعْضِ أَغْصَانِهَا عَلَى مَنْكِبِي وَكُنْتُ عَنْ يَمِينِهِ ﷺ. فَلَمَّا نَظَرَ الْقَوْمُ إِلَى ذَلِكَ قَالُوا عُلُوّاً وَ اسْتِكْبَاراً: فَمُرْهَا فَلْيَأْتِكَ نِصْفُهَا وَيَبْقَى نِصْفُهَا، فَأَمَرَهَا فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ نِصْفُهَا، كَأَعْجَبِ إِقْبَالٍ وَ أَشَدِّهِ دَوِيّاً، فَكَادَتْ تَلْتَفُّ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ. فَقَالُوا كُفْراً وَ عُتُوّاً: فَمُرْ هَذَا النِّصْفَ، فَلْيَرْجِعْ إِلَى نِصْفِهِ كَمَا كَانَ. فَأَمَرَهُ ﷺ فَرَجَعَ، فَقُلْتُ أَنَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَإِنِّي أَوَّلُ مُؤْمِنٍ بِكَ يَا رَسُولَ اللهِ، وَ أَوَّلُ مَنْ أَقَرَّ بِأَنَّ الشَّجَرَةَ فَعَلَتْ مَا فَعَلَتْ بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى تَصْدِيقاً بِنُبُوَّتِكَ وَ إِجْلَالًا لِكَلِمَتِكَ. فَقَالَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ: بَلْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ عَجِيبُ السِّحْرِ خَفِيفٌ فِيهِ، وَ هَلْ يُصَدِّقُكَ فِي أَمْرِكَ إِلَّا مِثْلُ هَذَا يَعْنُونَنِي.))[٥٠].ذكر الإمام هذه المعجزة للنبي الأعظمﷺ وغرضه التذكير بمنزلته الخصيصة من الرسول الأعظم وشهادته بمعجزاته وتصديقه لنبوته فكرا وعملا وفي الوقت نفسه تحذيراً لمن يذكر لهم هذه الحادثة من التمادي في الغي والعتو في الإعراض عن وصايا رسول الله.وقصة قلع الشجرة وسجودها بين يدي رسول الله ذكرتها مصادر عدة غير نهج البلاغة[٥١] بهذا التفصيل، إلا أن منهم من رواها بشكل مقتضب مع الاتفاق على أصل المعجزة[٥٢]. ولكن روعة تصوير الإمام لتفاصيل هذه الحادثة ينبع من كونه شاهدا فيها، فضلا عن قدرته التصويرية البلاغية في أسلوب عرضها.فالإمام عرض هذه الحادثة بمشهد ضم ثلاث صور يجمعها جامع واحد : الصورة الأولى: رسمت تحدي النبي لهم في إصرارهم وبقائهم على الكفر برسالته ، وذلك في قوله متيقنا بأسلوب التوكيد(فَإِنِّي سَأُرِيكُمْ مَا تَطْلُبُونَ، وَ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكُمْ لَا تَفِيئُونَ إِلَى خَيْرٍ).والصورة الثانية: التفصيل في أمر الشجرة وأغصانها وأمرها بالسجود .فأول الأمر انقلاع الشجرة بعروقها، والثاني أمرها بانشقاقها إلى نصفين ومجيء نصف منها إلى الرسولﷺ ، وبقاء النصف الآخر، والثالث أمرها بالالتحام كما كانت.

والصورة الثالثة: المؤثرات ، واعني بها حرص الإمام على نقل التفاصيل الدقيقة والمؤثرة للشجرة من حركة وصوت ، مثل قوله(وَ الَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَانْقَلَعَتْ بِعُرُوقِهَا، وَ جَاءَتْ وَ لَهَا دَوِيٌّ شَدِيدٌ، وَ قَصْفٌ كَقَصْفِ أَجْنِحَةِ الطَّيْرِ، حَتَّى وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم مُرَفْرِفَةً) فالدوي والقصف والرفرفة تجسيد دقيق للصوت والحركة تحيل السامع إلى مشاهد ، وتلك سمة أسلوبية عامة في بلاغة الإمام في كلامه . وهي هنا – لا ريب- لا تتاح إلا لمن شهد هذه المعجزة بنفسه.

أما الجامع لهذه الصور كلها فهو الغرض الذي ساق الكلام من أجله، وهو تصوير منزلته من الله تعالى ورسوله، وهذا يمكن ملاحظته في تأكيده بقربه من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، إذ كان عن يمينه، وأن الشجرة قد ألقت ببعض أغصانها على منكبه، فضلا عن قوة التصريح في القول الأخير على لسان طغاة قريش((وَ هَلْ يُصَدِّقُكَ فِي أَمْرِكَ إِلَّا مِثْلُ هَذَا، يَعْنُونَنِي))، والفضل ما شهدت به الأعداء.وفي هذه الحادثة ثمة معجزات أخر تعزز صدق الرسالة المحمدية ، فقد أنبأ الرسول بعواقب طغاة قريش في غيب من علم الله تعالى أطلعه عليه فذكر مسبقا عنادهم وإصرارهم على الكفر وحكم بأنهم(لا يفيئون إلى خير و أنّ منهم من يطرح في القليب و منهم من يحزّب الأحزاب).والقليب الذي عناه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو قليب بدر، بعد معركة بدر التي خسر فيها عتاة قريش ((و من طرح فيه كعتبة و شيبة ابنى ربيعة، و اميّة بن عبد شمس، و أبي جهل، و الوليد بن المغيرة و غيرهم، طرحوا فيه بعد انقضاء الحرب و كان ذلك الخبر من أعلام نبوّته صلّى الله عليه و آله و سلّم، و من يحزّب الأحزاب هو أبو سفيان و عمرو بن عبدودّ و صفوان بن أمية و عكرمة بن أبي جهل و سهل بن عمرو و غيرهم))[٥٣].

رابعا: سيرة الرحيل

إن روعة ذكر سيرة النبي ﷺ تبدو في عرض المسيرة التفصيلية على لسان صاحبها أمير المؤمنين مع ابن عمه النبي الأعظم من ولادته وضم النبي له إلى صدره إلى لحظات وداعه ورحيله ،لذلك ستبدو كلمات تأبين الإمام عليه السلام للنبي ﷺ، والصور التي رسمها لرحيله في غاية الصدق والألم والفراق، إذ هي نهاية رحلة امتدت لأكثر من ثلاثة عقود لازمه فيها الإمام واتبعه اتباع الفصيل أثر أمه .

قال الإمام و هو يلي غسل رسول الله صلى الله عليه و آله و تجهيزه: ((بِأَبِي أَنْتَ وَ أُمِّي، لَقَدِ انْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ، مِنَ النُّبُوَّةِ وَ الْإِنْبَاءِ وَ أَخْبَارِ السَّمَاءِ، خَصَّصْتَ حَتَّى صِرْتَ مُسَلِّياً عَمَّنْ سِوَاكَ وَ عَمَّمْتَ حَتَّى صَارَ النَّاسُ فِيكَ سَوَاءً، وَ لَوْ لَا أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ وَ نَهَيْتَ عَنِ الْجَزَعِ، لَأَنْفَدْنَا عَلَيْكَ مَاءَ الشُّؤُونِ، وَ لَكَانَ الدَّاءُ مُمَاطِلًا وَ الْكَمَدُ مُحَالِفاً، وَ قَلَّا لَكَ وَ لَكِنَّهُ مَا لَا يُمْلَكُ رَدُّهُ، وَ لَا يُسْتَطَاعُ دَفْعُهُ بِأَبِي أَنْتَ وَ أُمِّي اذْكُرْنَا عِنْدَ رَبِّكَ وَ اجْعَلْنَا مِنْ بَالِكَ))[٥٤].هذه كلمات من اكتوى بنار العشق فاستحالت لهيبا من الألم والصبر، نتلمسه بافتتاح الكلام بالفداء (بأبي وأنت وأمي) واختتامه به ، ونجده في إظهار الانتهاء عن الجزع والائتمار بالصبر، ولاسيما حين يورد أمرا من النبي ﷺ نفسه في قوله(وَ لَوْ لَا أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ وَ نَهَيْتَ عَنِ الْجَزَعِ..). وتبدو العاطفة متفجرة في طريقة انتظامها بشكل عفوي اتخذت من التنغيم المتنوع وسائل لها ، فمن السجع قوله(من النبوة والإنباء وأخبار السماء) ، ومن التوازن بين الجمل قوله(خَصَّصْتَ حَتَّى صِرْتَ مُسَلِّياً عَمَّنْ سِوَاكَ وَ عَمَّمْتَ حَتَّى صَارَ النَّاسُ فِيكَ سَوَاءً) ومعناه خصصنا برزئك فأنسانا كل مصيبة .فضلا عن الطباق مثل(انقطع ،لم ينقطع) و(خصصت ، عممت) و(أمرت، نهيت).

وفي موضع آخر رسم الإمام فيها صورة رحيل النبي ﷺ على يديه فقال:((وَ لَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ الله ﷺ وَ إِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي، وَ لَقَدْ سَالَتْ نَفْسُهُ فِي كَفِّي فَأَمْرَرْتُهَا عَلَى وَجْهِي، وَ لَقَدْ وُلِّيتُ غُسْلَهُ ﷺ وَ الْمَلَائِكَةُ أَعْوَانِي، فَضَجَّتِ الدَّارُ وَ الْأَفْنِيَةُ، مَلَأٌ يَهْبِطُ وَ مَلَأٌ يَعْرُجُ، وَ مَا فَارَقَتْ سَمْعِي هَيْنَمَةٌ مِنْهُمْ، يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى وَارَيْنَاهُ فِي ضَرِيحِهِ، فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيّاً وَ مَيِّتاً))[٥٥]، فهذا معنى شفيف يتجاوز المنظور ويستصعب على غير علي عليه السلام، ولا يمكن حمله على معنى آخر غير الحقيقة بدلالة سماعه (الهينمة)، وهي الصوت الخفي[٥٦] للملائكة وهي تهبط وتعرج مصلين على الرسول ومفجوعين به. ومن حق علي عليه السلام أن يبين أحقيته بالنبي ﷺ حيا وميتا، لأنها صورة لا تتاح لأحد إطلاقا فمن يجرؤ غير علي عليه السلام أن يدعي أن نفس رسول الله ﷺ سالت على يده وأنه ولي غسله مع الملائكة.

هذه صورة رحيل النبي ﷺ كما رسمها الإمام علي عليه السلام وفصل فيها التاريخ مؤيدا ، فالطبري قال ((... وعلي يغسله قد أسنده إلى صدره وعليه قميصه يدلكه من ورائه..)) [٥٧]. والشيخ المفيد ذكر أن النبي صلّى

الله عليه و آله و سلم لمّا قرب خروج نفسه قال له: ((ضع يا علي رأسي في حجرك، فقد جاء أمر الله تعالى. فإذا فاضت نفسي فتناولها بيدك، و امسح بها وجهك ثم وجّهني إلى القبلة، و تولّ أمري، و صلّ علي أوّل الناس، و لا تفارقني حتّى تواريني في رمسي، و استعن بالله تعالى. فأخذ علي عليه السلام رأسه في حجره فأغمي عليه فأكبّت فاطمة عليها السلام تنظر في وجهه و تندبه و تبكي و تقول: (من الطويل)

و أبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

ففتح النبي صلّى الله عليه و آله و سلم عينه و قال بصوت ضئيل: يا بنية هذا قول عمّك أبي طالب لا تقوليه، و لكن قولي: ((وَ ما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَ فَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ)) [٥٨])) [٥٩].

ويبدو أن المراد بقوله(سالت نفسه..فأمررتها على وجهي) خروج الروح لأن النبي قبض((ويد أمير المؤمنين تحت حنكه ففاضت نفسه فيها فرفعها الى وجهه فمسحه بها، فعبر بفيضان نفسه)) [٦٠] .والتعبير عن ذلك شائع في لغة العرب فهم يقولون(فاضت روحه) بمعنى خرجت [٦١].ولا أظن المراد بقوله(سالت نفسه) ما ذكر من أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قاء دما يسيرا وقت موته، وأن الإمام عليه السلام مسح بذلك الدم وجهه.إذ ما الحكمة من ذلك طالما أن التكريم هنا مرتبط بنوع من الغيب؟ أليس يمكن ((أن يكون المراد إمرار الكف الّتي تأثرت من خروج الروح فيها على الوجه)) [٦٢].

ويمضي الإمام عليه السلام في رسم مزيد من تفاصيل رحيل النبي صلى الله عليه وآله وسلم،التي لا يستطيع سواه ذكرها فقال: ((و لقد ولّيت غسله و الملائكة أعواني)) ، والإمام يلمح بالفعل (وليت) إلى إيصاء مسبق بذلك ، فقد روي عن الإمام عليه السلام قوله ((أوصى النبي صلّى الله عليه و آله و سلم أن لا يغسّله أحد غيري، فإنّه لا يرى أحد عورتي إلّا طمست عيناه. قال علي عليه السلام: فكان الفضل و أسامة يناولاني الماء من وراء الستر و هما معصوبا العين. قال علي عليه السلام: فما تناولت عضوا إلّا كأنما يقلّبه معي ثلاثون رجلا حتّى فرغت من غسله)) [٦٣].

وفي كلام الإمام عليه السلام مؤثرات لافتة من الحركة وإمعان في الوقوف على دقائق الرحيل وقفا يمثل بؤرة الحدث وشدة التأثير ، نحو صورة الملائكة وأصواتها الخفية(هينمة) التي لا يسمعها سواه. ونحو قوله (يصلون عليه) تعظيما وإجلالا، يرون ولا يرون ، فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم موصيا ((إذا غسلتموني وكفنتموني فضعوني على سريري في بيتي هذا على شفير قبري، ثم اخرجوا عني ساعة، فإن أول من يصلي علي جليسي وخليلي جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك الموت مع جنود كثيرة من الملائكة بأجمعها))[٦٤].وقول الإمام عليه السلام : (حَتَّى وَارَيْنَاهُ فِي ضَرِيحِهِ) نهاية المشهد النبوي، وكانت تلك منقبة ظل أمير المؤمنين عليه السلام يحسد

عليها ، وقد عبر النبي ﷺ عن هذه المواراة من قبل ضمن خِلال عدَّها لعلي عليه السلام بأنه ((ساتر عورتي ومسلمي إلى ربي)) (٦٥) . نقل الإمام عليه السلام رحيل النبي ﷺ بتفاصيله الدقيقة والمؤثرة وغرضه من ذلك كله بيان منزلته وأحقيته من الرسول الأعظم . وما ذكره الإمام عليه السلام اتفقت عليه أكثر مصادر التاريخ ، وجدير بالذكر أن رجلا من الأنصار اسمه أوس بن خولي أحب أن يكون له شرف العهد بالنبي ﷺ في قبره فقال لأمير المؤمنين عليه السلام: ((أنشدك الله يا علي وحظنا من رسول الله وكان أوس من أصحاب بدر وقال ادخل فدخل فحضر غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم)) (٦٦).الأمر الذي التفت إليه ابن أبي الحديد في قوله: ((من تأمل هذه الأخبار علم ان عليا عليه السلام كان الأصل و الجملة و التفصيل في أمر النبي صلّى الله عليه و آله و سلم و جهازه. ألا ترى أنّ أوس بن خولي لا يخاطب أحدا من الجماعة غيره، و لا يسأل غيره في حضور الغسل و النزول في القبر.)) (٦٧).

ثم أضاف ابن أبي الحديد ملتقطا صورة لأخلاق أمير المؤمنين كأجمل ما يمكن التقاطه لندرة الموقف وانشغال المرء بالرزء في العادة ، فقال: ((ثم انظر إلى كرم علي عليه السلام و سجاحة أخلاقه، و طهارة شيمته كيف لم يضنّ بمثل هذه المقامات الشريفة عن أوس، و هو رجل غريب من الأنصار. فعرف له حقه، و اطلبه بما طلبه فكم بين هذه السجيّة الشريفة و قول من قال: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسّل النبي صلّى الله عليه و آله و سلم إلّا نساؤه، و لو كان في ذلك المقام غيره من أولي الطباع الخشنة، و أرباب الفظاظة و الغلظة و قد سأل أوس ذلك، لزجر و انتهر، و رجع خائبا)) (٦٨) .

وجملة الأمر كان الإمام علي عليه السلام خير مصور لمراحل حياة النبي ﷺ لامتلاكه سببين رئيسين : الأول: شدة ملازمته لابن عمه ﷺ لقرابته القريبة ومنزلته الخصيصة التي حبي بها عليه السلام. والثاني: إمكاناته اللغوية والبيانية القادرة على الرسم بالكلمات .

الخاتمة

توضحت من رحلة البحث جملة من النتائج أعرض لها بالترتيب:

أولا: يعد كلام الإمام علي عليه السلام أصدق توثيق قديم لمراحل حياة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم المختلفة من الأسرة وحتى البعثة فالشهادة.

ثانيا: تكمن القيمة الفنية للسيرة العلوية لابن عمه العظيم صلى الله عليهما في الإبداع المتوازن في الاستعمالات الحقيقية للغة والبيانية بأساليب المجاز على حد سواء، في قدرة لافتة على التفنن باللغة والتمكن من زمامها.

ثالثا: تجلت سيرة تكامل الشخصية النبوية على لسان الإمام علي عليه السلام بأربعة مظاهر هي: الزهد والتواضع، والشجاعة، وذكر المعجزة، وقصة الرحيل.

الهوامش

١- ظ.اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري، منصور عبد الرحمن: ٣٦٨

٢- ظ.الشعر والتجربة، أرشيبالد مكليش: ٥٨، تمهيد في النقد الحديث، روز غريب: ٢٠٣

٣- ظ.التصوير الفني في خطب الإمام علي عليه السلام، عباس الفحام: ٣١-٣٢

٤- نهج البلاغة ، الإمام علي عليه السلام :١/ ٣٧٦

٥- ظ.التصوير الفني في خطب الإمام علي، عباس علي الفحام: ٧١-٧٢

٦- ظ.كنز العمال،المتقي الهندي: ٦/ ٨٨، الطبقات الكبرى،محمد بن سعد: ١/ ٢٣،السيرة الحلبية،الحلبي: ٣/ ٤٤

٧- قيل في الركوسي هو دين بين النصارى والصابئين.ظ.سبل الهدى والرشاد، الشامي: ٦/ ٣٨١، لسان العرب، ابن منظور: ركس . تاج العروس، الزبيدي: ركس

٨- تاريخ الطبري ، الطبري: ٢/ ٣٧٧،ظ.الكامل في التاريخ،ابن الأثير: ٢/ ٢٨٦.

٩- الإهالة : كل شيء من الأدهان مما يؤتدم به وقيل الدسم الجامد، والسنخة: المتغيرة الريح لطول المكث.

١٠- النهاية في غريب الحديث ،ابن الأثير: ١/ ٨٤،ظ.السنن الكبرى،البيهقي: ٩/ ٢٤٣

١١- المعجم الكبير، الطبراني: ٨/ ٢٠٠، مجمع الزوائد، الهيثمي: ٩/ ٢١

١٢- القلم: ٤

١٣- النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير: ١/ ٣، ٢/ ٣٩

١٤- أسد الغابة،ابن الأثير: ٤/ ١٠٤، مسند أحمد، أحمد بن حنبل: ٤/ ٢٠٠،الإصابة،ابن حجر: ٤/ ٥٢٠

١٥- ظ.الإرشاد، الشيخ المفيد: ١/ ١٢٢، الأمالي، الطوسي: ٢٥٤،المراجعات،شرف الدين: ٢٥١،

١٦- مناقب آل أبي طالب،ابن شهر آشوب: ٢/ ٢٤٤،

١٧- مسند أحمد، أحمد بن حنبل: ٣/ ٨٢، ٣/ ٣٢

١٨- ظ.بحار الأنوار، المجلسي: ٢٠/ ٢٢٢، الميزان، الطباطبائي: ١٦/ ٣٠٣

١٩- ظ.صحيح البخاري، البخاري: ٤/ ١٤

٢٠- بهج الصباغة، التستري: ٢/ ٤٣٩

٢١- الكافي، الكليني: ٢/ ١٣٤

٢٢- نهج البلاغة ، الإمام علي عليه السلام :١/ ٢٥٣

٢٣- نفسه :١/ ٣٧٥

٢٤- نفسه :١/ ٣٧٦

٢٥- نفسه .

٢٦- نهج البلاغة ، الإمام علي عليه السلام :٢/ ١٣٧

٢٧- ظ.شرح نهج البلاغة،ابن أبي الحديد: ١٤/ ٤٧

٢٨- ظ.مقتل الحسين، أبو مخنف الأزدي: ١٤٥

٢٩- ظ.بلاغة النهج في نهج البلاغة، عباس علي الفحام: ٨٨

٣٠- ظ.بحار الأنوار، المجلسي: ٢٠/ ٢٢٢، تفسير الميزان، الطباطبائي: ١٦/ ٣٠٣

٣١- تفسير القمي، علي بن إبراهيم القمي:٢/ ١٩١

٣٢- نهج البلاغة ، الإمام علي عليه السلام : ٤/ ٦١

٣٣- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١٩/ ١١٦
٣٤- ظ. المجازات النبوية، الشريف الرضي: ٤٤
٣٥- البيان والتبيين، الجاحظ: ٢/ ١٥
٣٦- نهج البلاغة ، الإمام علي عليه السلام :١/ ٣٠٩
٣٧- نهج البلاغة ، الإمام علي عليه السلام :١/ ٢٣٢
٣٨- نفسه :١/ ١٣٩
٣٩- غريب الحديث،ابن قتيبة: ١/ ٣٧٤، ظ.شرح نهج البلاغة،ابن أبي الحديد: ٦/ ١٤٠-١٤١
٤٠- ظ.لسان العرب، ابن منظور: دمغ
٤١- غريب الحديث،ابن قتيبة: ١/ ٣٧٤
٤٢- الأنبياء: ١٨
٤٣- ظ.مغني اللبيب، ابن هشام : ١/ ١٩٢
٤٤- البيت لا يعرف قائله.
٤٥- ظ.شرح نهج البلاغة،ابن أبي الحديد: ٦/ ١٤٠
٤٦- المصدر نفسه
٤٧- نهج البلاغة ، الإمام علي عليه السلام :١/ ٢٧٢
٤٨- مفاتيح الغيب ، الرازي: ١٦/ ١٥٨
٤٩- إبراهيم: ٤٥
٥٠- نهج البلاغة ، الإمام علي عليه السلام :٢/ ١١٤
٥١- ظ.مناقب آل أبي طالب، ابن شهرآشوب: ١/ ١١٢، إعلام الورى بأعلام الهدى، الطبرسي: ١/ ٧٤، ينابيع المودة لذوي القربى،القندوزي: ١/ ٢١٠، كشف الغمة ،الأربلي: ١/ ٢٤،بحار الأنوار، المجلسي: ١٤/ ٤٧٦
٥٢- ظ.سنن الدارمي، الدارمي: ١/ ١٠، مجمع الزوائد، الهيثمي: ٨/ ٢٩٢، تاريخ الإسلام، الذهبي: ١/ ٣٤٤،الكامل في التاريخ ،ابن الأثير: ٢/ ٧٦.
٥٣- شرح نهج البلاغة،ابن ميثم: ٤/ ٣٢٠
٥٤- نهج البلاغة ، الإمام علي عليه السلام :٢/ ٦٣
٥٥- نفسه :١/ ٤٥٨
٥٦- ظ.لسان العرب، ابن منظور: هنم
٥٧- تاريخ الطبري، الطبري: ٢/ ٤٥١، السيرة النبوية، ابن هشام : ٤/ ١٠٧٦
٥٨- آل عمران : ١٤٤
٥٩- الإرشاد، الشيخ المفيد : ١/ ١٨٦
٦٠- الإرشاد، الشيخ المفيد : ١/
٦١- ظ.لسان العرب،ابن منظور: فيض
٦٢- بهج الصباغة، التستري: ٤/ ١٠٥
٦٣- الطبقات الكبرى، محمد بن سعد : ٢/ ٢٧٨. ظ. السيرة الحلبية، الحلبي: ٣/ ٤٧٦

٦٤- تاريخ الطبري، الطبري: ٢/ ٤٣٦، الأمالي، الشيخ الصدوق: ٧٣٧، الكامل،ابن الأثير: ٢/ ٣٢٠
٦٥- ينابيع المودة، القندوزي: ٢/ ١٧٥-١٧٦ ، شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٩/ ١٧٣
٦٦- تاريخ الطبري، الطبري: ٢/ ٤٥١، مسند ابن حنبل: ١/ ٢٦٠،أسد الغابة، ابن ألأثير: ١/ ١٤٥، السنن الكبرى، البيهقي: ٤/ ٥٣، الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ٢/ ٣٣٣
٦٧- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١٣/ ٤٠
٦٨- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١٣/ ٤٠

المصادر والمراجع

ـ القرآن الكريم

-اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري، منصور عبد الرحمن، مطبعة دار العلم، القاهرة-١٩٧٧م.

ـ الأثر القرآني في نهج البلاغة ،دراسة في الشكل والمضمون ، الدكتور عباس علي الفحام .دار الرافدين ، الطبعة الأولى، بيروت – ٢٠١٠م.

– الاستيعاب،ابن عبد البر، تحقيق:علي محمد البجاوي، الطبعة الأولى، ١٤١٢،مطبعة دار الجيل – بيروت.

-الإصابة، ابن حجر، تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، الشيخ علي محمد معوض.الطبعة الأولى- ١٤١٥هـ. دار الكتب العلمية . بيروت.

– إعلام الورى بأعلام الهدى، الشيخ الطبرسي(ت ٥٤٨هـ)، تحقيق : مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الطبعة الأولى، مطبعة ستارة – قم ، ١٤١٧هـ.

– الأمالي، الشيخ الصدوق(ت٣٨١هـ)، تحقيق : قسم الدراسات الإسلامية – مؤسسة البعثة – قم، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ ، .

-الأمالي، الشيخ الطوسي(ت٤٦٠هـ)، تحقيق : قسم الدراسات الإسلامية – مؤسسة البعثة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع – قم.

ـ بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار ، الشيخ محمد باقر المجلسي(ت١١١١هـ) ، مؤسسة الوفاء ، بيروت – لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٣.

-بلاغة النهج في نهج البلاغة، الدكتور عباس علي الفحام، الطبعة الأولى، دار الرضوان، الأردن ، ٢٠١١م.

ـ بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، محمد تقي التستري. دار أمير كبير للنشر ، طهران ، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ .

– البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، الطبعة الخامسة ، القاهرة -١٩٨٥ م .

ـ تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد مرتضى الزبيدي (ت١٢٠٥هـ) ، دار الفكر – بيروت ، ١٩٩٤م .

– تاريخ الإسلام، الذهبي(ت ٧٤٨)، تحقيق : د. عمر عبد السلام تدمرى، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، لبنان، بيروت – دار الكتاب العربي.

ـ تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)، أبو جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠هـ) ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف – مصر ، ١٩٨٧م .

– تفسير القمي،علي بن إبراهيم القمي، ، تصحيح وتعليق وتقديم : السيد طيب الموسوي الجزائري،مطبعة النجف،منشورات مكتبة الهدى.

ـ التفسير الكبير (أو مفاتيح الغيب) ، فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت٦٠٦هـ) ، المطبعة البهية – مصر ، بدون تاريخ .

– تمهيد في النقد الحديث، روز غريب، دار المكشوف، بيروت – لبنان،الطبعة الأولى، ١٩٧١م.

– حقائق التأويل في متشابه التنزيل ، الشريف الرضي، شرحه الأستاذ محمد الرضا آل كاشف الغطاء ، دار المهاجر للطباعة والنشر والتوزيع .

– سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي، تحقيق وتعليق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، الشيخ علي محمد معوض، الطبعة الأولى، ١٤١٤ – ١٩٩٣ م ، مطبعة دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.

– سنن الدارمي . أبو محمد ، عبد الله بن عبد الرحمن (ت ٢٥٥هـ) .طبع بعناية : محمد أحمد دهمان ، دمشق ، بدون تاريخ.

– السنن الكبرى ، أبو بكر ، أحمد بن الحسين البيهقي(ت

٤٥٨هـ) .دار الفكر - بيروت .

- السيرة الحلبية، الحلبي(ت ١٠٤٤هـ) ،مطبعة دار المعرفة - بيروت، ١٤٠٠هـ.

- السيرة النبوية . ـ ابن هشام ، عبد الملك بن هشام المعافري (٢١٣هـ) .قدم لها وعلق عليها وضبطها: طه عبد الرؤوف سعد ، دار الجيل ـ بيروت ١٩٧٥م.

ـ شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد المدائني (ت ٦٥٦ هـ). تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء التراث العربي ، القاهرة ،١٩٥٩ م .

ـ شرح نهج البلاغة ، ميثم بن علي بن ميثم البحراني(ت ٦٧٩هـ).(المصباح شرح الكبير) مطبعة خدمات ، الطبعة الثانية ، طهران ١٤٠٤ هـ .

-الشعر والتجربة، أرشيبالد مكليش،ترجمة سلمى الخضراء الجيوسي، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، بيروت- نيويورك، ١٩٦٣م.

- صحيح البخاري، البخاري(ت٢٥٦هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨١م.

-الطبقات الكبرى، محمد بن سعد، دار صادر – بيروت ،دار صادر – بيروت.

- غريب الحديث،ابن قتيبة، الدكتور عبد الله الجبوري. الأولى،دار الكتب العلمية – قم. ١٤٠٨هـ.

- الكافي، الشيخ الكليني(ت ٣٢٩هـ)، تصحيح وتعليق : علي أكبر الغفاري، الطبعة : الخامسة- ١٣٦٣ هـ، مطبعة الحيدري – طهران.

- الكامل في التاريخ، ابن الأثير(ت ٦٣٠هـ) ، المطبعة : دار صادر - دار بيروت، دار صادر للطباعة والنشر ، دار بيروت للطباعة والنشر- ١٩٦٦م.

- كشف الغمة، ابن أبي الفتح الإربلي،الطبعة الثانية، ١٤٠٥ - ١٩٨٥ م، مطبعةدار الأضواء ، بيروت – لبنان.

ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، المتقي الهندي ، علاء الدين بن حسام الدين (ت ٩٧٥هـ) ، ضبطه وفسر غريبه : الشيخ بكري حياني ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ـ لبنان ١٩٨٩م .

ـ لسان العرب ،جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصري(ت ٧١١هـ).دار صادر ودار بيروت ، لبنان ١٣٧٩هـ ـ ١٩٥٥م.

- المجازات النبوية، الشريف الرضي(ت٤٠٦هـ) .تحقيق : محمود مصطفى، مطبعة البابي الحلبي ، مصر ، ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م .

- مجمع الزوائد ،الهيثمي، مطبعة دار الكتب العلمية - بيروت – لبنان، ١٤٠٨ - ١٩٨٨ م.

- المراجعات، السيد شرف الدين ، تحقيق : حسين الراضي، الطبعة الثانية، سنة الطبع : ١٤٠٢ - ١٩٨٢ م.

ـ مسند أحمد ، أحمد بن حنبل(ت٢٤١هـ) ، دار صادر ، بيروت .

-المعجم الكبير ، الطبراني، تحقيق وتخريج : حمدي عبد المجيد السلفي ،الطبعة : الثانية ، دار إحياء التراث العربي.

- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري(ت٧٦١هـ)، تحقيق وفصل وضبط : محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة المدني – القاهرة،١٤٠٤هـ.

ـ مناقب آل أبي طالب ، محمد بن علي بن شهر آشوب (ت٥٨٨هـ) ، مصحح من لجنة من أساتذة النجف الأشرف ، المطبعة الحيدرية ، ١٩٥٦م .

ـ منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ، حبيب الله الخوئي ، طهران ، المكتبة الإسلامية ، الطبعة الرابعة- ١٤٠٥هـ .

- الميزان في تفسير القرآن ـ محمد حسين الطباطبائي

.مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ،الطبعة الثانية ، بيروت – لبنان ١٩٧٢ م.

-النهاية في غريب الحديث،ابن الأثير، ٦٠٦، تحقيق:طاهر أحمد الزاوي ، محمود محمد الطناحي، الطبعة الرابعة، ١٣٦٤ هـ ،مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع، قم.

-نهج البلاغة ، محمد عبده ، مطبعة بابل – بغداد ١٩٨٤م .

- نهج البلاغة ، علي بن أبي طالب عليه السلام(ت٣٦هـ) ، بجمع الشريف الرضي (ت٤٠٦هـ).تحقيق وشرح : محمد أبو الفضل ابراهيم ، بيروت – لبنان ، دار الجيل ، الطبعة الثانية ١٤١٦ هـ .

- ينابيع المودة لذوي القربى ، سليمان بن إبراهيم القندوزي (ت١٢٩٤هـ) ، تحقيق سيد علي جمال أشرف الحسيني ، مطبعة الأسوة ، قم ، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ .

ثُنائيّةُ الإيجابِ والسّلبِ
في رُؤيةِ أهلِ البيتِ عليهم السلام للشِّعرِ وأصحابِهِ

Negative - positive duality

In theAlalbayt View point on Poetryandpoets

أ.م. د. سيدمحمدرضا ابن‌الرسول

قسم اللغة العربية وآدابها/ جامعة أصفهان/ إيران

Asst. Prof. Saeid Muhammad R. Ebn AL-Rasool

Department of Arabic Language and Literature

University of Asfahan. Iran

الباحثة ناديا داد پور

طالبة دكتوراه في قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة اصفهان / ايران

Nadya Dad Poor

Doctoral student in Arabic Language

and Literature Branch

University of Asfahan. Iran

ملخّص البحث :

موقف أهل البيت عليهم السلام وهم معادن العلم ومناجم الدراية وأعمدة الدين المبين، تجاه الشعر والشعراء موقف يتراوح بين السلب والإيجاب ففي ظلال آرائهملايستوي المخاطب على حافة الرفض المحضكما لايقيم عند شاطئ القبول البحت حيث إنّ من الشعر لحكمة، وثمة من الشعراء من يتبعهم الغاوون الذين في كل واد يهيمون؛ فمن الشعراء من اجتاز الحد الأقصى من الإيمان ونال ما ناله الأبرار الأخيار وصدق القول عليه أنّه من أصحاب"إلا"، وطائفة أخرى ظلّت تهيم في حالك الطريق لتجد مقعدها من النار.

يرنو هذا البحث المتواضع إلى إماطة الضبابية التي طالما خيّمت على رؤية الإسلام للشعر من منظور آل البيت عليهم السلام وذلك باستتباع المنهج الوصفي التحليلي فراحت المقالة تقتبس النور من فكرة آل البيت وهم السراج المنير¬ وردود أفعالهم التي انضمّت بين دفّتي التاريخ وفي أفانينه ليتيح له في هذا المسبار أن يبيّن مكانة الشعر والشعراء في واجهة المسرح الإسلامي من دون أية انحيازية تشوّه الحقيقة وتزحزحها نحو قارورة الجفاف الفكري التي لاتخضع لأي فضاء مستحدث.

واستنتجنا أخيراً بأنّ الرؤية السالبة التي تغلب على الأذهان في غالب الأحيان ليست رؤية صائبةوتصرّفات آل البيت حجّة صارمة وبرهان لاانفصام لعراه على أنّ للشعروأصحابه مكانة سامية في الإسلامإذ استشهدوا به فيما قالوه في خطبهم أوفيما سردوه في كتاباتهم ثمّ إنّهم شجّعوا الشعراء أمثال السيد الحميري ولم تكن هذه العلاقة أحادية الجانب ولم تنشأ عن فراغ، بل هي أصداء مستشفّة للدّور الذي لعبه هؤلاء في رقيّ الإسلام.

المفردات الرئيسة: الشعر والشعراء، الرؤية الإسلامية، ثنائية السلب والإيجاب، آل البيت عليهم السلام

Abstract:

The Ahl al-bayt view point, the essence of k knowledge ,fount of sapience and pillars of religion, on poetry is moderate that audience is not forced to deny poetry and or makes the audience fully accept poetry. Some poets have gone a stray and some achieved high level of faith and achieving the degree of the virtuous and the righteous. This study intend store moved us from the face of the uncertainty and investigate the niche of poetry in Islam and Ahlal-bayt.

Accordingly, it deals with adescriptive and analytical approach to the study of this issue

المقدمة

ما إن ظهر النبي برسالته الحقّة وتطلعت براعم الدين الإسلامي الذي استجده الجاهلي في نفسه؛حتى انعكست أصداؤه في الرؤى المتواجدة تجاه الشعر والشعراء الذين كانوا على منصة الرقي في المجتمع الجاهلي وما رقمته كتب تاريخ الأدب عن الشعر في هذه المدة تكشف عن رخاوة الشعر وفتوره لكن هنالك كثير من الأسئلة يشوبها الغموض وهي تتمنطق في أطر خاصة تسفر عن موقف النبي والأئمة الطاهرين عليهم السلام؛ فهل هؤلاء الذين كانوا دعائم الدين وأركان الإسلام المبين ضربوا عن الشعر صفحاً كأن لم يغن بالأمس أم أخذوا من أظافيره سلاحاً يصون الرسالة النبوية عن الهجمات التي كادت تزلزله بعد أن استوى على سوقه؟

فالأئمة الأطهار قد باحوا باستيائهم أحياناً عما يتساقط من فم الشعراء ذلك أنّ من الشعر ما يسوق الإنسانإلى أنفاق المهالك فلابد من التجنب عنه بأبعد المسافات كيلا يمس ديانة الإنسان وهذا كله انطلاقاً من الآية الشريفة في سورة الشعراء: ﴿وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُون أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ﴾ (الشعراء٢٦: ٢٢٤و٢٢٥). إلا أن هذه الرؤية السالبة لم تكن رؤية بحتة عندهم لامناص منها بل هم أشادوا بالشعر وأصحابه في بعض الأحايين؛فقد سمي بعض هؤلاء بشاعر النبي ومنهم من يتلألأ اسمه كالقمر المنير في ساحة الإسلام هم الذين بذلوا قصارى جهودهم وأرهقوا أنفسهم إرهاقاً كي يصنعوا من الألفاظ رمحاً يجرح أساس الكفر ويدمغه. فهذه الرؤى المتباينة التي حصل بينها بون شاسع أثارت جدلية عظمى باسم ثنائية الشعر والشعراء في الإسلام؛ الثنائية التي طالما خيمت على الأذهان وجعلت للشعر وظيفة متباينة؛ إذ إنه تارة يضمد ما وقع على جسد الإسلام من جراح وأخرى يجرح الإسلام الصحيح؛ فشتان بين هذا وذاك.

فهذه الثنائيات الملتوية العويصة التي ترمي بالحق في طريق لولب بل تدسّه في ضبابية الغموض كانت الحافز الرئيس لإنشاء هذه المقالة وتدشينها؛ فإزاحة الستار وتبيين الموقف الحق حيال الشعر وأصحابه هي الضرورة التي خلقت من البحث محيطاً لامناص من الغور في أحشائه.

هدف البحث

فاستهدفت هذه المقالة تبيين الموقف من الشعر وأصحابه من منظور النبي وآل البيت عليهم السلام ومدى فاعليته في التأريخ الإسلامي بوجهي السلب والإيجاب.

أسئلة البحث

نوى هذا البحث المتواضع الإجابة عن الأسئلة الآتية:

ما موقف النبي وآل البيت عليهم السلام تجاه الشعر والشعراء؟

ما الجانب السلبي من الشعر؟

ما الجانب الإيجابي من الشعر؟

خلفية البحث

إن البحث في إطار الشعر والشعراء و كشف الستار عن الدور الذي لعبه هؤلاء في ساحة الإسلام لم يكن قضية مسكوت عنها بل كان – ومايزال - بؤرة أساسية وقضية حاسمة في كثير من البحوث؛ وقد مضى الكلام على رطبها ويابسها إلا أن هناك بعض الفراغات لابد من سدها بالكلام الحق هذا؛ وثانياً تواتر الأمر الحاسم لا يمنع من تذكاره ذلك أنّ الذكرى تنفع المؤمنين.

وأما الدراسات التي تسبق هذه فهي متكاثفة ضخمة، ينوء كاهل البحث إذا قَصَد الإشارة إلى جميعه فيصطفي البحث باقة منها:

"الازدهار في ما عقده الشعراء من الأحاديث والآثار" للسيوطي؛ وقد أورد فيه الكاتب مقتطفات من الأشعار التي وردت ترجماناً للأحاديث النبوية وهي خير برهان على الدور الإعلامي الذي لعبه الشعر في تلك الأعصار.

"أحاديث الشعر" لعبد الغني المقدسي؛ تضمّن هذا الكتاب الأحاديث التي تمحورت حول الشعر سواء في مدحه أم ذمّه وكذلك استوعب بعض النماذج التي يكون فيه الشعر محطة استدلال آل البيت.

"إشكالية الإسلام والشعر" لبشرى تاكفراست؛ فقد تطرقت في دراستها هذه إلى الإشكالية المتواجدة في ساحة الإسلام في الشعر ومايتعلق به من أصحابه.

ثمّ "دعوى ضعف الشعر عند القدامى والمحدثين" وهي رسالة ماجستير لعبدالله بن علي بن محمد القدادي الزهراني وقد خصّ الباحث قسماً من رسالته لتبيين موقف القرآن والسنة وأهل البيت من الشعر والشعراء، ثمة الكتاب "القرآن والشعر" للأستاذة دلال عباس تحدثت فيه عن علاقة القرآن والشعر وأسباب ضمور الشعر في العصر الإسلامي وتأثير القرآن في الشعر والنثر والإبداع الفني فيهما.

هذه البحوث وغيرها من البحوث التي أغمض البحث عن الإشارة إليها بحوث راقية ويمكن جعلها نصب الأعين ومثالاً يحتذى إلا أنها ما تمكّنت من سد جميع الفجوات العالقة في طريق هذا البحث؛ فتبيين الثنائية الموجودةتجاه الشعر وأصحابه، هذا الذي يعدّ الحجر الأساس في خطوات بحثنا هذا، يطلب دراسة كاملة شاملة لتلتحم فيها شتات الأفكار المتبعثرة التي ما وجدت لنفسها طريقاً يهديها إلى نور الحق والسراج

المنير.

منهج البحث

يقتفي هذا البحث خطواته أثر المنهج الوصفي التحليلي فيبيّن بادئ الأمر كيفية ثنائية الشعر في باحة الإسلام ويلوّن آراء الجانبين ثم يأتي بفصل الخطاب في هذا المضمار عسى أن يكون قد فتح نافذة إلى النور لا سداد فيها ولا خلال.

الشعر والشعراء في القرآن، والتراث

إنّ ما صرّح به النص القرآني يقرّب هذه الثنائية ويرتق فتقها إلى حد كبير؛ حيث إنّها بيّنت للشعر قسمين: منه ما يسمّى بالشعر الشيطاني والآخر ما يسمّى بالشعر الرحماني. القسم الأول أي الشعر الشيطاني هو ما تفوّه به شعراء غير ملتزمين وهو قد تمثّل خير تمثيل في الآية﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ. أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ. إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (الشعراء٢٦: ٢٢٤-٢٢٧)وتتضخم الصورة السلبية لهؤلاء بالتصاق "أل" الجنسية التي تفيد العمومإلا أن نقيم دليلاً على أنه للعهد الجاهلي المتجلي في الشعر والشعراء وهو أمر اعتيادي فهم لسان المجتمع ويعكسون مباشرة حالته الاجتماعية والأخلاقية كما هو معروف (راجع: عبدالغني، ١٤١٣ / ص ٨).

فذم الشعراء في الآية لم ينشأ عن فراغ بل التصرفات غير اللائقة التي أتى بها هؤلاء كانت هي الحجر الأساس في نزول هذه الآية؛ فديانة هؤلاء مزعزعة أركانها وما يتفوهون به يكاد يتفجّر منه شلال الأكاذيب والسخط والافتراء. ليس مدحهم مدحاً صادقاً ولاهجوهم هجواً لائقاً؛ ما يقولونه ظلم وجور وفسق وفجور وبه كانت عصا الأمة تتشقق وتزكو العداوة والبغضاء كبراكين طافحات؛ فاتصاف هؤلاء بالتشتت والهيام والتخبط في الطرق والسير العشوائي لم يكن ينجم عن الشعر نفسه بل هو ناجم عن الإرهاصات والتوابع التي حلت بضاعتها البخسة في بصمات الشعر وتوارت تحت قناعه المدلهم. فالشعر الشيطاني لم يكن شيطانياً إلا بعدما ترك وراءه آثاراً سلبية محرقة للأصول الدينية والأخلاقية التي حارب الإسلام من أجل تشييد راياتها.

فالإسلام يضرب بالشعر إلى الحائط إذاتجاسر قائله بهجو المسلمين وإيذائهم وإذا أشعل نيران الفتن بين الناس بالوشايات والترهات والأكاذيب كما لو هتك الأعراض وجعلها لعبة بيد هذا وذاك؛ فإذا اتصف الشعر بهذه المميزات التي ذكرت أعلاه فيكون الشعر شعراً سلبياً لأصدائه القاتمة ولما يترك من آثار في

المجتمع.

والآية نفسها ترسم الواجهة الأخرى لهذه الظاهرة وهو ما عبّرت عنه في إطار الاستثناء ذلك الذي يسمّى على حد تعبير عبد الغني بالشعر الرحماني؛ذلك الشعر الذي يصدر عن الشعراء الملتزمين من أهل الإيمان واليقين "إلا الذين آمنوا" فهذا الشعر الصادر عن ينبوع الإيمان الخالص من دون أن تشوبه شائبة الكفر والعناد والإلحاد فهو لايكون إلا في خدمة الأغراض الإسلامية وغاياته المنشودة السامية فلا غرو أن يقع هذا الشعر موقع المدح والاستحسان لأنه يبني أسسه بطابوق الإيمان والعقيدة ولايقصد إلا تشييد الأسس الإسلامية البحتة الحقة التي ترنو إلى إزالة الكفر والنفاق وكل ما يعتبر باطلاً عن وجه الأرض. فالإسلام لا ينكر هذا الشعر بل يحرض قائله ويشجعهلأنه منبثق عن شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء فهذا الشعر شعر بنّاء يصلح المجتمع كما أنه يتمكن من غربلة أفكاره إلى حد كبير؛لأنه قائم على الإيمان والعمل الصالح وتسبيح الله وذكره. وأصحابه لايرضخون تحت المظالم بل يثورون وينتصرون من بعد ما ظلموا ولاينشدون الشعر لمصالحهم الشخصية بل يصرون على إقامة الديانة الإسلامية ويأتون بكل ما عندهم من عِدّة وعُدّة ليصلوا إلى مبتغاهم.

من مؤيدي هذه الفكرة الدكتور سعد دعبس الذي عالج هذه القضية في مقالاته إذ قال: "أيمكن للإسلام وقد جاء ليسمو بالروح والعاطفة، ويهب القلب، ويوقظ الفكر، أيمكن لمثل هذا الدين أن يقف ضد فن من الفنون التي تسمو بالوجدان وتعيد صياغة الحياة وتبدع الكون من جديد في رؤية متدفقة بالمشاعر الخضراء؟

فيتبين من الآية أنّ نفي الشعر عن النبي عليه الصلاة والسلام لايعني الحط من قدر الشعر، بل يعني الرّد على من ادّعى من الكفّار أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم شاعر، وهذه قضية خطرة لابد من حسمها، وقد كان الكفار يهدفون إلى إدخال القرآن الكريم لبلاغته وقوة أخذه، وسيطرته وتأثيره في باب الشعر (راجع: أحمد عاصي، ٢٠٢٠ / ١-٩).

من ثم يجب قراءة آية سورة الشعراء بكاملها كما يحسن الاستقصاء فيما ورد من التفاسير في الآية كي يذهب الغبار عن القراءات العقيمة والتأويلات الخاطئة فطالما قرئت هذه الآية مبتورة عند أصحاب الرأي وكأنهم أغمضوا عن الانتباه إلى كيفية الآية إذ هي في إطار الاستثناء.

وينبغي الانتباه على أنّهذه الآيات التي وردت في الشعرنزلت في شأن الكفار ، ويشير العلامة الطباطبائي أنّ هذه الآيات، آيات مكية ولم ترد إلّا للذود عن الدعوة الإسلامية في تلك الظروف القاسية التي لم يجد الرسول معاضداً ومناصراً له إلا قليلاً ممن ألقى الله نور الهداية في قلبه وفي بصيرته؛ولاتكون هذه الآيات حجة صارمة على ذم الشعر وإنكارهذلك أن﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ (يس٣٦: ٦٩) يعني ليس

الـذي علمنـاه شـعراًوما ينبغـي لـه أن يبلـغ عنّـا شـعراً؛وهذه الآيـة فيـما يعتقـده عبـد القاهـر الجرجـاني تماثـل الآيـة ٤٨ مـن سـورة العنكبـوت ﴿وَمَـا كُنْـتَ تَتْلُـو مِـنْ قَبْلِـهِ مِـنْ كِتَـابٍ وَلَا تَخُطُّـهُ بِيَمِينِـكَ﴾ (العنكبـوت ٢٩ : ٤٨) فلاتـدل هـذه عـلى نكـران الكتابـة أو القـراءة بـل تثبـت عـدم تحقـق أي مـن الوصفـين في الرسـول لإثبـات قضيـة الإعجاز(طبرسـى،١٣٧٢/ ٤٥٠) وذلـك لتتضخـم الوجهـة الإعجازيـة للمصحـف الشريـف ونبـوة الرسـول ولتنسـد النوافـذ جميعهـا لخلـق الشُـبَه واتهـام الرسـول بـما لايليـق بـه وبـما جـاء بـه مـن الله سـبحانه وتعـالى.

فيقـول صاحـب العمـدة حيـال هـذه القضيـة: إذا كانـت عـدم شـاعرية النبـي تـدل عـلى قبـح الشـعر وشـناعته فكـون النبـي أميّـاً لابـد أن يكـون دليـلاً عليكراهيـة التعليـم والتعلـم وهـذا مـا لايقبلـه عقـل ولايؤيـده أحـد (راجـع: السـابق). فقـد ذمّ القـرآن طائفـة مـن الشـعراء وذمّـه هـذا لايسـتوعب الشـعر كلّـه ، ولاينفـي قيمـة هـذا الفـن الراقـي إضافـة إلى ذلـك، الكثـير مـن المفسريـن والباحثـين في دراسـاتهم في غريـب القـرآن وألفاظـه يسـتندون إلى أشـعار امـرئ القيـس وغـيره مـن الشـعراء الجاهليـين؛ يقـول ابـن العبـاس بهـذا الصـدد: لـو قرأتـم مـن القـرآن ألفاظـاً مـا فهمتـم معنـاه حـق الفهـم اسـتعينوا بشـعر العـرب ذلـك أن الشـعر ديـوان العـرب وهـذا مـا يتواتـر في أمثـال تفسـير مجمـع البيـان. ويبـين ابـن رشـيق أن الاحتجـاج بالآيـة الشريفـة ٢٢٧ مـن سـورة الشـعراء اسـتنباط خاطـئ مـن المصحـف الشريـف؛ لأن المقصـود مـن الشـعراء، شـعراء الكفـار الذيـن هجـوا الرسـول وسـببوا إيـذاءه وجعلـوا مـن صفـو عيشـه حيـاة مـرة كـدرة.

إضافـة إلى سـورة الشـعراء هنالـك سـور أخـرى هـي سـورة الأنبيـاء (٢١: ٥)، ويـس (٣٦: ٦٩)، والصافـات (٣٧: ٣٦)، والطـور (٥٢: ٣٠) والحاقـة (٦٩: ٤١) حيـث راح الـكلام فيهـا عـن الشـعر والشـعراء لكـن في جميعهـا لايتجـلى الـرأي الخالـص لافي نبـذ الشـعر ولافي قبولـه بـل كل الـكلام هـو أنّ النبـي ماكان شـاعراً ولم يكـن بشـاعر وهـذه الآيـات كلهـا وردت لتؤكـد عـدم شـاعرية الرسـول؛ وذلـك أمـر ضروري يلـزم لإثبـات معجـزة الرسـول وكـون القـرآن الكريـم معجـزة مـن الله سـبحانه وتعـالى.

الأوصـاف التـي ذكرتهـا في الآيـات التـي وصفـت الشـعراء وتابعيهـم تـدل بوضـوح عـلى هـذه الحقيقـة أن رئاسـة الضالـين وقيادتهـم لايكـون حكـراً عـلى الشـعراء في عـصر النبـي صلى الله عليه وآله وسلم بـل يمكـن القـول بأنّـه لايكـون حكـراً عـلى الشـعراء بـل يشـمل جميـع الذيـن يسـلكون أوديـة الأوهـام وقفـار المهالـك لأنّ الشـعر مـن حيـث إنـه شـعر لا يوجـب الإتبـاع بـل إنـما يتصـور الإتبـاع في وضـع طريقـة الشـعر ومـا يـدلّ عليـه مـن الدعـوة نحـو الضـلال (راجـع: كلانـتري، ١٣٨٦ / ص٩٣).

لاشـك أنّ النقـاد لايتمكنـوا مـن إطـلاق الحكـم الفصـل عـلى الشـعر بمجـرد أنـه كلام يتمتـع بالـوزن والموسـيقى أو لأنـه يزخـر بالسـاحات الخياليـة والعاطفيـة الوارفـة الظـلال؛ فجعلـه نقطـة سـوداء لابيـاض فيهـا أو اعتبـاره

صفحة بيضاء لا تشوبها أية شرخة سوداء لايخلو من خطأ لأن الشعر أداة تعبير عما يلج في الخواطر وأغوار الأفئدة؛الخواطر التي أدركها الشاعر وأراد التعبير عنها فباح بها بألفاظ موزونة ذات رنة خاصة والشاعر ذات اجتماعية يعيش في المجتمع ويتعايش معه، يتأثر به ويؤثر فيه فهو الذي يوحي إلى الشاعر الأفكار التي يحشي بها حمولته فإذا بها دسمة قيمة تتلألأ بالأصداف واللآلئ وإذا بها صدى للأفكار الضارية التي تلقي بالإنسان إلى التهلكة فإذا فسد المجتمع فسد كلام الشاعر وأشاع السوء والفحشاء فيسيء ما يسيء إلى أن يصبح شعره طعام الأثيم؛ فالمجتمع هو مهد الأشعار ومسقط رأسها فشتان بين الأفكار وفحواها في المجتمع الإسلامي والجاهلي حيث الأول مفعم بالإنسانية والمضامين السامية، والثاني ساد فيه الفساد وشاعت فيها العصبية وسخرية الأعداء والازدراء بهم أو الامتداح بهذا أو ذاك من دون أية ميزة متميزة؛ ففي بدايات العصر الإسلامي حينما بزغت شمس الإسلام على يد النبي يقوم عثمان بن مظعون بين قريش وينصف ما أنشده لبيد فيقول له نصف ما قلته حق وصدق: "ألا كل شئ ما خلا الله باطل"، ونصفه الثاني يلجه ما ليس بحق: "وكل نعيم لامحالة زائل" (شهيدي، السابق / ٧)، لأنه لا زوال لأنعم الله في الجنة.

وعمر يسجن الحطيئة الشاعر لأنه كان قد هجا الزبرقان هجاء شنيعاً وهو يقول لاأسمح لأحد أن يمسّ أعراض الآخرين ويمزقها لأجل رغيف خبز يشبع به بطنه فالتعاليم الإسلامية أثّرت في مدراء المدن في الأنحاء المختلفة من البلدان الإسلامية والمميّزات التي طفحت في شعر العصر الجاهلي نراها تفتر فتور النار الهامدة؛ لكن بعد أن توفي الجيل الذي أدرك الرسول ، وذلك في السنة الثلاثين عادت الطقوس إلى ما كانت عليه؛ لأنّ هؤلاء ترعرعوا في الفترة التي اضطربت فيها الأجواء وابتعدت عن الدين الخالص الذي أتى به الرسول والثروة الطائلة التي انسالت على المسلمين وصنعت منهم أناساً لايهمهم إلّا ما يبطرهم ويلهيهم.

وإلقاء النظرة على ما ورد من الأشعار في العصر العباسي خاصة بعد أبي جعفر المنصور وما تليه من حكومات يؤكد هذا القول؛ فالأشعار كادت تتفجر منها ينابيع الآثام وموارد الفحشاء ولم يبالغ ابن عتيق إذ قال: لاشعر كشعر عمر ابن أبي ربيعة في معصية الله ومخالفة الرسول؛ فمروان ابن أبي حفصة، وجرير، وفرزدق، ومسكين الدارمي وبشار بن برد وأبونواس تبعاً للظروف المتواجدة في المجتمع حشّوا أشعارهم بالفساد والإباحية؛فهذا الشعر الفاسد هو ما يطلق عليه الشعر الشيطاني.

الشعر الشيطاني

إلى جانب الشعر الرحماني الذي يستساغ استماعه ويروق مضمونه هناك شبكة مستفيضة من الشعر المذموم الذي نعت القرآن الكريم أصحابه بأنهم هم الغاوون وهنالك روايات عدّة في ذم الشعر؛ وذمه لايكون عن

نفسه وذاته بل يعود إلى الدور السلبي الذي يلعبه في المجتمع الإسلامي ولما يترك من بصمات سوداء في الأذهان والقلوب وأحياناً تتفاقم هذه السلبية إلى قلع أركان الديانة الحقة فيكون قائله مهدور الدم.

وكأنّه ذم الشعراء الذين لم ينقّوا أقوالهم من الأوساخ والأقذار وفي وأولهم امرؤالقيس حامل لواء الشعراء إلى النار (راجع: السابق / ٧٤). هو الذي قيل فيه إنّه مذكور في الدنيا منسي في الآخرة، بيده لواء الشعر إلى النار(صبحي صالح، ١٤١٤ ق/ ٥٥٦).

وقال: رسول الله في حديثه في ذم الشعر: أن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خير من أن يمتلئ شعراً(الحرالعاملي، ، ج ٧/ ٤٠٣)؛ ذلك أنّ رجلاً شاعراً جاء الرسول وأنشد أمامه أبيات شعر سخيفة لاطائل فيها فرد عليه النبي بهذه الألفاظ فلايعني هذا الحديث أنّ الشعر بكل مظاهره منبوذ مطرود ولايكون أمثال هذه الأحاديث ذريعة لرفض الشعر رفضاً لامردّ له ذلك أن لهذا الحديث تكملة لابد الانتباه عليها وهي"ومما هجيت به"، أي الشعر المقصود هو الشعر الذي تعرض به المشركون للنبيصلى الله عليه وآله وسلم.

ينقل أبوالفرج الأصبهاني ما يكون بؤرة رئيسة للشعر الشيطاني بمميّزاته الخاصة؛ فهو يروي حكاية أمية ابن أبي صلت الذي قد قام برثاء من قتل ببدر من قريش وكان يحثهم على المثابرة وثبات الجأش تجاه المسلمين ومن أشعاره: "مَاذَا بِبَدْرٍ وَالْعَقَنْـ / قُلَ مِنْ مُزَارِبَةٍ جَحَاجِحَ"؛ فقد نهى الرسول عن رواية شعره ذلك أن شعره يغوي المسلمين الذين لميثبت الإيمان في قلوبهم بعد ويقوّي الذين يقفون في وجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛فهذا الشعر شيطاني يهدم أركان الحق ويزعزعه في المجتمع فهذا التحذير يبيّن القدرة المتزايدة التي يتمتع بها الشعر عامة فهو كالسحر يأخذ بالألباب ويصدّ عن الحقويضلّ عن سواء السبيل.

الشعر الرحماني أداة لنشر الإسلام عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم وآل البيت عليهم السلام

لعب الشعر والشعراء دور السلاح الباردفي عصرنا الراهن وكان يوظف للخفض من نشاطات الأعداء في ساحة الحروب أو في الطقوس المستعصية ، وكان مصدراً لانبعاث الحياة والحيوية في المسلمين سواء في ساحة الحروب أم في غيرها من المجالات؛ فروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لحسان بن ثابت الأنصاري: "اُهْجُ المشركين فإن جبرئيل -عليه السلام-معك". وورد عنه في مكان آخر"أُهجهم وهاجهم وجبريل معك" (عبد الغني، السابق / ٤٠)؛فطلب هجاء الأعداء ومحاربتهم في نطاق الشعر خير دليل على فاعلية الشعر وديناميته في الذود عن الإسلام ثم إنّ الرسول نفسه يوم الأحزاب بدأ ينشد:

وَاللهِ لَـولَا أَنْـتَ مَـا اهْتَدَيْنَـا وَلَا تَصَدَّقْنَـا وَلَاصَلَّيْنَـا
فَأَنْزَلَـنْ سَـكِيْنَةً عَلَيْنَـا وَثَبِّـتَ الْأَقْـدَامَ إِنْ لَاقَيْنَـا
إِنَّ الْأُولى لَقَـدْ بَغَـوا عَلَيْنَـا وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَـةً أَبَيْنَـا

فهذه الأبيات توحي بالترويح عن النفسوإشاعة الثقافة الدينية في تلك الأجواء القاسية التي كاد الأمل يفتر لونه في الأفئدة، والجميل أنّ الرسول اصطفى الشعر على الدعاء في هذه الظروف فقولب دعاءه في نطاق الشعر؛فلو دُرس بلاغة هذا الشعر رغم بساطته لتجلّى مدى تأثيره في القلوب . فسلاح الشعر إذا وُظّف لغايات إسلامية من رمي الأعداء والإشادة بالدين وحثّ المسلمين على الجهاد في سبيل الحق فلايمكن وسمه بالغواية.

وصورة أخرى من صور الاستشهاد بالشعر تتجلى يوم حنين حيث أعجبت المسلمين كثرتهم وضاقت الأرض عليهم بما رحبت وولوا الأدبار في تلك الآونة فكان رسول الله على بغلة بيضاء ينشد:

أَنا النَّبِيُّ لا كَذِبْ أَنا ابْنُ عَبْد المُطَّلِبْ

فقوله هذا يوحي للمخاطب ثبات جأش الرسول وقوته وعدم قنوطه في تلك الأزمة التي كادت تقضي على جيش الآمال برمته.

الملحوظ هو أنّ ترحيب الرسول بالشعراء وتشجيعه لهم لاتخصّ تلك الفترات ولاتتعلق أبداً بالعلاقات الودية بين الشاعر والرسول وقد صرح النبي بهذا الأمر حيث قال لحسان بن ثابت: إن روح القدس لايزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله فتأييد حسان يستمر ما تمسك في أقواله بعروة الإسلام التي لا انفصام لها.

وعندما خرج رسول الله إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال: "اللهم إن العيش عيش الآخره / فاغفر للأنصار والمهاجرة"؛ فقالوا مجيبين له:

نَحْنُ الَّذِيْنَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا عَلَى الْجَهَادِ مَا بَقِيْنَا أَبَداً

(عبد الغني، السابق / ٨٣)

وقال: رسول الله حينما اشتد هجاء الكفار له: ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بأسلحتهم أن

ينصروه بألسنتهم.

والجدير بالذكر أنّ ما نسب إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم من المقطعات الشعرية كلها مخدوشة من ناحية العروض ولعل ذلك وقع عن عمد لكيلا يعد في إطار الشعر المعروف؛ فالصورة الشعرية المطابقة للعروض الخليلي هي "لاهُمَّ إنَّ العيشَ عيشُ الآخره / فاغفِر للانصار وللمهاجره"، بوصل همزة القطع في "للأنصار".

وقد ورد في الأحاديث والروايات أن حسان بن ثابت وعبدالله بن رواحة وكعب بن زهير كانوا يمدحون الرسول وهو يصغي إليهم إلى أن أمر هؤلاء الشعراء بهجو المشركين ردّاً عليهم(مغربي، ١٣٨٥، ج ٢/ ٣٢٣).

وعن الإمام الرضاعليه السلام: "ما قال فينا مؤمن شعراً يمدحنا به إلا بنى الله تعالى له مدينة في الجنة أوسع من الدنيا سبع مرات . . . " (صدوق، ١٣٦٣، ج١ / ص ٧).

فالشعر الرحماني الذي يترك شرائح فكرية إيجابية في المجتمع شعر مقبول وقد لعب هذا الشعر دوراً ريادياً في سابق الأزمان وقد أثر أثراً جلياً في حركة الدعوة الإسلامية وتطورها.

استشهاد النبي وآل البيت بالشعروموقفهم منه

إنّ من يتتبع كلام الرسول وآل البيت عليهم السلام في خطبهم ورسائلهم يجد أنّ للشعر فيها مكانة لايمكن التغاضي عنها؛ فهم استدلوا بالأشعار فيما عالجوه من الموضوعات المختلفة وهذه الاستدلالات بنفسها تؤكد أن الشعر لم يكن مذموماً بأكمله بل للشعر بوصفه كلاماً بليغاً وظيفة بنّاءة إذ يعلق بآذان القلوب ويؤدي الوظيفة الإقناعية خيرما تأدية.

فقد مدح النبي بيت لبيد ابن ربيعة فقال: " ما قالت الشعراء بيتاً هو أصدق من قولهم: "أَلَا كُلُّ شَيءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ"، فيركز النبي جل اهتمامه على قضية الصدق في الشعر فأهمية هذه العناية تأتي من جهتين: الجهة الأولى هو أن الشعر إذا كان صادقاً يجب الأخذ به ونشره لأن مواصفات الشعر من الوزن والخفة وغير ذلك يدع معانيه في قلب المتلقي فإذا كان الشعر يتمتع بالمعنى الراقي فحبذا نشره عسى أن تتمكن فحواه من القلوب وتأخذ به العقول وليترك آثاره أخيراً على الأعمال التي يقوم بإنجازها كل فرد من أفراد المجتمع.

والجهة الثانية: هي أنّ الشعر آلة طيبة بناءة إن غذاه صاحبه بالمعاني اللائقة الثمينة، فلاداعي لنبذه إن كان حشيّاًبأنفس المواد و أرقاها فلا يمكن الحكم على جميع الأشعار بعين واحدة لأن رسول الله نفسه يبين الرؤية الصائبة بقوله: "إن من الشعر لحكمة" (راجع: عبدالغني، السابق / ٤٧)، فلا ضير أنّ كل ما استدلّ به الرسول يتضمن حكمة من الحكم ولاشك أنه يسدّ فجوة من الفجوات المهمة التي كانت الشغل الشاغل له. ودلت الأحاديث على أن الرسول كان يرغب في الأشعار التي تتخللها الحكم من ذلك ما ورد عن النبي رغبة في استماع شعر أمية ابن أبي صلت حيث قال: "هل معك من شعر أمية ابن أبي صلت شيء؟ قلت:

نعم. فلم يزل يقول هيه؛ حتى أنشدته مئة بيت (راجع: المصدر السابق، ص ٤٩).

وأمية ابن أبي صلت شاعر جاهلي حكيم من الذين رغبوا عن عبادة الأوثان ومعاقرة الخمور، وهوالذي اطلع على الكتب السماوية السابقة وكان قد آمن بمجيء رسول اسمه أحمد؛ ولكنه بعد انبعاث النبي لم يسلم وإن رغب في الإسلام (راجع: المصدر السابق).

المهم أنّ الحكمة التي تفوح فيما أنشده هذا الشاعر الجاهلي خلقت من شعره بضاعة دسمة، راق للرسول استماعها والرقد في ظلال معانيها آونة ما، والرسول ختم استماعه لشعره بقوله: "اسلم في شعره"؛ فيتجلى أن شعر أبي الصلت فيه رائحة الإسلام ولم يخرق الشاعر هذه الأصول الدينية المعنية في دفتي أشعاره.

وكان رسول الله إذا جاءه شخص بنبأ من الأنباء أخذ يتمثل ببيت طرفة: "وَيَأْتِيْكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَزَوَّدِ" وهو طرفة بن العبد أجود الشعراء الجاهليين وكانت الحكمة تطغى على شعره وتقطر من لسانه.

ونقل الشيخ الصدوق عن الإمام الباقر ﷺ: يوم فتح مكة وكان الرسول بجانب ستار الكعبة قد دخل عليه جماعة وسلموا على حضرته فسأل النبي من هم؟ قيل رسل بكر بن وائل فسأل عن قس ابن ساعدة الأيادي فأخبروه بوفاته فطلب له من الله الرحمة والغفران فطلب من ينشدأشعاره فأنشد قائل منهم:

فِي الْأَوَلِيْنَ الذَّاهِبِيْنَ مِنَ الْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرُ
لَمَا رَأَيْتُ مَوَارِدَاً لِلْمُوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرْ
وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا تَمْضِي الْأَصَاغِرَ وَالْأَكَابِرْ
لَايَرْجِعُ الْمَاضِي إِلَيَّ وَلَا مِنَ الْبَاقِيْنَ غَابِرْ

(المفيد، ١٤١٣ ق/ ٣٤٢)

ففي هذه النماذج طلب النبي إنشاد الشعر تؤكد أهمية الشعر الذي تنضح معانيه بالحكمة إذ يصلح بأن يكون موضع طلب الرسول واستنشاده له.

وقال علي بن أبي طالب للمرادي:

أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد

(عبد الغني، السابق / ٨٣)

وأنشد أمير المؤمنين عليه السلام هذه الأبيات لتحريض النجاشي على مساعدة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقبول دعوته:

تَعَلَّـمْ مَلِيْـكَ الْجَيْـشِ أَنَّ مُحَمَّـدَاً ... نَبِـيٌّ كَمُوسَـى وَالْمَسِـيْحِ بْـنِ مَرْيَـم
أَتَـى بِهُـدَى مِثْـلُ الَّـذِي أَتَيَـا بِـهِ ... فَـكُلٌّ بِأَمْـرِ الله يَهْـدِي وَيَعْصِـمُ
وَإِنكُـمُ تَتْلُونَـهُ فِي كِتَابِكُـمْ ... بِصِـدْقِ حَدِيْـثٍ لَاحَدِيْـثٍ مُرَجَّـمِ

(راجع: قمي، لا. ت / ص ٦٣)

وأنشد في محاربة عمرو بن عبد ودّ وفي الرد على ما أنشده:

لَاتَعْجَلَـنَّ فَقَـدْ أَتَـاكَ ... مُجِيْبُ صَوْتِـكَ غَـيْرَ عَاجِـز
ذُونِيَّـةٍ وَبَصِـيْرَةٍ ... وَالْصِّـدْقُ مَنْجَـي كُلَ فَائِـز

(راجع: السابق / ص ٩١)

وقد أنشد الإمام علي عليه السلام في مصيبة فاطمة الزهراء هذين البيتين:

لِـكُلِ اجْتِمَاعٍ مِـنْ خَلِيْلَـيْنِ فُرْقَةٌ ... وَكُلُّ الـذِي دُونَ الْفِـرَاقِ قَلِيْـلُ
وَإِنَّ افْتِقَـادِي وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ ... دَلِيْـلٌ عَـلَى أَنْ لَايَـدُوْمَ خَلِيْـلُ

وقد استدل الإمام علي عليه السلام بأربعة عشر بيتاً في نهج البلاغة في أثناء خطبه ورسائله.

وروي أن الإمام الحسن عليه السلام يتمثل بهذا البيت كثيراً:

يَـسُرُّ الْفَتَى مَا كَانَ قَدَّمَ مِنْ تُقَى ... إِذَا عَـرَفَ الْدَّاءَ الَّـذِي هُوَ قَائِلُه

وقد كثر تمثيل الإمام ببيت عدي ابن الرعلاء.

وروي أن رجلاً أتى بباب الإمام الحسن عليه السلام وأظهر فقره وسوء حاله وأنشد في حاله بيتين:

لَمْ يَبْـقَ لِي شَـيٌّ يُبَـاعُ بِدِرْهَـمٍ يَكْفِيْكَ مَنْظَرُ حَالَتِي عَـنْ مَخْبَرِي
إِلَّا بَقَايَـا مَـاء وَجْـهٍ صُنْتُـهُ أَلَّا يُبَـاعُ وَقَـدْ وَجَدْتُـكَ مُشْـتَرِي

فأمـر الإمـام خازنـه وسـأله عـن كميـة الدراهـم التـي يملكهـا فأجـاب اثنـي عـشر ألـف درهـم فطلـب منـه كـي يقدمهـا للفقـير وهـي كل مـا كان في الخزانـة فقـدم لـه واعتـذر إليـه واستشـهد بهـذه الأبيـات رداً عـلى مـا قالـه في بيـان حالـه:

عَاجَلْتَنَـا فَأَتَـاكَ وَابِـلُ بِرِّنَـا طَـلَّاً وَلَـوْ أَمْهَلْتَنَـا لَمْ تَقْطُـرِ
فَخُـذْ الْقَلِيْلَ وَكُـنْ كَأَنَّكَ لَمْ تَبِعْ مَـا صُنْتَـهُ وَكَأَنَّنَـا لَمْ نَشْـتَرِ

وحينما وضعوا جثمان الإمام الحسن عليه السلام في أحضان التراب أخذ ينشد الإمام الحسين عليه السلام أبياتاً منها:

أَأَدْهُـنُ رَأْسِي أَمْ أَطِيْـبُ مَحَاسِـنِي وَرَأْسُـكَ مَعْفُـورٌ وَأَنْـتَ سَـلِيْبُ
بُكَائِـي طَوِيْـلٌ وَالدُّمُـوعُ غَزِيـرَةٌ وَأَنْـتَ بَعِيْـدٌ وَالْمَـزَارُ قَرِيْـبُ

(راجع: السابق / ٢٧٩)

وقـد ورد عـن الامـام الرضـا عليه السلام أنـه قـال : مـا قـال فينـا مؤمـن شـعراً يمدحنـا إلا بنـى الله سـبحانه وتعـالى لـه مدينـة في الجنـة أوسـع مـن الدنيـا سـبع مـرات (راجـع :صـدوق ؛١٣٦٣ / ٧) .

وطبع أخيراً مجموعة من الأشعار المنسوبة إلى الإمام الحسين عليه السلام بعنوان ديوان الإمام الحسين عليه السلام.

كان ينشد الإمام نفسه الشعر؛ منه:

إِذَا كُنْتَ فِي خَيْرٍ فَلَا تَغْتَرِرْ بِهِ وَلَكِـنْ قُـلْ اللَّهُـمَّ سَـلِّمْ وَتَمِّـمِ

(دخيل، ١٩٧٤ / ٨٤)

وحينما حضر إبراهيم بن العباس الصولي مجلس الإمام الرضا عليه السلام بمرو وأنشد أبياتاً في آل البيت عليهم السلام وهبه الإمام الرضا عليه السلام عشرين ألف درهم (سيد مرتضى، ١٣٧٣، ج: ١ / ص ٤٥٨).

للأئمة عليهم السلام نسبت بعض الأبيات وحتى نسبت كمية قليلة من الأبيات والأراجيز إلى النبيوإن رفضت الشاعرية عن النبي رفضاً متفقاً عليه تقريباً إلا أن انتساب الأشعار والدواوين للأئمة عليهم السلام

أمر لاغبار عليه؛ فالإمام الحسين عليه السلام مثلاً حين احتدام الحرب في ساحة كربلاء أخذ ينشد أبياتاً ذات رنين نافذ وبحماس لاحماس بعده ومن هذه الأبيات التي رويت على المنابر وفي كتب المقاتل هي:

يَا دَهْرُ أُفٍّ لَكَ مِنْ خَلِيْلِ كَمْ لَكَ فِي الْإِشْرَاقِ وَالْأَصِيْلِ

وأم النبي السيدة آمنة عليها السلام كانت شاعرة وقد ذكرت أشعارها في المصادر العربية والأجنبية وإن ثبت نفي الشاعرية عن النبي فلاشك في أنه كان يميل إلى الشعر الرحماني ويحبه ويشجع من يقول الحق من وراء أشعاره؛ فما تبقّت من الأحاديث عن النبي يؤيد ذلك فهو كان يقول: "إن لله كنوزاً تحت العرش مفاتيحه ألسنة الشعراء" (راجع: سپهر، ١٣٨٥/ ٧٥).

جيء بالإمام الهادي عليه السلام إلى مجلس المتوكل فقال له أنشدني شعراً فقال: إني قليل الرواية للشعر، قال المتوكل لابد من ذلك؛ فأنشد الإمام الأبيات الآتية:

بَاتُوا عَلَى قُلَلِ الْأجبَالِ تَحْرُسُهُم غُلْبُ الرِّجالِ فَلَم تَنْفَعْهُمُ الْقُلَلُ
وَاسْتَنْزَلُوا بَعْدَ عِزٍّ عنْ مَعَاقِلِهِمْ وَأَسْكَنُوا حُفَراً يَا بِئْسَمَا نَزَلُوا
نَادَاهُمُ صَارِخٌ من بَعْدَ دَفْنِهِمُ أَيْنَ الْأَسَرةُ وَالتِّيْجَانُ وَالْحُلَلُ؟

(راجع: قمي، السابق، ج: ٢ / ٧٩٤)

إنّ الأحاديث والروايات التي تناولتها أيدينا ترشدنا إلى مواقف ستّة تجاه الشعر والشعراء:

القسم الأول: الروايات التي تنكر دفتي الشعر إنكاراً لاتسمح له بالقبول؛ فمن هذه الروايات ما ورد عن الرسول: " لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خير من أن يمتلئ شعراً"؛ وقد ورد عن أمير المؤمنين: " يانوف إياك أن تكون عَشَّارَاً أو شاعراً أو شرطياً أو عريفاً أو صاحب عرطبة وهي الطنبور أو صاحب كوبة وهو الطبل فإن نبي الله خرج ذات الليلة فنظر إلى السماء فقال: إنها الساعة التي لايرد فيها دعوة إلا دعوة عريف أو دعوة شاعر أو شرطي أو صاحب عرطبة أو صاحب كوبة " .

القسم الثاني: ما تدل على جواز إنشاد الشعر أو قراءته وما ورد في هذا الباب عدد غفير: سئل الإمام علي من هو أول شاعر أنشد الشعر؟ قال: آدم. فسئل كيف كان شعره؟ قال: عندما هبط آدم إلى الأرض ورأى ما فيها من تراب وطقوس وشاهد قتل هابيل بيد قابيل أخذ ينشد:

تَغَـيَّرَتِ الْبِـلَادُ وَمَـنْ عَلَيْهَـا فَوَجْـهُ الْأَرْضِ مُغْـبَرٌّ قَبِيْـحٌ
تَغَـيَّرَ كُلُّ ذِي لَـوْنٍ وَطَعْـمٍ وَقَـلَّ بَشَاشَـةُ الْوَجْـهِ الْمَلِيْـحِ

رغـم أنّ آدم ﷺلم يكـن لينشـد الشـعر باللغـة العربيـة ويكـون هـذا الحديـث وأمثالهمـن بـاب الرمـز إلا أن هـذه الأحاديـث تدلّعـلى اهتـمام الإمـام الحسـين ﷺ بالشـعر.

ونقل الطبرسي عن الشعبي يقول: كان أبوبكر يقول الشعر وكان عمر يقول الشعر وكان علي أشعر الثلاثة.

القسـم الثالـث: مـا أنكـر الشـعر ونهـى عنـه في زمـان أو مـكان خـاص ففـي روايـة الكلينـي عـن السـجادعليه السـلامروي عـن الرسـول أنـه قـال: مـن سـمعتموه ينشـد الشـعر في المسـاجد فقولـوا: فـض الله فـاك، إنـما نصبـت المسـاجد للقـرآن. وقـال الصـادق عليـه السـلام: يكـره روايـة الشـعر للصائـم والمحـرم وفي الحـرم وفي يـوم الجمعـة وأن يـروى بالليـل، قـال: قلـت: وإن كان شـعر حـق؟ قـال: وإن كان شـعر حـق.

القسـم الرابـع: يحتـوي عـلى الروايـات التـي تـذمّ الإكثـار مـن روايـة الشـعر الباطـل وقراءتـه ومـن هـذه الروايـات مـا رواه الشـيخ الطـوسي: سـألته عـن نشـيد الشـعر هـل ينقـض الوضـوء أو ظلـم الرجـل صاحبـه أو الكـذب، فقـال: نعـم، إلا أن يكـون شـعراً يصـدق فيـه أن يكـون يسـيراً مـن الشـعر، الأبيـات الثلاثـة أو الأربعـة فأمـا أن يكثـر مـن الشـعر الباطـل فهـو ينقـض الوضـوء.

القسـم الخامـس: مـا يبيـح إنشـاد الشـعر والتغنـي بـه للمسـافر؛فقال الشـيخ الصـدوق نقـلاً عـن النبـي زاد المسـافر الحـداء والشـعر، مـا كان منـه ليـس فيـه خنـى؛ وقـد فتـح صاحـب الوسـائل بابـاً في هـذا الموضـوع وقـد سـماه بـاب اسـتحباب الاسـتعانة عـلى السـفر بالحـداء والشـعر دون الغنـاء ومافيـه خنـى.

والقسـم السـادس: مـا تقـوم بتشـجيع الشـعراء عـلى إنشـاد الشـعر في فضائـل أهـل البيـت ومناقبهـم وتجسـيد المصائـب التـي حلـت بهـم ولاسـيما مـا طـرأ عـلى الإمـام الحسـين ﷺ(راجع: كلانـتري، السـابق / ٩٨-١٠١).

يتبيّن مما ورد في السطور الماضية موقف النبي والأئمة تجاه الشعر والشعراء ، إن إطلاق الحرمة التامة غير المقيدة بشروط على الشعر لم تكن رؤية صائبة ولاتقوم لها قائمة بل الشعر ينزاح عن الصراط المستقيم ويجتاز الدين القويم إذا أصبح أداة لهو ولعب أو مهنة لاطائل تحتها وكأنها لغو والمؤمنون عن اللغو معرضون.

والأحاديـث التـي منعـت الشـعر في مواضـع خاصـة وفي ظـروف محـددة تقيّدهـا وتوضحهـا أحاديـث أخـرى أمثـال مـا روي عـن الإمـام الكاظم ﷺحيث سـئل عـن الشـعر أيصلـح إنشـاده في المسـجد؟ فقـال: لابـأس.

وفي مجمـع البيـان ووسـائل الشـيعة روي عـن خلـف بـن حمـاد: قلـت للرضـا ﷺإن أصحابنـا يـروون عـن آبائـك

أنّ الشعر ليلة الجمعة وفي شهر رمضان وفي الليل مكروه وقد هممت أن أرثي أبا الحسن وهذا شهر رمضان. فقال لي: إرث أباالحسن في ليلة الجمعة وفي شهر رمضان وفي الليل وفي سائر الأيام فإن الله يكافئك على ذلك.

عناية النبي وآل البيت بالشعراء

ومما يدلّ على إباحة الشعر هو سبق الشيعة في فنونه ، والظاهر أن شعراء الشيعة في كل عصر في الدرجة الرفيعة وقد عني النبي وآل البيت عليهم السلام بالشعراء الملتزمين وهذه العناية تدل على الدور المهم الذي يلعبه في المجتمع وعدم حرمته بل استحبابه في بعض الأحايين؛ ومن هؤلاء الشعراء يمكن الإشارة إلى:

السيد الحميري

السيد إسماعيل بن محمد أبو هاشم الحميري، والسيد لقبه، يراد به سيد الشعراء، اسمه اسماعيل بن محمد بن زيد ابن ربيعة من حمير، كان من مشاهير الشعراء في وقته بالكوفة وكان مجيداً مكثراً لامكثر يعدله كان شيعياً مجاهراً. قد أكثر الناس الوضع والكذب فيه، ونسبوه إلى الفسوق، والوجه فيه ظاهر وكان في أول الأمر كيسانياً ثم استبصر واتبع الحق على يد أبي عبدالله الصادق عليه السلاموهو القائل في ذلك:

تَجَعْفَرْتُ بِاسْمِ اللهِ وَاللهُ أَكْبَرُ وَأَيْقَنْتُ أَنَّ اللهَ يَعْفُو وَيَغْفِرُ
وَكُنْتُ بِدِيْنٍ غَيْرَمَا كُنْتُ داينا هَدَانِي إِلَيْهِ سَيِّدُ النَّاسِ جَعْفَرُ

وقد صح ترحم أبي عبد الله الصادق عليه السلام عليه ثلاثاً كما في كتاب عمرو الكشي.

دعبل

ليس لدعبل ذكر فيمن كان بخدمة الإمام الرضا عليه السلام في سفره إلى خراسان، وإنما الذي في الرويات أن دعبل قصد الإمام الرضا عليه السلام وأقام عنده سنة مئتين وأنشده قصيدته التائية المعروفة بـ"مدارس آيات"وخلع عليه الإمام قميص خز صغير، وخاتم فضة عقيق وأعطاه دراهم رضوية وقال له عند توجهه إلى قم احتفظ بهذا القميص فإني صليت فيه ألف ليلة وألف ركعة، وختمت فيه القرآن.

وكان دعبل لايمدح الملوك وكثرت طعونه في أعداء أهل البيت كان مرهوب اللسان، قوي الإيمان، لاتأخذه في الله لومة لائمومن ذلك قوله:

قُـلْ لِابْـنِ خَائِنَـةِ الْبَعُـولِ وَابْـنُ الْجَـوَادَةِ وَالْبَخِيْـلِ
إِنَّ الْمُذِمَّـةَ لِلْـوَصِيِّ هِـيَ الْمُذِمَّـةُ لِلرَّسُـولِ
أَتَـذُمُّ أَوْلَادَ النَّبِـيِّ وَأَنْـتَ مِـنْ وَلَـدِ النَغُـولِ

ورآه البعض في المنام وعليه ثياب بيض وقلنسوة بيضاء فسأله عن حاله فأخبره أن رسول الله استنشده قوله:

لاأضحك الله سن الدهر إن ضحكت وآل أحمد مظلومون قد قهروا؛

فقال له أحسنت فشفع له وأعطاه ثيابه التي عليه.

النابغة الجعدي

حينما قرأ النابغة الجعدي شعره على النبي:

بَلَغْنَا السماء مَجْدَنَا وَجُدُودَنَا وَإِنَّا لَنَبْغِي فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرَا

استحسنه وسأله في غايته عن ذلك فقال: الجنة، فقال: قل إن شاء الله (راجع: صدر، د. ت / ١٨٤-٢٢٥).

الشريف أبو الحسن

اسمه: الشريف أبو الحسن الشريف بن محمد طاهر الفتوني، عالم دين شيعي من أصول عاملية، فقيه ومحدّث. كنيته: أبو الحسن، وهو ليس من الأشراف بني هاشم كما قد يتبادر من اسمه.

كان في العلوية من الشهرة في الشعر والأدب والطبع كعبد الله بن المعتز في العباسية، وكان يقول أنا شاعر وأبي شاعر وجدي شاعر إلى أبي طالب. كان أشعر أهل زمانه بشهادة إمام زمانه قال علي بن نديم دخلت على المتوكل وعنده ابن الرضا فقال يا علي من أشعر الناس في زماننا فقلت: البحتري؛ قال: وبعده قلت: ولد مروان ابن أبي حفصة خادمك وعبيدك فالتفت إلى ابن الرضا ﷺ وقال: يا ابن عم من أشعر زماننا قال ﷺعلي بن محمد العلوي، قال ما تحفظ من شعره قال ﷺقوله:

لَقَدْ فَاخَرَتْنَا مِنْ قُرَيْشٍ عُصَابَةٌ بِمَطِّ خُدُودٍ وَامْتِدَادِ الْأَصَابِعِ
فَلَمَّا تَنَازَعْنَا الْقَضَاءَ قَضَى لَنَا عَلَيْهِمْ بِمَا تَهْوِى نِدَاءُ الْصَّوَامِعِ

(راجع: السابق)

الكميت

كان في كميت عشر خصال لم تكن في شاعر؛ كان خطيب أسد وفقيه الشيعة، وحافظ القرآن العظيم، ثبت الجنان وكان كاتباً حسن الخط، وكان نسابة وكان جدلاً وهو أول من ناضل في التشيع وكان رامياً لم يكن في أسد أرمى منه وكان فارساً شجاعاً سخياً ديناً وكان شهيراً بالتشيع مجاهراً في ذلك وقصائده الهاشميات من جيد شعره . . . لقي الإمامين أبا جعفر الباقر وأباعبدالله وأنشدهما قصائده فدعوا له وأثنيا عليه، وكذلك قبلهما لقي الإمام علي بن الحسين السجاد ودعا له بأمور من الخير ومنها الشهادة، فاستشهد في أيام مروان (السابق / ١٨٤).

عبدالله بن الغالب

عبدالله بن غالب أبوعلي الأسدي الشاعر، كان من شعراء أهل البيت كثير الشعر فيهم، قال له أبوعبدالله الصادقعليه السلامذات يوم وقد أنشده شعراً: إن ملكاً يلقي الشعر عليك وإني أعرف ذلك الملك.

إنه شاعر فقيه على قول النجاشي ، ولقبه بالثقة لدى أبي جعفر وأبي عبدالله وأبي الحسن (راجع: السابق) وكفى بذلك مدحاً للشاعر وتحسيناً له.

الاستدلال بالشعر لاستيعاب فحوى القرآن

يستدل أهل اللغة والتفسير في استيعاب القرآن ودركه بما ورد في أشعار الشعراء فعن عامر بن شراحيل: ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ (النازعات ٧٩ : ١٤)؛ قال الساهرة بمعنى الأرض على أساس ما أورد أمية في أبياته:

وَفِيْهَا لَحْمُ سَاهِرَةٍ وَبَحْرُ وَمَا فَاهُ بِهِ أَبَداً مُقِيْمُ

(عبد الغني، السابق / ٨٨و٨٩)

من الأدلة الأخرى التي تحكم فتل العقيدة التي تقول بعدم معاداة الإسلام للشعر؛ هو السياق القرآني العذب الذي يميط بالقلوب ويسلب العقول فهذا النص المعجز لايمكن إدراكه ولايروق للناس إلا بعد تجربة مشابهة فالشعر قد مهد الأرضية المناسبة لقبول القرآن إلى مستوى الإعجاز اللساني وقضية التحدي القرآني وانتساب تهمة الشعر إليه خير برهان على استحضار الشعر في تلك الآونة وقد أثّر أثراً ملحوظاً في ردود الأفعال آنذاك.

جميع الصحابة ومن له دور بارز في الإسلام قد ولج دائرة التفسير ومن أشهر هؤلاء ابن عباس " فهو

أكثر الصحابة تفسيراً وقد حمل تفسيره الكثير من التابعين وهو يعدّ المؤسس الحقيقي لعلم التفسير فهو الذي نهجه ووضع أصوله واشتهر بأنه يرجع إلى أهل الكتاب في قصص الأنبياء وأنه كان يعتمد على الشعر القديم في تفسير ألفاظ القرآن الكريم" (عبدالحليم، لا. ت / ٤٥-٥٠).

ونماذج الاستناد إلى الشعر القديم لتبيين القرآن وألفاظه كثيرة منها:

حينما "أشكل على عمر بن الخطاب معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (النحل ١٦: ٤٧) فقام في المسجد وسأل عنها فقام إليه رجل من هذيل فقال معناها: "على تنقص" ثم استند إلى البيت الآتي من شاعر هذلي يصف سرعة ناقته:

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ مِنْهَا تَامِكَاً قِرَدَاً كَمَا تَخَوَّفَ عَوْدُ النَّبْعَةِ السُّفُنُ

أي: أخذ الرحل يحتك بسنام الناقة من سرعتها، حتى كاد ينقص كما يبري البحار عود السفينة بالسكين لينقص منها. فقال عمر: أيها الناس عليكم بديوانكم لايضلُّ. فقالوا وماديواننا: قال شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم (راجع: السابق: نقلاً عن السيوطي، ٢٠٠٣، ج١، ص ٢٢٩).

وسئل ابن العباس عن تفسير بعض المفردات في الآي الكريمة فاستدل بكل معنى من المعاني بديوان العرب نحو:

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ (المعارج، ٧٠ / ٣٧). قال في معنى عزين أنه "حلق الرفاق" واستشهد ببيت عبيد بن الأبرص حيث قال:

فَجَاؤُوا يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ حَتَّى يَكُونُوا حَوْلَ مَنْبَرِهِ عَزِيْنَا

وسأل نافع، ابن العباس عنمعنى "الوسيلة"في الآية التالية: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ (المائدة٥ : ٣٥)؛ قال: "الوسيلة" الحاجة، ثم أورد بيت عنترة العبسي إذ يقول:

إِنَّ الرِّجَالَ لَهُمْ إِلَيْكَ وَسِيْلَةٌ إِنْ يَأْخُذُوكَ تَكَحَّلِي وَتَخَضَّبِي

وفي معنى "الشرعة" و"المنهاج" في الآية: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة، ٥، ٤٨)؛تمسك ببيت أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:

لَقَدْ نَطَقَ الْمَأْمُونُ بِالصِّدقِ وَالْهُدَى وَبَيَّنَ لِلإِسْلَامِ دِيْنَاً وَمَنْهَجَاً

(راجع: عبد الحليم، السابق)

فعليه يتبين الدور الحاسم للشعر لا في نشر الإسلام في أنحاء البلدان فحسب؛ بل في تبيين المصحف الشريف وفك شيفراته الدلالية الغامضة ويكفي هذا على أن نشيد براية الشعر عامة والشعر الرحماني خاصة على أنه مدرسة يتدرّب فيه طلاب أكلوا مر الزمان وحلوه كي يصيبوا بلآلئ من محيط القرآن الذي لا ينضب له معين.

النبي والأئمة نقادا للشعر

يروي أبوالفرج أنّ النبي قددخل المسجد وكان كعب ابن مالك مشتغلاً بإنشاد الشعر فبينما هو ينشد الشعر إذ رأى الرسول فسكت بانقباض فسأله النبي عما كان منشغلاً به فأخبره بإنشاده الشعر فطلب النبي مواصلة الشعر فواصل إلى أن أنشد:

مقاتلنا عن جذمنا كل فخمة مذربة فيها القوالس تلمع

. وعن أنس بن مالك روى أن النبي كان قد حضر في مجلس لم يكن فيه إلا الخزرجيون فطلب منهم أن ينشدوا ما قرضه قيس بن الخطيم فأنشده واحد منهم إلى أن قال: أجاد لديهم يوم الحديقة حاسراً كأن يدي بالسيف مخراق لاعب، فسأل النبي عن كيفية الإنشاد وأصالته وهل ينطبق ما أُنشد على الإنشاد الأصيل أو لا؟ (راجع: القمي، السابق) فكما قام النبي (صلى اله عليه واله) بتقييم الشعر، فإنّ الأئمة كذلك نقدوا الشعر وقاموا بتمييز خبيثه من جيده.

فعندما كان الناس محتشدين في سمرة يتجاذبون أطراف الحديث في الشعر وما يتعلق به وقد احتدمت مناقشاتهم وارتفعت أصواتهم ففي هذه الآونة أدار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وجهه صوب الناس قائلاً: كل شعرائكم محسن؛ ولو جمعهم زمان واحد وغاية واحدة ومذهب واحد في القول، لعلمنا أيّهم أسبق إلى ذلك وكلهم قد أصاب الذي أراد وأحسن فيه وإن يكن أحد فضلهم فالذي لم يقل رهبة ولارغبة امرؤالقيس ابن حجرفإنّه كان أصحّهم بادرة وأجودهم نادرة؛فيتشكل نص هذا الحديث من أربعة أقسام قيمة وكلها تزيح الستار عن أبعاد النقد الإسلامي؛ قد بيّن في القسم الأول أنّ جميع الشعراء بغض النظر عمّا ينتمون إليه من أنساب أو ما يعيشون فيه من عصور قد أجادوا في فنّهم ففساد شخصية الشاعر لايحط من

قيمة فنّه ورقي شعره وذلكما أمران متباينان فاختار الإمام نفسه جودة شعر إمرئ القيس على الرغم من أنه حامل لواء الشعراء إلى الجحيم على حد التعبير المنسوب إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

ويتمخّض من الفرع الثاني أنّ بداهة النقد الذي اتكل عليه الجاهلي من دون النظر إلى غاية الشاعر ومذهبه لايكون إلا سدى ، ذلك أنّ مقارنة شاعرين مختلفي العصر ومقارنة قصيدتين بشتى الأغراض المتباينة فمثلاً مقارنة الهجاء والمديح قياس لايستقيم لأية قاعدة عقلية فيطرح هذا القياس وينبذ إلى أبعد مايكون.

وما ورد في القسم الثالث لايكون إلا توكيداً للقسم الأول؛ ثم القسم الرابع أي القسم الأخير يصطفي فيه الإمام من الشعراء من هو أجودهم شعراً.

فمهما يكن من أمر فإن نقد النبي ونقد الإمام للشعر واستحضاره مثل هذا الموقف من الأدلة القاطعة التي تدلّ على أن باقة من الأشعار غير القليلة تنبسق من شجرة طيبة حيث يصلح، فالشعر نفسه لا يرفض رفضاً تاماً ولا يعد الكلام بسبب قولبته في إطار شعري، شجرة زقوم تشمئز منه القلوب والآذان بل من الشعر ما عظم قدره وجلّ شأنه فلاضير من تمييز خبيثه من طيبه.

فسكب الشعر في ميزان النقد ومعالجة ذمّه أو استحسانه وما يحمل من إرهاصات وتبعات إن دلّ على شئ فهو يدل على الأهمية الباهظة التي تتمتّع بها هذه الظاهرة والدور الريادي الذي تلعبه في المجتمعات البشرية. (راجع: شهيدي؛ ١٣٦٥ / ٦).

وعن محمد بن يحيي الفارس، قال: "نظر أبو نواس إلي أبي الحسن عليّ بن موسي الرضاعليه السلام ذات يوم وقد خرج من مجلس المأمون علي بغلة له، فدنا منه أبو نواس، فسلّم عليه وقال: يا ابن رسول الله! قد قلت فيك أبياتاً، فأحبّ أن تسمعها منّي، قالعليه السلام: هات! فأنشأ يقول:

مُطَهَّرُونَ نَقِيَّاتٌ ثِيَابُهُمُ تَجْرِي الْصَّلَاةُ عَلَيْهِمْ أَيْنَمَا ذُكِرُوا
مَنْ لَمْ يَكُنْ عَلَوِيَّاً حِيْنَ تُنْسِبُهُ فَمَا لَهُ مِنْ قَدِيْمِ الْدَّهْرِ مُفْتَخَرُ
فَاللهُ لَمَّا بَدَا خَلْقَاً فَأَتْقَنَهُ صَفَّاكُمُ وَاصْطَفَاكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ
فَأَنْتُمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى وَعِنْدَكُمُ عِلْمُ الْكِتَابِ وَمَا جَاءَتْ بِهِ الْسُّورُ

فقال الرّضا عليه السلام قد جئتنا بأبياتٍ ما سبقك إليها أحد، ثمّ قال: "يا غلام هل معك شيء، فقال: ثلاث مائة دينار، فقال: أعطها إيّاه، ثمّ قال: لعلّه استقلّها، يا غلام سق إليه البغلة" (المجلسي، د. ت / ٢٣٥)، فيحكم الإمام الرضاعليه السلام على القصيدة بالجودة إذ قال: "ما سبقك إليها أحد".

الاعتراف بظاهرة ملاك الشعر والإقرار بها

لغة الشعر لغة تنزاح عمّا يكون عليه الكلام الاعتيادي وكثير من الأنظمة الفكرية المتواجدة في مختلف الثقافات تعتقد ذلك والتباين الغائر في النظام الشعري جعلت منه عند عامة الناس وخاصتهم كلاماً تقذفه طاقة ماورائية خارقة إلى لسان الشاعر وتلهمه إياه، فـ"إلهة الشعر" و"شيطان الشعر" و"ملاك الشعر" هي المصطلحات الناتجة عن هذا المعتقد وهو يتمظهر أكثر ما يتمظهر في أساطير اليونان والفكرة الجاهلية ، وقد تراءت هذه الفكرة في مرآة الثقافة الهندية واليابانية أيضاً (راجع: آقا حسيني، لا. ت / ص٧٥).

فعبقرية العربي الجاهلي تجد نفسها في باحة الشعر وكان الشاعر عندهم هو الشخص الذي اصطفاه الجني وألهمه ما ألهمه بعد هذا الاصطفاء؛فكان الجني في اعتقادهم يحطّ على صدر الشاعر ويُكرِهُه على أن يكون الناطق باسمه للناس. وهذه هي بصيصة الشعر ونواته عند الشاعر على ما يعتقده الجاهلي.

فمنذ تلك الآونة تنعقد بين الشاعر المجنون والجن علاقات حميمة وكان يحظى الشاعر لأجل هذه الخصيصة في المجتمع الجاهلي بالمكانة المرموقة حتى لقب بالقائد.

وقد نسبوا بعض الشعر إلى الجنّ منه قولهم:

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

فهذه الطقوس مهدت الأرضية المناسبة لاتهام الرسول بالشاعرية واعتبار القرآن شعراً. لأن هؤلاء الجاهليين في لم يتصوروا أن كلاما يفوق الكلام البشري هو نتاج بشر بل هو صادر من الجن؛ فلذلك يصرح القرآن مجاهرا بنفي الشاعرية عن الرسول ونفي الكهانة والجنون عنه. فامتزجت هذه الفكرة امتزاجاً وثيقاً بالفكرة الجاهلية إلى أن أصبحت لحمة تغطي شتى الأفكار حتى بعد نزول الإسلام وقد اعترف الشعراء بهذه الظاهرة حيث يقول أبوالنجم العجلي:

إِنِّي وَكُلَّ شَاعِرٍ مِنَ الْبَشَر شَيْطَانُهُ أُنْثَى وَشَيْطَانِي ذَكَرْ

ويقول شاعر آخر اعترافاً بهذه القضية:

إِنِّي وَإِنْ كُنْتُ صَغِيْرَاً سِنِّي فَإِنَّ شَيْطَانِي كَبِيْرَ الْجِنِّ

وعن أبي العلاء المعري يقول: "إن لكل شاعر شيطاناً يقول الشعر على لسانه". وقد استوت هذه القضية على سوقها عند النبي والأئمة عليهم السلام وفي تعابيرهم وإن لم تكن كما اعتقدها الجاهلي بل هناك إشارات إلى تأييد ملاك الشعر حينما أشاد النبي بشعر حسان حيث يؤيده روح القدس؛ فتأييد الملك روح القدس يعد تأييداً لظاهرة ملاك الشعر على ما لابأس به في الإسلام. وما قاله أبوعبدالله عليه السلام لعبد الله الغالب الأسدي: إن ملكاً يلقي عليه الشعر وإني أعرف ذلك الملك (راجع: الكشي، ٢٨٨٠ تحت الرقم: ١٧٦) لايكون هذا إلا التصريح بظاهرة ملاك الشعر وتبعاً لهذا التصريح ينبعي تأييد الشعر الرحماني من دون غيره لأنه يخضع للتصديق الغيبي وهذا ما تؤيده الرواية السابقة.

فالتصريح بفكرة ملاك الشعر والبوح بها من أهل البيت بغض النظر عن كيفية هذه اللمحات يؤيد الشعر ويغلفه بدروع الاستحسان والقبول مما يمكن أن يتخذ حجة على الذين يرفضون الشعر بمجاميعه ، رديئه وجيده خبيثه وطيبه، ثم إنّ التعبير عن هذه الظاهرة بملاك الشعر بدلاً عن شيطان الشعر يواري الدلالات الثنائية التي يتمكّن أي شخص من الأشخاص أن يلتقطها؛ فالشعر المرفوض ينبع عن الشيطان الذي يوسوس في الصدور والشعر المقبول لاينجم إلا عن وحي ملاك أو يحظى بتأييده له.

فصل الخطاب في ثنائية الشعر

وأخيراً نستخلص مما تطرق البحث إليه من رطب الآراء ويابسها حيال الشعر، أنّ الشعر لم يكن في نفسه خاضعاً لأن يوصف بالسلب أو الإيجاب بل فحواه والهدف من إنشاده هو المحور الأساس في توجيه الشعر توجيه رفض أو توجيه قبول فكما روي عن الرسول عندما سئل عن الشعر؛ فقال: هو كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح.

إن صح ما روي عن الرسول في ذم الأشعار فبجانبه روي عنه ما يدل على رؤيته الإيجابية إذ قال: إن من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحراً.

ثم إنه لابد من تمييز خبيث الكلام من جيده لأن الشعر كلام مؤلف فما وافق الحق منه فحسن ومالم يوافق الحق منه فلا خير فيه. وقال: عليه الصلاة والسلام إنما الشعر كلام فمن الكلام خبيث وجيد.

حصيلة البحث

ما يتمخض من البحث هو:

أولاً: الثنائية التي أوجدتها النقاشات في دائرة الشعر والشاعرية في الرؤية الإسلامية من واجهتي السلب والإيجاب لم تكن ثنائية بحتة لا انسجام لشبكتها المتمفصلة بل هي تنحلّ وتزداد تماسكاً بالنظر إلى ما تبقّى من الروايات والأحاديث وما ورد في خضمّ التفاسير المأثورة إذ تقسم الشعر إلى ما يسمى بالشيطاني والرحماني فالأول شجرة خبيثة لاينبعث عنها إلا الفحشاء والمنكر؛فلاغرو في ذمّه والدعوة على قلعه وخلع جذوره من المجتمع الإسلامي كيلا يصيب بداء الفساد العضال؛ أمّا الثاني فهو الشعر الرحماني الذي لايكون إلا ما يشيد براية الحق ويقوم ببناء صرح الإسلام الممجّد بأحسن ما يكون من طريقة وأصحابه هم المؤمنون الخلص الذين يجاهدون في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم وألسنتهم، هم الذين يحذون حذو الرسول صلى الله عليه وآله ولايفتأون يذكرون الله آناء الليل وأطراف النهار وقد نالوا مانالوا من ثناء الرسول والائمة الأطهار صلى الله عليه وآله.

ثانياً: الاشارة إلى ظاهرة ملاك الشعر عند النبي والأئمة الطاهرين يعد وثيقة محترمة للشعر والشعراء الذين عبروا قنطرة الوساوس الشيطانية ليعمروا جدران الديانة الإسلامية؛ وهذا الأمر يحكم فتل الثنائية المطروحة في ساحة الإسلام ذلك أنّه يوجّه قيمة الشعر الإيجابي حيث يرتفع بهإلى أن يعدّ له وظيفة إيحائية لينفخ في صور الحق ويُسمعه إلى القلوب المتعطشةخلافاً للشعر الشيطاني الذي لا يكون إلا نفثة شيطانية ترمي بصاحبه إلى غياهب جب الضلال وأغوار مهالك القفار.

ثالثاً: لا شك أن ما خضع للنقد يكون أمراً قيماً يصلح للنقاش والتقييم النهائي فإذا الشعر وما يتعلق بهتمكّن من الوقوع في موضع الغربلة يدلّ هذا على الأهمية البالغة التي يتمتع بها، بغض النظر عن الكيفيات أو الأدوار التي يلعبها في مختلف الميادين؛ فهذه الأهمية تحول دون النبذ الشامل لهذه الظاهرة العريقة. فالتركيز ووضع العدسة المكبرة عليها من جانب النبي والأئمة أدّت إلى تضافر الثنائية التي عانى منها من عانى ردحاً من الزمن. فالشعر الطيّب الذي يفوح بالمعاني الشّيقة محبذ والشعر المعادي للأعمدة التي وضع نطاقها الإسلام كلام محرّم إنشاده ومطرود من تفوه به.

رابعاً: لم يكن الدور الذي لعبه الشعر حكراً على نشر رسالة الرسول في أوساط الناس وجماعاتهم ،فالشعر الذي كان مهداً لحضارة العرب العريقة؛ بعد ما حلّ الإسلام ونزل المصحف الشريف أصبح معجماً بليغاً وموسوعة كبرى تحل العقد العويصة التي تواجدت في فهم لغة القرآن وقد جهز المفسرين بجهاز صالح أنيق؛ فهذه البصمة التي تركتها بنان الشعر على لوحة تاريخ الإسلام بصمة حاسمة لايمكن صرف الوجه عنها. فالشعر وإن لم يكن رحمانياً بحتاً وإن كان قد وصف حياة بسيطة من دون زخرفة، لكنه بريشته رسم على لوحة الأذهان عناقيد الدلالات اللائقة في صدر التفاسير ورفدها بأدقّ المعاني وبه انكشف جانب من معجزة القرآن العظيم والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

المصادر العربية

القرآن الكريم

١. آقاحسيني، حسين، (١٣٨١). فرشته شعر. مجله دانشكده ادبيات وعلوم انساني تبريز، شماره ١٨٦، ص: ٧٣-٩٤.

٢. ابن حيون، نعمان بن محمد مغربى(١٣٨٥ ق).دعائم الإسلام.محقق ومصحح: فيضى، آصف. لا.ط،قم: مؤسسة آل البيت عليهم السلام.

٣. أحمد عاصي، عبدالكريم، (٢٠١٠م). موقف الإسلام من الشعر والشعراء. مشروع تطبيقي في دراسة الأدب مقدم الى مركز تطوير التدريس والتدريب الجامعي دورة التأهيل التربوي الثامنة أنجز هذا التطبيق بتاريخ ٨ / ١ / ٢٠١٠

٤. حجتي‌نيا، سيد ناصر، (١٣٧٢). فلسفه وكلام: درسهايي از مكتب اسلام، شماره ٥، ص: ٥٠-٥٦.

٥. سپهر، محمد تقى لسان الملک،(١٣٨٤). ناسخ التواريخ حضرت امام حسن مجتبى عليه‌السلام، به تصحيح و حواشى بهبودى، محمدباقر،چاپچهارم،تهران:كتابچى.

٦. السيوطي، (لا. ت). الازدهار فيما عقده الشعراء من الأحاديث والآثار. المأخوذ من الموقع: / / :http to pdf: www. al-mostafa. com

٧. الشريف الرضي، محمد بن حسين(١٤١٤).التحقيق: صبحي صالح،نهج البلاغة(للصبحي صالح)، لا.ط، قم: هجرت.

٨. الشريف الرضي، محمد بن حسين(١٣٨٨). مترجم: محمد دشتي،نهج البلاغة،الطبعة السادسة، قم: انتشارات نشتا.

٩. شيخ حر عاملى، محمد بن حسن(١٤٠٩ ق). وسائل الشيعة،المحقق و المصحح: مؤسسة آل البيت عليهم السلام،قم:مؤسسة آل البيت عليهم السلام.

١٠. صدر، سيد حسن، (١٣٧٣) تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، بغداد: شركة النشر والطباعة العراقية.

١١. صدوق، محمد ابن علي، (١٣٧٨). عيون أخبار الرضاعليه السلام، تهران: انتشارات جهان.

١٢. طبرسى،فضلبنحسن(١٣٧٢ ش). مجمع البيان فى تفسيرالقرآن، لا.ط، تهران: انتشاراتناصرخسرو.

١٣. الطوسي، حسن بن علي، (١٣٤٨). رجال الكشي، دانشگاه مشهد: منشورات مركز تحقيقات و مطالعات دانشگاه الهيات.

١٤. العاملي، محمد بن الحسن الحرّ، (١٤١٢)وسائل الشيعة، الطبعة الأولى، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

١٥. عباس، دلال(٢٠٠٩م). القرآن والشعر، الطبعة الأولى، بيروت- لبنان: دار المواسم للطباعة والنشر والتوزيع.

١٦. عبد الحليم، مخلوف، (لا. ت). دور الشعر في تفسير القرآن. المأخوذ من الموقع:

١٧. . www. grad. ftu. ac. th / main / images / . . / page29-45. Pdf

١٨. القدادي الزهراني، عبدالله بن علي بن محمد، (٢٠٠٧م). دعوى ضعف الشعر في عصر صدر الإسلام عند القدامى والمحدثين، رسالة ماجستير نوقشت بإشراف الدكتور جهاد المجالي بجامعة مؤته.

١٩. القمي، الشيخ عباس، منتهى الآمال فى تواريخ النبى و الآل. (٢٠٠٧). تقديم: جعفر مرتضى العاملي، ترجمة وتحقيق: هاشم الميلاني، الطبعة الأولى، الناشر: دار الجوادين.

٢٠. المجلسي، محمد باقر، (لا. ت). بحار الأنوارالجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار.محقق: محمد باقر المحمودي وعبد الزهراء العلوي، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٢١. المقدسي، عبدالغني، (١٤١٣هـ). أحاديث الشعر، تحقيق: خيرالله شريف، الطبعة الأولى، دمشق: الشريف.

٢٢. مفيد، محمد بن محمد(١٤١٣ ق).الأمالي(للمفيد)،المحقق والمصحح: استاد ولى، حسين وغفارى على اكبر،قم: كنگره شيخ مفيد.

المصادر الفارسية

شهيدي، سيد جعفر، (١٣٦٥). شعر واثر آن در اجتماع و نظر اسلام در باره آن. ادبيات وزبانها: رشد آموزشي زبان وادبيات فارسي. شماره ٦، ص: ١٠-٦.

كلانتري، علي أكبر (١٣٨٦). شعر وشاعرى از نگاه قرآن وحديث. فصلنامه انديشه دينى دانشگاه شيراز. پياپى ٢٤، ص ٨٩-١١٠

همتي، شهريار، ومحمد فاضلي. نگاهى به شعر ونقد آن در صدر اسلام . بيتا و بينا وبيجا.

الفِكْرُ الإقتِصَادِيُّ
فِي مَدْرَسَةِ أَهْلِ البَيْتِ عليهم السلام

Economic Thought in the Ahalalbayt School

أ.م.د.عبد الحليم العزمي الحسيني

مصر / جامعة حلوان / كلية التجارة / قسم الاقتصاد

Asst. Prof. Dr.`Abidalhaleem Alazmi Al-Husseini , Egypt

ملخص البحث :

معلـوم أن جوهـر الديـن الإسـلامي المحافظـة عـلى مصالـح النـاس كافـة؛ لأنـه ديـن العدالـة والاعتـدال، لذلـك كان مـن معـالم الاقتصـاد الإسـلامي زيـادة الإنتـاج وعدالـة التوزيـع وترشـيد الاسـتهلاك، وهـذا يعـود بـلا ريـب إلى حسـن التدبـير ودقـة التقديـر.

وان دراسـة الأفـكار الاقتصاديـة عنـد المسـلمين بعامـة وأهـل البيـت (عليهـم السـلام) بخاصـة تفيـد في تأصيـل بعـض الأفـكار الاقتصاديـة المعـاصرة أو المسـتحدثة عـلى أسـاس إسـلامي، وبيـان مـدى التـزام المفكريـن المسـلمين بالشريعـة الإسـلامية مـن جهـة، وبيـان التسلسـل التاريخي لهـذه الأفـكار الـذي نفيـد منـه معرفـة مـدى سـبق الفكـر الاقتصـادي الإسـلامي غـيره، وإسـهامه في فهـم النظريـات الاقتصاديـة الإسـلامية، وتكويـن علـم الاقتصـاد الإسـلامي مـن جهـة أخـرى.

Abstract:
As commonly agreed that the essence of the Islamic region is to preserve the interest of all people, as it is the religion of justice and moderation , so the sole target of the Islamic economy is to accelerate the acts of production, fair distribution and economic consumption , it is all definite for efficacious management and precise consideration.

Studying the economic viewpoints of the Muslims in general and Ahalalbayt in particular gives nurture to fathom the roots of certain contemporary economic ideas or some inventive one in accordance with Islamic bases , manifests the extent the Islamic thinkers delimit themselves to and states the historical hierarchy of such ideas to know their contribution in perceiving the Islamic economic theories and constructing economics.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على نبينا سيدنا محمد، وعلى آله أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد:

معلوم أن جوهر الدين الإسلامي المحافظة على مصالح الناس كافة؛ لأنه دين العدالة والاعتدال، لذلك كان من معالم الاقتصاد الإسلامي زيادة الإنتاج وعدالة التوزيع وترشيد الاستهلاك، وهذا يعود بلا ريب إلى حسن التدبير ودقة التقدير.

ودراسة الأفكار الاقتصادية عند المسلمين بعامة وأهل البيت بخاصة تفيد في تأصيل بعض الأفكار الاقتصادية المعاصرة أو المستحدثة على أساس إسلامي، وبيان مدى التزام المفكرين المسلمين بالشريعة الإسلامية من جهة، وبيان التسلسل التاريخي لهذه الأفكار الذي نفيد منه معرفة مدى سبق الفكر الاقتصادي الإسلامي غيره، وإسهامه في فهم النظريات الاقتصادية الإسلامية، وتكوين علم الاقتصاد الإسلامي من جهة أخرى.

ذلك لأن الإسلام دين واقعي فطري، ولذا فهو لا يعمل على إغفال الحقائق الخارجية ومنها الحقيقة الفطرية، ويسعى بكل الأساليب للارتفاع بمستوى الواقع إلى الشكل الأمثل.

وعلى هذا فقد لاحظ الإسلام- فى تصوره للوضع الاقتصادي السليم- واقع الإنسان ودوافعه وواقع المساحة التى يعيشها، ومن ثم وضع خطط لإسعاد المجتمع فى هذا المجال ضمن تخطيطه العام الأوسع.

وإذ لم نكن بصدد إعطاء النظرة الإسلامية فلا بد من الإشارة إلى خطوطها الرئيسة:

ما نعتقده أن الإسلام عيَّن المشكلة أولاً ثم راح يسعى للحل الجذري، وهذه المشكلة تتلخص فى أمرين (الظلم، والكفر بأنعم الله)، ولو ارتفعا فقد حلت المشكلة تمامًا.

فهذا القرآن الكريم بعد أن يذكر نعم الله، يعقب على ذلك بقوله تعالى: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) (النحل:١٨).

ومن هنا فإننا نجد الإسلام يصب كل جهوده لرفع هذين الجانبين من المشكلة فيعمل على تحقيق ما يأتي:

أولاً: تنمية الإنتاج والاستفادة القصوى من النعم الموفرة.

وثانيًا: تحقيق العدالة الاجتماعية والقسط، وقد أكد هذا كثيرًا فى مختلف نصوصه، ومنها جعل القسط أحد أهداف الأنبياء الكبرى.

وهو يرى- هنا- أن القسط لا يتحقق إلا إذا تحقق مبدآن هما:

أ- التكافل الاقتصادي.

ب- التوازن فى مستوى المعيشة.

وهما أمران يشترك الشعب والحكومة فى القيام بأعبائهما على اختلاف بين المسؤوليات.

ولكي يتحقق التوازن الاقتصادي فى مستوى المعيشة يجب العمل على الارتفاع بالطبقة الفقيرة إلى حد (الغنى)، وهو الحد الذى يوفر للإنسان حاجاته الطبيعية، وقد جاءت فى هذا نصوص شريفة، ويعمل على منع الإسراف ، والهبوط بالمستوى الذي تعيشه الطبقة المترفة والمسرفة إلى الحد الطبيعي، ولا يبقى بين مستويات المعيشة إلا تفاوت معقول ومقبول يضمن قربها من جهة وبقاء الدافع المادي المحرك للإنتاج الأكثر من جهة أخرى.

وإننا لنجد الخطوات الاقتصادية التى قام بها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام تسير كلها فى هذا الاتجاه.

فلنتَّبعها إذن تتبعًا سريعًا لنجد الروعة التى طرحها الإسلام وطبقها الإمام فى دولته الإسلامية.

ونستطيع أن نقسم هذه الخطوات على قسمين:

الخطوات التربوية النفسية العقائدية.

والخطوات القانونية التشريعية.

وكلها تصب فى الأهداف الماضية كما سنلاحظ.

ولكن قبل بيان هذين القسمين يجب أن نلاحظ أن بعضهما قد يميل إلى جانب تنمية الإنتاج، والآخر إلى العدالة فى التوزيع، ولكن لما كان الحقل الإنتاجى والحقل التوزيعي مترابطين بشكل رائع فقد آثرنا أن نقسمهما على خطوات إنتاجية وأخرى توزيعية[1].

تمهيد

مهد الإمام علي عليه السلام لتطبيق الأطروحة الاقتصادية تمهيدًا نفسيًا، ويمكننا أن نختار من تعليمات الإمام الأمور الآتية:

١- العمل على تعميق العقيدة فى النفوس بحيث يتحول الوجود الإنساني إلى وجود موحد مطيع لله تعالى مضح فى سبيله بكل ما يملك، ونهج البلاغة مليء بمثل هذه التربية العقائدية.

ومن الواضح أن العقيدة إذا تعمقت انبثت منها مفاهيم اجتماعية رائعة لها تأثيرها الأكبر فى مسيرة الحياة الاجتماعية، وتلك من مثل مفاهيم: (خلافة الإنسان لله)، و(التحول المالي للإنسان من الله)، و(الأخوة الإسلامية)، و(الربح والخسارة فى التصور الإسلامي)، وغيرها.

إن هذه الحقيقة والمفاهيم تترك آثارها فى صياغة العواطف الإسلامية نحو المتقين والأخوة المؤمنين مما تمهد أكبر التمهيد لتطبيق التصور الإسلامي المذكور، والاندفاع نحو الإنفاق، وهكذا يتم الربط بين الزهد والإنفاق.

يقول عليه السلام للعلاء بن زياد الحارثي وقد رأى سعة داره:

"ما كنت تصنع بسعة هذه الدار فى الدنيا، وأنت إليها فى الآخرة كنت أحوج؟ ويلي إن شئت بلغت بها الآخرة، تقري فيها الضيف، وتصل فيها الرحم، وتطلع منها الحقوق مطالعها، فإذا أنت قد بلغت بها الآخرة".

٢- ونهج البلاغة مليء أيضًا بالتعليمات التى تحقق للإنسان نظرة دقيقة للجوانب المادية فى هذه الحياة فـ "من أبصر بها بصرته، ومن أبصر إليها أعمته".

٣- تأكيد ذم الحياة المترفة التى لا تشعر بآلام المعوزين، وهكذا ذم الإسراف والمسرفين وبين انحرافهم على الصراط الإنساني.

يقول الإمام علي عليه السلام من كتاب له إلى زياد:

"فدع الإسراف مقتصدًا، واذكر فى اليوم غدًا، وأمسك من المال بقدر ضرورتك، وقدم الفضل ليوم حاجتك، أترجو أن يعطيك الله أجر المتواضعين وأنت عنده من المتكبرين، وتطمع- وأنت متمرغ فى النعيم تمنعه الضعيف والأرملة- أن يوجب لك ثواب المتصدقين؟ وإنما المرء مجزي بما أسلف، وقادم على ما قدم".

٤- التذكير الدائم بأن المال مادة الشهوات، وأنه سبب لانحراف الإنسان إن لم يبذل في سبيل الله، فقد أمر واليه "أن يكسر نفسه من الشهوات، ويزعها عند الجمحات، فإن النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم الله".

وقال عليه السلام: "المال مادة الشهوات".

"ما جاع فقير إلا بما متع به غني".

٥- تركيز الإحساس بآلام الآخرين لاسيما فى مجال حث الحكام على التفكير الدائم بضعفاء شعوبهم، فيقول:

"فمن آتاه الله مالاً فليصل به القرابة، وليحسن منه الضيافة، وليفك به الأسير والعانى، وليعط منه الفقير والغارم، وليصبر نفسه على الحقوق والنوائب ابتغاء الثواب، فإن فوزًا بهذه الخصال شرف مكارم الدنيا، ودرك فضائل الآخرة- إن شاء الله-".

ويقدم بنفسه الانموذج العملي الصادق:

إذ يقول: "فو الله ما كنزت من دنياكم تبرًا، ولا ادخرت من غنائمها وفرًا، ولا أعددت لبالى ثوبى طمرًا، ولا حزت من أرضها شبرًا".

وأيم الله- يمينًا أستثني فيها بمشيئة الله- لأروضن نفسي رياضة تهش معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعومًا، وتقنع بالملح مأدومًا، ولأدعن مقلتي كعين ماء نضب معينها، مستفرغة دموعها، أتمتلئ السائمة من رعيها فتتبرك؟ وتشبع الربيضة من عشبها فتربض، ويأكل علي من زاده فيهجع؟ قرت إذا عينه إذا اقتدى بعد السنين المتطاولة بالبهيمة الهاملة.

أما على الصعيد القانوني:

فإننا نلمح التطبيق الكامل للتعاليم الإسلامية فى دولته ونذكر من ذلك على سبيل التمثيل :

١- توفير أقصى حد من الأمن الاجتماعي الذي يساعد للغاية على تحقيق الأهداف الإسلامية فى المجال الاقتصادي.

ويتم ذلك عبر تطبيق نظام العقوبات الصارم بحق عمليات الاغتيال الاقتصادي والسرقة وقطع الطريق والرِّبا والاحتكار والكنز والقمار وإهدار الثروات، وقد راح يعلن أنه سترجع أموال الأمة حتى ولو تزوِّجت به النساء.

فيقول عليه السلام- عن بعض الأموال التى رأى أنها أخذت بغير حق-:

"والله لو وجدته قد تزوج به النساء، ومُلِك به الإماء لرددته، فإنه فى العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق".

وأما في الاحتكار فيقول لمالك:

"فامنع من الاحتكار، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منع منه، وليكن البيع بيعًا سمحًا، بموازين عدل، وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع، فمن قارف حكرة بعد نهيك إياه فنكل به وعاقبة فى غير إسراف"[٢].

فى هـذه الفقـرة يؤكـد الإمام عليه السلام أهميـة وضـع نظـام المراقبـة الماليـة، ومحاربـة الجشـع، وأن إطـلاق الحريـة الواسـعة للتجـار يشـجعهم عـلى انتهـاك حقـوق النـاس، والتلاعـب بأقواتهـم؛ لأن النفـس أمـارة بالسـوء إلا مـن رحـم الله، وغريـزة النفـع الشـخصي- إن لم يكـن معهـا تقـوى تردعهـا عـن الإفـراط- سـتجعل التجـار يسـيطرون عـلى الأسـواق، ويحتكـرون المنافـع دون غيرهـم، وهـذا مـا سـيجلب النقمـة عـلى الـولاة، وقـد لعـن النبـي صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم المحتكريـن، وتوعدهـم بالعقـاب الدنيـوي والأخـروي، فقـال صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم: (مـن احتكـر طعامًـا أربعـين يومًـا؛ فقـد بـرئ مـن الله عـز وجـل، وبـرئ الله منـه)[٣].

وأحرق الإمام علي عليه السلام طعاما لرجل كان احتكره[٤].

والملاحـظ هنـا أيضًـا أن المنـع مـن الاحتـكار هـو نـوع مـن أنـواع السـيطرة المركزيـة عـلى الاقتصـاد، ومـن هنـا فهـو يطـرح التسـعير الحكومي.

والخلاصـة: فإنـه مـن الواجـب أن يحفـظ حـق التاجـر وحـق المسـتهلك، لقـد قصـد الإمـام مـن وراء ذلـك تحطيـم كل الوسـائل التـى تـؤدى إلى تكديـس الأمـوال، وتضخيـم الثـروات التـى لا تلبـث أن تنحـصر فى فئـة خاصـة، وتصبـح دُولَـةً بـين الأغنيـاء دون غيرهـم مـن فئـات المجتمـع، ولقـد كـره للمجتمـع الصالـح تضخيـم الأمـوال التـى لا تقـوم عـلى جهـد، ولا تنشـأ عـن كفـاءة، وتـؤدى فى الغايـة البعيـدة إلى خلـق طبقـة المترفـين الكسـالى الذيـن يعيشـون عـلى حسـاب الجماعـة الفقـيرة، وطبقـة أخـرى معـوزة مسـعرة تعمـل وتشـقى، فيـؤدى ذلـك إلى انهيـار لا بـد منـه فى خُلُـق الفـرد وخُلُـق الجماعـة[٥].

٢- العمل على منع تركز الثروة بأساليب مختلفة:

منهـا: مـا مـر مـن منـع الاحتـكار والكنـز، والتسـعيرة الحكوميـة، ومنهـا الإصرار عـلى جميـع الضرائـب الزكويـة الثابتـة، ومنهـا فـرض الضرائـب (غـير الزكويـة المتعارفـة) عـلى الأجنـاس.

فقـد ورد عنـه عليه السلام فى روايـة صحيحـة أنـه وضـع عـلى الخيـل العتـاق الراعيـة فى كل فـرس فى كل عـام دينارين، وجعـل عـلى البراذيـن دينـارًا، ومنهـا التشـجيع المتواصـل عـلى الإنفـاق الحسـن المسـتحب، هـذا إلى مـا فى تطبيـق باقـى القوانـين الإسـلامية- كالإرث- مـن دور فى تفتيـت المـال ومنـع تركـز الثـروة.

كانـت هـذه بعـض الخطـوات الاقتصاديـة الإسـلامية الضخمـة التـى خطاهـا عـلى الصعيـد القانـوني لتحقيـق الأهـداف الكـبرى التـى أخـذ عـلى الأمـة عهـدًا أن تصـبر عـلى تحقيقهـا[٦].

الفصل الأول

الإنتاج

يهدف هذا البحث إلى استنباط أهم الأفكار الاقتصادية عند أئمة أهل البيت، والتي تتمثل في بيان الإنتاج وعناصره: من رأس المال والعمل.

أما رأس المال:

فقد ندبنا الإسلام إلى تشغيل المال وعدم تعطيله؛ فالأرض نهانا عن تعطيلها، والسلع نهانا عن حبسها واحتكارها، والنقود نهانا عن اكتنازها(٧).

ويشمل رأس المال الطبيعة، وهو الثروات التى ليس للإنسان دخل فى وجودها كالأرض والماء والحيوان والمناجم، ويشمل كذلك رأس المال بمعناه المعروف، أى: الثروات الناتجة عن تضافر العمل والطبيعة والتى لا تصلح لإشباع حاجات الناس مباشرة، وإنما تستخدم لإنتاج مواد أخرى صالحة للإشباع المباشر، ومن ذلك رؤوس الأموال السائلة كالنقود، ورؤوس الأموال العينية كالمبانى والآلات.

وعنصر رأس المال وحده ليس له عائد فى الإسلام، إذ المال لا يلد مالاً. بل يتحقق عائده إذا شارك العمل متحملاً غرمه كما يستفيد من غنمه. حينئذ يكون له عائد فى شكل أرباح بالنسبة لرأس المال النقدى أو فى شكل إيجار لرأس المال العينى، ولعل هذا هو السبب فى أن الإسلام لا يعترف بالفائدة كعائد لرأس المال وحده. كما لا يعترف بالريع كعائد للأرض وحدها(٨).

وكما هو معلوم لدى الجميع أن جوهر الدين الإسلامي المحافظة على مصالح الناس كافة وهو دين العدالة والاعتدال، لذلك كان من معالم الاقتصاد الإسلامي منع التبذير لأنه إضاعة للأموال وفساد للأخلاق، وإثارة للحقد والميوعة والتحلل. قال الإمام علي ﷺ: (ما جُمع مال إلا من شحّ أو حرام) (٩) فالمال في الإسلام هو مال الله والإنسان على هذه الأرض في حياته المؤقتة طالت أم قصرت هو ناقل هذا المال يتصرف فيه مدة معينة ثم ينتقل منه إلى غيره كما نقله إليه السلف. وهكذا هي الحياة مستمرة من السلف إلى الخلف. فعلينا أن لا نبخل على أنفسنا فنكون قد جمعنا لغيرنا، وأن لا نسرف أو نبذر ما تعبنا في تحصيله أو ما ورثناه من أهلنا فخير الأمور أوسطها. وهذا يعود بلا ريب إلى حسن التدبير ودقة التقدير. فلا نقبض بأيدينا ولا نبسطها كل البسط.

وأما العمل:

فمعلوم أن العمل فى الإسلام مفهومه واسع، فهو يتضمن عمل الأجير الخاص، الذى يعمل لواحد فقط، كالموظف فى مؤسسة عامة، أو العامل فى مصنع، ويتضمن عمل الأجير العام (المشترك) الذى يعمل لأكثر

من واحد، كالخياط والصباغ، ويتضمن عمل من يتقاضى أجره مبلغًا مقطوعًا، أو حصة من الناتج أو الربح.

والعمل بالمفهوم الاقتصادى ينصرف إلى العمل فى المنشآت الإنتاجية، لا الإدارية[١٠].

إن تعميق مفهوم العمل فى سبيل الله ونسيان الذات يحل مشكلة التعارض بين المصالح الذاتية والمصالح الاجتماعية، وكان التمهيد الأروع لتحقيق القسط.

ومن أروع النصوص تطبيقًا للتوحيد بين المصالح الذاتية والاجتماعية قول الإمام علي:

"فلا تحملن على ظهرك فوق طاقتك، فيكون ثقل ذلك وبالاً عليك، وإذا وجدت من أهل الفاقة من يحمل لك زادك إلى يوم القيامة فيوافيك به غدًا حيث تحتاج إليه فاغتنمه وحمله إياه، وأكثر من تزويده، وأنت قادر عليه، فلعلك تطلبه فلا تجده، واغتنم من استقرضك فى حال غناك ليجعل قضاءه لك فى يوم عسرتك، واعلم أن أمامك عقبة كؤودًا... ".

فى هذه الفِقْرَةِ يَكْشِفُ الإمَامُ عَلِيٌّ عليه السلام أنَّ الطَّرِيقَ إلى الجَنَّةِ بَعِيدَةٌ وشَاقَّةٌ لِمَنْ يَعْصِى اللهَ، وإذَا أرَدْنَا الدِّقَّةَ: لِمَنْ هُوَ دَائِمُ الإصْرَارِ علَى الذَّنْبِ، ويَقْتَرِفُهُ باسْتِمْرَارٍ.

إنَّ هذَا الطَّرِيقَ فِيهِ الكَثِيرُ مِنَ المَشَقَّاتِ والأتْعَابِ كَمَا يَقُولُ رَسُولُ الله J: (حُفَّتِ الجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ)[١١]. فالطَّرِيقُ إلى الجَنَّةِ يَحْتَوِى مِنَ المَزَالِقِ التى قد تَزِلُّ فِيهَا الأقْدَامُ وتَضِلُّ العُقُولُ.

إنَّ النَّفْسَ البَشَرِيَّةَ إذَا لَمْ تُرَوَّضْ علَى الطَّاعَةِ، ولَمْ تُؤْخَذْ بالتَّرْبِيَةِ الصَّالِحَةِ والرِّيَاضَةِ الرُّوحِيَّةِ المُسْتَقِيمَةِ، إذَا لم يُحَاسِبْهَا الإنْسَانُ ويُوقِفْهَا عِنْدَ كُلِّ فِعْلٍ، ويُعَوِّدْهَا علَى قَبُولِ الحَقِّ مَهْمَا كَانَ صَعْبًا وشَاقًّا؛ فلاَ مَحَالَةَ تَقْتَحِمُ بِهِ اقْتِحَامَ الفَرَسِ الجَمُوحِ الَّتِى فَقَدَ رَاكِبُهَا زِمَامَهَا فأضْحَتْ تَجْرِى بِهِ كَمَا تَشَاءُ.

لذلكَ فإنَّ المُؤْمِنَ فى زَمَانِنَا إذَا اسْتَمْسَكَ بِدِينِهِ كَانَ كالقَابِضِ علَى الجَمْرِ، حَيْثُ تَأْخُذُهُ التُّهَمُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وتَلُوكُهُ الأَلْسُنُ مِنْ كُلِّ طَرَفٍ. فإذَا رَفَضَ التَّعَامُلَ مَعَ الظَّالِمِينَ قَالُوا فِيهِ إنَّهُ لا يُلاَحِظُ مَصْلَحَةَ المُسْلِمِينَ، وإذَا لَمْ يَتَعَاوَنْ مَعَ المُنْحَرِفِينَ والمُفْسِدِينَ قَالُوا لا عِلْمَ لَهُ بالسِّيَاسَةِ، وإذَا لم يَكْذِبْ ويُمَارِى قَالُوا إنَّهُ لا يَعْرِفُ كَيْفَ يُدَارِى النَّاسَ ويَسْتَفِيدُ مِنْهُمْ، وإذَا عَبَسَ فى وَجْهِ الفَسَقَةِ والعُصَاةِ قَالُوا إنَّهُ جِلْفٌ قَاسٍ.

وهكذا تَتَوَالَى عَلَيْهِ التُّهَمُ وتَتَدَفَّقُ الشَّتَائِمُ، وعندها يأتى الزِّلْزَالُ الشَّدِيدُ والامْتِحَانُ القَاسِى لهَذِهِ النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ فإذا كانَ الإيمَانُ ثَابِتًا ازْدَادَ تَمَسُّكًا بمَوْقِفِهِ حتَّى يَلْقَى اللهَ فيُوَفِّيهِ أجْرَ الصَّابِرِينَ. وأمَّا إذا كانَ الإيمَانُ ضَعِيفًا فتَرَاهُ يَتَهَاوَى أمَامَ هذهِ التُّهَمِ، ويَسْتَسْلِمُ للوَاقِعِ بَدَلاً مِنَ الوُقُوفِ فِى وَجْهِهِ ومُحَاوَلَةِ تَغْيِيرِهِ.

إذن فالطَّرِيقُ إلى الجَنَّةِ شَاقَّةٌ تَتَطَلَّبُ الحَزْمَ والعَزْمَ والقُوَّةَ والثَّبَاتَ، تَتَطَلَّبُ الكَلِمَةَ الجَرِيئَةَ، والمَوْقِفَ الصُّلْبَ، والإيمَانَ الرَّاسِخَ، والأعْصَابَ المَتِينَةَ.

ومن ثَمَّ فإنَّ طَرِيقَ الجَنَّةِ يَتَطَلَّبُ مِنْكَ أنْ تَتَزَوَّدَ بكُلِّ الخَيْرَاتِ والأعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وتُخَفِّفَ عَنْ ظَهْرِكَ

مِنَ الذُّنُوبِ والخَطَايَا مَهْمَا أمْكَنَ؛ لأنَّ الجَنَّةَ عَرُوسٌ تَتَرَبَّعُ فى آخِرِ شَوْطِ الحَيَاةِ، ولا يَصِلُ إلَيْهَا إلاَّ الخَيِّرُونَ والطَّيِّبُونَ الذينَ يَصْبِرُونَ عَلَى مَشَقَّةِ هذا الطَّرِيقِ وأتْعَابِهِ.. والذينَ تَنكَّبُوا عَنْ هذا الطَّرِيقِ تَنْتَظِرُهُمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ لا يَقْوَى علَيْهَا بَشَرٌ.

وَمِنْ هُنَا نَبَّهَنَا الإمَامُ عَلِيٌّ عليه السلام إلى طَرِيقٍ نَسْتَطِيعُ أنْ نَحْفَظَ بِهَا ودَائِعَنَا، ونُجَمِّدَ بها أرْصِدَتَنَا ليَوْمِ فَقْرِنَا وحَاجَتِنَا. إنَّهُ يُرْشِدُنَا إلى أَمِينٍ يَحْمِلُ لَنَا زَادَنَا، إنَّهُ يَدُلُّنَا عَلَى هَؤُلاَءِ الفُقَرَاءِ أنْ نَمُدَّ أيْدِيَنَا إلَيْهِمْ بالصَّدَقَةِ والإحْسَانِ وقَضَاءِ الحَاجَةِ وإدْخَالِ السُّرُورِ عَلَيْهِمْ، أنْ نَتَوَاضَعَ لَهُمْ ونَفْعَلَ لَهُمُ الخَيْرَ ونَهْتَمَّ بشؤُونِهِمْ؛ أنْ نَنْصَحَهُمْ ونُصْلِحَ بَيْنَهُمْ ونَسْعَى فى تَفْرِيجِ كُرَبِهِمْ.. فإنَّ كُلَّ ما نَفْعَلُهُ ونُسْدِيهِ إلَيْهِمْ يَرْجِعُ أجْرُهُ لنَا وثَوَابُهُ عَلَيْنَا.

فَمَنْ أدْخَلَ سُرُورًا علَى مُؤْمِنٍ كانَ كَمَنْ أدْخَلَهُ علَى الأئِمَّةِ والنَّبِيِّ، ومَنْ قَضَى حَاجَةَ مُؤْمِنٍ نَادَاهُ اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى: عَلَيَّ ثَوَابُكَ ولا أرْضَى لكَ بِدُونِ الجَنَّةِ[١٢].

ومَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرَبَ الآخِرَةِ[١٣].

ومَنْ أطْعَمَ مُؤْمِنًا مِنْ جُوعٍ أطْعَمَهُ اللهُ مِنْ ثِمَارِ الجَنَّةِ، ومَنْ سَقَى مُؤْمِنًا سَقَاهُ اللهُ مِنَ الرَّحِيقِ المَخْتُومِ[١٤].

ومَنْ كَسَا مُؤْمِنًا ثَوْبًا مِنْ عُرْيٍ كَسَاهُ اللهُ مِنَ اسْتَبْرَقِ الجَنَّةِ[١٥].

ومَنْ كَسَا مُؤْمِنًا ثَوْبًا مِنْ غِنًى لَمْ يَزَلْ فِى سَتْرِ مِنَ اللهِ مَا بَقِىَ مِنَ الثَّوْبِ خِرْقَةٌ[١٦].

ومَنْ أخَذَ مِنْ وَجْهِ أخِيهِ المُؤْمِنِ قَذَاةً كَتَبَ اللهُ لَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، ومَنْ تَبَسَّمَ فِى وَجْهِ أخِيهِ كَانَتْ لَهُ حَسَنَةٌ[١٧].

ومَنْ زَارَ أخَاهُ فى اللهِ قَالَ اللهُ جل جلاله: إيَّايَ زُرْتَ وثَوَابُكَ عَلَيَّ، ولَسْتُ أرْضَى لكَ ثَوَابًا دُونَ الجَنَّةِ[١٨].

وهكَذَا فإنَّ كُلَّ فِعْلٍ يَقُومُ بِهِ الإنْسَانُ يعُودُ صَالِحُهُ لَهُ وثَوَابُهُ علَيْهِ، قالَ تَعَالَى:)مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا((فصلت: ٤٦). والعَاقِلُ هو ذلكَ الرَّجُلُ الذى يَتَزَوَّدُ مِنَ الدُّنْيَا، ويُحَمِّلُ غَيْرَهُ الثَّوَابَ والأجْرَ كَىْ يُلاَقِيهِ بِهِ فى تِلْكَ الكُرَبِ العِظَامِ يَوْمَ القِيَامَةِ.

وفى وَصِيَّةِ الإمَامِ إشَارَةٌ إلى أهَمِّيَةِ المُعَامَلَةِ والأخْلاَقِ مَعَ الآخَرِينَ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ لكَ ثَوَابَهَا، بعَكْسِ العِبَادَةِ فأنْتَ تَحْمِلُ ثَوَابَهَا.

إنَّ العَاقِلَ هو الذى لا يَتَأَخَّرُ عَنْ فِعْلِ الإحْسَانِ معَ النَّاسِ عِنْدَ أوَّلِ قُدْرَتِهِ بَلْ يَغْتَنِمُ الفُرَصَ كَىْ يُسْدِيَ المَعْرُوفَ إلَى أهْلِهِ؛ لأنَّهُمُ السَّبَبُ فِى عَوْدِ الخَيْرِ عَلَيْهِ، فلَعَلَّهُ يَطْلُبُهُمْ فِى يَوْمٍ مَا فلا يَجِدُهُمْ، ويَبْحَثُ عَنْهُمْ فيَفْقِدُهُمْ، فيَكُونُ قَدْ خَسِرَ رِبْحًا، وضَيَّعَ ما هُوَ بحَاجَةٍ إلَيْهِ[١٩].

ولتأكيد لزوم العمل وتحصيل الرزق وعدم الذلة عند الحاجة، يقول عليه السلام: "قد تكفل لكم بالرزق،

وأمرتم بالعمل، فلا يكونن المضمون لكم طلبه أولى بكم من المفروض عليكم عمله".

الحثّ على العمل:

يقول الإمام عليّ عليه السلام: إنّ الأشياء لمّا ازدوجت ازدوج الكسل والعجز، فنُتجا بينهما الفقر[٢٠].

وعنه عليه السلام: إنّي لأبغض الرجل يكونُ كسلان من أمر دنياه؛ لأنّه إذا كان كسلان من أمر دنياه فهو عن أمر آخرته أكسل[٢١].

وعنه عليه السلام: ما غدوة أحدكم في سبيل الله بأعظم من غدوته يطلب لولده وعياله ما يصلحهم[٢٢].

وعنه عليه السلام: للمؤمن ثلاث ساعات: فساعة يناجي فيها ربّه، وساعة يرمّ معاشه[٢٣]، وساعة يخلّي بين نفسه وبين لذّتها فيما يحلّ ويجمُل، وليس للعاقل أن يكون شاخصًا إلا في ثلاث: مرمّة لمعاشٍ، أو خطوة في معادٍ، أو لذّةٍ في غير محرّم[٢٤].

التحذير من الكسل:

نهى الإسلام عن الكسل لأنه يجمد الطاقات الإنسانية ويفسد الحياة الاجتماعية، ويشلّ الحركة الاقتصادية. وقد ورد في الأدعية المأثورة عن أئمة الهدى بالتعوذ من الكسل، فجاء عنهم: (اللهم إني أعوذ بك من الكسل والضجر فإنهما مفتاح كل سوء.. إنه من كسل لم يؤد حقًّا، ومن ضجر لم يصبر على حق[٢٥].

والإمام موسى الكاظم عليه السلام قد أوصى بعض ولده بالحذر من الكسل والعمل الجاد فقال:

(إياك والكسل والضجر فإنهما يمنعاك من حظك في الدنيا والآخرة) لقد كان الإمام عليه السلام يكره الكسل والبطالة، ويمقت صاحبها؛ لأنها تؤدي إلى الفقر والفشل في الحياة، كما يؤدي أيضًا إلى ذهاب المروءة عند الرجل، والكسول العاطل عن العمل يكون بحكم الأموات حيث لا تفكير ولا تدبير ولا إحساس بالمسؤولية.

وعن بشير الدهان قال: سمعت أبا الحسن موسى عليه السلام يقول: (إن الله جل وعز يبغض العبد النوّام الفارغ[٢٦].

ولا يكفي أن نعمل إنما علينا أن نخلص فيما نعمل.

الإخلاص في العمل:

الإخلاص في العمل هو تجريد النيّة من الشوائب والمفاسد. قال تعالى: (وَمَا أُمِرُوا إِلاَ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ) (البينة: ٥)، وعن الإمام الصادق عليه السلام: (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) (الملك: ١)، قال: ليس يعني الكمية وإنما يعني النوعية، الإصابة خشية الله والنية الصادقة[٢٧].

وقد جاء فى شرح نهج البلاغة في ذكر صدقات أمير المؤمنين عليه السلام أنه كان يعمل بيده، ويحرث الأرض، ويستقي الماء، ويغرس النخل، كلّ ذلك يباشره بنفسه الشريفة [٢٨].

الفصل الثاني

التوزيع

مادة البحث فى مجال التوزيع هى تحديد أنصبة عناصر الإنتاج التى أسهمت فى العملية الإنتاجية وحققت النتائج. فالتوزيع إذن توزيع الثروة والدخل بين أفراد المجتمع. ذلك لأن عائد عناصر الإنتاج تمثل دخول أصحابها. ومعلوم أن التوزيع يتوقف على الإنتاج. فكلما زاد الإنتاج زاد التوزيع وكلما قل الإنتاج قل التوزيع. فالعلاقة بين الاثنين هى علاقة تناسب طردى. ويختلف نصيب أفراد المجتمع وحصتهم فى الناتج تبعًا لمدى مساهمتهم فى الإنتاج وفى أثمان الخدمات التى تقدمها عناصر الإنتاج التى يملكونها. ومن الممكن أن تتعدد مصادر الدخل للفرد الواحد تبعًا لمدى ما فى حوزته من العناصر. إذ إنه يحصل على دخل يقابل كل عنصر يقدمه. لو قدم أرضًا أو رأس مال حصل على دخل أيضًا فى مقابل ذلك[٢٩].

ويشتمل التوزيع على قسمين رئيسين هما:

١- التوزيع الشخصى: وهو يختص بتوزيع ملكية عناصر الإنتاج على الأفراد.

٢- التوزيع الوظائفى: ويختص بتحديد أثمان عناصر الإنتاج.

ويعرض الاقتصاديون موضوع التوزيع فى صورة فرعين:

أ- حد الكفاية.

ب- إعادة توزيع الثروة.

الفرع الأول.. حد الكفاية:

ركز الفكر الإسلامى على اعتماد معيار اقتصادى إنسانى ينبثق من متوسط المعيشة الفعلى السائد فى المجتمع المسلم، فهناك ثلاثة مستويات للمعيشة:

- حد الكفاف.
- حد الكفاية.
- حد الثراء.

والإسلام لا يسعى لتحقيق حالتي التطرف: الكفاف القاسي الذى يغفل أبسط الحقوق، والثراء الفاحش الذى يتعذر تحقيقه للجميع؛ فتفاوت الناس فى اقتسام الأرزاق سنة إلهية، وذلك لتفاوتهم فى المواهب والجهود الإدارية[٣٠].

محاربة الفقر:

إن الاقتصاد له الأهمية الكبرى في السياسة، وكلما كان التوازن الاقتصادي أقوى كانت السياسة أكثر سدادًا ورشدًا.

فلننظر إلى الإسلام كيف جعل من الدولة الإسلامية البعيدة الآفاق، الشاسعة الأراضي، الكثيرة النفوس، أمة غنية كاد يصبح الفقر فيها معدوماً..

انظر إلى القصة الآتية وتدبر في أبعاد دلالتها.

ذكر الشيخ الحر العاملي في كتاب (وسائل الشيعة):

أن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام كان يمشي في سكك الكوفة، فنظر إلى رجل يستعطي الناس: فوجه الإمام السؤال إلى من حوله من الناس قائلاً:

ما هذا؟

فقالوا: إنه نصراني كبر وشاخ ولم يقدر على العمل، وليس له مال يعيش به، فيكتنف الناس..

فقال الإمام- في غضب- : استعملتموه على شبابه حتى إذا كبر تركتموه؟

ثم جعل الإمام عليه السلام لذاك النصراني من بيت مال المسلمين مرتبًا خاصًّا ليعيش به حتى يأتيه الموت[٣١].

وهذا يدل على أن الفقر لم يكد يرى لنفسه مجالاً في الدولة الإسلامية حتى إذا رأى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فقيرًا واحدًا كان يستغرب، ويعده ظاهرة غير طبيعية وغير لائقة بالمجتمع الإسلامي، والنظام الاقتصادي الإسلامي.

ثم يجعل له من (بيت مال المسلمين) مرتبًا يرتزق به مع أنه نصراني لا يدين بالإسلام، لكيلا يكون في البلد الإسلامي مظهر واحد للفقر والجوع.

ولكي يعرف العالم، والمسلمون أنفسهم أن الحكومة الإسلامية تقضي على الفقر وترفع مستوى الفقراء، بل تنفي الفقر حتى عن غير المسلمين مادامو تحت رعاية الدولة الإسلامية.

الفرع الثانى.. إعادة التوزيع للثروة:

يمكن تقسيم التدابير التى شرعها الإسلام فى توزيع الثروة على ثلاثة أقسام:

١- الوسائل الإلزامية: كالزكاة، وصدقة الفطر، والإرث.

٢- الوسائل الاختيارية: كصدقات التطوع، والوصية.

٣- الوسائل الاختيارية الإلزامية: كالكفارات المالية، والنذر، والوقف[٣٢].

ولقد التزم الإمام علي عليه السلام فى موضوع التوزيع بأمرين اقتصاديين هما:

١- حد الكفاية.

٢- إعادة توزيع الثروة.

- أما حد الكفاية: فقد طبَّقه الإمام فى حياته الخاصة وحثَّ تلاميذه وأنصاره على ذلك.

- وأما إعادة توزيع الثروة: فقد تقيد الإمام بالمنهج الاقتصادى الإسلامى فى توزيع الثروة بالعدل، على النحو الآتي:

أولاً: الوسائل الإلزامية: (الزكاة- صدقة الفطر- الإرث).

ثانيًا: الوسائل الاختيارية: (صدقات التطوع- الوصية).

ثالثًا: الوسائل الاختيارية الإلزامية: (الكفَّارات المالية- النذر- الوقف).

وقد طرح الإمام مسألة التسوية فى العطاء فى الأموال العامة التى يشترك فيها المسلمون على السواء، وكانت هذه خطوة ثورية أزعجت الكثير من ذوي التكبر والأشراف فراحوا يتوسلون بمختلف الوسائل ليعدل عن هذه السياسة ولكنه كان يجيبهم بأمثال هذه الأجوبة:

" أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ اَلنَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ وَاَللَّهِ لاَ أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِي اَلسَّمَاءِ نَجْماً وَلَوْ كَانَ اَلْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ فَكَيْفَ وَإِنَّمَا اَلْمَالُ مَالُ اَللَّهِ، أَلاَ وَإِنَّ إِعْطَاءَ اَلْمَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ تَبْذِيرٌ وَإِسْرَافٌ" (شرح نهج البلاغة ٨/ ١١٠ رقم ١٢٦).

الفصل الثالث

الاستهلاك

النهي عن التبذير:

أوصى الإمام الكاظم أصحابه بالاقتصاد في حياتهم المعيشية ونهاهم عن التبذير والإسراف؛ لأن بهما زوال النعمة، فقال: (من اقتصد وقنع بقيت عليه النعمة، ومن بذّر وأسرف زالت عنه النعمة)، وقال عليه السلام: (ما عال امرؤ اقتصد)[٣٣].

التقشّف والاحتياط في النفقة من بيت المال:

قال الإمام عليّ عليه السلام – في كتابه إلى عمّاله –: أدِقّوا أقلامكم، وقاربوا بين سطوركم، واحذفوا عنّي فضولكم، واقصدوا قصد المعاني، وإيّاكم والإكثار؛ فإنّ أموال المسلمين لا تحتمل الإضرار[٣٤].

وجاء في إحقاق الحقّ أن أمير المؤمنين عليّ دخل ليلة في بيت المال يكتب قسمة الأموال، فورد عليه طلحة والزبير، فأطفأ عليه السلام السراج الذي بين يديه، وأمر بإحضار سراج آخر من بيته، فسألاه عن ذلك، فقال: كان زيته من بيت المال، لا ينبغي أن نصاحبكم في ضوئه[٣٥].

وفي مكارم الأخلاق عن عقيل بن عبد الرحمن الخولاني: كانت عمّتي تحت عقيل بن أبي طالب، فدخلت على عليّ عليه السلام بالكوفة وهو جالس على بَرْذَعة[٣٦] حمار مُبَتَّلة[٣٧]، قالت: فدخلتْ على عليّ عليه السلام امرأة له من بني تميم فقلت لها: ويحك! إن بيتك ممتلئ متاعًا وأمير المؤمنين عليه السلام جالس على بَرذعة حمار مبتَّلة! فقالت: لا تلوميني، فوالله ما يرى شيئًا ينكره إلاّ أخذه فطرحه في بيت المال[٣٨].

وفي فضائل الصحابة عن الأعمش: كان عليّ يُغدّي ويُعشّي، ويأكل هو من شيء يجيؤه من المدينة[٣٩].

وفي الغارات عن بكر بن عيسى: كان عليّ عليه السلام يقول: يا أهل الكوفة! إذا أنا خرجت من عندكم بغير رحلي وراحلتي وغلامي فأنا خائن. وكانت نفقته تأتيه من غلّته بالمدينة من يَنْبُع[٤٠].

وفي الجمل عن أبي مخنف لوط بن يحيى عن رجاله: لمّا أراد أمير المؤمنين عليه السلام التوجّه إلى الكوفة قام في أهل البصرة فقال: ما تنقمون عليَّ يا أهل البصرة؟ وأشار إلى قميصه وردائه فقال: والله إنّهما لمن غزل أهلي. ما تنقمون منّي يا أهل البصرة؟ وأشار إلى صُرّة في يده فيها نفقته فقال: والله ما هي إلا من غلّتي بالمدينة؛ فإن أنا خرجت من عندكم بأكثر ممّا ترون فأنا عند الله من الخائنين[٤١].

وفي تاريخ دمشق عن عنترة: دخلت على عليّ بالخَوَرْنَق[٤٢] وعليه سَمَل[٤٣] قطيفة وهو يُرعَد فيها، فقلت: يا أمير المؤمنين، إنّ الله قد جعل لك ولأهل بيتك في هذا المال نصيبًا وأنت تفعل هذا بنفسك! قال: فقال: إنّي والله ما أرزؤكم شيئًا، وما هي إلا قطيفتي التي أخرجتها[٤٤] من بيتي – أو قال: من المدينة – [٤٥].

– الاختصاص – في ذكر طعام الإمام عليّ عليه السلام –: سمع مَقْلى في بيته، فنهض وهو يقول: في ذمّة عليّ بن أبي طالب مَقْلى الكَراكِر؟! قال: ففزع عياله وقالوا: يا أمير المؤمنين، إنّها امرأتك فلانة نحرت جزورًا في حيّها، فأُخذ لها نصيب منها، فأهدى أهلها إليها. قال: فكلوا هنيئًا مريئًا[٤٦].

وفى تاريخ دمشق عن عبدالرحمن بن أبي بكرة: لم يرزأ عليّ بن أبي طالب من بيت مالنا – يعني بالبصرة – حتى فارقَنا غيرَ جُبَّة محشوّة أو خَمِيصة دَرابْجِرْديّة[٤٧].

وجاء فى الغارات عن أبي رجاء: إنّ عليّاً عليه السلام أخرج سيفاً له إلى السوق فقال: من يشتري منّي هذا؟ فلو كان معي ثمن إزار ما بعته. فقلت له: يا أمير المؤمنين، أنا أبيعك إزاراً وأُنسئك ثمنه إلى عطائك، فبعته إزارًا إلى عطائه، فلمّا قبض عطاءه أعطاني حقّي[٤٨].

الفصل الرابع

الحاجات الاقتصادية ومعايير إشباعها وترشيد استهلاكها

تأمين الحاجات الضروريّة للجميع:

قال الإمام عليّ عليه السلام: إنّ الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقير إلا بما مُتِّع به غنيّ؛ والله تعالى سائلهم عن ذلك(٤٩).

وعنه عليه السلام: إنّ الله فرض على الأغنياء في أموالهم بقدر ما يكفي فقراءهم؛ فإن جاعوا وعرَوا جهدوا في منع الأغنياء؛ فحقّ على الله أن يحاسبهم يوم القيامة ويعذّبهم عليه(٥٠).

حماية الطبقة السفلى:

وقال الإمام عليّ عليه السلام - من كتابه إلى قثم بن العبّاس -: انظر إلى ما اجتمع عندك من مال الله فاصرفْه إلى من قِبَلَك من ذوي العيال والمجاعة، مُصيبًا به مواضع الفاقة والخَلات(٥١)، وما فَضَل عن ذلك فاحملْه إلينا لنقسمه فيمن قِبَلَنا(٥٢).

ومن المبادئ العملية التى طرحها الإمام اتباعًا للإسلام مسألة التأكيد الحكومي وتوجيه السياسة الاقتصادية نحو الطبقة الفقيرة أو كما عبر الإمام (الطبقة السفلى)، ومن الواضح ما لهذا التأكيد من دور في تحقيق التوازن، وتحقيق العدالة الاقتصادية، فيقول عليه السلام- في عهده إلى مالك الأشتر -: ثمّ اللهَ اللهَ في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم، من المساكين والمحتاجين وأهل البُؤْسى والزَّمْنى(٥٣)؛ فإنّ في هذه الطبقة قانِعًا ومُعتَرًّا(٥٤)، واحفظ للهَّ ما استحفظك من حقّه فيهم، واجعل لهم قسمًا من بيت مالك، وقسمًا من غلاَّت صَوافي(٥٥) الإسلام في كلّ بلد، فإنّ للأقصى منهم مثل الذي للأدنى، وكلٌّ قد استُرعيتَ حقَّه، فلا يشغلنّك عنهم بطَر، فإنّك لا تعذَر بتضييعك التافِه لإحكامك الكثير المهمّ، فلا تُشخِصْ همّك عنهم، ولا تُصعِّرْ خدّك لهم.

وتفقَّدْ أُمور من لا يصل إليك منهم ممّن تَقتحمه العيون، وتَحْقره الرجال، ففرِّغْ لأُولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع. فليَرفعْ إليك أُمورهم، ثمّ اعمل فيهم بالإعذار إلى الله يوم تلقاه، فإنّ هؤلاء من بين الرعيّة أحوج إلى الإنصاف من غيرهم، وكلٌّ فأعذِر إلى الله في تأدية حقّه إليه.

وتَعهَّدْ أهل اليُتم وذوي الرِّقّة(٥٦) في السنّ ممّن لا حيلة له، ولا ينصب للمسألة نفسه. وذلك على الولاة ثقيل، والحقّ كلّه ثقيل(٥٧).

وعنه عليه السلام - في عهده إلى مالك الأشتر (في رواية تحف العقول) -: وتعهّد أهل اليُتم والزمانة والرقّة في السنّ ممّن لا حيلة له، ولا ينصب للمسألة نفسه؛ فأجرِ لهم أرزاقًا، فإنّهم عباد الله، فتقرّب إلى الله بتخلّصهم

ووضعهم مواضعهم في أقواتهم وحقوقهم، فإنّ الأعمال تخلص بصدق النيّات. ثمّ إنّه لا تسكن نفوس الناس أو بعضهم إلى أنّك قد قضيت حقوقهم بظهر الغيب دون مشافهتك بالحاجات، وذلك على الولاة ثقيل، والحقّ كلّه ثقيل، وقد يخفّفه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبّروا نفوسهم، ووثقوا بصدق موعود الله لمن صبر واحتسب، فكن منهم واستعن بالله[٥٨].

وعنه﵁ - في عهده إلى مالك الأشتر، وهو في بيان طبقات الناس -: اعلمْ أنّ الرعيّة طبقات...ثمّ الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحقّ رِفدهم ومعونتهم. وفي الله لكلٍّ سعة، ولكلٍّ على الوالي حقّ بقدر ما يُصلحه[٥٩].

ركز الإمام﵁فى هذه الفقرة على نقاط مهمة لا يجوز إغفالها:

١- كل المحتاجين من أبناء المجتمع المسلم متساوون فى استحقاقهم من مال الله: لا فرق بين أسود وأبيض، وقريب وبعيد.

٢- نبه الإمام واليه ألا ينشغل عن طبقة المحتاجين الضعفاء من الطبقة السفلى فى المجتمع بأي شاغل: من بطر، أو اغترار بمال، أو جاه، ولا تشغله الأمور الكبيرة التى ينجزها ويحكمها عن مثل هذه الأشياء الصغيرة؛ فإنها ليست صغيرة؛ ففيها إنقاذ نفوس، وجبر خواطر، فلا عذر لأحد بتضييع رعيته، ولا سيما أهل هذه الطبقة الذين أوصى بهم الإمام عليه السلام، وهم الذين لا حيلة لهم: ممن تسحقهم المسكنة، ويطحنهم الفقر، وتستذلهم الحاجة، وتغبر وجوههم من البؤس، ومن أقعده المرض، أو كان ذا عاهة؛ فيجب أن يبحث عنهم الوالي، وأن تفتش عنهم الدولة؛ وتضع لهم ضمانًا اجتماعيًّا يوفر حقوقهم، ويصون حرمتهم، ويحترم آدميتهم.

٣- الاهتمام بالذين لا يصلون إلى الحاكم لعرض حاجاتهم، ولا يتمكنون من ذلك: كالأيتام، والعجزة، ومن لا ينصب نفسه للمسألة، فلو تكاثرت المشاغل على الحاكم، ولم يتح له فرصة الاطلاع على أحوال الضعفاء- فيجب أن يفرغ أشخاصًا ثقات، أهل خشية، وتواضع، وصبر، وإنسانية، وشفقة، وضمائر حية نقية، ومعرفة بالحقوق؛ للبحث عن أحوال هؤلاء، والإصغاء لمطالبهم؛ ويرفعونها إليه؛ ليعمل فيها بما يستحقونه.

ونحن اليوم فى زمن المؤسسات، والنظام الذى لا يعتمد على الفرد، ليس لدينا الرقابة المتابعة دون كلل أو ملل، لسد أى نقص أو خلل، أو تقصير فى الواجب.

٤- بين الإمام أن تعهد أحوال الناس واجب على الوالي: سواء سُئل أم لم يُسأل، وهو واجب ثقيل؛ لكنه حق، وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة وصبَّروا أنفسهم، ووثقوا بموعود الله لهم.

٥- لوحظ فى عصرنا استفحال التسول، وتحوله إلى مهنة، وانتشار أطفال الشوارع، وذيوع خطر سكان المقابر، وانتظار انفجار سكان العشوائيات.. والمسألة ذات شجون، ولا بد من مبادرة أهل الغيرة من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر؛ لسرعة معالجة هذه الظواهر، وحسمها تماما؛ بتوجيه القادرين إلى العمل، وترشيدهم للإنتاج، ليكونوا أدوات بناء لا معاول هدم، ومن يحتاج إلى إعالة وجبت إعالته.

فهذه الطبقة الضعيفة المسحوقة هى التى تحتاج إلى تواضع وصبر، وتعرف أحوالهم عن قرب، على حد تعبير الإمام علي عليه السلام.

وتحضرني هنا قصة ذكرها الكاتب اللبنانى المسيحي جورج جرداق يقول: يوم كنت فى أحد البلدان الأوربية التى تسعى فى تحرير الإنسان من العوز والفاقة وويلاتها، قلت لوزير معارف ذلك البلد: نحن العرب سبقناكم أكثر من ألف عام إلى إدراك حقيقة المجتمع الطبقى التى تعملون أنتم اليوم على توضيحها؛ فقال الوزير الأوربي: وكيف كان ذلك؟ قال: منذ بضعة عشر قرنًا قال علي بن أبى طالب: (ما رأيت نعمة موفورة إلا وإلى جانبها حق مضيع)؛ فقال الأوربي: إنما نحن أفضل منكم! قال: لم؟ وكيف؟ قال: لأن عربيًّا منكم اكتشف هذه الحقيقة منذ بضعة عشر قرنًا، وأنتم ما تزالون فى مظلمة اجتماعية! فيما طبقناها نحن قبلكم؛ فأنتم متأخرون عنا بضعة عشر قرنًا فى هذا المعنى[٦٠].

الفصل الخامس

فروع النشاط الاقتصادي

أولاً: الزراعة

تعد التنمية الزراعية الشاملة مهمة مستمرة طويلة الأمد تتصف بالشمولية والتكاملية والتعددية. وتنطلق فى العملية البنائية من الأسفل إلى الأعلى وفق مبدأ الاعتماد على النفس(٦١).

ويعتمد الإنتاج الزراعى والغذائى على ثلاثة عوامل رئيسة:

- المصادر الطبيعية (الأرض والموارد المائية والمناخ).
- الأيدى العاملة (قوة العمل والطاقة المستعملة فى الإنتاج).
- رأس المال اللازم لتأمين مستلزمات الإنتاج الزراعى (البذور والأسمدة، والآليات ومختلف المشاريع)(٦٢).

التنمية الزراعيّة عند الإمام علي عليه السلام:

يقول الإمام عليّ عليه السلام : من وجد ماءً وترابًا ثمّ افتقر فأبعده الله(٦٣)، وعنه عليه السلام : إنّ معايش الخلق خمسة: الإمارة، والعمارة، والتجارة، والإجارة، والصدقات... وأمّا وجه العمارة فقوله تعالى: (هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) (هود: ٦١) ، فأعلمنا سبحانه أنّه قد أمرهم بالعمارة؛ ليكون ذلك سببًا لمعايشهم بما يخرج من الأرض؛ من الحبّ، والثمرات، وما شاكل ذلك، ممّا جعله الله معايش للخلق(٦٤).

ويقول الإمام الباقر عليه السلام : إنّ عليّاً عليه السلام كان يكتب إلى أمراء الأجناد: أنشدكم الله في فلاحي الأرض أن يُظلموا قِبلَكم(٦٥).

ثانيًا: الصناعة

هناك مجموعة من المتطلبات والإجراءات التي يجب اتباعها لتنشيط القطاع الصناعي، والتأكد من سير الإستراتيجية الصناعية على أكمل وجه، منها:

١- التخطيط الجيد في الإعداد والتكوين للاستراتيجية الصناعية، ووضع مشاريع معدة جيدًّا، ومتابعة تنفيذها، وتقييمها.

٢- دراسة الاعتبارات والصعوبات التي تعترض تنفيذ الخطط الموجودة؛ للعمل على تذليلها، وتوفير التسهيلات اللازمة من سهولة الإجراءات والأراضي والسيولة اللازمة للتمويل؛ لتيسير التوسع في الإنتاج والتعامل معه.

٣- إعادة تطوير نظام الحوافز الصناعية، وتعزيز القدرة على المنافسة، وتحفيز المبادرات الفردية، ويأتي

ذلك من طريق التوسع الشامل للقطاع الصناعي وإيلاء الأهمية للتكنولوجيا في عملية التنمية الصناعية، ورفع كفاءة العمالة وزيادة أعدادها في المنشآت الصناعية، وزيادة الإنتاج ذي القيمة المضافة العالية، وتوفير المتطلبات اللازمة لتمويل المشاريع الصناعية، وتوفير المتطلبات والتشابكات المكانية.

٤- فتح المجال أمام الخصخصة ومشاركة القطاع الخاص، بالإضافة إلى دعم المنتج الوطني ودعم الصناعة المحلية وتشجيعها [٦٦].

٥- الاهتمام بصورة أساسية بالتعليم، ليس من حيث حجم الإنفاق والميزانيات المخصصة للنظام التعليمي فحسب، إنما لا بد أيضًا من مراعاة التوازن المناسب في القطاع الصناعى[٦٧].

٦- الاهتمام بالبحث العلمي والتطوير؛ لأنه أحد المتطلبات الأساسية لاستدامة التنمية الصناعية، ولضمان استمرار قدرة الصناعة المحلية على المنافسة مع الصناعات الأخرى في العالم [٦٨].

التنمية الصناعيّة عند الإمام علي عليه السلام:

يقول الإمام عليّ عليه السلام : حرفة[٦٩] المرء كنز[٧٠]، وعنه عليه السلام : إنّ الله عزّ وجلّ يحبّ المحترف الأمين[٧١]، وعنه عليه السلام - في الحكم المنسوبة إليه -: لا تطلب سرعةَ العمل، واطلب تجويده؛ فإنّ الناس لا يسألون في كم فرغ من العمل، إنّما يسألون عن جودة صنعته[٧٢]

وجاء فى الكافي عن أُمّ الحسن النخعيّة: مرّ بي أمير المؤمنين عليه السلام فقال: أيّ شيء تصنعين يا أُمّ الحسن؟ قلت: أغزل. فقال: أما إنّه أحلّ الكسب - أو من أحلّ الكسب[٧٣].

وروي في تفسير العيّاشي عن محمّد بن خالد الضبّي: مرّ إبراهيم النخعي على امرأة وهي جالسة على باب دارها بُكرة، وكان يقال لها: أُمّ بكر، وفي يدها مغزل تغزل به، فقال: يا أُمَّ بكر، أما كبرتِ! ألم يأنَ لكِ أن تضعي هذا المغزل؟! فقالت: وكيف أضَعه وسمعتُ عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين عليه السلام يقول: هو من طيّبات الكسب[٧٤].

ثالثًا: التجارة

المدلول الاقتصادى: المدلول الاقتصادى لكلمة "تجارة" ينصب على عملية الوساطة والتوسط بين منتج ومستهلك. وينجم عن ذلك خروج نوعين من الأعمال عن نطاق التجارة وإن كانا يقعان على طرفى خط النشاط الاقتصادى، النوع الأول: هو ما يقوم به المنتج الأول للسلعة وخاصة إذا تعلق الأمر بالمنتجات الزراعية. أما النوع الثاني: فهو ما يقوم به المستهلك الأخير من أفعال تقتصر على شراء السلعة بهدف استهلاكها والانتفاع بها، ومن هنا نجد تلاقيًا بين المفهوم اللغوى للتجارة وبين المفهوم الاقتصادى للتجارة والذى بدوره يتمثل فى النشاط والأعمال المتصلة بتداول السلع [٧٥].

المدلول القانونى: أما مفهوم التجارة من الناحية القانونية فإنها تعنى تداول السلع والثروات وتوزيعها، بالإضافة إلى العمليات الصناعية المتعلقة بالإنتاج [٧٦].

التنمية التجاريّة عند الإمام علي عليه السلام:

يقول الإمام عليّ عليه السلام : تعرّضوا للتجارة؛ فإنّ فيها غنى لكم عمّا في أيدي الناس[٧٧]، وعنه عليه السلام - للموالي -: اتّجروا، بارك الله لكم؛ فإنّي قد سمعتُ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: الرزق عشرة أجزاء؛ تسعة أجزاء في التجارة، وواحدة في غيرها[٧٨].

وعنه عليه السلام - في عهده إلى مالك الأشتر -: ثمّ استوصِ بالتجّار وذوي الصناعات، وأوصِ بهم خيرًا، المقيم منهم والمضطرب بماله، والمترفّق ببدنه؛ فإنّهم موادُّ المنافع، وأسباب المرافق، وجلاَّبُها من المَباعد والمَطارح[٧٩]، في بَرّك وبحرك، وسهلك وجبلك، وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها، ولا يجترئون عليها؛ فإنّهم سِلم لا تُخاف بائقتُه، وصُلحٌ لا تُخشى غائلتُه. وتفقّد أُمورهم بحضرتك، وفي حواشي بلادك[٨٠].

فى هذه الفقرة ذكر الإمام التجار وذوى الصناعات، وأمر مالكًا الأشتر أن يعمل معهم الخير، وأن يوصى غيره من أمرائه وعماله أن يعملوا معهم الخير.

ثم قسم الإمام الموصى بهم من التجار ثلاثة أقسام:

الأول: المقيم.

الثاني: المسافر، وهو الذى يضرب فى الأرض.

الثالث: هم أصحاب الصناعات الذين يترفقون بأبدانهم.

وعلَّل الإمام وصيته بهم بذكر مزايا ما يقومون به:

- فمنها: أنهم يمدون المجتمع بما يأتون به من البلدان، وما يجلبونه من أقاصي الأرض وأطرافها؛ لا يستطيع غيرهم من الناس أن يذهب إليها: جهلاً منهم لمكانها، أو خوفًا ووحشة من سبيلها، بينما التجار يبحثون عن البضائع وينقلونها، ويتحملون فى سبيل ذلك ما لا يتحمله أفراد الناس؛ طلبًا منهم للفوائد والأرباح.

- ومنها أنهم- على عكس أصحاب الخراج، وقادة الجند- ميَّالون إلى السلم، وكف الشرور من جهتهم ما سلمت لهم تجارتهم ودرت عليهم الأرباح.

- ومنها أن التجارة توفر للناس كثيرًا ممَّا يحتاجونه من المواد الخام، والصناعات التى لا تصنع فى بلدانهم، والأدوات والمعدات التى تساعدهم فى ممارسة مهنهم، وإنجاز أعمالهم.

التجارة بين الأمس واليوم:

فى ختام شرح هذه الفقرة نود أن نبين الفرق بين تجارة الأمس وتجارة اليوم، فنقول:

أولاً: كانت التجارة فى عهد الإمام علي عليه السلام فى الأغلب تجارة داخلية: أى داخل الدولة المسلمة؛ فالتجار فيها كانوا يقومون بشراء المنتجات وبيعها داخل الدولة الإسلامية بوسائل بسيطة.

أما تجارة اليوم فقد أصبحت تحت رحمة الاستعمار الاقتصادي إن صح التعبير؛ لأن الدول المصنعة تغرق الأسواق بمنتجاتها وتضرب المنتج المحلي إن وجد، وهناك اليوم ما يشبه الكارثة، من تهريب السلع وانعدام الرقابة.

ثانيًا: كان أكثر التجار فى عهد الإمام من الهادفين إلى سد الحاجة، والبحث عن لقمة عيش تسد الرمق، وكانوا فى الغالب يعرفون الدين، والخير والشر، والعدل والظلم، وربما كانت هناك بعض الصناعات البسيطة: كالغزل اليدوي، ولم يكن للشركات الاحتكارية، وعابرات القارات أى وجود، فلم يكن الإمام بحاجة للتنبيه عليها، أو يأمر ولاته بدعم السلع المنتجة محليًا، وعدم السماح بالمنافس الأجنبي على حساب اقتصاد البلد، فاكتفى عليه السلام بمراقبة التجار أصحاب الشح القبيح الذين يمارسون الاحتكار، وضبطهم ومعاقبتهم، وضبط الأسعار بما لا يجحف بالبائع والمشترى، وأن يكون البيع والشراء سمحًا وفقًا لموازين العدالة من غير تطفيف ولا خسران.

أما نحن اليوم فأمام تيار العولمة، وتحرير التجارة من القيود والشروط والعوائق، وذلك يعنى سيطرة الدول المتقدمة صناعيًّا واقتصاديًّا وتكنولوجيًّا، نحن أمام فك مفترس: شئنا أم أبينا؛ ولذلك لا يمكن أن تظل الدول المتخلفة خارج النظام العالمي إلى ما لا نهاية؛ فلا بد من الصراع من أجل البقاء، والعمل الجاد لنلحق بالقافلة البشرية، وتحويل بلادنا إلى جنة الأرض: زراعة، وصناعة، وإبداعًا، فنسأل الله أن يحقق لنا ذلك[٨١].

الفصل السادس

عمارة الأرض

سياسة أخذ الخراج:

قال الإمام علي (عليه السلام - في عهده إلى مالك الأشتر -: وتفقّد أمرَ الخراج بما يصلح أهله؛ فإنّ في صلاحه وصلاحهم صلاحًا لمن سواهم، ولا صلاحَ لمن سواهم إلاَّ بهم؛ لأنّ الناس كلّهم عيال على الخراج وأهله. وليَكُن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لأنّ ذلك لا يُدرك إلاَّ بالعمارة؛ ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد، وأهلك العباد، ولم يستقم أمرهُ إلاَّ قليلاً. فإنْ شكوا ثقلاً أو علّةً، أو انقطاع شربٍ أو بالّة، أو إحالة أرضٍ اغتمرها غرقٌ، أو أجحف بها عطشٌ، خفّفت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم؛ ولا يثقلنّ عليك شيءٌ خفّفت به المؤونة عنهم، فإنه ذخرٌ يعودون به عليك في عمارة بلادك، وتزيين ولايتك، مع استجلابك حسن ثنائهم وتبجّحك باستفاضة العدل فيهم، معتمدًا فضل قوّتهم بما ذخرت عندهم من إجمامك لهم، والثقة منهم بما عوّدتهم من عدلك عليهم ورفقك بهم، فربّما حدث من الأُمور ما إذا عوّلت فيه عليهم من بعدُ احتملوه طيّبةً أنفسهم به؛ فإن العمران محتملٌ ما حمّلته، وإنّما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها، وإنّما يُعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع وسوء ظنّهم بالبقاء، وقلّة انتفاعهم بالعِبر[٨٢].

قبل شرح هذه الفقرة نود أن نبين أن الخراج بمعناه العام: كل ما تقوم الدولة بجمعه من الرعية: من زكوات وضرائب وجمارك ونحوها.

وقد أكد الإمام عليه السلام أن السياسة الصائبة تقتضي أن يحافظ عليها بالنماء كما يحافظ التاجر على رأس ماله الذى يقلبه فى التجارة، وكما أن التجارة تحتاج إلى إدارة يقظة تتعامل بحذر، وتتحين الفرص، وتحرص على البون، كذلك إدارة الدافعين إلى خزينة الدولة إن لم تكن ناجحة أفلست خزائن الدولة لا محالة.

إن تأكيد الإمام علي عليه السلام على رعاية إصلاح الأرض قبل أخذ الخراج منها بقوله: (وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى استجلال الخراج؛ لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد، وأهلك العباد، ولم يستقم أمره إلا قليلاً)- من أبلغ السياسيات القديمة والحديثة؛ لأن الإنفاق على تطوير الحياة الاقتصادية، وتنمية الموارد أولاً هى المطلوبة؛ فالبقرة لا تحلب حتى تشبع من الأعلاف، ويحسن معاملتها، أما مجرد خلس الناس وسلب أموالهم، ونزع لقمة العيش من أفواههم بغباء مطبق، وقسوة مفرطة؛ فهذا خراب، وتدمير وظلم، وإهلاك للعباد، وتبدو العبارة الأخيرة شديدة الدلالة على أن الإنسان هو الهدف، وأن الخوف من خراب البلاد يبرره كونه يؤدى إلى هلاك العباد، مما يعني أن مصلحة العباد هى الأساس.

وسأبين ذلك ببعض الأمثلة المعمرة والمدمرة:

أولاً مثال التعمير: شق طرق زراعية تسهل للمزارع كل الخدمات: من آلات، وأسمدة، ونظام ري، وعدل، وأمن، وصحة، وتعليم نافع، ثم شراء المحصول، وتسويقه، وتخزينه، وتصنيعه، فما الذي سيفعله المزارع؟.

سيقدم لبيت ماله- بطيب نفس- زكوات ما أخرجت الأرض من خيرات، وما تأتي به تربية الحيوانات من: لحوم، وألبان، وأجبان، ودهون، وجلود، وبيض، وعسل، يدفعون كل ذلك ونفوسهم راضية؛ لأنهم شعروا ولمسوا أن دولتهم لهم لا عليهم، وهى سماء ظليلة، وأرض ذليلة، وأم حانية، وأب شفيق.

ثانيًا مثال التدمير: عندما تكون الدولة ذئباً نهماً، ووحشاً شرساً، لا يعرف المزارعون والتجار أى شيء مما سبق! وإنما يجلبون الماء من أماكن شاسعة بالعربات: فى طرق وعرة، وندرة أو انعدام من المحروقات فى أغلب الأوقات، وشحة فى المطر، وانفلات تام للأمن، والعدل، والتعليم، وغياب الصحة، ولا يوجد أى تخطيط لا للحاضر ولا للمستقبل فيما يتعلق بالأرض والإنسان، ومع ذلك تتوارد عليهم الأطقم المسلحة صباح مساء مطالبة بالزكوات والضرائب، والموظف ينظر إلى المواطن كأنه خروف أو بقرة حلوب!، والمواطن ينظر إلى الموظف كأنه شيطان، فتضيق عليه الأرض بما رحبت، وتضيق عليه نفسه، خصوصًا وهو يرى القرد حاكمًا، والحمار فيلسوفًا، والوغد رمزًا، يصدق عليه قول القائل:

وكنت فتى من جند إبليس فارتقى بي الحال حتى صار إبليس من جندي

ولو أننى عمرت أحدثت بعده طرائق فسق ليس يحدثها بعدي

فأى استثمار، وأى تجارة، وأى زراعة، وأى اقتصاد فى بلاد الحيتان الزرقاء، والتماسيح البشعة؟!.

إن الإمام عليًّا عليه السلام يطلب من الحاكم أن يكون رحيمًا برعيته عمومًا، وعند استجلاب الخراج خصوصًا، وأن يستمع لشكواهم مهما تعددت أسبابها :

أولاً: قوله: (إن شكوا ثقلاً)، أى: ثقل الخراج المضروب عليهم، أو ثقل وطأة عامل الخراج.

ثانيًا: قوله: (أو علة)، نحو أن يصيب الغلة آفة كالجراد والبرق أو البرد.

ثالثًا: قوله: (أو انقطاع شِرْبٍ) بأن ينقص الماء في النهر، أو تتعلق أرض الشرب عنه لفقد الحفر.

رابعًا: قوله: (أو بالَّةٍ) يعنى المطر.

خامسًا: قوله: (أو إحالة أرض اغتمرها غرق) يعنى أو كون الأرض قد حالت، ولم يحصل منها ارتفاع؛ لأن الغرق غمرها وأفسد زرعها.

سادسًا: قوله: (أو أجحفَ بها عطش)، أى: أتلفها انقطاع الماء أو كان موجودًا ولا يكفى.

وبعد ذكر الأسباب الستة بيَّن الإمام للحاكم ماذا يفعل حيالها بقوله: (خففت عنهم بما ترجو أن يصلح

به أمرهم، ولا يثقلن عليك شيء خففت به المؤونة عنهم)، أى: أمره أن يخفف عنهم متى لحقهم شيء من ذلك؛ فإن التخفيف يصلح أمورهم، وهو وإن كان يدخل على المال نقصًا فى العاجل إلا أنه يقتضي توفير زيادة فى الآجل، فهو بمنزلة التجارة التى لا بد فيها من إخراج رأس المال، وانتظار عوده وعود ربحه.

ونتيجة هذا التخفيف تظهر فى قول الإمام: (فإنه ذخر يعودون به عليك فى عمارة بلادك، وتزيين ولايتك، مع استجلابك حسن ثنائهم، وتبجحك باستفاضة العدل فيهم، معتمدًا فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من إجمامك، أى: ترفيهك، لهم، والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم، ورفقك بهم).

ثم يؤكد الإمام أن البلاد لا تخلو من حدوث كوارث يحتاج فيها الحاكم إلى معونة شعبه: إما بمال يقسطونه عليهم قرضًا، أو معونة محضة؛ فإذا كانت لهم ثروة نهضوا بمثل ذلك، طيبة نفوسهم به، يقول الإمام فى ذلك: (فربما حدث من الأمور ما إذا عوَّلت فيه عليهم من بعد احتملوه طيبة أنفسهم به، فإن العمران محتمل ما حملته).

ثم ختم الإمام عليه السلام هذه الفقرة ببيان أن سبب خراب الأرض هو فقر أهلها، فقال: (وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها)، وسبب فقر أهل الأرض هو طمع ولاتهم فى الجباية وجمع الأموال لأنفسهم ولسلطانهم وسوء ظنهم بالبقاء: أي يظنون طوال البقاء وينسون الموت والزوال، أو يحتمل أنهم يتخيلون العزل والصرف، فينتهزون الفرص، ويقتطعون الأموال، ولا ينظرون فى عمارة البلاد، ولا يعتبرون بمن سبقهم من الظلمة الذين فعلوا ذلك، يقول الإمام: (وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع، وسوء ظنهم بالبقاء، وقلة انتفاعهم بالعبر) [٨٣].

عمارة الأرض:

وقال الإمام عليّ عليه السلام - في عهده إلى مالك الأشتر -: هذا ما أمر به عبد الله عليٌّ أمير المؤمنين مالكَ بن الحارث الأشتر في عهده إليه، حين ولاَّه مصر: جباية خراجها، وجهاد عدوّها، واستصلاح أهلها، وعمارة بلادها[٨٤].

بدأ الإمام علي عليه السلام هذه الفقرة بتحديد المسؤوليات التى أسندها لواليه، متمثلة بأربع سلطات أساسية، يدخل تحتها مسؤوليات الحكومة ومهامها: سواء منها ما كان يحمل الطابع السيادي: كالمالية، والدفاع، والأمن، أو ذات الطابع الخدمي: كالتعليم، والصحة، والمواصلات، والقضاء، أو الاقتصادي: كالزراعة، والخراج، أو ذات الطابع السياسي: كالعلاقات الخارجية، والشورى وغيرها من الأمور التي تتضح عند قراءة بقية العهد، والسلطات الأربع هى:

١- جبايةُ خراجها: وهذه هي الوظيفة المالية، وهى وسيلة لإيجاد التوازن الاجتماعي، من طريق أخذ

الموارد من القادرين وصرفها فى مصارفها.

٢- جهاد عدوها: ويكون ذلك ببناء جيش قوى، محترف، مخلص لله لجهاد الأعداء، لا لقمع الحريات، وإيذاء الشعوب.

٣- استصلاح أهلها: وذلك يتم بالتعليم، والتثقيف منذ الصغر، وغرس قيم الحب، والخير، واحترام الحياة، والتربية على النظافة، والنشاط، ومما يصلح البلاد والعباد فصل الخصومات بالقضاء العادل، والأمن.

٤- عمارة بلادها: وذلك بتوجيه الموارد نحو التنمية واستغلال ثروات البلاد الطبيعية والبشرية، والاهتمام بها من أجل زيادة الإنتاج من الثروات المتجددة: كالسمك، وما أخرجت الأرض، وعدم الإسراف والإهدار للثروات غير المتجددة: كالذهب والبترول والمعادن الأخرى.

فمن أجل: جهاد العدو، واستصلاح الناس، وعمارة البلاد: يطيب الخراج، ويبادر دافعو الزكاة، والضرائب، ونحو ذلك بالدفع طيبة نفوسهم؛ لعلمهم أنها لن تذهب إلى جيب الوالي وأعوانه، بل إلى بيت مالهم، يحرسها والٍ عفيف النفس، نظيف الكف، ملتزم بتقوى الله، وإيثار طاعته، وإسعاد الناس، وتوفير مواردهم عليهم، لتعبيد الطرق، ونهضة التعليم، والصحة، والزراعة، والصناعة، وتثبيت الأمن، والقضاء العادل، ونحو ذلك[٨٥].

وعنه عليه السلام - ممّا كتبه إلى قرظة بن كعب الأنصاري -: أمّا بعد، فإنّ رجالاً من أهل الذمّة من عملك ذكروا نهرًا في أرضهم قد عفا وادّفن، وفيه لهم عمارة على المسلمين، فانظر أنت وهم، ثمّ اعمر وأصلح النهر؛ فلَعمري لأن يعمروا أحبّ إلينا من أن يخرجوا وأن يعجزوا أو يقصروا في واجب من صلاح البلاد. والسلام[٨٦].

وعنه عليه السلام: فضيلة السلطان عمارة البلدان [٨٧].

الفصل السابع

القيم الأخلاقية

يعرض البحث علاقة الاقتصاد عند أهل البيت بالقيم الأخلاقية، ويظهر أن الاقتصاد الإسلامي له طابع تعبدي وأخلاقي عند أئمة أهل البيت.

الوفاء بالشرط:

فقد جاء في تاريخ الطبري عن يزيد بن عدي بن عثمان: رأيت عليّاً عليه السلام خارجًا من همدان، فرأى فتيين يقتتلان، ففرّق بينهما، ثمّ مضى، فسمع صوتًا: ياغوثا بالله! فخرج يحضر نحوه حتى سمعتُ خفقَ نعله وهو يقول: أتاك الغوثُ، فإذا رجل يلازم رجلاً، فقال: يا أمير المؤمنين، بعتُ هذا ثوبًا بتسعة دراهم، وشرطتُ عليه ألاَّ يعطيني مغموزًا[٨٨] ولا مقطوعًا - وكان شرطهم يومئذٍ - فأتيتُه بهذه الدراهم ليبدلها لي، فأبى، فلزمتُه، فلَطَمني!

فقال: أبدله. فقال: بيّنتُك على اللطمة؟ فأتاه بالبيّنة. فأقعده، ثمّ قال: دونك فاقتصّ! فقال: إنّي قد عفوتُ يا أمير المؤمنين. قال: إنّما أردتُ أن أحتاط في حقّك، ثمّ ضرب الرجل تسع درّات، وقال: هذا حقّ السلطان[٨٩].

منع الاحتكار:

يقول الإمام عليّ عليه السلام - من كتابه إلى رفاعة -: إنْهَ عن الحُكرة، فمن ركب النهيَ فأوجِعه، ثمّ عاقبه بإظهار ما احتكر[٩٠].

إقامة العدل:

قال الإمام عليّ عليه السلام - في كتابه لابن عبّاس -: فقد قدم عليَّ رسولك، وذكرتَ ما رأيتَ وبلغك عن أهل البصرة بعد انصرافي، وسأُخبرك عن القوم: هم بين مقيم لرغبة يرجوها، أو عقوبة يخشاها، فأرغِبْ راغبَهم بالعدل عليه، والإنصاف له، والإحسان إليه[٩١].

وعنه عليه السلام - في عهده إلى مالك الأشتر -: وليكن أحبّ الأُمور إليك أوسطها في الحقّ، وأعمّها في العدل، وأجمعها لرضى الرعيّة... إنّ أفضل قرّة عين الولاة استقامة العدل في البلاد، وظهور مودّة الرعيّة[٩٢].

وعنه عليه السلام - في كتابه إلى الأسود بن قُطْبة صاحب جند حُلْوان -: أمّا بعد، فإنّ الوالي إذا اختلف هواه منعه ذلك كثيرًا من العدل، فليكن أمر الناس عندك في الحقّ سواء؛ فإنّه ليس في الجور عوض من العدل، فاجتنب ما تنكر أمثاله[٩٣].

وعنه عليه السلام - في عهده إلى محمّد بن أبي بكر حين قلّده مصر -: فاخفض لهم جناحك، وألِن لهم جانبك، وابسُط لهم وجهك، وآسِ بينهم في اللحظة والنظرة، حتى لا يطمع العظماء في حيفك لهم، ولا ييأس الضعفاء

من عدلك عليهم؛ فإنّ الله تعالى يسائلكم - معشرَ عباده - عن الصغيرة من أعمالكم والكبيرة، والظاهرة والمستورة، فإن يعذِّب فأنتم أظلم، وإن يعفُ فهو أكرم[٩٤].

وعنه عليه السلام: والله لأن أبيتَ على حَسَك السَّعدان مسهّدًا، أو أُجرّ في الأغلال مصفّداً، أحبّ إليَّ من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد، وغاصبًا لشيء من الحطام. وكيف أظلم أحدًا لنفس يسرع إلى البِلى قفولها، ويطول في الثرى حلولها؟![٩٥].

وعنه عليه السلام: والله لو أُعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها، على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته، وإنّ دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها، ما لعليّ ولنعيم يفنى، ولذّة لا تبقى![٩٦].

وعنه عليه السلام: أُحاجّ الناس يوم القيامة بتسع: بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والعدل في الرعيّة، والقسم بالسويّة، والجهاد في سبيل الله، وإقامة الحدود، وأشباهه[٩٧].

وجاء فى تاريخ دمشق عن عليّ بن ربيعة: جاء جَعْدة بن هُبيرة إلى عليّ فقال: يا أميرالمؤمنين، يأتيك الرجلان إن أنت أحبّ إلى أحدهما من نفسه - أو من أهله وماله - والآخر لو يستطيع أن يذبحك لذبحك، فتقضي لهذا على هذا؟ قال: فلَهَزَه[٩٨] عليّ وقال: إنّ هذا شيء لو كان لي فعلت، ولكن إنّما ذا شيء لله[٩٩].

وجاء في تاريخ اليعقوبي عن الزهري: دخلت إلى عمر [بن عبدالعزيز] يومًا، فبينا أنا عنده، إذ أتاه كتاب من عامل له يخبره أنّ مدينتهم قد احتاجت إلى مَرَمّة، فقلت له: إنّ بعض عمّال عليّ بن أبي طالب كتب بمثل هذا، وكتب إليه: أمّا بعد، فحصّنها بالعدل، ونقِّ طرقها من الجور. فكتب بذلك عمر إلى عامله[١٠٠].

الخاتمة والنتائج والتوصيات

إن الواقع الاقتصادي القائم اليوم يختلف تمام الاختلاف عن الفكر الاقتصادي فى مدرسة أهل البيت عليهم السلام، فنجد اختلال التوازن قد بلغ حدًّا ضخمًا جدًا، فيصل الدخل المتوسط لدى بعض المسلمين قريبًا من الصفر فى حين يصل الدخل المتوسط فى محل آخر إلى ١٨٠٠٠ دولار، وتجد تحول مبدأ التكافل العام إلى مجرد مساعدات صغيرة تمنح لتحقيق أغراض سياسية بحتة.. أما التنمية الإنتاجية فهى إما معدومة، أو كاذبة بقيام معامل الانتاج المعتمدة على الفكر العالمي تمامًا والتى تفقد صفتها المستقلة، هذا من وجهة، ومن جهة أخرى فهى تصب فى جيوب مجموعة من المترفين الكبار المستغلين.

وهكذا تجد الترف والإسراف فى جهة، والجوع والحرمان فى جهة أخرى، ونجد كل منطقة تتعامل مع المنطقة الإسلامية الأخرى كعميل أجنبي لا فرق بينه وبين أى عميل آخر.

وهكذا يصدق قول الإمام علي عليه السلام فى تعبير رائع عن الصورة القائمة: "اضرب بطرفك حيث شئت من الناس فهل تبصر إلا فقيرًا، أو غنيًا بدَّل نعمة الله كفرًا، أو بخيلاً اتخذ البخل بحق الله وفرًا.. أفبهذا تريدون أن تجاوروا الله فى دار قدسه، وتكونوا أعز أوليائه عنده؟ هيهات.."[١٠١].

ويمكن الإشارة إلى أهم النتائج والتوصيات التى توصل إليها الباحث فيما يأتي:

١- أثبتت الدراسة أن أئمة أهل البيت كان لهم دور عظيم وبارز فى قضايا عصرهم بما يجعلهم فى طليعة المصلحين، وأنهم أسهموا فى إثراء جوانب الحياة المختلفة.

٢- أثبتت الدراسة أن أئمة أهل البيت عنوا فى فكرهم الاقتصادى عناية بالغة بإيقاظ الأمة ومعالجة قضاياها، حيث استطاعوا بإيمانهم العميق وفكرهم الدقيق وأسلوبهم الرصين أن يكشفوا عن مشاكل فروع النشاط الاقتصادى فى عصرهم، وأن يستخرجوا العلاج الناجع لكل ما حلَّ بالمسلمين.

٣- أثبتت الدراسة أن سبب المشكلة الاقتصادية- كما يراها أئمة أهل البيت- ليس هو قلة الموارد الطبيعية، وتعدد الحاجات الإنسانية، بل يعود سببها إلى الإنسان نفسه من حيث مخالفته شرع الله جل جلاله، وكفره بنعم الله سبحانه، وإساءته استغلال هذه النعم، وسوء توزيعها بين أفراد جنسه.

٤- يوصى البحث بجعل المدخل الاقتصادي فى الإسلام هو السبيل لمخاطبة غير المسلمين فى العالم بعد أن شوَّهت الجماعات المتأسلمة بأعمالها الإرهابية صورة الإسلام والمسلمين فى عيون غير المسلمين، فصموا آذانهم عن سماع القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وكذلك سيرة النبي J وسيرة المسلمين.

ومن ثم فإن توجيه خطاب إسلامي (اقتصاد) يقوم بحل المشاكل الاقتصادية التى خلَّفتها الأنظمة الرأسمالية والاشتراكية، سيكون مقبولاً لديهم؛ لأنه سيوفر لهم الحياة الكريمة، والسعادة الدنيوية التى يعيشون لأجلها.

٥- يوصى البحث بالإسراع بتنفيذ السوق الإسلامية المشتركة، بحيث تقوم على أسس ومبادئ وأهداف مشروعة، وذلك تحقيقًا للأخوة الإسلامية، ولا سيما أنها وسيلة مهمة من وسائل الاستغناء عن التعامل مع الدول المحتكرة لبعض المنتجات.

نسأل الله تعالى أن يكشف لقلوبنا حقيقة الجمال الربانيّ الذي به ننجذب بكليتنا إلى الرضوان الأكبر.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله أجمعين.

الهوامش و المصادر

١- الاقتصاد الإسلامي، دروس فى المذاهب وتأصيل للمسائل المستحدثة وتركيز على المصرفية الإسلامية، محمد على التسخيري، ط.١، نشر المجمع العالمي للتقريب بين المذهب الإسلامية، طهران، إيران، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م، ٣٤٧-٣٤٩.

٢- الاقتصاد الإسلامي، دروس فى المذاهب وتأصيل للمسائل المستحدثة وتركيز على المصرفية الإسلامية، محمد على التسخيري، ص ٣٤٩-٣٥٤ بتصرف.

٣- مسند أحمد بن حنبل ٢/ ٢٧٠ ح٤٨٨٠.

٤- مصنف ابن أبى شيبة ٤/ ٣٠١ ح٢٠٣٩٢.

٥- موسوعة سيرة أهل البيت، للباحث، المجلد الرابع، ط.١، دار الكتاب الصوفي- القاهرة، محرم ١٤٣٦هـ- أكتوبر ٢٠١٤م

٦- الاقتصاد الإسلامي، دروس فى المذاهب وتأصيل للمسائل المستحدثة وتركيز على المصرفية الإسلامية، محمد على التسخيري، ص٣٥٥.

٧- أصول الاقتصاد الإسلامى، د. رفيق يونس المصرى، ط.٦، دار القلم، دمشق، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م ص١١٣.

٨- مبادئ الاقتصاد الإسلامى وبعض تطبيقاته، د. سعاد إبراهيم صالح، ط.١، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م ص١٤٩-١٥٠.

٩- باب الحوائج الإمام موسى الكاظم، الدكتور حسين إبراهيم الحاج حسن ص١٠٧.

١٠- أصول الاقتصاد الإسلامى، ص١٠٤.

١١- يُنظر: صحيح مسلم، كتاب الجنة ٨/ ١٤٢.

١٢- يُنظر: بحار الأنوار للمجلسى ٧١/ ٣٠٦.

١٣- يُنظر: صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة ٨/ ٧١.

١٤- يُنظر: سنن أبى داود ١/ ٥٢٦ ح١٦٨٢، وسنن الترمذى ٤/ ٦٣٣ ح٢٤٤٩.

١٥- يُنظر: كنز العمال للمتقى الهندى ١٥/ ١٢١٢ ح٤٣١٤٠.

١٦- يُنظر: الكافى للكلينى ٢/ ٢٠٥، وبحار الأنوار للمجلسى ٧٤/ ٣٨١.

١٧- يُنظر: الكافى للكلينى ٢/ ٢٠٥، ٢٠٦.

١٨- يُنظر: الكافى للكلينى ٢/ ١٧٦، وبحار الأنوار ٧١/ ٣٤٥.

١٩- موسوعة سيرة أهل البيت، للباحث، المجلد الثالث.

٢٠- الكافي للكليني ٥/ ٨٦/ ٨ عن عليّ بن محمّد رفعه، تحف العقول عن آل الرسول للحرانى ص٢٢٠.

٢١- دعائم الإسلام للقاضي النعمان المغربي ٢/ ١٤/ ٢.

٢٢- السرائر للحلي ٢/ ٢٢٨، دعائم الإسلام للنعمان ٢/ ١٥/ ٩، عوالي اللآلي لابن أبى جمهور ٣/ ١٩٤/ ٦.

٢٣- رَمَّ الشي ء يَرُمّه: أصلحه (لسان العرب لابن منظور ١٢/ ٢٥٢).

٢٤- نهج البلاغة: الحكمة ٣٩٠، تحف العقول للحراني ص٢٠٣، الأمالي للطوسي ١٤٧/ ٢٤٠ عن أبي وجزة السعدي عن أبيه وفيها "ساعة يحاسب فيها نفسه" بدل "ساعة يرمّ معاشه"، وبحار الأنوار للمجلسي: ١٠٣/ ١٢/ ٥٦.

٢٥- العمل وحقوق العامل في الإسلام، لباقر شريف القرشي، ص١٤٠.

٢٦- الكافي للكليني ٥/ ٨٥.

٢٧- باب الحوائج الإمام موسى الكاظم، الدكتور حسين إبراهيم الحاج حسن، ص١٠٨.

٢٨- شرح نهج البلاغة: ١٥/ ١٤٧.

٢٩- مبادئ النظام الاقتصادى الإسلامى، ص١٥٢-١٥٣.

٣٠- محاضرات فى التنمية الاقتصادية، د. عبد الباسط وفا، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ت، ص٦٢.

٣١- وسائل الشيعة للحر العاملي: ج١٥ ص٦٦ ب١٩ ح١٩٩٩٦.

٣٢- توزيع الدخل، ص٣٦٢-٣٧٤.

٣٣- باب الحوائج الإمام موسى الكاظم، الدكتور حسين إبراهيم الحاج حسن ص١٠٧.

٣٤- الخصال للشيخ الصدوق: ٣١٠/ ٨٥ عن محمّد بن إبراهيم النوفلي رفعه إلى الإمام الصادق عن آبائه(عليهم السلام)، بحارالأنوار للمجلسي: ٤١/ ١٠٥/ ٦.

٣٥- إحقاق الحقّ لموسى الاحقاقي الاسكوئي: ٨/ ٥٣٩، المناقب المرتضويّة للكشفي الحنفي: ص٢٨٩.

٣٦- البَرْذَعة: الحلس الذي يُلقى تحت الرَّحْل. والحِلْس والحَلَس: كلّ شيء وَلِيَ ظهرَ البعير والدابّة تحت الرَّحْل والقَتَب والسَّرْج (لسان العرب لابن منظور: ٨/ ٨ وج ٦/ ٥٤). وفي عُرف زماننا هي للحمار ما يُرْكَب عليه بمنزلة السَّرْج للفَرَس (المصباح المنير للفيومي: ٤٣)

٣٧- أي مُقَطَّعة. يقال: بَتَلَهُ: قَطَعَهُ، كبَتَّلَهُ (تاج العروس للمرتضى الزبيدي: ١٤/ ٤٠).

٣٨- مكارم الأخلاق: ١/ ٢٨٦/ ٨٩٤، المناقب لابن شهرآشوب: ٢/ ٩٧.

٣٩- فضائل الصحابة لابن حنبل: ١/ ٥٣٦/ ٨٩٢، حلية الأولياء لأبى نعيم: ١/ ٨٢، الرياض النضرة للطبري: ٣/ ٢٢١.

٤٠- الغارات لابن هلال الثقفى: ١/ ٦٨؛ شرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٠٠ والمناقب لابن شهرآشوب: ٢/ ٩٨.

٤١- الجمل: ٤٢٢، المناقب لابن شهرآشوب: ٢/ ٩٨ وفيه "يا أهل البصرة ما تنقمون منّي إنّ هذا لمن غزل أهلي. وأشار إلى قميصه".

٤٢- الخَوَرْنَق: موضع بالكوفة. وقيل: الخورنق: قصر كان بظهر الحيرة (معجم البلدان لياقوت بن عبد الله الحموي : ٢/ ٤٠١).

٤٣- السَّمَل: الخَلَق من الثياب (مجمع البحرين لناصيف اليازجي: ٢/ ٨٨٢).

٤٤- في الطبقة المعتمدة "اللتين أخرجتهما"، والتصحيح من تاريخ دمشق لابن عساكر "ترجمة الإمام عليّ عليه السلام" تحقيق محمد باقر المحمودي (٣/ ١٨١).

٤٥- تاريخ دمشق لابن عساكر: ٤٢/ ٤٧٧ وص ٤٨١، الأموال: ٢٨٤/ ٦٧١، حلية الأولياء لأبى نعيم: ١/ ٨٢، البداية والنهاية لابن كثير: ٨/ ٣.

٤٦- الاختصاص للشيخ المفيد ص١٥٢.

٤٧- تاريخ دمشق لابن عساكر ٤٢/ ٤٧٦، الأموال ص٢٨٣ ح٦٧٠.

٤٨- الغارات لابن هلال الثقفي ١/ ٦٣، حلية الأولياء لأبي نعيم ١/ ٨٣، وشرح نهجد البلاغة ٢/ ٢٠٠.

٤٩- نهج البلاغة: الحكمة ٣٢٨، روضة الواعظين للفتال النيسابوري: ٤٩٧ نحوه، عيون الحكم والمواعظ للواسطي: ١٥٢/ ٣٣٤٣؛ ينابيع المودّة للقندوزي الحنفي: ٢/ ٢٤٩/ ٦٩٩ وفيها "منع" بدل "مُتِّع به".

٥٠- السنن الكبرى: ٧/ ٣٧/ ١٣٢٠٦ عن محمّد بن عليّ، كنز العمّال للمتقي الهندي: ٦/ ٥٢٨/ ١٦٨٤٠.

٥١- جَمْع خَلَّة: الحاجة والفَقْر (النهاية: ٢/ ٧٢).

٥٢- نهج البلاغة: الكتاب ٦٧، بحارالأنوار: ٣٣/ ٤٩٧/ ٧٠٢

٥٣- جَمْع زَمِين. ورجلٌ زَمِنٌ وزَمِينٌ: أي مُبْتَلىً بَيِّنُ الزَّمانَة. والزَّمانة: العاهَة (انظر: لسان العرب: ١٣/ ١٩٩).

٥٤- المُعْتَرّ: هو الذي يتعرّض للسؤال من غير طلب (النهاية: ٣/ ٢٠٥).

٥٥- الصَّوافي: الأملاك والأرض التي جَلا عنها أهلُها أو ماتوا ولا وارث لها، واحدتها صافِية (لسان العرب: ١٤/ ٤٦٣).

٥٦- يقال: رقّت عظام فلان إذا كبر وأسنَّ (لسان العرب: ١٠/ ١٢٢).

٥٧- نهج البلاغة: الكتاب ٥٣ وراجع دعائم الإسلام: ١/ ٣٦٦.

٥٨- تحف العقول: ١٤١.

٥٩- نهج البلاغة: الكتاب ٥٣، تحف العقول: ١٣٢ وفيه "في فيء الله" بدل "في الله" وراجع دعائم الإسلام: ٣٥٧١.

٦٠- موسوعة سيرة أهل البيت، للباحث، المجلد الرابع.

٦١-التنمية الزراعية فى الوطن العربى الخصائص، المقومات، المتطلبات، مصطفى العبد الله الكفري، كلية الاقتصاد، جامعة دمشق، الحوار المتمدن، العدد٨١٩، ٢٩/ ٤/ ٢٠٠٤م، بحث منشور إلكترونيًّا.

٦٢- المرجع السابق.

٦٣- قرب الإسناد للحميري: ١١٥/ ٤٠٤ عن الحسين بن علوان عن الإمام الصادق عن أبيه (عليهما السلام)، بحارالأنوار: ١٠٣/ ٦٥/ ١٠.

٦٤- وسائل الشيعة: ١٣/ ١٩٥/ ١٠ نقلاً عن تفسير النعماني عن غياث بن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السلام، بحارالأنوار: ٩٣/ ٤٦ و ٤٧.

٦٥- قرب الإسناد: ١٣٨/ ٤٨٩ عن أبي البختري عن الإمام الصادق عليه السلام، بحارالأنوار: ١٠٠/ ٣٣/ ١٠.

٦٦- معوقات القطاع الصناعي.. ارتفاع الأسعار والمتاجرة بالقسائم والبيروقراطية والدورة المستندية، عبدالرحمن كمال، صحيفة الشاهد الكويتية، الإثنين ٤/ ٦/ ٢٠١٢م.

٦٧- نحو قطاع صناعي فاعل خليجيًّا.. دور التعليم، أ.د.محمد إبراهيم السقا، جريدة الآن الإلكترونية، الكويت، ٣٠/ ١٠/ ٢٠١٢م.

٦٨- المرجع السابق.

٦٩- الحرفة: الاسم من الاحتراف؛ وهو الاكتساب بالصناعة والتجارة (مجمع البحرين: ١/ ٣٨٩).

٧٠- المواعظ العدديّة لقاسم العاملي: ٥٥.

٧١- الكافي: ٥/ ١١٣/ ١ عن محمّد بن مسلم عن الإمام الصادق عليه السلام، من لا يحضره الفقيه: ٣/ ١٥٨/ ٣٥٨٠، الخصال: ٦٢١/ ١٠ عن أبي بصير ومحمّد بن مسلم عن الإمام الصادق عن آبائه عنه(عليهم السلام)، تحف العقول: ١١١.

٧٢- شرح نهج البلاغة: ٢٠/ ٢٦٧/ ١٠٣.

٧٣- الكافي: ٥/ ٣١١/ ٣٢، تهذيب الأحكام: ٦/ ٣٨٢/ ١١٢٧.

٧٤- تفسير العيّاشي: ١/ ١٥٠/ ٤٩٤، بحارالأنوار: ١٠٣/ ٥٣/ ١٥.

٧٥- التجارة، ويكبيديا، الموسوعة الإلكترونية الحرة.

٧٦- القانون التجارى، د. عصام حنفى محمود، أستاذ ورئيس قسم القانون التجارى والبحرى، كلية الحقوق، جامعة بنها، مقرر على المستوى الأول، الفصل الدراسى الثانى، د.ت، ص١.

٧٧- الكافي: ٥/ ١٤٩/ ٩ عن محمّد بن مسلم عن الإمام الصادق، من لا يحضره الفقيه: ٣/ ١٩٣/ ٣٧٢٣، الخصال: ٦٢١/ ١٠ عن أبي بصير ومحمّد بن مسلم عن الإمام الصادق عن آبائه(عليهم السلام) وزاد في آخره "وإنّ الله عزّوجلّ يحبّ العبد المحترف الأمين".

٧٨- الكافي: ٥/ ٣١٩/ ٥٩ عن الفضل بن أبي قرّة عن الإمام الصادق، من لا يحضره الفقيه: ٣/ ١٩٢/ ٣٧٢٢، عدّة الداعي: ٧٢، عوالي اللآلي: ١/ ٢٦٧/ ٦٨ وفيه قوله(صلى الله عليه وآله وسلم).

٧٩- الطَّرَح: البُعد والمكان البعيد (لسان العرب: ٢/ ٥٢٨).

٨٠- نهج البلاغة: الكتاب ٥٣.

٨١- موسوعة سيرة أهل البيت، للباحث، المجلد الرابع.

٨٢- نهج البلاغة: الكتاب ٥٣ وراجع دعائم الإسلام: ١/ ٣٦٢.

٨٣- موسوعة سيرة أهل البيت، للباحث، المجلد الرابع.

٨٤- نهج البلاغة: الكتاب ٥٣، تحف العقول: ١٢٦.

٨٥- موسوعة سيرة أهل البيت، للباحث، المجلد الرابع.

٨٦- تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢٠٣.

٨٧- غرر الحكم للآمُديّ التميمي: ٦٥٦٢، عيون الحكم والمواعظ لليثي الواسطي: ٣٥٧/ ٦٠٤٤.

٨٨- ليس فيه مغْمَزَة: أي عيب (مجمع البحرين: ٢/ ١٣٣٥).

٨٩- تاريخ الطبري: ٥/ ١٥٦، الكامل في التاريخ: ٢/ ٤٤٢ نحوه وفيه "رجلين" بدل "فئتين".

٩٠- دعائم الإسلام: ٢/ ٣٦/ ٨٠.

٩١- وقعة صفّين: ١٠٥، نثر الدرّ: ١/ ٣٢٢ نحوه.

٩٢- نهج البلاغة : الكتاب ٥٣ ، تحف العقول : ١٢٨ وص ١٣٣ نحوه وراجع دعائم الإسلام: ١ / ٣٥٥ وص ٣٥٨.

٩٣- نهج البلاغة: الكتاب ٥٩، بحارالأنوار: ٣٣/ ٥١١/ ٧٠٨.

٩٤- نهج البلاغة: الكتاب ٢٧ و ٤٦، تحف العقول: ١٧٧ كلاهما إلى "عدلك عليهم".

٩٥- نهج البلاغة: الخطبة ٢٢٤، عيون الحكم والمواعظ: ٥٠٦/ ٩٢٨٥، الصراط المستقيم: ١/ ١٦٣؛ ينابيع المودة: ١/ ٤٤٢/ ٦ وفيه إلى "الحطام" وراجع الأمالي للصدوق: ٧١٩/ ٩٨٨.

٩٦- نهج البلاغة: الخطبة ٢٢٤، الصراط المستقيم: ١/ ١٦٣؛ ينابيع المودّة: ١/ ٤٤٢/ ٦ وراجع الأمالي للصدوق: ٧٢٢/ ٩٨٨.

٩٧- فضائل الصحابة لابن حنبل: ١/ ٥٣٨/ ٨٩٨؛ الخصال: ٣٦٣/ ٥٣ عن عباية بن ربعي وفيه "بسبع" بدل "بتسع" وليس فيه "والجهاد في سبيل الله" و"أشباهه".

٩٨- اللهْز: الضرب بجُمْع الكفّ في الصدر (النهاية: ٤/ ٢٨١

٩٩- تاريخ دمشق: ٤٢/ ٤٨٨، البداية والنهاية: ٨/ ٥؛ المناقب للكوفي: ٢/ ٥٧/ ٥٤٥ نحوه.

١٠٠- تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٣٠٦.

١٠١- الاقتصاد الإسلامي، دروس فى المذاهب وتأصيل للمسائل المستحدثة وتركيز على المصرفية الإسلامية، محمد على التسخيري، ٣٥٥.

... Edition word ...

Thanks be to Allah for sending Muhammad and his benevolent progeny as mercy to man and as salvation from ignorance and its evils and granting us loyalty to them. Peace be upon them all

Now The international Al-Ameed Centre for Research and Studies and its Publication Department broach a constellation of research studies in common with the thoughts of the Ahalalbayt (Peace be upon them) . Here revert the quills of the researchers to tackle such a locus in different humanist journals to trace such thoughts and its great traces left in the heart of humanity. Such quills have one nodal principle that the Ahalalbayt is a divine mercy Allah send to save man and guide him into piety and what is tackled from their literature and what proves right from them are sheer mercy. It is to perceive and fathom its horizons: the more time proceeds, we are obliged to scrutinize such great sayings to lay much faith in them, to hold much knowledge and sapience. We are to be more certain than just certain that the Ahalalbayt is the fount of science and its undepleted ink.

Such research studies amount to discussed in the Third International Al-Ameed Conference on the slogan of « Chosen Prophet and his Chaste Posterity: Human Sciences Fount and Tributaries and the fields take different isles: knowledge, culture, in particular the linguistics and literature, as preponderant to show the depth of such sciences, history, sociology, economics and the sciences of education and psychology. As much as the articles grow various and the researcher come from Sultanate of Oman, Egypt, Iran and the Iraqi universities ; Basrah, Babylon, Karbala , Kufa and Meissan .

Ultimately, the department of publication lays the hand of readership on such meritorious studies, intends to be sure that the researchers and the specialists are to make use of and offers them what could erect a new concept surging from an adamant foundation brick: Ahalalbayt, their abundant heritage and evergreen achievements, serves man on earth; whose deeds palpitate with life as long as life does with eternity.

Proceedings of Third International Academic Al-Ameed Conference

Under the slogan

Under the Shade of Al-Ameed
We Do Meet to Augment

CHOSEN PROPHET AND HIS CHASTE POSTERITY HUMAN SCIENCES FOUNT AND TRIBUTARIES

held as of 17 to 18 -09- 2015

The First Part

Secretariat General of Al-`Abass Holy Shrine

Al-Ameed International Centre for Research and Studies

Publisher : Al-Ameed International Centre for Research and Studies
Publishing Department
Supervision : Prof.Dr. Shawky Mostafa Al Mousawi
Coordination and Execution : Radwan Abdel Hadi Al - Salami
Technical Administration : Hussein Fadel El Helou/Thaeir F. H. Ridha
Zain Alabdeen Aadil Alwakeel
Design : Hussein Aqeel Abu Ghraib
Copy Number : 250
Consignment Number :2158
Holy Al-`Abbas Shrine Postal Code : 56001
Post Office Box : 232

Tel: +964 760 235 5555 **Mobile:** +964 7602323337
http: //alameed.alkafeel.net
Email: alameed@alkafeel.net

DARALKAFEEL

Secretariat general of Al Abbas Holy shrine. Al ameed Inernational Center for Research and Studies, author
Events Al-Ameed third Global Academic Conference. First Volume.- First Edition.- karbala [Iraq] : The holy Abbasid threshold, Al ameed Inernational Center for Research and Studies, 2019.
2 volume ; 24 cm
Includes bibliographical references.
1. Muḥammad, Prophet, -632--Family 2. Imams (Shiites)--Biography. A. Title.

LCC : BP76.8 .A8396 2018
Cataloging Center and Information Systems- Library and House of Manuscripts of Al-Abbas Holy Shrine